

نجيب محفوظ

قصر الشوق



23.3.2017



نجيب محفوظ

قصر الشوق

دار الشروق

قصر الشوق

قصر الشوق



قصر الشوق

نجيب محفوظ

إخراج ولوحات الغلاف : حلمي التوني

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٦

الطبعة السادسة ٢٠١٣

تصنيف الكتاب: أدب / روايات

© دار الشروق

٨ شارع سيويه المصري

مدينة نصر - القاهرة - مصر

تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩

www.shorouk.com

رقم الإيداع ١٧٤٤٧ / ٢٠١١

ISBN 978-977-09-3076-2

أغلق السيد أحمد عبد الجواد باب البيت وراءه، ومضى يقطع الفناء على ضوء النجوم الباهت في خطوات مترامية، وطرف عصاه ينغرز في الأرض التربة كلما توكأ عليها في مشيته المتثابة. تشوّق وجوانبه تحمى بمثل الوهج إلى الماء البارد الذي سيفسّل به وجهه ورأسه وعنقه كي يلطّف - ولو إلى حين - من حرارة يولية والنار المستعرة في جوفه ورأسه، فهش لفكرة الماء البارد حتى انبسطت أساريه. ولما جاز باب السلم لاح له الضوء الوانى الهابط من أعلى يتحرك على الجدران وأشيا بحركة اليد القابضة على المصباح، فرقى على السلم يدا على الدرابزين ويداً على عصاه التي بعث طرفها دقات متتابعة اكتسبت من قديم إيقاعاً خاصاً غدا ينم عنه كما تنم عنه سماته. وعند رأس السلم بدت أمينة والمصباح في يدها، حتى إذا انتهى إليها توقف وصدره يعلو وينخفض ريثما يسترد أنفاسه، ثم حياها تحيته الليلية المألوفة قائلاً:

- مساء الخير..

فغمغمت أمينة وهي تتقدمه بالمصباح:

- مساء الخير يا سيدى!..

في الحجرة هرع إلى الكنبه فتهاكك عليها، ثم تخلص من عصاه وخلع طربوشه، وطرح قذاله على المسند ماذا ساقيه إلى الأمام حتى انحسر جناحا الجبة عن قفطانه، وكشف القفطان عن رجلى سرواله المتداخلتين في جوربه، وأغمض عينيه وهو يجفف بمنديله جبهته وخديه

وعنقه . على حين كانت أمينة تضع المصباح على الخوان ، ثم وقفت
تتقرب قيامه لتساعده فى نزع ثيابه ، وهى تنظر إليه باهتمام مشوب
بقلق ، وتود لو تواتيها شجاعتها فتسأله أن يعفى نفسه من الدأب على
السهر الذى لم تعد تنهض به صحته بالاستخفاف المعهود قديما . ولكنها
لم تدر كيف تفصح عن أفكارها الأسيفة ! توالى دقائق قبل أن يفتح
عينيه ، ثم نزع الساعة الذهبية من قفطانه والخاتم الماسى فأودعهما داخل
الطربوش ، ثم نهض ليخلع الجبة والقفطان بمعاونة أمينة ، هناك بدا
جسمه كالعهد به : طولا ، وعرضا ، وامتلاء . . لولا شعيرات اغتصبها
المشيب من فوديه ، وعندما أدخل رأسه فى طاقة الجلباب الأبيض غلبه
الابتسام فجأة ، إذ ذكر كيف تقيأ السيد على عبد الرحيم الليلة فى
مجلس الأنس ، وكيف اعتذر عن ضعفه ببرد أصاب معدته . وكيف
تعمدوا أن يعيروه به زاعمين أنه لم يعد يحتمل الشراب ، وأنه ليس كل
الرجال من يستطيعون معاشرة الخمر إلى نهاية العمر الخ الخ ، وذكر
كيف غضب السيد على وجد فى دفع الريبة عنه ، يا عجب . . ألهذا
الحد يعير بعض الناس أهمية لهذه الأمور التوافه ؟ ! ولكن إذا لم يكن
ذلك كذلك ! فلم فاخر هو فى صخب الحديث الضاحك بأنه يستطيع أن
يشرب حانة دون أن تضطرب له معدة ؟ !

جلس على الكنبه مرة أخرى ومد ساقيه للمرأة التى راحت تخلع
الحذاء والجورب ، وغابت عن الحجرة قليلا ، وعادت بالطست والإبريق
وجعلت تصب له الماء فيغسل رأسه ووجهه وعنقه ويتمضمض ، وأخيرا
تربع فى جلسته مستعرضا نسمة الهواء التى تهفو فى لطف ما بين
المشربية والنافذة المطلة على الفناء .

- ياله من صيف فظيع صيف هذا العام !

فقالت أمينة وهى تسحب الشلثة من تحت السرير ، وتتربع بدورها
عليها على كتب من قدميه :

- ربنا يلطف بنا (ثم وهى تنهد) الدنيا كلها كوم وحجرة الفرن كوم! السطح هو المتنفس الوحيد فى الصيف بعد مغيب الشمس .

بدت فى جلستها غيرها بالأمس ، نحفت واستطال وجهها ، أو لعله تراءى أطول مما هو لما حل بالخددين من رقة ، وقد انتشر المشيب فيما انحسر عنه مندبل رأسها من خصلات ، فأضفى عليها روح كبر أكثر مما تستحق . . وغلظت الشامة فى وجنتها قليلاً ، على حين ثمت عيناها - إلى نظرة الخضوع القديمة - عن شرود مُزج بالحزن ، كما اشتدت حيرتها لما طرأ عليها من تغير ، ولئن كانت قد رحبت به بادئ الأمر على سبيل التعزى إلا أنها أخذت تتساءل فى قلق : أليست هى فى حاجة إلى صحتها مادام فى العمر بقية ؟ بلى ! والآخرى فى حاجة إلى صحتها أيضاً ، ولكن كيف يعاد الشيء إلى أصله ؟ ! ثم إنها تقدمت سنين ، لعلها لم تكن بالكثرة التى تبرر هذا التغير ولكنها مما يترك أثراً ولا شك .

هكذا كانت تقف فى المشربية الليالى المتعاقبة تراقب الطريق من وراء الخصاص ، فترى طريقاً لا يتغير ، والتغير يدب إليها غير متوان . وعلا صوت النادل فى القهوة فتطايير إلى الحجرة الصامتة كالصدى ، فابتسمت وهى تسترق النظر إلى السيد .

ما أحب هذا الطريق الذى يسهر الليالى سامراً إلى قلبها ، إنه الصديق الغافل عن القلب الذى يحبه من وراء خصاص ، معالمة ملء نفسها ، سماره أصوات حية تعيش فى مسامعها ، هذا النادل الذى لا يستكن له لسان ، وذو الصوت المبحوح الذى يعقب على حوادث اليوم بلا تعب أو ضجر ، وذو الصوت العصبى الذى يتصيد بخته فى «الكومى» و«الولد» ، ووالد هنية الطفلة المصابة بالسعال الديكى الذى يُسأل عنها فيجيب ليلة بعد أخرى «عند الله الشفاء» ، آه . . كأن المشربية ركن من القهوة هى جليسته . كانت ذكريات الطريق ترسم على مخيلتها وراء عينيها لا تفارقان الرأس المتوسد لمسد الكنبه ، فلما انقطع التيار تركز

انتباهها فى الرجل فتبينت فى صفحتى وجهه حمرة شديدة اعتادت أن تطالعها فى أعقاب الليالى الأخيرة، ولم تكن ترتاح إليها فتساءلت فى إشفاق:

- سيدى بخير . . ؟

فاعتدل رأسه، وهو يتمتم:

- بخير، والحمد لله (مستدركا) ما أفضع الجو!!

الزبيب خير مسكر فى الصيف . . هكذا قالوا له وأعادوا، ولكنه لا يطيقه، فإما الويسكى وإلا فلا . عليه إذن أن يعانى خمار سكرة صيف - وصيف شديد - كل ليلة . شد ما ضحك هذه الليلة . . . ضحك حتى كلت عروق عنقه . ولكن فيم كان الضحك؟! لا يكاد يذكر شيئا، وليس هناك شىء يروى أو يعاد، ولكن جو المجلس كان مشحونا بكهرباء لطيفة بحيث إن أى لمسة كانت تحدث اشتعالاً، فما هو إلا أن قال السيد إبراهيم الفار: «أبحر الإسكندرية من سعد اليوم إلى باريس» وكان يقصد أن يقول: «أبحر سعد من الإسكندرية اليوم إلى باريس» حتى انفجروا ضاحكين، فعُدت «نادرة» من نوادر الخمر اللسانية . وابتدروه قائلين: «وسيمكث فى المفاوضة ريثما يسترد صحته، ثم يبحر إلى الدعوة تلبية للندن التى تلقاها من» أو «وسينال رامزاي مكدونالد من الاستقلال على الموافقة» و«سيعود حاملاً مصر إلى الاستقلال»، وجعلوا يتحدثون عن المفاوضة المتظرة ويعلقون عليها بما يحلو لهم من المداعبات . .

حقاً . . إن دنيا الأصدقاء على رحابتها تتلخص فى ثلاثة: محمد عفت، وعلى عبد الرحيم، وإبراهيم الفار . . فهل يستطيع أن يتصور للدنيا وجوداً من دون وجودهم؟! إن إشراق وجوههم بالبشر الصادق حين رؤيته، سعادة لا تدانيها سعادة . التقت عيناه الحاملتان بعينى أمينة المستطلعتين، فقال وكأنه يذكرها بأمر هام:

- غدا . .

فقلت ، وقد شاعت فى وجهها ابتسامة :

- كيف أنسى !

فقال بشيء من الفخار لم يحاول مداراته :

- قيل لى إن نتيجة البكالوريا كانت سيئة هذا العام . .

فقلت وهى تشاركه فخاره بمعاودة الابتسام :

- ربنا ينجح مقاصده ، ويمد فى عمرنا حتى نشهد نجاحه فى
الدبلوم . .

فتساءل :

- هل ذهبت اليوم إلى السكرية؟

- نعم ، ودعوتهم جميعا ، وسوف يحضرون إلا الست الكبيرة التى
اعتذرت بتعبها ، فقلت : إن ابنها سينوبان عنها فى تهنئة كمال .

فقال السيد ، وهو يومئذ بذهنه صوب جبهته :

- جاءنى اليوم الشيخ متولى عبد الصمد بأحجية لأولاد خديجة
وعائشة ، ودعا لى قائلاً : «إن شاء الله أعمل لك أحجية لأولاد
أحفادك» .

ثم وهو يهز رأسه باسماء :

- لا شيء على الله ببعيد ، ها هو الشيخ متولى نفسه كالحديد رغم
الثمانين ! . .

- ربنا يمتعك بالصحة والعافية !

فتفكر مليا ، وهو يعد على أصابعه ، ثم قال :

- لو امتد العمر بأبى - رحمه الله - ما زاد على عمر الشيخ كثيرا . .

- رحم الله الراحلين .

وخيم الصمت ريثما ذهب الأثر الذى تركه ذكر «الراحلين»، ثم قال الرجل بلهجة من تذكر أمراها ما:

- زينب خطبت!

اتسعت عينا أمينة، وهى ترفع رأسها قائلة:

- حقا؟! ..

- نعم، أخبرنى محمد عفت بذلك الليلة! ..

- من؟

- موظف يدعى محمد حسن، رئيس إدارة المحفوظات بالمعارف.

فتساءلت بوجوم:

- يبدو أنه متقدم فى السن؟

فقال كالمعترض:

- كلا، فى الحلقة الرابعة، خمسة وثلاثين .. ستة وثلاثين .. أربعين

عاما على الأكثر!

ثم بلهجة تهكمية:

- جربت حظها مع الشباب فأخفقت، أعنى الشباب الذين لا يرفعون

رأسا، فلتجرب حظها مع الرجال العقلاء!

فقالت أمينة بأسف:

- كان ياسين أولى بها، على الأقل من أجل خاطر ابنتهما ..

كان هذا رأى السيد، وعنه دافع طويلا لدى محمد عفت، بيد أنه لم

يعلن موافقته على رأيها مداراة لخبية مسعاه، فقال متسخطا:

- لم يعد للرجل به من ثقة، والحق أنه غير جدير بالثقة، لذلك

لم ألح عليه، لم أقبل أن أستغل صداقتنا فى حمله على ما لا

خير فيه.

فغمغمت أمينة فى شىء من الإشفاق :

- هفوة شباب لا يضيق عنها العفو !

هان على السيد أن يعترف بجانب من مسعاه الخائب ، فقال :

- لم أقصر فى حقه ولكنى لم أصادف ترحيبا ، وقال لى محمد عفت
برجاء : «إن السبب الأول فى اعتذارى هو إشفاقى من تعريض صداقتنا
إلى الشقاق» ، وقال لى أيضا : «لا أستطيع أن أرفض لك رجاء ، ولكن
صداقتنا أعز لدى من رجائك» . . فأمسكت عن الكلام .

قال محمد عفت هذا حقاً ، ولكنه لم يصرح به إلا مدافعة لإلحاحه .
والحق أن السيد كان شديد الرغبة فى وصل ما انقطع من مصاهرة محمد
عفت لمكانته من نفسه ومكانة أسرته من المجتمع ، ولم يكن يطمع فى أن
يجد لياسين زوجة خيراً من زينب ، ولكنه لم يسعه إلا التسليم
بالهزيمة ، خاصة بعد أن صارحه الرجل بما يعلم عن حياة ياسين
الخاصة ، حتى قال له : «لا تقل لى إننا نحن أنفسنا لا نختلف عن
ياسين ، فالحق أننا نختلف بعض الشيء ، والحق أنى لا أرتضى لزينب
ما ارتضيت لأمها!» .

تساءلت أمينة :

- هل علم ياسين بما كان؟

- سيعلم غدا أو بعد غد ، هل تريه يكثرث لذلك؟ . إنه أبعد ما
يكون عن تقدير الزيجة المشرفة . .

فهزت أمينة رأسها أسفاً ، ثم تساءلت :

- ورضوان؟

فقال السيد مقطبا :

- سيبقى عند جده ، أو يلحق بأمه إن لم يصبر على فراقها ، الله يحير
من حيره . . !

- مسكين يا ربى ، أمه فى ناحية وأبوه فى ناحية ، أطيع زينب فراقه . . ؟

فقال السيد فيما يشبه الازدراء :

- للضرورة أحكام (ثم متسائلاً) متى يبلغ السن؟ . . ألا تذكرين؟
فتفكرت أمينة قليلاً ، ثم قالت :

- إنه أصغر قليلاً من نعيمة بنت عائشة ، وأكبر قليلاً من عبد المنعم ابن خديجة ، فيكون فى الخامسة يا سيدى ، سوف يسترده أبوه بعد عامين ، أليس كذلك يا سيدى؟
قال السيد ، وهو يثأب :

- يا ترى من يعيش (ثم مستطرداً) وكان متزوجاً ، أعنى الزوج الجديد!

- وله أولاد؟

- كلا لم ينجب من زوجه الأولى .

- لعل هذا ما حسنه فى عينى السيد محمد عفت . .

فقال السيد بامتعاض :

- ولا تنسى مقامه . .

فقال أمينة معترضة :

- لو أن الأمر أمر مقام ما عدل بابنك أحداً ، على الأقل من أجلك أنت :

فشعر باستياء حتى لعن فى سره - على حبه - محمد عفت ، ولكنه عاد يجر خطا تحت النقطة التى يتعزى بها ، فقال :

- لا تنسى أنه لولا حرصه على أن يضع صداقتنا فى حرز حرز ما تردد عن قبول رجائى . .

فقال أمينة معربة عن نفس الإحساس :

- طبعاً، طبعاً يا سيدى، إنها صداقة العمر، وليست لهوا ولعباً.

عاوده التأؤب مرة أخرى، فتمتم قائلاً:

- خذى المصباح خارجاً ..

قامت أمينة لتنفيذ أمره فأغمض عينيه قليلاً، ثم نهض دفعة واحدة كأغما ليقاوم الكسل واتجه نحو الفراش فاستلقى عليه .. إنه الآن خير حالاً!! ما أنها الرقاد بعد التعب!! أجل . لا يخلو رأسه من نبض قارع، ولكن رأسه لا يكاد يخلو من شيء ما، فليحمد الله على أى حال .! الصفاء الكامل ماض مضى، ثمة شيء نفتقده كلما خلونا إلى أنفسنا ولكنه لا يعود، يلوح لنا من الماضي بذكرى شاحبة كهذا الضوء الخافت الذى تشف عنه شراعة الباب . فليحمد الله على أى حال!! ولينعم بحياة يغبطه عليها الغابطون!! الأجدى أن يقطع برأى فيما إذا كان سيقبل الدعوة أم لا، أو فليدع ما للغد للغد، إلا ياسين .. فإنه مسألة الأمس واليوم والغد، ليس صغيراً من بلغ الثامنة والعشرين، وليس المشكل أن يبحث له عن زوجة أخرى، ولكن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . متى تسطع هداية الله فتملاً الأرض حتى يبهر نورها الأعين؟ هنالك يهتف من الأعماق أن الحمد لله، ولكن ما ذا قال محمد عفت؟ إن ياسين يصول ويجول فى الأزبكية حتى سراديبها .. كانت الأزبكية مغنى آخر حينما كان هو يصول فيها ويجول، وهزه الحنين مرات إلى معاودة بعض مشاربها إحياء للذكريات، فليحمد الله على أنه علم بسر ياسين قبل أن يقدم، وإلا لضحك الشيطان من أعماق قلبه الهازئ . أوسعوا الطريق للأبناء فقد شبوا، عنها صدك الأستريون أول الأمر، وأخيراً هذا البغل الأستري ..

تتابعت دقائق العجيين من حجرة الفرن فى هدأة السحر مع صياح الديكة، كانت أم حنفى مكبة على جرة العجيين بجسمها اللحيم، يلوح وجهها ريان على ضوء المصباح المنبعث من فوق سطح الفرن لم ينل الكبر من شعرها ولا شحمها ولكن شابت ملامحها جهامة واخشوشنت قسماتها، وإلى يمينها قعدت أمينة على كرسى المطبخ تفرش ألواح العجيين بالردة استعداداً لاستقبال الأقراض، تواصل العمل - فى صمت - حتى توقفت أم حنفى عن العجيين . فاستخرجت يدها من الجرة ومسحت على جبينها المتبل بالعرق ببطن مرفقها، ثم لوحت بقبضتها المغطاة بالعجيين كقفاز ملاكمة أبيض، وقالت :

- أمامك يا ستى يوم شاق ولكنه لذيد، كثر الله من أيام السرور . .

فغمغمت أمينة دون أن ترفع رأسها عن عملها :

- علينا أن نقدم مائدة شهية .

فابتسمت أم حنفى، وهى تومئ بذقنها إلى سيدتها، قائلة :

- البركة فى المعلمة .

ثم غرست يديها فى الجرة مرة أخرى، وعادت إلى ملاكمة العجيين .

- وددت لو قنعنا بتوزيع الثريد على فقراء الحسين .

فقال أم حنفى بلهجة معاتبة :

- لن يكون بيننا غريب . .

فتمتت أمينة بصوت لم يخل من ضيق :

- ولكنها وليمة وضجة على أى حال ، فؤاد بن جميل الحمزاوى نال
البكالوريا أيضاً ، ولا من رأى ولا من سمع !!
ولكن أم حنفى أصرت على المعاتبة ، قائلة :
- ما هى إلا فرصة تجتمع فيها بمن نحب ..

كيف تكون مسرة دون تأنيب أو توجس خيفة . قديماً استخبرت
السنين فأجابت بأن تاريخ ابتدائية هذا سيوافق تاريخ ليسانس ذاك ،
حفل لم يجئ ونذر لم يوف ١٩ .. ٢٠ .. ٢١ .. ٢٢ .. ٢٣ .. ٢٤ .
شباب العمر اليافع الذى حرمت من احتضان ينعه ، من قسمة التراب
كان ، يا انصداع القلب الذى يسمونه الحسرة .

- ستفرح ست عائشة بالبقلاوة ، وتذكر أيام زمان يا ستى ..
ستفرح عائشة وأم عائشة ستفرح أيضاً ، نهار وليل وشبع وجوع
ويقظة ونوم ، وكأن شيئاً لم يكن . سلى الزعم الذى زعم بأنك لن
تعيشى بعده يوماً واحداً ، عشت لتحلفى بتربته ، إذا زلزل القلب فليس
معناه أن تزلزل الدنيا ، كأنه نسى منسى حتى تزار المقابر ، كنت ملء
العين والنفس يا بنى ثم لا يذكرونك إلا فى المواسم ، أين أنتم
يا هؤلاء؟ كل مشغول بشواغله ، إلا أنت يا خديجة قلب أمك
وروحها حتى وصيتك يوماً بالصبر ، لم تكن كذلك عائشة ، مهلاً ! لا
ينبغى أن أكون ظالمة ، حزنت حزنها كما ينبغى ، كمال لا لوم عليه ، رفقا
بالقلوب الغضة ، بات الأول والأخير ، شاب شعرك وصرت كالخيال ،
هكذا تقول أم حنفى ، لا كانت الصحة ولا كان الشباب ، تقاربين
الخمسين وهو لم يتم العشرين ، حبل ووحم وولادة ورضاعة وحب
وآمال ، ثم لا شيء .. ترى هل خلا من الأفكار رأس سيدى؟ دعيه
وشأنه ! ليس حزن الرجال كحزن النساء ، هكذا قولك يا أمى جعل الله
الجنة مثواك ، يحز فى نفسى يا أمى أنه عاد إلى سيرته ، كأن فهمى لم
يمت ، وكأن ذكره قد تبخرت ، بل يلومنى كلما لج بى الحزن ، أليس هو

أباه كما أنا أمه؟ . . يا أمينة يا مسكينة . . لا تفتحي صدرك لهذه الأفكار . . لو صح أن نحكم على القلوب بقلب الأم لبدت القلوب أحجاراً . . إنه رجل وليس حزن الرجال كمحزن النساء . . لو استسلم الرجال للأحزان لناءت بها كواهلهم المثقلة بالأعباء، عليك إذا أنست منه حزنًا أن تسرّي عنه . . إنه ركنك يا ابنتي المسكينة». غاب ذلك الصوت الحنون وصادف فقده قلوباً مترعة بالحزن فلم يكذبكيه أحد، وشهد شاهد حكمتها ليلة عاد في أخريات الليل ثملاً، ثم ارتعى على الكنية مجهشاً في البكاء، وتمنيت ليلتئذ له السلامة ولو بالنسيان الأبدى، أنت نفسك ألا تنسين أحياناً؟ ثمة ما هو أقطع من ذلك، هو تمتعك بالحياة وحرصك عليها. هذه هي الدنيا. هكذا يقولون! فتردد بين ما يقولون وتؤمنين به. كيف جاز لك - يوماً - بعد هذا أن تحنق على ياسين برءه ومواصلته مألوف الحياة! مهلاً، الإيمان والصبر . . سلمى إلى الله، فكل ما جاءك من عنده، «أم فهمى» إلى الأبد، سوف أظل ما حييت أمك يا بنى وتظل ابنى . .

تتابعت دقائق العجن، ففتح السيد عينيه على نور الصباح الباكر، وراح يتمطى ويتشاءب بصوت مرتفع ممطوط، تصاعد كالتذمر أو الاحتجاج، ثم جلس في الفراش مستنداً براحتيه على ساقبيه الممدودتين، فبدأ ظهره مقوساً وقد نضح أعلى الجلباب الأبيض بالعرق، وجعل يحرك رأسه يمنة ويسرة كأنما لينفض عنه وطأة الوحش، ثم انزلق إلى أرض الحجر، ومضى متهادياً إلى الحمام إلى الدش البارد . . الدواء الوحيد الذى يغير عليه بدنه فيعيد إلى رأسه اتزانه وإلى نفسه اعتدالها، تجرد من ثيابه، ولما تعرض لرشاش الماء وردت ذهنه ذكرى الدعوة التى وجهت إليه أمس، فحفق فؤاده الذى تلقى الذكرى والإحساس المنعش بالماء البارد معاً، على عبد الرحيم قال: «نظرة إلى الوراء، إلى حبيبات زمان، لا يمكن أن تمضى الحياة هكذا إلى الأبد،

إنى أعرف الناس بك». أيقدم على هذه الخطوة الأخيرة؟ خمس سنوات مضت وهو يأبى أن يخطوها. أكان تاب إلى الله توبة مؤمن مصاب؟ أم أضمر التوبة وخاف أن يجهر بها؟ أم أطلقها نية صادقة دون تورط فى التوبة؟.. لا يذكر، ولا يريد أن يذكر، ليس صغيراً من يدنو من الخامسة والخمسين. ولكن ما لفكره قد تقلقل وتزلزل؟! كحاله يوم دعى إلى السماع قلبى، هل يلبي النداء إلى حبيبات زمان بالمثل؟ متى يبعث الحزن ميتاً؟ هل أمرنا الله أن نهلك أنفسنا وراء من نحبهم إذا ذهبوا؟!.. فى عام الحداد والتقشف كاد الحزن يقتله قتلاً، عام طويل لم يذق فيه شراباً، ولم يسمع نغماً، ولم تند عن فيه ملححة حتى شابت شعيراته.. أجل لم يتسلل الشيب إلى شعره إلا فى ذلك العام، رغم أنه عاد إلى الشراب والسماع رحمة بالأصدقاء المقربين الذين انقطعوا عن اللذات إكراماً لحزنه، كذب وصدق، عاد إلى الشراب لنفاد صبره ورحمة بالأصدقاء الثلاثة، لم يكونوا كالأخرين، وما على الآخرين من ملام، حزنوا لحزنك، ثم جعلوا يراوحن بين مجلسك الجاف ومجالسهم الندية فأى تشرب عليهم؟! بيد أن الثلاثة المحبين أبوا أن ينالوا من الحياة نصيباً أوفى مما ارتضيت لنفسك، وعدت رويدا إلى أشياء، إلا المرأة رأيتها كبيرة فلم يلحوا عليك أول الأمر، لشد ما تأيبت وحزنت، لم يؤثر فيك رسول زبيدة، رددت أم مريم بوقار حزين حازم وأنت تكابد آلاماً لا قبل لك بها، ظننت أن لن تعود أبداً، وخاطبت نفسك المرة تلو المرة.. «أعود إلى أحضان الغوانى وفهمى فى قبضة التراب؟!» أه.. ما أحوجنا فى ضعفنا وتعاستنا إلى الرحمة!! فليداوم على الحزن من يضمن ألا يموت غداً، من قائل هذه الحكمة؟ واحد من اثنين: على عبد الرحيم أو إبراهيم الفار. محمد عفت بك لا يجود بالحكم. رفض رجائى، وزوج البنت من رجل غريب، ثم ضحك علىَّ بالقبل، لا ينكر غضبه ويشفق من أن يطالعى به كما وقع قديماً، لله هو

أى وفاء وأى ود أتذكر كيف امتزج دمه بدمعك فى القرافة؟ ولكنه القائل فيما بعد «أخاف عليك الكبر إن لم تفعل . . تعال إلى العوامة» . ولما أنس تردداً قال : «لتكن زيارة بريئة . . لن يجردك أحد من ملابسك ويرميك على امرأة» . لم أحزن قليلاً علم الله ، بموته مات جزء جسيم منى . مات أملى الأول فى الدنيا ، منذاً يلومنى على الصبر والعزاء؟ ، قلبى جريح وإن ضحك! ترى ، كيف هن؟ ، ماذا فعل بهن الزمان فى خمسة أعوام؟ . خمسة أعوام طوال؟

* * *

كان شخير ياسين أول ما تلقى كمال من عالم اليقظة ، فلم يتمالك أن يناديه وهو إلى معاكسته أرغب منه إلى إيقاظه فى ميعاده ، ولاحقه بصوته غير متوان حتى رد عليه الآخر بصوت كالترع تشكياً وتذمراً ، ثم تقلب بجسمه الضخم فطقطق الفراش فيما يشبه الأنين والتوجع ثم فتح عينين حمراوين وتأوه .

لم يكن ثمة - فى رأيه - ما يدعو إلى هذه العجلة ما دام أحد منهما لن يذهب إلى الحمام قبل عودة الأب منه ، لم يعد من اليسير استعمال حمام الدور الأول منذ قضى التنظيم الجديد للبيت - منذ خمسة أعوام - بنقل الحجرات إلى الدور الأعلى فيما عدا حجرة الاستقبال والصالة المتصلة بها التى فرشت بأثاث بسيط باعتبارها مدخلا لها ، ومع أن ياسين وكمال لم يرحبا - قط - بالإقامة مع الأب فى دور واحد ، إلا أنهما لم يجدا بداً من احترام الرغبة فى مقاطعة الدور الأول الذى لم تعد تدخله قدم إلا حين يلم بالبيت زائر ، أغمض ياسين عينيه ، ولكنه لم ينم لا لأن معاودة النوم كانت عبثاً فحسب - ولكن لأن صورة انبعثت فى خياله فأشعلت إحساسه . . وجه مستدير ، تتوسط صفحته العاجية عينان سوداوان . مريم ! فاستجاب لداعى الأحلام . . واستسلم لتخدير ألد من تخدير المنام .

قبل أشهر معدودات ، لم تكن بالنسبة إليه موجودة قط ، وكأنها لم

تكن، حتى سمع أم حنفى تحدث - ذات مساء - إلى امرأة أبيه، فتقول: «أما سمعت بالخبر يا ستي؟ .. ست مريم طلقت من زوجها وعادت إلى أمها» هنالك عاوده ذكر مريم، وفهمى، والجندى الإنجليزي، صديق كمال وإن غاب عنه اسمه، ثم ذكر بالتالى اهتمامه القديم بشخصيتها الذى جاش بها صدره عقب ذبوع الفضيحة، ما يدرى إلا وقد أضاعت فجأة فى نفسه لوحة معبرة، كما تضىء الإعلانات الكهربائية فى الليل، سَطَّرَ عليها «مريم .. جارتك .. الجدار لصق الجدار .. مطلقة .. ذات تاريخ وأى تاريخ .. أبشر»، ولكنه ما لبث أن جفل من نفسه، لأن اقترانها بذكرى فهمى صده وآله وأهاب به أن يغلق هذا الباب وأن يُحكم إغلاقه، وأن يندم - إن كان ثمة ندم - على فكرة خفية عابرة، صادفها بعد ذلك فى الموسيقى مع أمها، فالتقت الأعين على سهوة، ولكن سرعان ما لاح فيها العرفان، ونمت بسمات لا تكاد ترى بالعين المجردة عن عرفانها، فتحرك قلبه، تحرك للعرفان - فسحب - أول الأمر، ثم للطيف الأثر الذى خلفه وجه عاجى مكحول العينين، وجسم نابض بالفتوة والحيوية، ذكره بزینب فى إبانها .. فمضى إلى طبيته متفكراً هائجاً. غير أنه بعد خطوات، أو حال هبوطه إلى قهوة أحمد عبده، هفت عليه ذكرى محزنة بعثت فى قلبه الشجن، بُعث فهمى فى خياله بشتى ذكرياته: صورته وأماراته وأسلوبه فى الحديث والحركة ففتر وجده وباخ وغشيه حزن غليظ، يجب أن ينتهى كل شيء .. لم؟ ..

عاد يتساءل بعد ساعة، أو بعد أيام، فكان الجواب: فهمى .. أية علاقة بين الاثنين؟ .. وديوما أن يخطبها، ولم لم يفعل؟ .. أبوك لم يوافق. فقط؟ .. هذا فى الأقل أصل المسألة. ثم؟ .. جاءت فضيحة الإنجليزي، فمحت ما بقى من أثر باهت .. أثر باهت؟ .. أجل لأنه على الأرجح كان نسي. إذن نسي أولاً، ونبد أخيراً؟ نعم، فأية علاقة هنالك؟ .. لا علاقة؟، ولكن!! .. أعنى شعور الأخوة، هل يمكن أن

- يرقى شك إلى شعورك؟ .. كلا وألف مرة كلا . الفتاة تستحق ..؟ ..
- نعم، وجهها وجسما؟ .. وجهها وجسما فما انتظارك؟ ..
- فى النافذة كان يلمحها حيناً بعد حين، ثم فوق السطح .. فوق السطح مرات، ومرات ..
- لم طلقت؟ .. لسوء فى خلق زوجها، فىكون الطلاق من حسن حظها . أو لسوء فى خلقها فىكون الطلاق من حسن حظك أنت .
- قم وإلا غلبك النوم .
- فتساءب وهو يتخلل شعره الملهوج بأصابعه الغلاظ، ثم قال :
- يا بختك بعطلتك المدرسية الطويلة !
- ألم أستيقظ قبلك؟
- ولكن بوسعك أن تواصل النوم إذا شئت ..
- لا أشاء كما ترى ..
- ضحك ياسين ضحكة لا معنى لها، ثم تساءل :
- ما اسم الجندى الإنجليزى صديقك القديم؟
- أوه .. جوليون ..
- أجل جوليون ..
- ما الذى دعاك إلى السؤال عنه؟
- لا شىء !!
- لا شىء؟ . ما أسخف لساننا، أليس ياسين خيراً من جوليون؟ . فى الأقل جوليون عابر وياسين مقيم، فى وجهها شىء يتسم إليك دواما، ألم تلاحظ مشابرتك على الظهور فوق السطح؟ بلى وذكر جوليون، ليست ممن يفوتهن معنى، ردت تحيتك .. أول مرة أدارت رأسها باسمه، فى المرة الثانية ضحكت، ما أجل ضحكاتها ! فى الثالثة أشارت إلى أسطح البيوت محذرة، سأعود بعد الغروب . هكذا قلت فى جراءة، ألم يرسل جوليون إشارته من الطريق العام؟

- لشد ما أحببت الإنجليز فى صغرى ! . . انظر كيف أمقتهم الآن
مقتا . .

- سعد بطلك سافر ينشد صداقتهم !
هتف كمال بحدة :

- والله لأبغضنهم ولو وحدى . .

وتبادلا نظرة أسى صامته، تناهى إليهما وقع قبقاب السيد وهو راجع
إلى حجرته مبسماً محوقلاً، فانزلق ياسين إلى الأرض وغادر الحجرة
وهو يتشاءب .

تقلب كمال على جنبه ثم استلقى على ظهره مسترخياً وثنى ساعديه
شابكاً راحتيه تحت رأسه، ومضى ينظر فيما أمامه بعينين لا تريان
شيئاً . . لتسعد بك رأس البر، لم تخلق بشرتك الملائكية لتصلى حر
القاهرة، فلتطب بموطى قدميك الرمال، وليهناً بمشهدك الماء والهواء،
سوف تشيدين بالمصيف، وعيناك تنطقان بالمسرة والحنين، فأطلع إليهما
بقلب مشوق وعين تسائل الغيب - فى حسرة - عن المكان الذى استهواك
فاستحق عن جدارة رضاك . . ولكن متى تعودين ومتى ينسكب فى
أذنى تغريدك المسحور؟، كيف المصيف؟ . ليتنى أدرى . . قيل إنه حرية
كالهواء، ولقاء بين أحضان الماء، وأهواء بعدد حبات الرمال . . وخلق
كثيرون يحظون بمحياك . . أما أنا . . أنا الذى خفقات قلبه تثن لشكاتها
الجدران فأتلظى فى سكير الانتظار . هيهات! أن تنسى وجهك المنطلق
بالبشر وأنت تغمغمين: «سنسافر غداً . . ما أجمل رأس البر!» ولا
اكتئابى وأنا أتلقي نذير الفراق من ثغر يومض بسنا السرور كمن يتلقى
السم مدسوساً فى طاقة من الزهر الفواح، ولا غيرتى من الجماد الذى
قدر على إسعادك حين عنجزت وحظى بمودتك حين حرمت . ألم
تلحظى حين الوداع اكتئابى؟ . كلا لم تلحظى شيئاً، لا لأنى كنت

واحدًا بين كثيرين ولكن لأنك يا حبيبة لا تلاحظين . . كأنا كنت شيئًا لا يسترعى انتباهك . . أو كأنا أنت مخلوق بديع غريب استوى فوق الحياة يطالعنا من عل بعينين هاثمتين فى ملكوت لا ندره . . هكذا وقفنا وجها لوجه . . أنت شعلة من سعادة سادرة، وأنا رماد من وجوم وكآبة . . تحظين بحرية مطلقة أو تذعنين لسنن فوق مداركنا، وأنا أدور فى فلكك مجذوبًا بقوة هائلة . . كأنك الشمس، وكأنتى الأرض، هل وجدت عند الشاطئ حرية لم تنعمى بها فى مغانى العباسية؟ كلا، وحق قدرك عندى . . لست كالآخرى . . فى حديقة القصر والطريق، آثار عاطرات لقدميك . . وفى قلب كل صديق ذكريات وآمال . . آنسة سهلة ممتنعة، تطوف بنا على غير مثال، كأن الشرق قد استوهبها الغرب فى ليلة القدر . . أى جديد من الجود ترى تهبين إذا امتد الشاطئ وترامى الأفق واكتظ الساحل بالمعجبين؟ أى جديد يا أملى وحسرتى؟! القاهرة فى غيبتك خواء تنضح كآبة ووحشة، كأنها عكارة الحياة والأحياء . . ثمة مناظر ومعالم، ولكنها لا تخاطب وجدًا ولا تحرك قلبًا، كأنها عاديات الدنيا وذكرياتها فى قبر فرعونى لم يفض . . ما من مكان بها يعدنى بعزاء أو تسلية أو مسرة . . أخالنى حينًا مختنقًا وحينًا سجينًا وحينًا مفقودًا ضالًا غير مفتقد . . يا عجبًا أكان وجودك ينيل أملًا أفقدينه البعاد؟ كلا يا قضائى وقدرى، ولكنك كالأمنية الاستغلال بجناحها برد وسلام وإن اعتصمت بالمحال، هل يغنى المشتاق المتطلع إلى ظلمة السماء معرفته . . أن البدر يسطع فوق المكان الآخر من الأرض؟ . . كلا وإن لم يدرك للبدر امتلاكًا . . إنما أطمع إلى الحياة فى صميمها ونشوتها ولو بفادح الألم، بل أنت حالة فى ما خفى الفؤاد والفضل لهذا المخلوق السحرى: الذاكرة . . عن إعجازها غفلت حتى عرفتكَ، اليوم أو غدًا أو بعد دهر فى العباسية أو رأس البر أو فى أقصى الأرض لن تبرح مخيلتى عينك السوداء والساجيتان، وحاجباك المقرونان، وأنفك السوى اللطيف،

ووجهك الدرى الخمرى، وجيدك الطويل، وقامتك الهيفاء، وما شئت
 من سحر يكتنفك مزريا بكل وصف مسكرا كعرف الفل والياسمين،
 لأملكن هذه الصورة ما ملكت الحياة، وبعد الحياة لتقوضن عوائق
 وموانع فيكون المصير إلى... إلى وحدى بما أحببت هذا الحب كله..
 وإلا فخبرينى عن معنى لهذه الحياة ينشد أو عن طعم للخلود يرام، لا
 تزعم أنك سبرت جوهر الحياة إلا أن تحب، السمع والبصر والذوق
 والجد واللهو والمودة والظفر مسرات تهوى عند من فعم الحب قلبه،
 من أول نظرة يا قلبى. ما ارتدت عنها عيناى حتى آمنت بأنها زيارة مقيم
 لا زيارة عابر، لحظة خاطفة حاسمة، ولكن فى مثلها تخلق الأرواح فى
 الأرحام وتزلزل الأرض.. رباه لم أعد أنا.. قلبى تلاطمه جدران
 الأضلع، أسرار السحر تنفث معانيها، العقل يتمادى حتى يمس
 الجنون، اللذة تسطع حتى تعانق الألم، وأوتار الوجود والنفس تجود
 بالنغم المكنون، دمي يصرخ مستغيثا لا يدرى م يستغيث، الأعمى يبصر
 والكسيح يسير والميت يحيا، حلفتك بكل عزيز ألا تذهبى أبداً، أنت
 يا إلهى فى السماء وهى فى الأرض، آمنت بأن ما مضى من حياتى كان
 تمهيداً لبشارة الحب، لم أمت صغيراً ولم ألحق بمدرسة غير فؤاد الأول،
 ولم أصادق أول ما صادقت من تلاميذها حسين ولم.. ولم.. كل
 أولئك كى أدعى يوماً إلى قصر آل شداد، يا للذكرى! يكاد القلب من
 وقعها يقتلع، كنت وحسين وإسماعيل وحسن منهمكين فى شتى
 الأحاديث حين ورد مسامعنا صوت رخييم محييا، التفت وأنا من
 الذهول فى غاية.. من تكون القادمة؟.. كيف لفتاة أن تقتحم على
 غرباء مجلسهم؟.. ثم سرعان ما انقطعت عن التساؤل.. وتناسيت
 التقاليد جميعاً.. وجدتنى حيال مخلوق لا يمكن أن يكون من هذه
 الأرض جاء.. بدت وكأنها صديقة للجميع إلاى، فقال حسين يعارف
 بيننا: «صديقى كمال.. أختى عايده» ليلتذعرفت لم خلقت.. لم لم

أمت . . لم دفعتنى المقادير إلى العباسية ، وحسين ، وقصر آل شداد ، متى كان ذلك ؟ . كان الزمان نسياً منسياً وأسفاه ! إلا اليوم ، كان يوم الأحد . . عطلة مدرستها الفرنسية الذى صادف عطلة رسمية لعلها مولد النبى ، وعلى اليقين كانت مولدى أنا ، ما قيمة التاريخ ؟ سحر التقويم أنه يوهنا بأن الذكرى تُبعث حية وتعود ولو أن شيئاً لا يعود ، لن تفتأ تجد فى البحث عن التاريخ ، ولن تفتأ تردد : مطلع السنة الثانية بالمدرسة . . أكتوبر نوفمبر . . حين زيارة سعد للصعيد وقبل نفيه للمرة الثانية . . مستخبراً الذاكرة والشواهد والأحداث وليس إلا أنك تتشبت تشبت اليائس باستعادة سعادة مفقودة وعهد مضى إلى الأبد . لو مددت يدك عند التعارف كما كدت لصافحتك فعرفت مسها ، وهو ما تتخيله حيناً بعد حين بشعور ملؤه الشك والهيام ، كأنما هى مخلوق غير جسمانى لا مس له . . وهكذا ضاعت فرصة كالحلم كما ضاع الزمان ، ثم أقبلت على صديقك تحادثهما ويحادثانها - بغير كلفة - وأنت قابع فى مقعدك تحت الكشك تكابد حيرة المتشعب بتقاليد حى الحسين ، حتى عدت تتساءل : ترى ، أهى تقاليد خاصة بالقصور ، أم نفحة من باريس التى نشأ المعبود بين أحضانها ؟ . . ثم تستغرق فى رخامة الصوت وتستطعم نبراته وتتنشى بتغريده وتمتلى بكل حرف يند عنه ، ولعلك - يا مسكين - لم تدرك وقتها أنك تولد من جديد ، وأنت كالوليد سوف تستقبل دنياك الجديدة بالارتياح والدموع . وقالت ذات الصوت الرخيم : «سندهب هذا المساء لمشاهدة الغندورة» . فسألها إسماعيل باسمها : «أتحبين منيرة المهدية؟» . . فترددت كما ينبغى لأنسة نصف باريسية ، ثم أجابت : «ماما تحبها» ، ثم اشترك حسين وإسماعيل وحسن فى حديث عن منيرة وسيد درويش وصالح وعبد اللطيف البنا ، ثم ما أدرى إلا والصوت الرخيم يسأل : «وأنت يا كمال ، ألا تحب منيرة؟» ، أتذكر ذلك النداء الذى نزل على غير انتظار؟ أعنى أتذكر النغمة الطبيعية التى تجسمها؟

لم يكن قولاً، ولكن نغمًا وسحرًا استقر في الأعماق كي يغرد دوماً بصوت غير مسموع ينصب فؤادك إليه في سعادة سماوية لا يدريها أحد سواك، كم روعك وأنت تتلقاه، كأن هاتفاً من السماء اصطفاك فردد اسمك، سقيت المجد كله والسعادة كلها والامتنان كله في نهلة واحدة وددت بعدها لو تهتف مستنجدًا: «زملوني.. دثروني»، ثم أجبت وإن كنت لا أذكر بماذا أجبت، لبثت دقائق ثم ودعتنا ومضت، في عينيها السوداوين نظرة أنيقة، تنم إلى جمالها الفاتن عن صراحة محبة وجرأة مصدرها الثقة - لا الاستهتار أو القحة - وترفع مروع، كأنما تجذبك وتدفعك معاً. . جمالها فتنة لا أدرك له كنها ولا أدري له شها، وكان يخيل إلى كثير أنه ليس إلا ظلال سحر أعظم يكمن في شخصها. . من أجل أي هذين أحبها؟. . كلاهما لغز، ولغز ثالث هو حبي. يتراجع ذلك اليوم كل يوم يوماً إلا أن ذكرياته ناشبة في قلبي أبداً. لبناتها مكان وزمان وأسماء وصحاب وأحاديث يتقلب القلب في جنباتها نشوان حتى يخال أنها الحياة جميعاً، فيتساءل فيما يشبه الشك: هل كانت ثمة وراء ذلك حياة؟. . هل حقاً مضى زمن قبلها خلا من الحب قلبي وأقفرت من تلك الصورة الإلهية نفسى؟ ربما أسكرتك السعادة حتى تحزن على ما ضاع من ماضٍ جديب وربما لسعك الألم حتى تذوب حشرات على السلام الذي ولى، وبين هذا وذاك لا يجد قلبك إلى الاستقرار سبيلاً، فيمضى ملتصقاً الشفاء في شتى العقاقير الروحية، يستمدّها من الطبيعة أنا، ومن العلم أنا، ومن الفن حيناً، وفي العبادة أحياناً كثيرة. . قلب استيقظ فانطلقت من صميمه شهوة مولعة بالمسرات الإلهية. . أيها الناس حبوا أو موتوا. . لسان حالك وأنت تسير مزهواً فخوراً بما تحمل بين جنبيك من نور الحب وأسراره. . يزدهيك علو فوق الحياة والأحياء، ويصل أسبابك بالسموات جسر مفروش بورود السعادة، وأنت أنت الذي تخلو حيناً آخر إلى نفسك

فتطغى عليك حساسية أليمة مريضة بإحصاء النقائص وتقصيها بلا رحمة فى كائنك الصغير ودنياك المتواضعة وهناتك الآدمية . . رياه، كيف تخلق نفسك من جديد؟ هذا الحب طاغية يتيه فوق كافة القيم وفى ركابه يتألق معبودك، لا تكمله الفضائل ولا تنقصه المثالب، النقيصة تلوح فى تاجه الدرى حسنا يشغلك إعجاباً، هل أزرى بها فى نظرك أن تخرج على التقاليد المرعية؟ كلا، بل إن خروجها بالتقاليد المرعية أزرى . يطيب لك أحياناً أن تسأل نفسك: ماذا تروم من حبها؟ أجب بكل بساطة: أن أحبها، أيجوز أن تنبثق فى النفس هذه الحياة كلها ثم يتساءل عن غاية وراءها؟ لا شئ وراءها . العادة هى التى ربطت بين لفظى الحب والزواج، ليست فوارق السن والطبقة هى وحدها التى تجعل من الزواج غاية مستحيلة فى مثل حالى، ولكنه الزواج نفسه، بما يستنزى الحب من سمائه إلى أرض العقود والعرق . . ويسألك الذى يأبى إلا أن يحاسبك، بم جادت عليك لقاء التهالك فى حبها؟ أجبه بلا تردد: ابتسامة فاتنة، و«يا كمال» الغالية، وزيارتها للحديقة فى الأوقات السعيدة النادرة، وترائيها مع الصباح الندى، وسيارة المدرسة تمضى بها، ومعايشتها الخيال فى سباحات اليقظة وتهويم الأحلام . ثم تسألك النفس الطماعة المجنونة: أمن المحال أن يكون المعبود مشغولاً بأمر عابده؟ . . أجبها غير مستسلم لإغراء الآمال الكواذب: حسن أن يذكر عند العودة اسمنا . . .

- بسرعة إلى الحمام، هل تأخرت؟!

مالت عينا كمال - وقد لاح فيهما رجع المفاجأة - إلى ياسين الذى عاد إلى الحجره وهو ينشف رأسه بالفوطه، ثم وثب إلى الأرض فبدا فرعه الطويل نحيفاً، وألقى نظرة طويلة على المرأة كأنما يتفحص رأسه الضخم وجبينه البارز وأنفه الذى تراءى لكبره وقوته كأنه منحوت من الجرانيت، ثم تناول فوطته من على شباك السرير ومضى إلى الحمام .

وكان السيد أحمد قد فرغ من الصلاة، فعلا صوته الغليظ بالدعاء المعتاد للأولاد ولنفسه، سائلاً الله الهداية والستر في الدارين . . وفي أثناء ذلك كانت أمينة تعد المائدة، ثم ذهبت إلى حجرة السيد، فدعته - بصوتها الوديع - إلى تناول الفطور، واتجهت إلى حجرة ياسين وكمال فكررت الدعوة .

اتخذ الثلاثة أماكنهم حول الصينية، وبسمل الأب وهو يتناول رغيفاً معلناً بدء الأكل، فتبعه ياسين ثم كمال، على حين وقفت الأم وقفتها التقليدية إلى جانب صينية القل. كان مظهر الأخوين يدل على الأدب والخشوع، ولكن خلا قلبهما - أو كادا - من الخوف الذي كان يركبهما - قديماً - في حضرة الأب، ياسين: لأن بلوغه الثامنة والعشرين منحه امتيازاً من امتيازات الرجولة، وضماناً ضد الإهانات الجارحة والاعتداءات التعيسة، وكمال: لأن بلوغه السابعة عشرة، وتقدمه في الدراسة وهباه نوعاً من الضمان أيضاً إلا يكن بقوة ضمان ياسين، فإنه لم يخل من العفو والتسامح على الأقل في الهفوات التافهة، إلى أنه آنس من أبيه في السنوات الأخيرة أسلوباً من المعاملة تخفف من البطش والإرهاب بدرجة محسوسة، ولم يكن من النادر أن يدور حديث مقتضب بين الأكلين بعد أن كان الصمت يتحكم في مجلسهم تحكما مخيفاً، إلا أن يسأل الأب أحدهم فيجيب بعجلة ولهوجة ولو بفهم ممتلئ بالطعام. أجل لم يعد غريباً أن يخاطب ياسين أباه، فيقول مثلاً: «زرت أمس رضوان في بيت جده، وهو يقرئكم السلام ويقبل يدكم»، فلا يعد السيد الخطاب جرأة غير محموددة، ولكنه يقول له ببساطة: «ربنا يحفظه ويرعاه» . . ولا يبعد عند ذلك أن يتساءل كمال بأدب، محدثاً بذلك تطوراً خطيراً في علاقته التاريخية بأبيه: «متى يستحق رضوان شرعاً لأبيه يا بابا؟». فيجيبه السيد: «عندما يبلغ السابعة»، بدلاً من أن يصيح به: «أخرس يا ابن الكلب»، طاب لكمال يوماً أن يتعرف على تاريخ

آخر شتمة تلقاها من أبيه ، حتى تذكر أنه كان ذلك قبل عامين على وجه التقريب ، أو بعد حبه - الذى غدا يؤرخ به - بعام ، إذ شعر وقتذاك بأن مصادقته لشبان من طراز حسين شداد وحسن سليم وإسماعيل لطيف تتطلب زيادة كبيرة فى مصروفه كى يتأتى له مجاراتهم فى لهوهم البرىء ، فشكا أمره إلى أمه راجياً إياها أن تخاطب أباه فى شأن الزيادة المأمولة ، ومع أن مخاطبة الأب - فى مثل هذا الأمر - لم تكن يسيرة على الأم ، إلا أنها هانت بعض الشيء بتغير معاملته لها عقب وفاة فهمى ، فحدثته منوهة بعلاقة جديدة مشرفة لابنها بأصدقاء من «الأكابر» ، وعند ذاك دعا السيد كمال ، وصب عليه غضبه ، حتى صاح به : «هل ظننتنى تحت أمرك أو أمر أصحابك ! . . ملعون أبوك وأبوهم» ، فغادره كمال خائب الرجاء وقد ظن أن الأمر انتهى عند ذاك . . ولكنه ما يدرى إلا والرجل يسأله عن هوية أصدقائه على مائدة إفطار اليوم التالى ، وما أن سمع اسم حسين عبد الحميد شداد ، حتى سأله باهتمام : «من العباسية صاحبك؟» . فأجاب كمال بالإيجاب ، وقلبه يخفق ، فقال السيد : «كنت أعرف جده شداد بك ، وأعرف أيضاً أباه عبد الحميد بك كان مبعداً فى الخارج لسابق علاقته بالخديو عباس . . أليس كذلك؟» ، فأجاب كمال بالإيجاب مرة أخرى ، وهو يغالب وجده الذى أهاجه الحديث عن والد معبودته وذكر لتوه ما علم عن الأعوام التى قضتها الأسرة فى باريس ، حيث ترعرعت معبودته فى نور مدينة النور ، فما تمالك أن شعر نحو أبيه بإجلال وإكبار جديدين ومودة مضاعفة ، وعد معرفته لجذ معبودته رقية سحرية تنسبه - ولو من بعيد - إلى منزل الوحي ومبعث السنأ . ثم ما لبثت أمه أن زفت إليه بشرى موافقة والده على مضاعفة مصروفه .

منذ ذلك اليوم لم يتعرض لشتمة جديدة ، إما لأنه لم يرتكب ما يستوجبها ، وإما لأن أباه رأى أن يعفيه من الشتم إطلاقاً . . وقف كمال إلى جانب أمه فى المشربية يشاهدان السيد أحمد فى

الطريق، وهو يردد- فى وقار ولطف- نحيات عم حسنين الحلاق والحاج درويش بائع الفول والفولى اللبان وبيومى الشربتلى، وأبو سريع صاحب المقلّى. ثم رجع إلى الحجره حيث وجد ياسين واقفا أمام المرأة يتألق فى عناية وصبر. جلس على كنبه بين السريرين، وراح يتأمل جسم أخيه الطويل البدين ووجهه المورّد المكتنز بنظرة باسمة غامضة، كان يكن له حباً أخوياً صادقاً، بيد أنه لم يكن يستطيع- كلما أنعم فيه الفكر أو النظر- أن يقاوم شعوراً خفياً بأنه حيال «حيوان أليف جميل»، على رغم أنه أول من هز أوتار أذنيه بأنغام الشعر ونفثات القصص، ربما تساءل، تساؤل من يرى فى الحب جوهر الحياة والروح، أمن الممكن أن يتصور ياسين عاشقاً؟. فيتمثل الجواب ضحكة باطنية أو منطلقة، أجل ما للحب وهذه الكرش المترعة! ما للحب وهذا الجسم اللحيم! ما للحب وهذه النظرة الشهوانية الساخرة! ثم لا يتمالك أن يجد نحوه إحساساً بالازدراء اللطيف بالعطف والود، وإن لم يخل أحياناً- خاصة فى الأوقات التى تعتري حبه فيها نوبة من نوبات الألم والهبوط- من عاطفة إعجاب بل حسد، كذلك بدا ياسين لعينه أبعد ما يكون عن عرش الثقافة، الذى بوأه إياه قديماً حينما كان يظنه عالماً ساحراً مالكا لفنون الشعر والقصص، تكشف له قارئاً سطحياً يقنع من وقت مجلس القهوة ببضع ساعة يتنقل فيها بلا جهد أو عناء بين الحماسة وقصة من القصص قبل انطلاقه إلى قهوة أحمد عبده، حياة عاطلة من بهاء الحب وأشواق المعرفة الحقيقية وإن كنّ لصاحبها حباً أخوياً لا تشوبه شائبة.. لم يكن كذلك فهمى، كان مثله الأعلى فى الحب والعقل، ولكنه بدا أخيراً كالمتخلف بعض الشيء عما يطمح إليه، أجل ساوره شك يقارب اليقين فى أن فتاة كمریم يمكن أن تبعث فى النفس حباً حقيقياً كالحب الذى يضىء به نفسه، كما ارتاب فى أن تضاهى الثقافة القانونية التى نزع إليها أخوه الراحل المعرفة الإنسانية التى يتشوقها بكل قوة نفسه، كان

يتأمل من حوله بعين تنفتح على التأمل والنقد، وذهب في ذلك كل مذهب إلا أنه وقف عند عتبة أبيه لا يجروء على أن يرفع قدمًا، لاح الرجل لعينية شيئًا هائلًا يتربع على عرشه فوق النقد!!

- أنت اليوم عريس! اليوم عيد من أعيادك الظافرة، أليس كذلك؟
لولا . نحافتك ما وجدت ما أؤاخذك عليه .

قال كمال مبتسمًا :

- إني راض عنها .

ألقى ياسين على صورته نظرة أخيرة، ثم وضع الطربوش على رأسه وأماله يمنة بعناية حتى أوشك أن يمس حاجبه، ثم قال وهو يتجشأ :

- أنت حمار كبير يحمل البكالوريا، تتمتع بالطعام والراحة فهذه هي العطلة، كيف تسول لك نفسك أن تقرأ في العطلة أضعاف ما تقرأ في عامك الدراسي؟! اللهم إني برىء من النحافة وأصحابها!

ثم، وهو يغادر الغرفة والمنشة العاجية في يده :

- لا تنس أن تختار لي قصة جيدة، مثل «باردليان»، و«فوستا»،
هه؟ . . مضى زمن كنت تستجديني فصلاً من رواية، هاك زمنا
أغبر أشحذك فيه القصص!

ارتاح إلى الوحدة التي يخلو فيها إلى نفسه، فنهض وهو يغمغم:
من أين له بالبدانة والقلب لا ينام؟! . لم تكن تحلو له الصلاة إلا خاليًا،
صلاة بالجهاد أشبه ويشارك فيها القلب والعقل والروح، جهاد من لا
يضمن بجهد للفوز بالضمير الطاهر النقي ولو لاحق نفسه بالحساب تلو
الحساب على الهفوة والخطاة . . أما الدعاء في أعقاب الصلاة، فلها،
لها وحدها .

عبد المنعم: الفناء أوسع من السطح، ولا بد أن نزيح الغطاء عن البئر لنرى ما فيها . .

نعيمة: ستغضب ماما وخالتي وجدتي . .

عثمان: لن يرانا أحد . .

أحمد: البئر فظيعة، ويموت من ينظر فيها.

عبد المنعم: نرفع الغطاء، ثم ننظر من بعيد . . (ثم بصوت مرتفع) . . هيا بنا ننزل .

أم حنفى: (معترضة باب السطح) لم يبق فى حيل للتزول والطلوع،

قلتم نطلع السطح فطلعنا السطح، وقلتم ننزل الفناء فنزلنا

إلى الفناء، نطلع السطح مرة ثانية فطلعنا السطح مرة

ثانية، ماذا تريدون من الفناء؟ . . الجو حار تحت، أما هنا

فالنسمة جارية، وعما قليل تغيب الشمس .

نعيمة: سيرفعون غطاء البئر لينظروا فيها . .

أم حنفى: سأنادى ست خديجة وست عائشة .

عبد المنعم: نعيمة كذابة، لن نرفع الغطاء، ولن نقترّب منه، سنلعب

فى الفناء قليلاً ثم نعود، ابقى هنا حتى نعود .

أم حنفى: أبقى هنا؟! رجلى على رجلكم، الله يهديكم . . ليس فى

البيت كله مكان أجمل من السطح، انظروا إلى هذا

البستان!

محمد: نامى لأركبك . .

أم حنفى: كفاية ركوب، اختر لنفسك لعبة أخرى، الله، الله . .
انظروا إلى الياسمين والبلاب، انظروا إلى الحمام . .

عثمان: أنت قبيحة كالجاموسة، ورائحتك نتنة . .

أم حنفى: الله يسامحك، عرقى سال من الجرى وراءكم .

عثمان: خلينا نرى البئر ولو شوية صغيرة .

أم حنفى: البئر ملأى بالعفاريت، ولذلك سددناها .

عبد المنعم: كذابة، لم تقل ماما ولا خالتى هذا . .

أم حنفى: الحقيقة عندى أنا، أنا وستى الكبيرة، كنا نراهم رؤية

العين، فانتظرنا حتى دخلوا، وألقينا على فوهة البئر

الغطاء الخشبي وأثقلناه بالحجارة . لا تذكروا البئر، وقولوا

معى : «باسم الله الرحمن الرحيم» . .

محمد: نامى لأركبك .

أم حنفى: انظروا إلى البلاب والياسمين! ليت عندكم مثلهما، ليس

فى سطحكم إلا الدجاج والخروفان اللذان تسمنونهما

للعيد .

أحمد: ماء . . ماء . . ماء . .

عبد المنعم: هاتى سلما لنطلع عليها!

أم حنفى: يا ساتر يا رب، الولد لخاله، العبوا فى الأرض لا فى

السماء .

رضوان: فى شرفة بيتنا وفى السلامك أصص ورد أحمر وأبيض

وقرنفل . .

عثمان: عندنا خروفان ودجاج . .

أحمد: ماء . . ماء . . ماء . .

عبد المنعم: أنا فى الكتاب، من منكم فى الكتاب؟
رضوان: أنا حافظ «الحمد» .
عبد المنعم: الحمد، كبة لمبه!
رضوان: إخص، أنت كافر .
عبد المنعم: هذا ما يتغنى به العريف فى الطريق . . .
نعيمه: قلنا ألف مرة لا تردد كلامه . . .
عبد المنعم: (لرضوان) لماذا لا تعيش مع باباك خالى ياسين؟
رضوان: أنا عند ماما .
أحمد: أين ماما؟
رضوان: عند جدى الآخر!
عثمان: أين جدك الآخر؟
رضوان: فى الجمالية! . . فى بيت كبير وسلامك .
عبد المنعم: لماذا أمك فى بيت، وأبوك فى بيت؟
رضوان: ماما عند جدى هناك، وبابا عند جدى هنا . .
عثمان: لم لا يوجدان فى بيت واحد مثل بابا وماما . . ؟
رضوان: القسمة والنصيب، هذا ما تقوله جدتى الأخرى!
أم حنفى: قررتموه حتى أقر، لا حول ولا قوة إلا بالله! ارحموا
والعبوا . .
محمد: نامى لأركبك . .
رضوان: انظروا إلى العصفورة فوق عود اللبلاب . .
عبد المنعم: هاتوا سلما، وأنا أقبض عليها . .
أحمد: لا ترفع صوتك، إنها تنظر إلينا بعينيهما وتسمع كل كلمة
نقولها . .
نعيمه: ما أجملها، عرفتها! هى العصفورة التى رأيتها أمس فوق
حبل الغسيل عندنا . .

أحمد: الأخرى فى السكرية، فكيف عرفت الطريق إلى بيت جدى . . ؟

عبد المنعم: يا حمار، العصفورة تطير من السكرية إلى هنا وتعود قبل المساء .

عثمان: أهلها هناك وأقاربها هنا . .

محمد: نامى لأركبك، أو أبكى حتى تسمعنى ماما . .

نعيمة: نلعب الحجلة؟

عبد المنعم: بل نتسابق . .

أم حنفى: من غير شجار بين السابق والمسبق .

عبد المنعم: اسكتى يا جاموسة . .

عثمان: ناع ع ع . . ناع ع ع .

أحمد: ماء . . ماء . . ماء . .

محمد: سأدخل السباق راكباً، نامى لأركبك .

عبد المنعم: واحد . . اثنان . . ثلاثة . .

* * *

احتفى السيد أحمد عبد الجواد بالمدعوين فأخلى نفسه لهم النصف الأول من النهار كله، ثم توسط مائدة الوليمة التى ضمت: إبراهيم شوكت، و خليل شوكت، وياسين وكمال . ثم دعا بالرجلين إلى حجرة نومه فى جلسة عائلية، فمضوا يتسامرون فى جو من المودة والمؤانسة وإن لم يخل من تحفظ من ناحية السيد وتأدب من ناحية صهره، مصدره ما يلتزمه الرجل فى المعاملة مع آل بيته حتى الوارد من الخارج منهم على رغم المقاربة فى السن بينه وبين إبراهيم شوكت زوج خديجة .

ودعى الأطفال إلى حجرة الجد ليقبلوا يده ويتلقوا هداياه النفيسة من

الشيكو لاطة والملبن ، فتقدموا إليه بترتيب أسنانهم : نعيمة بنت عائشة أولاً ، فرضوان بن ياسين ، فعبد المنعم بن خديجة ، فعثمان بن عائشة ، فأحمد بن خديجة ، ثم محمد بن عائشة . راعى السيد المساواة المطلقة فى توزيع عطفه وابتساماته على أحفاده ، متتهزاً فرصة خلو الحجرة من مراقبين - عدا إبراهيم و خليل - ليتخفف بعض الشيء من تحفظه المأثور ، فهز الأيدى الصغيرة بترحاب ، وقرص الخدود الموردة بحنان ، ولثم الجباه وهو يداعب هذا ويمازح ذاك ، وظل مراعيًا المساواة حريصاً عليها حتى مع رضوان أحظى الصغار بمحبته .

كان من عادته إذا خلا إلى أحد من أحفاده أن يتفحصه بشغف ، مدفوعاً بعواطف أصيلة كالأبوة وأخرى دخيلة كحب الاستطلاع . وكان يجد لذة كبيرة فى تتبع ملامح الأجداد والآباء والأمهات فى السلالات الجديدة الصاخبة التى لم تكد تلقن احترامه فضلاً عن مخافته ، وقد أسره جمال نعيمة ذات الشعر الذهبى والعينين الزرقاوين التى فاقت أمها نفسها حسناً ورواء ، فأتحفت الأسرة بقسمات غنية من الحسن بعضها مشتق من أمها والبعض الآخر متوارث عن آل شوكت ، وعلى هذا المنهج من الجمال سار شقيقاها عثمان ومحمد مع ميل واضح إلى ملامح الأب - خليل شوكت - خاصة فى عينيه الواسعتين البارزتين ذواتى النظرة الهادئة الخاملة ، وعلى خلاف هذا تبدى عبد المنعم وأحمد ابنا خديجة ، فبشرتهما وإن تكن شوكتية ، إلا أن عينيهما هما عيناً الأم أو الجدة الصغيرتان الجميلتان ، أما الأنف فينذر بمشابهة أنف الأم أو الجد على الأصح ، أما رضوان فما كان له إلا أن يكون جميلاً حظى بعينى أبيه أو عيني هنية السوداوين المكحولتين وبشرة آل عفت العاجية ، وأنف ياسين المستقيم . أجل ترقرت الملاحظة فى وجهه أسرة . مضى زمن طويل مذ كان يتعلق به أطفاله بلا خوف من ناحيتهم ولا تكلف من ناحيته كما يفعل الأطفال اليوم ، يا لها من أيام!

ويا لها من ذكريات! ياسين وخديجة وفهمى ثم عائشة وكمال، ما منهم إلا وقد دغدغه تحت إبطه وأركبه منكبيه، ترى هل يتذكرون؟ لقد كاد هو ينسى، على أن نعيمة تبدو رغم ابتسامتها الوضيئة متحلية بالحياء والأدب، أما أحمد فلم يكف عن المطالبة بالمزيد من الشيكولاطة والملمن، على حين وقف عثمان ينتظر نتيجة المطالبة بفارغ الصبر، وأما محمد فهرول إلى الساعة الذهبية والخاتم الماسى فى جوف الطربوش وكبشهما فما استخلصهما خليل شوكت من يده إلا بالقوة. ومرت لحظات توزع السيد الارتباك والحيرة، فلم يدر ماذا يفعل وهو محاط، بل مهدد من كل جانب بالأحفاد الأعزاء. . وقبيل العصر غادر السيد البيت إلى الدكان، وبذاهبه تمتعت الصالة - حيث اجتمع بقية أفراد الأسرة - بكامل حرقتها. ورثت صالة الدور الأعلى أختها بالدور المهجور، ففرشت بحصيرها وكنباتها، وعلق بسقفها الفانوس الكبير، فغدت مجلساً ومقهى لمن تبقى من الأسرة فى البيت القديم. وقد حافظت طوال اليوم - رغم امتلائها على هدوئها، حتى إذا لم يعد يبقى من السيد إلا ما سطع فى الجو من عرف الكولونيا التى تطيب بها، استردت أنفاسها، فتعالت بها الأصوات والضحكات، ودبت فيها الحركة، واتخذ المجلس هيئته كالعهد القديم، فتربعت أمينة على كنبه أمام أدوات القهوة، وعلى الأخرى المواجهة لها جلست خديجة وعائشة، وعلى ثالثة جانبية قعد ياسين وكمال، وما لبث أن انضم إليهم إبراهيم شوكت، وخليل شوكت - بعد ذهاب السيد - فجلس إبراهيم إلى يمين حماته، وخليل إلى يسارها.

لم يكد إبراهيم يستقر على مجلسه، حتى خاطب أمينة قائلاً بلهجة متوددة:

- بارك الله فى اليد التى قدمت لنا أشهى الطعام وألذّه (ثم وهو يردد عينيه البارزتين الخاملتين فى الجلوس كأنما يلقي محاضرة)

الطواجن.. الطواجن!.. معجزة هذا البيت، ليس الطاجن بما يحويه من المأكول- وإن لذ وطاب- ولكن بتسيكه قبل كل شيء.. التسبيك هو كل شيء!! هو الصنعة، وهو المعجزة، دلونى على طواجن كالتى التهمناها اليوم!..

كانت خديجة تتابع كلامه باهتمام، وهى بين التأيد له اعترافاً بمهارة أمها والاحتجاج عليه لتجاهله إياها، فلما أمسك كى يهين للمنصتين فرصة للإقرار برأيه، لم تتمالك من أن تقول:

- هذا حكم مسلم به وليس فى حاجة إلى شهادة شاهد، غير أنى أذكر- وأحب أن أفكر أيضاً- بأنك ملأت بطنك فى بيتك مراراً من طواجن لا تقل صنعة عن طواجن اليوم!

ارتسمت ابتسامة- ذات معنى- على وجوه عائشة وياسين وكمال، وبدا على الأم أنها تغالب حياءها، لتقول كلمة تجمع بين الشكر لإبراهيم وإرضاء خديجة، ولكن خليل شوكت بادر قائلاً:

- صدقت خديجة هانم، إن لطواجنها فضلاً علينا جميعاً، لا يمكن أن تنسى ذلك يا أخى..

فردد إبراهيم نظره بين زوجه وحماته، وهو يتسم كالمعتذر، ثم قال:

- معاذ الله أن أنكر هذا الفضل، ولكنى بصدد التحدث عن المعلمة الكبيرة (ثم وهو يضحك) وعلى أى حال! فأنا أنوه بفضل والدتك لا والدتى أنا!

وانتظر حتى خفت أصوات الضحك التى أثارها قوله الأخير، ثم واصل تقرظه متلفتاً نحو الأم، وهو يقول:

- نعود إلى الطواجن، ولكن لم نقصر كلامنا على الطواجن؟! الحق أن الصنوف الأخرى لم تكن دون الطواجن لذة وفخامة، خذوا

مثلاً: البطاطس المحشو، الملوخية، الأرز المفلفل بالكبد والقوانص، المحاشى المتنوعة، والله أكبر على الدجاج ولحمه المكتنز.. خبرينى. أى غذاء تطعمينه يا حماتى؟

أجابته خديجة فى تهكم:

- من الطواجن تطعمه!

- سأكفر طويلاً عن إقرارى بالفضل لأهله، ولكن الله غفور رحيم، مهما يكن من أمر فلندع الله أن يكثر من أيام الأفراح.. مبارك عليك البكالوريا يا سى كمال، وعقبى للدبلوم إن شاء الله..

قالت أمينة بامتنان، وكانت موردة الوجه من الحياء والسرور:

- ربنا يفرحك بعبد المنعم وأحمد، ويفرح سى خليل بنعيمة وعثمان ومحمد، (ثم ملتفتة إلى ياسين) ويفرح ياسين برضوان..

كان كمال يسترق النظر إلى إبراهيم حيناً وإلى خليل آخر، وعلى شفثيه ابتسامة ثابتة يدارى بها عادة ملله من الحديث، الذى تنعدم متعته وتقضى اللياقة بالاشتراك فيه ولو بحسن الإنصات. إن الرجل يحدث عن الطعام وكأنه لم يزل على المائدة سكران بشهوة الأكل.. الطعام.. الطعام.. لم استحق هذا التقديس كله؟. هذان الرجلان العجيبان لا يبدو أنهما يتغيران مع الزمن، كأنهما بمنأى عن تياره. إبراهيم اليوم هو إبراهيم الأمس، لم يكد يطرأ عليه من إشرافه على الخمسين إلا أثر غير ملحوظ تحت العينين أو فيما حول طرفى الفم، ونظرة رزينة ثقيلة لم تكسبه وقاراً بقدر ما أكسبته مزيداً من الخمول، ولكن شعرة واحدة - سواء فى رأسه أم فى شاربه المقتول - لم تشب، وبدانته لم تزل مدمجة قوية لم يعتورها ترهل، إلى أن التشابه الذى جمع بين الشقيقين إلا فى أغراض لا يعتد بها: كالاختلاف بين شعر خليل السبط المرسل وشعر إبراهيم القصير المحلوق، وتماثلهما فى

الصحة والنظرة الخاملة كان مما يبعث على الضحك والازدراء حقاً .
وكانا يرتديان بذلتين من الحرير الأبيض قد نزع كل منهما جاكته فلاح
قميصه الحريري والأزرار الذهبية تلمع فى عرا أكمامه . مظهر ينم على
وجاهة هى كل ما هنالك . فى بحر السنوات السبع التى وصلت بين
الأسرتين ، كان يخلو إلى هذا أو ذاك منهما كثيراً أو قليلاً ، ولكن حديثاً
واحداً ذا طعم لم يجز بينهم ! . . . فيم الانتقاد؟ ولولا ذاك ما كان هذا
الانسجام الموفق بينهما وبين شقيقتيه؟ ! . إن الازدراء - من حسن الحظ -
لا يناقض العطف والإيثار بالخير والمودة . أوه . . . يبدو أن حديث
الطواجن لم ينته بعد ، ها هو سى خليل شوكت يتهاى ليلقى كلمته :
- لم يعد أخى إبراهيم الحق فيما قال ، يد لا عدمنها ، ومائدة جديدة
بأن ينادى بها المنادون . .

كانت أمينة فى أعماقها تحب الثناء ، وكثيراً ما تعانى مرارة الحرمان
منه ، لشعورها بالجهد الدائب الذى تبذله عن حب وطواعية فى خدمة
البيت وآله ، وكثيراً ما نهمت إلى سماع كلمة طيبة من السيد ، ولكن
السيد لم يكن من عادته أن وجود بالثناء عليها وإذا جاد ففى اقتضاب
وفى أحوال نادرة لا تكاد تذكر ، لذلك وجدت نفسها بين إبراهيم
وخليل فى موقف عجب غير مألوف ملأها سروراً حقاً ، ولكنه هيج لحد
الارتباك حيائها ، فقالت تدارى مشاعرها :

- لا تبالغ يا سى خليل ، أنت لك أمّ من يألف طعامها يزهد فى أى
طعام سواه ! . . .

وبينا عاد خليل إلى تأكيد الثناء ، اتجهت عينا إبراهيم بحركة عكسية
إلى خديجة ، فالتقى بعينيها وهما تحدجان إليه كأنما توقعنت نظرتة
فاستعدت لها ، فابتسم كالظافر ، وقال يخاطب حماته :
- لا يقرّك بعض الناس على هذا الرأى يا حماتى . .

أدرك ياسين مرمى هذه الملاحظة، فضحك ضحكة عالية، وسرعان ما ضج المجلس بالضحك، حتى أمينة ابتسمت ابتسامة عريضة واهتز نصفها الأعلى بضحكة مكتومة فدارت استسلامها بخفض رأسها كأنما تنظر في حجرها، بقيت خديجة وحدها جامدة الوجه وانتظرت حتى هدأت العاصفة، ثم قالت بتحد:

- لم يكن خلافنا حول الطعام وطهيه، ولكن حول حقى فى الاستقلال بشئون بيتى، ولا على من هذا.

تجددت فى النفوس ذكرى المعركة القديمة التى استعرت فى العام الأول من زواج خديجة بينها وبين حماتها حول «المطبخ»، وهل يظل واحداً للبيت كله تحت إشراف الأم، أو تستقل خديجة بطبيخها كما أرادت. كان خلافاً خطيراً هدد وحدة الأسرة الشوكتية وترامت أنبأؤه إلى بين القصرين، حتى علم به الجميع ما عدا السيد الذى لم يجرؤ أحد على إبلاغه إياه، لا هو ولا سائر الخلافات التى نشبت تباعاً بعد ذلك بين الحماة وكشَّها، وأدركت خديجة مذ فكرت فى الكفاح أن عليها أن تعتمد على نفسها وحدها، فزوجها على حد تعبيرها «رجل نائم» لا هو لها ولا عليها، كلما حرصته على استخلاص حقها قال لها كالمداعب: «يا ست. . دعينا من وجع الدماغ»، ولكنه إذا كان لم يؤيدها فإنه كذلك لم يشكمها. فأنبرت إلى الميدان وحيدة ورفعت رأسها حبال العجوز المبجلة بجرأة لم تكن متوقعة وبعناد لم يخذلها حتى فى ذلك الموقف الدقيق. عجبت العجوز لجرأة البنت التى تلقتها على يدها من عالم الغيب وسرعان ما احتدم الخصام وجن الغضب، وراحت تذكرها بأنه لولا فضلها عليها ما صح ولو فى الأحلام أن تظفر مثلها بزوج من آل شوكت، ولكن خديجة رغم ثورتها كظمت غيظها فوقفت عند التصميم على نيل ما تراه حقاً لها دون اللجوء إلى حدة لسانها المأثورة، لسابق منزلة العجوز من ناحية، ولخوفها من أن تشكوها إلى أبيها من

ناحية أخرى، ثم هداها مكرها إلى أن تعرض عائشة على العصيان، ولكنها وجدت من الفتاة الكسول إعراضاً وجبناً، لا حبا في الحماة ولكن إيثاراً للراحة والدعة اللتين تمتعت بهما - بغير حساب - في ظل الحضانة الإجبارية التي فرضتها حماتها على الجميع، فصبت غضبها عليها ورمتها بالضعف والتنبلة، ثم ركبها العناد فواصلت «الجهاد» بلا توان أو تردد حتى ضاق صدر العجوز فسلمت كارهاه بحق كتتها «العجورية» بالاستقلال بمطبخها وهي تقول لابنها الأكبر: «أنت وشأنك. إنك رجل ضعيف لا قبل لك بتأديب زوجك، وجزاؤك الحق أن تحرم من طعامي إلى الأبد!». ظفرت خديجة ببغيته فاستردت أدوات جهازها النحاسية، وهيا لها إبراهيم المطبخ كما رسمت، ولكنها خسرت حماتها وفتكت بأسباب المودة التي ربطت بينهما مذ درجت في المهذ، ولم تحتمل أمينة فكرة الخصام فصبرت حتى هدأت النفوس ثم سعت سعيها عند السيدة المبجلة مستعينة بإبراهيم و خليل حتى تم صلح، ولكن أى صلح كان؟ . . كان صلحا لا يكاد يستقر حتى يصطدم بنقار، ثم يعقبه صلح، فنقار من جديد، وهكذا . . وكل واحدة منهما تلقى التبعة على الأخرى، وأمينة بينهما حائرة، وإبراهيم واقف موقف المحايد أو المتفرج، كأن الأمر لا يعنيه، فإذا رأى أن يتدخل تدخلا وانيا وقع بترديد النصيحة في هدوء بل برود غير مبال بتوبيخ أمه أو عتاب زوجه، ولولا إخلاص أمينة ودماثة خلقها لسارت العجوز بشكواها إلى السيد أحمد، ولكنها عدلت عن ذلك كارهاه ومضت تنفس عن صدرها في أحاديثها الطويلة مع كل من يلقاها من الأهل والجيران، معلنة على رءوس الأشهاد بأن اختيارها خديجة زوجة لابنها كان أكبر غلطة ارتكبتها في حياتها وأن عليها أن تتحمل الجزاء .

قال إبراهيم معقباً على كلام خديجة، وهو يبتسم، كأنما ليخفف بابتسامته من وقع تعقيبه:

- ولكنك لم تكتف بالمطالبة بحقك ، بل طعنت بلسانك ما حلا لك
الطعن ، هذا إذا لم تكن خانتني الذاكرة . .

رفعت خديجة رأسها المعصوبة بمنديل بنى فى تحد ، وقالت وهى
ترمق زوجها بنظرة تهكم وغيظ :

- ولم تخونك الذاكرة؟! . هل من أفكار أو مشاغل ترهقها حتى
تخونك! . ، ليت للناس جميعاً ذاكرة هادئة مطمئنة خالية البال
كذاكرتك! . لم تخنك ذاكرتك يا سى إبراهيم ، ولكنها خانتني
أنا! ، والحق أنى لم أتعرض لمقدرة نيتك ، ولم يكن لى بها شأن
ولا حاجة إليها ، فإنى أعرف بحمد الله كافة واجباتى وأعرف كيف
أؤديها على خير وجه ، ولكنى كرهت أن أقبع فى بيتى وأن يجيئنى
الطعام من الخارج كنزلاء الفنادق ، وفضلاً عن هذا كله فإنى لم
أطق - كما يحلو «لبعض الناس» أن أمضى نهارى نائمة أو لاهية
وغيرى يقوم بمهام بيتى .

أدركت عائشة من توها المقصود من «بعض الناس» ، فضحكت ولما
تكمل خديجة كلامها ، ثم قالت بلهجة لطيفة كأنما دافعها الإشفاق :

- افعلى ما يحلو لك ودعى الناس - أو بعض الناس وشأنهم ، لا
شئ الآن يدعو إلى كدرك ، فأنت سيدة مستقلة - عقيبى لمصر -
وتعملين من طلوع الفجر إلى نزول الليل : فى المطبخ ، والحمام ،
وفوق السطح ، وتعنين فى وقت واحد بالأثاث والدجاج
والأولاد ، والجارية سويدان لا تجرؤ على الاقتراب من شقتك أو
حمل ابن من أبنائك ، رياه . . لم هذا العناء وقليل منه يغنى؟! .

أجابت خديجة بحركة من ذقنها ، وهى تغالب ابتسامة دلت على أنها
وجدت فى كلام عائشة ما استأنست إليه ، وعند ذاك قال ياسين :

- بعض الناس يخلقون للسيادة ، وبعضهم يخلقون للعبودية . .
فقال خليل شوكت ، وهو يبتسم كاشفاً عن نيتيه المتراكبتين :

- خديجة هام مثال صالح لست البيت ، غير أنها تتجاهل حقها من الراحة .

فقال إبراهيم شوكت مؤمنا على قوله :

- هذا رأيي بالتمام ، صارحتها به مراراً ، ثم أثرت السكوت تفادياً من وجع الدماغ .

نظر كمال إلى أمه ، وكانت تملأ فئنان خليل للمرة الثانية واستحضر صورة أبيه مقرونة بذكريات جبروته ، فعلت شفثيه ابتسامة ، ثم مد بصره إلى إبراهيم مدهوشا وهو يقول :

- كأنك تخافها !

فقال الرجل وهو يهز رأسه الكبير :

- أنا أنفادى من النكد ما وجدت سبيلاً إلى السلامة ، وأختك تتفادى من السلامة ما وجدت سبيلاً إلى النكد !
هتفت خديجة :

- اسمعوا الحكم (ثم وهى تشير إليه كالمثحدية) أنت تتفادى من اليقظة ما وجدت سبيلاً إلى النوم !
فقال لها أمها ، وهى تحدجها بنظرة تحذير :
- خديجة !

فربت إبراهيم على منكب حماته ، قائلاً :

- عندنا من هذا كثير ! . . ولكن اشهدى بنفسك !

وكان ياسين يردد بصره بين خديجة القوية الممتلئة ، وعائشة النحيقة الرقيقة بحركة متعمدة للفت الأنظار ، ثم قال كالمستنكر :

- حدثمونا عن تعب خديجة المتصل من الفجر إلى الليل ، فأين أثر ذلك التعب ؟ ! . . كأنها هى الالهية وكأن عائشة هى العاملة ! . .

فقالت خديجة ، وهى تبسط راحة يدها فى وجهه مفرجة بين أصابعها الخمس :

- ومن شر حاسد إذا حسد!

ولكن عائشة لم تر تخ لمجرى الحديث الأخير ، فلاحت فى عينيها الزرقاوين الصافيتين نظرة اعتراض ، واندفعت للذود عن نحافتها متجاهلة الغاية الواضحة من ملاحظة ياسين ، وهى تعانى شيئاً من الغيرة فقالت :

- لم تعد السمانة موضوعة العصر (ثم مستدركة عندما شعرت باتجاه رأس خديجة نحوها) ، أو على الأقل فالنحافة موضوعة كذلك عند كثيرات . . !

فقالت خديجة بتهكم :

- النحافة موضوعة العاجزات عن السمانة .

حقق قلب كمال عندما تناهت كلمة «النحافة» إلى سمعه ، فوثب من باطنه إلى مخيلته صورة القامة الفارعة والقدر الممشوق ، فرقص قلبه بطرب روحانى وانبثقت منه النشوات ، ثم احتضنته فرحة صافية نسي فى حلمها الهادئ العميق نفسه ومكانه وزمانه . فلم يدر كم فيها لبث حتى انتبه على ظل سحابة من الأسى تجيء كثيراً ذيلاً لحمله ، لا كما يجيء الغريب الدخيل أو العنصر المتنافر ، ولكنها تتسرب إلى الحلم الباهر كأنها خيط من نسجه أو نعمة من هارمونيته . تنفس تنفساً عميقاً ، ثم جال ببصره الحالم فى الوجوه التى يحبها من قديم ، والتى يبدو أنها تتباهى على نحو أو آخر بحسنها ، خاصة الوجه الأشقر الذى هام زمناً باحتساء الماء من موضع شفتيه . . استرجع هذه الذكرى فى حياء - وما يشبه التأفف - ف شعر بأن أى نموذج من الجمال خلا النموذج المعبود خليف بأن يشير تعصبه وإن حظى بعطفه وجهه .

- لن أرضى عن النحافة ولو فى الرجال (واصلت خديجة حديثها).
انظروا إلى كمال ما أجدره بأن يعنى بزيادة وزنه، لا تظن يا بنى أن طلب العلم هو كل شىء.

أصغى كمال إليها باسماء فى استهانة وهو يتفحص جسمها الذى تراكم لحمه وشحمه، ووجهها الذى توارت بالاكتناز عيوبه، معجباً بروح السعادة والفوز التى تكتنفها، غير أنه لم يجد فى نفسه الرغبة فى مناقشة رأيها، أما ياسين، فقال بتحد وسخرية معاً:

- إذا فأنت راضية عني، لا تكابرى فى هذا!

كان ثانيا ساقه اليمنى تحت طارحا الأخرى على الأرض، وقد فتح- من الحر- طوق جلبابه، فبدت من فتحة فانلته الواسعة خصلات من شعر صدره الأسود الأثيث، فألقت عليه نظرة نافذة، ثم قالت:

- لكنك زدتها حبتين، ثم إن شحمك وصل إلى المخ، وهذا شىء آخر.

نفخ ياسين كاليائس، ثم التفت إلى إبراهيم شوكت متسائلاً فى إشفاق وعطف:

- خبرنى عما تصنع بين زوجك- وهذه حالها- وبين والدتك؟

أشعل إبراهيم سيجارة، وأخذ نفساً، ثم نفخه وهو يطم بوزة مشاركاً أخاه خليل- الذى لم يكن ينزع غليونه من فيه إلا حين يتكلم- فى تعفير جو الصالة، ثم قال فى عدم اكتراث:

- أذنا من طين وأذنا من عجين، هذا ما تعلمته من التجربة!

فقالت خديجة، مخاطبة ياسين بصوت مرتفع وشى بغيتها:

- لا دخل للتجربة فى ذلك، التجربة بريئة وحياتك عندي. المسألة أن ربنا أعطاه طبعاً مثل دندورمة عم بدر التركى، ولو تحركت مئذنة الحسين ما اهتزت له شعرة..!

رفعت أمينة رأسها، فرمقت خديجة بنظرة عتاب وتحذير حتى ابتسمت الابنة وخفضت عينيها فيما يشبه الحياء . وإذا بخليل شوكت يقول فى فخار لطيف :

- هذا طبع آل شوكت ، وهو طبع سلطانى . أليس كذلك؟!
فقال خديجة - بلهجة ذات مغزى - وهى تضحك لتخفف من وقع كلامها :

- من سوء حظى يا سى خليل أن والدتك لم تتطبع بهذا الطبع السلطانى!

فبادرتها أمينة قائلة وقد نفذ صبرها :

- حمائك لا نظير لها فى النساء ، سيدة جليلة بكل معنى الكلمة!!
فمال رأس إبراهيم يسرة ، وهو يحدج زوجه بنظرة من عل التمتع بها عيناه البارزتان ، ثم قال وهو يتنهد فى ظفر :

- وشهد شاهد من أهلها ، الله يكرمك يا حماتى . . (ثم مخاطباً الجميع) يا هوه أمى ست كبيرة ، وفى سن تستوجب الرعاية والحلم ، وزوجى لا تعرف عن الحلم شيئاً . .

فانبرت خديجة للدفاع عن نفسها قائلة :

- أنا لا أغضب بلا سبب ، ولم يكن الغضب من طبعى فى يوم من الأيام ، وهاك أهلى فسلهم عما تشاء!

ساد الصمت . كان أهلها لا يدرون ماذا يقولون ، حتى ندت عن كمال ضحكة ، فلفتت إليه الأنظار ، فلم يتمالك أن يقول :

- أبلة خديجة أغضب حليلة عرفتها!

فتشجع ياسين قائلاً :

- أو هى أحلم غضوب ، والله أعلم . .

انتظرت خديجة حتى هدأت ثائرة الضحك التى أعقبت ذلك . ثم أومأت إلى كمال وهى تهز رأسها فى حسرة ، قائلة :

- خائنى الذى حملته على حجرى أكثر مما حملت أحمد
وعبد المنعم .

فقال كمال كالمعتذر :

- لا أظننى أفسيت سرا . .

وسرعان ما اتخذت أمينة موقفاً جديداً للدفاع عن خديجة التى بدت
فى مركز لا تحسد عليه فقالت باسمه :

- جُلَّ من له الكمال . .

وجارها إبراهيم شوكت فى لباقة قائلاً :

- صدقت ، إن لزوجى مزايا لا يستهان بها ، لعنة الله على الغضب
الذى يصيب أول ما يصيب صاحبه ، لا شيء فى الدنيا يستحق فى
نظرى الغضب !

فقالت خديجة ضاحكة :

- يا بختك ! . . لذلك تمضى الأيام - عيني عليك باردة - وأنت من
التغير فى حصن !

بدا على أمينة الاستياء - لأول مرة - بصورة جدية ، فقالت
فى عتاب :

- ربنا يصون له شبابه ، هو وأمثاله !

تساءل إبراهيم ضاحكاً ، وهو لا يخفى سروره بدعاء حماته :

- شبابه ؟ !

فقال خليل شوكت يجيبه ، وإن وجه الخطاب لأمينة :

- إن التاسعة والأربعين فى آل شوكت تعد من مراحل الشباب !
فعادت أمينة تقول فى إشفاق :

- يا بنى لا تتكلم هكذا ودعونا من هذه السيرة . .

ابتسمت خديجة لما بدا من أمها من إشفاق كانت هى على علم

وإيمان بأسبابه وبواعثه، ذلك أن الإشادة بالصحة جهراً في البيت القديم - صراحة - مكروهة، لتجاهلها «العين» وشرها، وهى نفسها - خديجة - لم تكن لتعالن بقوة صحة زوجها لو لم تكن قضت السنوات الست الأخيرة من حياتها بين آل شوكت، حيث لا تحظى عقائد كثيرة - كالحسد مثلاً - بإيمان عميق، وحيث يخوضون فى أمور شتى بلا خوف - كسير الجن والموت والمرض - يحول الإشفاق والحذر دون الخوض فيها فى البيت القديم، إلى هذا كله، كانت العلاقة بين الزوجين أوثق مما تبدو فى الظاهر، فلم يكن ثمة ما يتهدها من قول أو فعل، كانا زوجين موفقين، يشعر كلاهما فى أعماقه بأنه لا غنى له عن الآخر رغم شتى المآخذ، وقد كان مرض إبراهيم يوماً فرصة غريبة جلت مكنون ما يعمر صدر خديجة من محبة ووفاء. أجل! لم يكن النكار ليسكت بينهما، على الأقل من ناحيتها هى، فلم تكن أمه هدفها الوحيد، ورغم سياسة الرجل وبروده لم يُعَيِّها أن تكتشف فيه موضعاً كل يوم لانتقاد. مثل: كثرة نومه، قبوعه فى البيت بلا عمل، تكبره على مجرد فكرة أن يكون له عمل فى الحياة، ثرثرته التى لا تنتهى، تجاهله لما ينشب بينها وبين أمه من نزاع وملاحاة. . حتى مرت أيام وأيام - على حد تعبير عائشة - لم يكن لها من حديث إلا شكه ولسعه - ولكن رغم هذا كله - أو بفضل هذا، من يدرى؟! فالنكار نفسه يقوم أحياناً بوظيفة الشطة فى تهيج شهوة الطعام - ظلت عواطفهما قوية ثابتة لا تتأثر بما يكدر الظاهر، كأنها التيارات المائية العميقة التى لا يتحول مجراها بفورات السطح وتشنجاته، إلى ذلك لم يسع الرجل إلا أن يقدر نشاطها حق قدره، بعد أن لمس آثاره فى رونق مسكنه ولذة مطعمه وأناقته وملبسه وهندمة ابنه. . فكان يقول لها مداعباً: «الحق أنك لقية يا عجربة!» رغم رأى أمه فى هذا النشاط الذى لم تتردد عن الجهر به فى أوقات الخصام وما أكثرها، فتقول لخديجة ساخرة: «هذه فضيلة الخدم لا الهوام»، فتبادرها خديجة

قائلة: «أنتم أناس لا عمل لكم إلا الأكل والشرب، سيد البيت الحقيقى من يخدمه»، فتقول العجوز مواصلة تهكمها: «لنفوك هذا الكلام فى بيتك كى يخفوا عنك أنك لم تكونى تصلحين فى نظرهم إلا للخدمة!»، فتصيح خديجة: «أنا أعلم بسبب حنقك علىّ، أعلم به منذ لم أجعل لك وزنا فى بيتى»، فتصرخ العجوز: «ياربى اشهد. السيد أحمد عبد الجواد رجل طيب، ولكنه أنجب شيطانة، أنا أستحق ضرب الشيبب جزاء اختيارى لك». فتمضى خديجة وهى تغمغم، حتى لا تتبين المرأة كلامها: «أنت تستحقين ضرب الشيبب... لا أجادللك فى هذا».

نظر ياسين إلى عائشة، وقال وهو يتسم فى خبث:

- ما أسعدك بنفسك يا عائشة، علاقتك حسنة مع جميع الأحزاب!
فأدركت خديجة ما وراء كلامه من التعريض بها، وقالت له وهى تهز كتفها متظاهرة بالاستهانة:

- وقاع يسعى بوقية بين أختين!

- أنا؟!.. حسبى الله، فهو المطلع على حسن نيتى!

وهى تهز رأسها كالأسفة:

- لم تكن يوماً ذانية حسنة!

وقال خليل شوكت، معلقاً على كلام ياسين:

- نحن نعيش فى سلام، وشعارنا: «عش ودع غيرك يعيش»!

فضحكت خديجة حتى بدت أسنانها اللامعة الدقيقة، وقالت بلهجة لم تخل من تهكم:

- بيت سى خليل بيت أفراح، لا يزال هو يلعب بأوتار العود، والهائم تسمع أو تستعرض نفسها فى المرأة أو تحدث هذه أو تلك من صويحاتها من النافذة أو المشربية، ونعيمة وعثمان ومحمد

يلعبون بالمقاعد والوسائد ، حتى إن عبد المنعم وأحمد إذا ضاقا
برقابتي فرأ إلى شقة خالتهما فانضمما إلى فرقة التخریب . . !
تساءلت عائشة باسمه :

- أهذا كل ما ترين فى بيتنا السعيد؟

قالت خديجة بنفس اللهجة :

- أو تغنين ونعيمة ترقص . . !

عائشة بمباهاة :

- حسبى أن جميع الجارات يحبيننى ، وأن حماتى تحببى كذلك . .

- لا أتصور أن أفتح صدرى لإحدى أولئك النسوة الثرثرات ، أما
حماتك فتحب من يتملقها ويسجد لها . .

- يجب أن نحب الناس ، وما أسعد أن يحبنا الناس كذلك ، حقا من
القلب للقلب رسول ، إنهن جميعاً يخشينك وكثيراً ما قلن لى :
«أختك لا ترحب بنا ولا تتعب من تنقُّصنا!» . . (ثم مخاطبة أمها
وهى تضحك) . . لا تزال تسمى الناس بأسماء هزلية ، ثم تتندر
بها فى البيت ، فيحفظها عبد المنعم وأحمد ، ويرددانها فى الحارة
بين الغلمان فتذيع ! . .

عاود الضحك الصامت أمانة ، كذلك ضحكت خديجة فى شىء من
الارتباك ، كأنما طافت بها ذكريات بعض مواقف محرجة ، على حين
راح خليل يقول فى ابتهاج غير خاف :

- بالجملة نحن تخت صغير ، فيه العواد والمطربة والراقصة ! حقا
لا يزال ينقصنا جماعة المنشدين والمرددين ، ولكنى أتوسم فى
أولادى خيراً ، والمسألة مسألة وقت !

فقال إبراهيم شوكت ، موجه الخطاب إلى أمانة :

- أشهد أن بنت بنتك نعيمة راقصة بارعة !

ضحكت أمينة حتى توردد وجهها الشاحب، ثم قالت :

- رأيتها وهى ترقص، ما ألفتها!

قالت خديجة بحماس نطق بحنانها العائلى الماثور:

- ما أجملها!، كأنها صورة من صور الإعلانات.

فقال ياسين:

- ما أجملها عروسا لرضوان!

فقالت عائشة ضاحكة:

- ولكنها بكريه الأسرة!.. آه.. لم يمكننى أن أغالط فى عمرها

كما يجدر بالأمهات!

فتساءل ياسين بعدم اكتراث:

- لماذا يشترط الناس أن تكون العروس أحدث سنا من العريس؟

فلم يجبه أحد، حتى قالت أمينة:

- لن يطول انتظار نعيمة للعريس المناسب!

فعادت خديجة تقول:

- ما أجملها يا ربى!، لم أر لجمالها مثيلاً...

فتساءلت عائشة ضاحكة:

- وأمها؟!.. ألم ترى أمها؟

فقطبت خديجة لتضفى على كلامها صفة الجدية، وهى تقول:

- هى أجمل منك يا عائشة، لن تستطيعى المكابرة فى هذا!

ثم ما لبثت أن عاودتها سخريتها فقالت:

- وأنا أجمل منكما معا!..

«هؤلاء الناس يتحدثون عن الجمال!، ماذا عرفوا من كنه الجمال؟.

تعجبهم ألوان: بياض العاج، وسبائك الذهب. سلونى أنا عنه، ولن

أحدثكم عن السمرة الصافية والأعين السود السواجي والقامة الهيفاء والأناقة الباريسية . كلا! كل أولئك جميل ، ولكنه خطوط وشكول وألوان تخضع فى النهاية للحواس والقياس . الجمال هزة فى القلب جارحة وحياة فى النفس عامرة وهيمان تسبح الروح على أثيره حتى تعانق السماوات . . حدثونى عن هذا إن استطعتم . . » .

- لم يلتمس نساء السكرية ود خديجة هانم؟ . . ربما كان لها مزايا -
كما يشهد بذلك زوجها - ولكن الناس عامة يستهويها الوجه
الصبيح واللسان الحلو . . !

قال ياسين ذلك كى ينكش خديجة من جديد ، بعد أن رأى الحديث
يتحول عنها فى سلام ، فرمته بنظرة كأغما تقول له : « تأبى أن أرحمك » .

ثم قالت وهى تتنهد بصوت مسموع :

- حسبى الله ونعم الوكيل ، لم أكن أعلم أن لى هنا حماة أخرى .

ثم إذا بها تعود من جديد إلى ذلك الموضوع ، ولكن بلهجة جدية
تاركة ياسين وشأنه على غير ما توقع ، فتقول :

- ليس عندى متسع من الوقت كى أضيعه فى الزيارات ، البيت
والأولاد يلتهمون وقتى كله ، خاصة وأن زوجى لا يهتم لا
بالبيت ولا بالأولاد!

قال إبراهيم شوكت ، مدافعاً عن نفسه :

- اتقى الله ولا تغالى شأنك فى كل شىء ، الأمر وما فيه : أنه ينبغى
لمن كان له زوجة كزوجتى أن يقف موقف الدفاع من حين لآخر .
الدفاع عن قطع الأثاث التى تكاد تنبرى من كثرة النفذ والمسح ،
والدفاع عن الأولاد الذين تحملهم فوق ما يطيقون . . آخر العهد
بذاك ، ما علمتم من دفعها عبد المنعم إلى الكتاب ولما يبلغ الخامسة
من عمره!

قالت خديجة بفخار :

- لو اتبعت رأيكم لا ستبقيته فى البيت حتى يبلغ سن الرشد! ، كأن بينكم وبين العلم عداوة ، كلا يا حبيبي ، سينشأ أولادى على ما نشأ عليه أخوالهم . إني أذاكر ل عبد المنعم فى دروسه بنفسى !
ياسين مستكراً :

- أنت تذاكرينه ؟!

- لم لا ؟! كما كانت نينة تذاكر ل كمال ، أجالسه كل مساء فيسمعنى ما يحفظونه فى الكتاب .

ثم وهى تضحك :

- وبذلك أيضاً أستذكر مبادئ القراءة والكتابة التى أخاف أن أنساها بمرور الزمن . .

تورد وجه أمينة حياء وسروراً ، فرنت إلى كمال كأنما تستجديه إشارة إلى ذكر الليالى الخوالى فابتسم إليها ابتسامة ذكور «لتنشئ خديجة ابنيها على ما نشأ عليه أخوالهما ، ليكن منهما من يتأثر كمال الذى يشق السبيل إلى المدرسة العليا ، ليكن منهما من يتشبه بـ . . ، آه ما أضعف الصدور المتصدعة عن تحمل الخفقات الوالهة ، لو امتد به العمر لكان اليوم قاضياً أو فى الطريق إليها ، كم حدثك عن آماله أو آمالك ! ، أين مضى كل ذلك ؟ ، ليتة عاش ولو فردا من غمار الناس » . .

قال إبراهيم شوكت ، مخاطباً كمال :

- لسنّا كما تتهمنا أختك . لقد دخلت امتحان الابتدائية سنة ١٨٩٥ ودخله خليل سنة ١٩١١ ، كانت الابتدائية على أيامنا شيئاً عظيماً على خلاف الحاصل الآن حيث لا يكاد يقنع بها أحد ، لم نواصل التعليم ، لأنه لم يكن فى نيتنا أن نتوظف ، أو بمعنى آخر لم نكن فى حاجة إلى الوظيفة ! . .

أعجب كمال إعجاباً ساخراً بقوله «دخلت امتحان الابتدائية»، ولكنه قال مجاملاً:

- هذا أمر طبيعي ..

كيف يكون للعلم قيمة ذاتية عند ثورين سعيدين؟، كلا كما تجربة ثمينة علمتني أنه من الجائز أن أحب - أى حب كان - من أحتقر .. أو أن أتمنى الخير - كل الخير - لشخص تثير مبادئه فى الحياة نفورى وتقزى، لا أملك إلا أن أكره الحيوانات من صميم قلبى، صار ذلك حقيقة وحقاً مذ هفت على القلب نسمة السماء!

هتف ياسين فى حماس هزلى:

- لتحى الابتدائية القديمة!

- نحن حزب الأغلبية على أى حال!

تضايق ياسين من إقحام خليل نفسه - وأخاه ضمنا - على حزب الابتدائية التى لم ينالها، ولكنه لم يجد بدا من التسليم، على حين راحت خديجة تقول:

- سيواصل عبد المنعم وأحمد التعليم حتى ينالا الدبلوم العالى، سيكونان عهداً جديداً فى آل شوكت، اسمعوا وقع هذين الاسمين جيداً: عبد المنعم إبراهيم شوكت، أحمد إبراهيم شوكت، .. ألا يرن الاسم رنين «سعد زغلول»؟!

فصاح إبراهيم ضاحكاً:

- من أين لك هذا الطموح كله؟

- لم لا؟ .. ألم يكن سعد باشا مجاوراً بالأزهر؟! . من الجراية إلى رئاسة الوزراء، وكلمة منه تقيم الدنيا وتقعدها، ليس شىء على الله بكثير!!

تساءل ياسين متهكماً:

- هلا قنعت بأن يكونا مثل عدلى أو ثروت؟

فصاحت كأنستعيذة بالله :

- الخونة؟! لن يكونا من الذين هتف الناس بسقوطهم ليل نهار!

أخرج إبراهيم من جيب بنطلونه منديلاً، ومسح به وجهه الذى زادت حمرة عمقاً بحرارة الجو ونضح عرقاً بما يشرب من ماء مثلوج وقهوة ساخنة، ثم قال وهو آخذ فى تجفيفه :

- لو أن لشدة الأمهات فضلاً فى خلق العظماء، فأبشرى من الآن بما ينتظر ابنك من مجد كبير!

- تريدنى على أن أتركهما وشأنهما؟

قالت عائشة بركة :

- لا أذكر أن نينة انتهرت أحداً منا فضلاً عن ضربه، ألا تذكرين؟

فقالت خديجة كالأسفة :

- لم تلجأ نينة إلى الشدة، لأن بابا كان هناك! كان ذكره كافياً للإلزام كل حده، أما عندى، أو عندك فالحال من بعضه، فالأب غير موجود إلا بالاسم (اضطرت أن تضحك) ما عسى أن أفعل وال حال كذلك؟ إذا كان الأب أمّا، فعلى الأم أن تكون أباً..!

ياسين مبتهجاً :

- يقينى أنك نجحت فى أبوتك! أنت أب.. هذا ما شعرت به طويلاً، ولكن كانت تنقصنى معرفته!

فتظاهرت بالرضى قائلة :

- أشكرك يا بمة كشر..

«خديجة وعائشة، صورتان متعارضتان.. تأمل جيداً، أيهما تظن الأجدر بأن تكون معبودتك على مثالها؟.. أستغفر الله! معبودتى على غير مثال، لا أتصورها ربة بيت.. ما أبعد هذا عن التصور! معبودته فى

ثياب البيت تنهه طفلاً أو ترعى مطبخاً؟! يا للفرع ويا للتفرز، بل لاهية أو سادرة أو رافلة في حلة باهرة في حديقة أو سيارة أو ملهى، ملاك في زيارة طارئة سعيدة للنديا، جنس مفرد غير سائر الأجناس لا يعرفه إلا قلبى، لا يجمعها وهؤلاء النسوة إلا تسمية العاجز عن معرفة الاسم الحقيقى، لا يجمع جمالها وجمال عائشة وسائر ألوان الجمال إلا تسمية العاجز عن معرفة الاسم الحقيقى، هاك حياتى أكرسها لمعرفتك، هل ثمة وراء ذلك ظماً لعرفان؟» .

- يا ترى ما أخبار مريم؟

تساءلت عائشة حال خطرت صديقتها القديمة ببالها، فأحدث الاسم آثاراً متباينة فى كثير من الجالسين، تغير وجه أمينة حتى غمت أساريه عن الامتعاض الشديد، تجاهل ياسين السؤال كأنه لم يسمعه متشاعلاً بتفحص أظافره، وردت رأس كمال جملة من ذكريات هزت نفسه هزاً، أما خديجة فأجابتها بلهجة باردة:

- أى أخبار جديد تتوقعين؟ طلقت وعادت إلى بيتها!

انتبهت عائشة - بعد فوات الفرصة - إلى أنها انزلت سهواً إلى ورطة، وأنها أساءت إلى أمها بهفوة لسان. ذلك أن أمها آمنت منذ عهد بعيد بأن مريم وأم مريم لم تصدقا فى حزنهما على فهمى، إن لم تكونا شمتتا بهم من أجل ذلك، لما سبق من معارضة السيد فى خطبة مريم للفقيد. وكانت خديجة البادئة بترديد ذلك الظن، فتابعته الأم عليه بلا تردد أو تفكير، وسرعان ما تغيرت عواطفهما نحو جارتها القديمة حتى أوحى ذلك بالتنكر فالتقطعة.

قالت عائشة بارتباك، محاولة الاعتذار عما بدر منها:

- لا أدرى ماذا دعانى للسؤال عنها؟

فقال أمينة بانفعال ظاهر:

- ما ينبغي لك أن تفكرى فيها .

كانت عائشة قد أعلنت شكها - عند ذلك التاريخ - فى واقعية التهمة التى ألصقت بصديقتها، معتلة بأن الخطبة وما دار حولها بقى طى الكتمان، فلم يتناه نبؤه إلى بيت مريم فى حينه، مما ينفى على الفتاة وألها دواعى الشماتة . . ولكن أمها لم تر رأيها محتجة بأن مسألة خطيرة كهذه المسألة مما يتعذر منع تسرب خبرها إلى أصحاب الشأن فيها، فلم تلبث عائشة وراء رأيها طويلاً خشية أن تتهم بمحاباة مريم أو بفتور حماسها لذكرى شقيقها، لكنها بإزاء انفعال أمها، وجدت نفسها مساقاة إلى تلطيف وقع هفوتها، فقالت :

- لا يدرى بالحقيقة يا نينة إلا الله . . لعلها بريئة مما رميناها به .

فاشتد امتعاض أمينة على خلاف ما توقعت عائشة، حتى لاحت فى وجهها بوادى غضب بدت غريبة عنها لما عرف عنها من حلم وهدوء، وقالت بصوت متهدج :

- لا تحدثينى عن مريم يا عائشة .

وصاحت خديجة مشاركة أمها فى عواطفها :

- قُطعت مريم وسيرتها!

فابتسمت عائشة فى ارتباك دون أن تنبس . وقد لبث ياسين متشاغلاً بأظافره حتى انتهى ذاك الحديث الحامى، وأوشك مرة أن يشترك فيه متشجعاً بقول عائشة «لا يدرى بالحقيقة يا نينة إلا الله . .»، ولكن اندفاع أمينة إلى الرد عليها بذاك الصوت المتهدج غير المعهود أسكته . أجل أسكته وانطلق لسانه باطنياً بالشكر على نعمة السكوت . وكان كمال يتابع الحديث باهتمام وإن لم يبد أثره على وجهه، وقد أكسبه حمل الحب عهداً طويلاً - فى ظروف حساسة غير مواتية - قدرة على التمثيل تحكم بها فى كتمان عواطفه ومطالعة الناس - إن دعت الضرورة - بمظهر على تقيض مخبره، فذكر ما سمع قديماً عن «شماتة» آل مريم،

ومع أنه لم يأخذ التهمة مأخذ الجد إلا أنه تذكر عهد الرسالة السرية التي ذهب بها إلى مريم والرد الذي عاد به إلى فهمي ، ذلك سر قديم صانه ولم يزل مستمسكاً بصونه رعاية لعهد أخيه واحتراماً لرغبته ، وقد لذ له أن يعجب كيف لم يفقه معنى الرسالة التي حملها إلا أخيراً ، حين انبثقت معانيها في نفسه خلقاً جديداً . . كان - على حد تعبيره - حجراً يحمل نقوشاً مبهمه حتى جاء الحب فحل رموزها ، ولم يفته أن يلاحظ غضب أمه ، وهو ظاهرة جديدة في حياتها لم تكن تعرفها قبل العهد المشثوم ، لم تعد كما عهد ، أجل لم تتغير تغيراً خطيراً أو دائماً ولكنها غدت عرضة بين الحين والحين لنوبات لم تكن تطرأ عليها ولم تكن إذا طرأت تستسلم لها ، ما عسى أن يقول في ذلك؟ إن قلب الأم الجريح الذي لا يعرف عنه إلا شذرات وقع عليها ضمن مطالعته ، شد ما يتألم لها ، ثم ما وراء عائشة وخديجة؟ هل يمكن أن تُرمى عائشة بيروء نحو ذكرى فهمي؟ لا يتصور هذا ولا يطيقه ، إنها امرأة سليمة الطوية وفي قلبها متسع للصدقة والمودة ، تميل فيما يبدو - ولها عذرهما - إلى تبرئة مريم ، ولعلها تحن إلى عهدا بهذا القلب المفتوح للناس جميعاً ، أما خديجة فقد ازدردتها الحياة الزوجية ، لم تعد إلا أمّاً وربة بيت ، لا حاجة بها إلى مريم أو غيرها ، لم يبق لها من ماضيها إلا عواطفها الثابتة نحو أسرتها ، نحو أمها خاصة ، فهي تدور حيث تدور ، ما أعجب هذا كله !

- وأنت يا سى ياسين إلام تبقى أعزب؟

وجه إبراهيم هذا السؤال إلى ياسين ، مدفوعاً برغبة صادقة في تنقية الجو مما شابه ، فأجابه ياسين مازحاً :

- غادرني الشباب وقضى الأمر!

فقال خليل شوكت بلهجة جدية ، دلت على أنه لم يظن إلى ما في قول ياسين من مزاح :

- لقد تزوجت وأنا فى مثل سنك تقريباً، أأست فى الثامنة والعشرين؟

فتضايقت خديجة من ذكر سن ياسين الذى كشف بطريقة غير مباشرة عن سنّها، فخاطبت ياسين قائلة بلهجة حادة:

- هلا تزوجت وأرحت الناس من حديث عزوبيتك؟

فقال ياسين رامياً - قبل كل شىء - إلى التودد إلى أمينة:

- مرت بنا أعوام أنست الإنسان رغائبه!

ارتد رأس خديجة إلى الوراء، كأنما دفعته قبضة يد، ثم رمته بنظرة كأنما تقول «غلبتنى يا شيطان»، ثم قالت وهى تتنهد:

- آه منك!، قال إن الزواج لم يعد يروقك وهو الأصديق!

فألت أمينة ممتنة لتودده:

- ياسين رجل طيب، والرجل الطيب لا يمتنع عن الزواج إلا مضطراً، الحق أن لك أن تفكر فى استكمال دينك ..

يا طالما فكر فى استكمال دينه، لا ليحرب حظه من جديد فحسب ولكن رغبة فى رد الإهانة التى لحقت به يوم اضطر - بدافع من أبيه - إلى تطبيق زينب إنفاذاً «لمشيئة» أبيها محمد عفت!! ثم كان مصرع فهمى فصرفه عن التفكير فى الزواج حتى كاد يآلف هذه الحياة الطليقة ويعتادها، غير أنه قال لأمينة، وكان يؤمن بما يقول:

- لا بد مما ليس منه بد، وكل شىء رهن بوقته ..

قطع عليهم أفكارهم بغتة ضجة وصياح وضوضاء جاءت من ناحية السلم، مختلطة بوقع أقدام متدافعة، فاتجهت الأبصار متسائلة نحو باب السلم، وما هى إلا لحظة حتى ظهرت أم حنفى على عتبة الباب عابسة لاهثة، وهى تصيح:

- الأولاد يا ستي، سى عبد المنعم وسى رضوان متشابكان، رمونى بالحصى وأنا أخلص بينهما ..

قام ياسين وخديجة، فهرعا إلى الباب، ثم نفذا إلى السلم، ومضت دقيقة أو دقيقتان عاذا بعدها، ياسين قابضاً على يد رضوان، وخديجة دافعة أمامها عبد المنعم وهى تلكمه برحمة فى ظهره، ثم تابعت البقية مهللة، فجرت نعيمة إلى أبيها خليل، وعثمان إلى عائشة، ومحمد إلى جدته أمينة، وأحمد إلى أبيه إبراهيم، ثم جعلت خديجة تنتهر عبد المنعم وتنذره بأنه لن يرى بيت جده مرة أخرى، حتى صاح بصوت باك، وهو يشير متهماً إلى رضوان الذى جلس بين أبيه وكمال:

- قال إنهم أغنى منا ..

فصاح رضوان محتجاً:

- هو الذى قال لى إنهم أغنى منا، وقال أيضاً: إنهم يملكون بوابة المتولى بكنوزها!

فطيب ياسين خاطره، وهو يقول ضاحكاً:

- اعذره يا بنى، إنه مزأع مثل أمه .. !

فقالت خديجة لرضوان، وهى لا تتمالك نفسها من الضحك:

- تتشاجران على بوابة المتولى؟! عندك يا سيدى باب النصر وهى قريبة من بيت جدك، فخذها ولا تتشاجر!

فقال رضوان، وهو يهز رأسه بإباء:

- فيها أموات لا كنوز، فليأخذها هو!

عند ذاك علا صوت عائشة، وهى تقول برجاء وإغراء:

- صلوا على النبى، أمامكم فرصة نادرة كى تسمعوا نعيمة وهى تغنى، ما رأيكم فى هذا الاقتراح؟ ..

فجاءها الاستحسان والتشجيع من أركان الصلاة جميعاً، حتى رفع خليل نعيمة بين يديه ووضعها على حجره، وهو يقول لها «أسمعي هذا الجمهور صوتك . الله . . الله . . إياك والخبجل، أنا لا أحب الخجل»، ولكن نعيمة غلب عليها الخجل، فدفنت وجهها في حجر أبيها حتى لم يعد يبدو منه إلا هالة من نضار الذهب، وحانت من عائشة التفاتة، فرأت محمد وهو يحاول عبثاً أن ينزع الشامة من خد جدته، وقامت إليه وعادت به إلى مجلسها رغم ممانعته، ثم واصلت تشجيع نعيمة على الغناء، وألح معها خليل حتى همست الصغيرة في أذن أبيها بأنها لن تغنى إلا إذا توارت عن الأنظار وراء ظهره، فسمح لها بما أرادت، فزحفت على أربع حتى لبدت بين ظهره ومسد الكنبه . . وعند ذاك شمل الصلاة سكون باسم مترقب، وامتدت فترة السكوت فأوشك خليل أن يفقد صبره، ولكن صوتاً رقيقاً لطيفاً بدأ يتكلم فيما يشبه الهمس، ثم أخذ يتشجع رويداً رويداً، حتى سرت في نبراته الحرارة فعلاً مغنياً:

و تعال عندنا	حوّد من هنا
نحب بعضنا	يا اللي أنا وانت

وراحت الأيدي الصغيرة تصفق على إيقاعه .

٤

- أن لك أن تخبرني عن المدرسة التي تنوى الالتحاق بها . .
كان السيد أحمد عبد الجواد متربّعاً على الكنبه بحجرة نومه، على

حين جلس كمال على طرفها المواجه للباب شابكا ذراعيه على حجره يكتنفه الأدب والطاعة . ود السيد لو يجيبه الفتى قائلاً: «الرأى رأيك يا أبى» . بيد أنه كان مسلماً بأن اختيار المدرسة ليس من الأمور التى يدعى لنفسه فيها حقاً مطلقاً، وأن موافقة الابن عامل جوهرى فى الاختيار، إلى أن مدى علمه بالموضوع كله كان محدوداً جداً، وقد استمد أكثره مما يثار أحياناً فى بعض مجالسه بين أصحابه من الموظفين والمحامين الذين أجمعوا على الإقرار بحق الابن فى اختيار نوع دراسته تفادياً من الإخفاق والفشل ، لهذا كله لم يستنكف أن يجعل الأمر شورى مسلماً أمره إلى الله . .

- نويت يا بابا بإذن الله، وبعد موافقة حضرتك طبعاً! الالتحاق بمدرسة المعلمين العليا!

ندت عن رأس السيد حركة موحية بالانزعاج، واتسعت عيناه الزرقاوان الواسعتان، وهو يحدج ابنه بغرابة، ثم قال بنبرات ناطقة بالاستنكار:

- المعلمين العليا! . . مدرسة المجانية! . أليس كذلك؟

فقال كمال بعد تردد:

- ربما، لا أدرى شيئاً عن هذا الموضوع . .

فلوح السيد بيده مستهزئاً، كأنما أراد أن يقول له: «ينبغى أن تتجمل بالصبر قبل أن تقطع برأى فيما ليس لك به علم»، ثم قال بازدراء:

- هى كما قلت لك، ولذلك يندر أن تجذب أحداً من أولاد الناس الطيبين، ثم إن مهنة المعلم . . أتدرى شيئاً عن مهنة المعلم أم أن علمك بها لا يعدو علمك بمدرستها؟ هى مهنة تعيسة لا تحوز احترام أحد من الناس، إنى عليم بما يقال عن هذه الشئون، أما أنت فغرف صغير لا تدرى من أمور الدنيا شيئاً، هى مهنة يختلط فيها

الأفندى بالمجاور، خالية من كل معانى العظمة والجلال، ولقد عرفت أنا من الأعيان والموظفين المحترمين يأبون - الإباء كله - أن يزوجوا بناتهم من معلم مهما تكن مكانته . .
ثم بعد أن تجشأ ونفخ طويلاً:

- فؤاد بن جميل الحمزاوى، وهو من كنت تخلع عليه البالى من بذلك سيلتحق بمدرسة الحقوق، ولد ذكى متفوق ولكنه ليس أذكى منك، وقد وعدت أباه بالمعاونة فى تسديد مصروفاته حتى تتحقق له المجانية، فكيف أنفق على أولاد الناس فى المدارس المحترمة وابنى يتعلم بالمجان فى المدارس الحفيرة؟! . . .

كان هذا التقرير الخطير عن «المعلم ورسالته» مفاجأة مزعجة لكمال . لم هذا التحامل كله؟ لا يمكن أن يرجع ذلك إلى علم المعلم الذى هو تلقين العلم، فهل يرجع إلى مجانية المدرسة التى تخرجه؟ لم يكن يتصور أن يكون للغنى أو للفقر دخل فى تقدير العلم أو أن يكون للعلم قيمة خارجة عن ذاته . كان يؤمن بذلك إيماناً عميقاً لا يمكن أن يتزعزع، كما يؤمن بكفالة الآراء السامية التى يطلع عليها فى مؤلفات رجال يحبهم ويعتز بهم، مثل: المنفلوطى، والمويلحى وغيرهما . كان يعيش بكل قلبه فى عالم «المثال» كما ينعكس على صفحات الكتب، فلم يتردد فيما بينه وبين نفسه عن تخطئة رأى أبيه رغم جلاله ومكانته من نفسه، معترداً عن ذلك بجناية المجتمع المتأخر عليه، وأثر «الجهلاء» من أصحابه فيه، وهو ما أسف له كل الأسف، بيد أنه لم يسعه إلا أن يقول ملتزماً غاية ما يستطيع من الأدب والرقه، وكان فى الواقع يردد نصاً من مطالعته:

- العلم فوق الجاه والمال يا بابا . .

ردد السيد رأسه بين كمال وبين صوان الملايس، كأنما يُشهد شخصاً غير منظور على خرق الرأى الذى سمع، ثم قال باستياء:

- حقاً؟! عشت حتى أسمع هذا الكلام الفارغ، كأن ثمة فرقاً بين الجاه والعلم! لا علم حقيقى بلا جاه ومال. ثم مالك تنكلم عن العلم كأنه علم واحد! ألم أقل لك إنك غر صغير؟ هنالك علوم لا علم واحد. للصعاليك علومهم، وللباشوات علومهم. افهم يا جاهل قبل أن تندم!

كان على يقين من احترام أبيه للدين ولأهله بالتالى، فقال بمكر:
- إن الأزهريين يتعلمون كذلك بالمجان ويستغلون بالتدريس، ولكن أحداً لا يستطيع أن يحتقر علومهم..
فأوماً له بذقنه باحتقار، وهو يقول:
- الدين شىء، ورجال الدين شىء آخر!
فقال مستمداً من اليأس قوة يستعين بها على مناقشة الرجل الذى لم يتعود إلا طاعته:

- ولكنك يا بابا تحترم علماء الدين وتحبهم!
فقال السيد بلهجة لم تخل من حدة:
- لا تخلط بين الأمور، أنا أحترم الشيخ متولى عبد الصمد وأحبه كذلك، ولكن أن أراك موظفاً محترماً أحب إلى من أن أراك مثله، ولو سرت بالبركة بين الناس ودفعت عنهم السوء بالأحجية والتعاويد.. لكل زمان رجال، ولكنك لا تريد أن تفهم!
تفحص الرجل الشاب ليسبر أثر كلامه فيه، فغض كمال بصره، وعض على شفته السفلى، وجعل يرمش، ويحرك زاوية فيه اليسرى فى عصبية. يا عجباً!. ألهذا الحاضر يصبر الناس على ما فيه ضرر محقق لهم؟. وأوشك أن ينفجر غاضباً، ولكنه تذكر أنه إنما يعالج أمراً خارجاً عن نطاق سلطته المطلقة، فكظم غيظه، وسأله:

- ولكن ما الذى جعلك تتحمس لمدرسة المعلمين وحدها كأنها

استأثرت بالعلم كله؟! ما الذى لا يروقك فى مدرسة الحقوق مثلاً؟
أليست هى المدرسة التى تخرج الكبراء والوزراء؟ أليست هى
المدرسة التى تتقف بعلموها سعد باشا وأضرابه من الرجال؟
ثم بصوت منخفض، وقد عكست عيناه نظرة واجمة:
- وهى المدرسة التى وقع اختيار المرحوم فهمى عليها بعد رؤية
وتفكير، ولو لم يعاجله الأجل لكان اليوم من رجال النيابة أو
القضاء، أليس كذلك؟
قال كمال بتأثر:

- جميع قولك حق يا بابا، ولكننى لا أحب دراسة القانون!
ضرب الرجل كفا بكف، وهو يقول:
- لا يحب!، وما دخل الحب فى العلم والمدارس؟! قل لى ماذا
تحب فى مدرسة المعلمين؟ أريد أن أعرف أمارات الحسن التى
فتنتك فيها، أم أنت ممن يحبون الرمامة؟ تكلم ها أنا مصغ
إليك..

نذت عنه حركة، كأنه يستجمع قواه لإيضاح ما غمض على أبيه من
الرأى، ولكنه كان مسلماً بصعوبة مهمته، ومقتنعاً فى الوقت نفسه بأنها
ستجر عليه مزيداً من السخريات التى ذاق أمثلة منها فيما سلف من
النقاش، وفضلاً عن هذا كله، فلم يكن يستبين هدفاً واضحاً محدداً
حتى يستطيع بدوره أن يوضحه لأبيه، فما عسى أن يقول؟ فى وسعه إذا
تأمل قليلاً أن يعرف ما لا يريد، فليس القانون ببغيته ولا الاقتصاد ولا
الجغرافيا ولا التاريخ ولا اللغة الإنجليزية وإن كان يقدر أهمية المادتين
الأخيرتين لما يتطلع إليه، هذا ما لا يريد، فما الذى يريد؟ إن فى نفسه
أشواقاً تحتاج إلى عناية وتأمل حتى تنضح أهدافها، ولعله غير متأكد من
أنه سيعتبر بها فى مدرسة المعلمين، وإن رجح عنده أن تكون - هذه

المدرسة - أقصر سبيل إليها . أشواق تهزها مطالعات شتى لا تكاد تجمعها صفة واحدة: مقالات أدبية، واجتماعية، ودينية، وملحمة عتتر، وألف ليلة، والحماسه، والمنفلوطى، ومبادئ الفلسفة، إلى أنها ربما لم تكن مقطوعة الصلة بالأحلام التى كاشفه بها ياسين قديماً، بل والأساطير التى سكبتها فى روحه أمه من قبل ذلك . . كان يحلوه أن يطلق على هذا العالم الغامض اسم «الفكر»، وعلى نفسه اسم «المفكر»، فيؤمن بأن حياة الفكر أسمى غاية للإنسان تتعالى بطبعها النورانى على المادة والجاء والألقاب وسائر ألوان العظمة الزائفة . . هى كذلك!! وضحت معالمها أم لم تتضح، فاز بها فى مدرسة المعلمين أم لم تكن هذه المدرسة إلا وسيلة إليها، لا يملك عقله أن يتحول عن هذه الغاية أبداً، ولكن من الحق كذلك أن يقر بأن ثمة صلة قوية تربطها بقلبه أو بالحرى بحبه! كيف كان ذلك؟ ليس بين «معبودته» وبين القانون أو الاقتصاد من سبب، ولكن ثمة أسباب وإن دقت وخفيت بينها وبين الدين والروح والخلق والفلسفة وما شاكل ذلك من المعارف التى يستهويه النهل من منابعها، على نحو يشبه ما بينها وبين الغناء والموسيقى من أسرار يتشوف إليها فى هزة الطرب وأريحية النشوة . إنه يجد هذا كله فى نفسه ويؤمن به كل الإيمان، ولكن ما عسى أن يقول لأبيه؟ . لجأ مرة أخرى إلى المكر، وهو يقول:

- إن مدرسة المعلمين تدرس علوماً جلييلة، كتاريخ الإنسان الحافل بالعظاات، وكاللغة الإنجليزية!

كان السيد يتفحصه وهو يتكلم، وإذا بمشاعر الاستياء والحنق تزايله فجأة . تأمل - وكأنه يراه لأول مرة - نحافته وضخامة رأسه وكبر أنفه وطول عنقه، فوجد فى منظره غرابة تضاهى ما فى آرائه من شذوذ، وأوشكت روحه الساخرة أن تضحك فى باطنه، ولكن عطفه وحبه أيا عليه ذلك، غير أنه تساءل فيما بينه وبين نفسه: النحافة ظاهرة مؤقتة،

الأنف عندى مصدره، ولكن من أين له هذا الرأس العجيب؟ أليس من المحتمل أن يعرض له شخص - مثلى - ممن ينقبون عن العيوب صيدا لمزاحهم؟ ضايقته هذه الفكرة مضايقة ضاعفت من عطفه عليه، فعندما تكلم جاء صوته أهدأ نبرة وأدنى إلى الحلم والنصح، قال:

- العلم فى ذاته لا شىء، والعبرة بالنتيجة، القانون يفضى بك إلى وظيفة القضاء، أما التاريخ والعظات فمؤداها أن تكون معلماً بائساً، عند هذه النتيجة قف طويلاً وتأمل (ثم ونبرات صوته تعلو قليلاً فى شىء من الحدة) لا حول ولا قوة إلا بالله، عظات وتاريخ وسخام، هلا حدثنى بكلام معقول؟!!

تورد وجه كمال حياء وألما وهو يستمع إلى رأى أييه فى المعارف والقيم السامية التى يقدهسها، وكيف استنزلها إلى مستوى السخام وقرنها به، غير أنه لم يعدم عزاء فيما ورد ذهنه - فى لحظته تلك - جليل دون شك، إلا أنه ضحية زمان ومكان ورفاق - ترى هل يجدى معه النقاش؟ هل يجرب حظه مرة أخرى مستعينا بمكر جديد؟

- الواقع يا بابا أن هذه العلوم تحوز أكبر التقدير فى الأمم الراقية؟ إن الأوروبيين يقدهسونها، ويقىمون التماثيل للناغبين فيها!

حول السيد وجهه عنه، ولسان حاله يقول: «اللهم طوِّك يا روح»، بيد أنه لم يكن غاضباً حقاً، ولعله رأى الأمر كله مفاجأة مضحكة لم تخطر له ببال، ثم أعاد إليه وجهه، وهو يقول:

- بصفتى والدك! أريد أن أطمئن على مستقبلك، أريد لك وظيفة محترمة، هل يختلف اثنان فى هذا؟ الذى يهمنى حقاً أن أراك موظفاً مهذباً لا مدرساً بائساً وإن أقاموا له تمثالاً كإبراهيم باشا أبى أصبع! يا سبحان الله! عشنا وشفنا وسمعنا العجب! ما لنا نحن وأوربا؟! أنت تعيش فى هذا البلد، فهل هو يقيم التماثيل

للمعلمين؟ . . دلنى على تمثال واحد لمعلم؟! (ثم بلهجة استنكارية) خبرنى يا بنى : أتريد وظيفة أم تمثالاً؟!

ولما لم يجد إلا الصمت والارتباك، قال فيما يشبه الحزن :

- فى رأسك أفكار لا أدرى كيف اندست إليه، إنى أدعوك إلى أن تكون واحداً من الرجال العظماء الذين يهزون الدنيا بجلالهم ومراكزهم، فهل عندك مثال تتطلع إليه لا أدره؟ صارحنى بما فى نفسك حتى يرتاح بالى وأدرك غرضك، الحق أنى فى حيرة من أمرك!!

فليتقدم خطوة جديدة يفصح بها عن بعض ما فى نفسه وأمره لله،
قال :

- هل من العيب يا بابا أن أتطلع إلى أن أكون كالمفلوطى يوماً ما؟
قال السيد بدهشة :

- الشيخ مصطفى لطفى المفلوطى؟! . . رحمة الله عليه رأيت أكثر من مرة فى سيدنا الحسين . . لكنه لم يكن معلماً فيما أعلم، كان أعظم من هذا بكثير، كان من جلساء سعد وكتّابه، ثم إنه كان من الأزهر لا من المعلمين، ولا شأن للأزهر نفسه بعظمته، كان هبة من الله . . هكذا يقولون عنه!! نحن نبحث فى مستقبلك والمدرسة التى ينبغى أن تدخلها ولندع ما لله لله، فإن كنت أنت الآخر هبة من الله أيضاً، فستكون فى عظمة المفلوطى وأنت وكيل نيابة أو قاض، لمَ لا؟!!

كمال، وهو يناضل فى استماتة :

- لست أتطلع إلى شخص المفلوطى فحسب ولكن إلى ثقافته أيضاً، ولا أجد مدرسة هى أقرب إلى تحقيق غرضى، أو فى الأقل إلى تمهيد السبيل إليه من مدرسة المعلمين، لذلك أثرتها، ليس بى من

رغبة خاصة فى أن أكون معلمًا، بل لعلنى لم أقبل هذا إلا لأنه السبيل المتاح إلى ثقافة الفكر . .

الفكر؟! . . وردد مقطع أغنية الحامولى «الفكر تاه اسعفينى يا دموع العين» الذى طالما أحبه واستعاده فيما مضى من زمانه، أهذا هو الفكر الذى يسعى وراءه ابنه؟ سأله بدهشة :

- ما هى ثقافة الفكر؟

لجأت به الحيرة، فازدرد ريقه، وقال بصوت منخفض :

- لعلنى لا أعرفها، (ثم يتسم متوددًا) لو كنت أعرفها لما كان بى حاجة إلى طلب تعلمها!

فسأله مستنكرًا :

- إذا كنت لا تعرفها فبأى حق اخترتها؟ . . هه . . هل تهيم بالضعة لوجه الله؟

تغلب على ارتبাকে بجهد شديد، وقال مدفوعا باستماتته فى الدفاع عن سعادته :

- إنها أكبر من أن يحاط بها، إنها تبحث فيما تبحث عن أصل الحياة ومآلها!

تأمله مليًا فى ذهول قبل أن يقول :

- أمن أجل هذا تريد أن تضحى بمستقبلك؟ أصل الحياة ومآلها؟! أصل الحياة آدم، ومصيرنا إلى الجنة أو النار، أم جد جديد فى ذلك؟

- كلا، أعلم هذا، أريد أن أقول . .

فعاجله قائلاً :

- هل جننت؟ . . أسألك عن مستقبلك، فتجيبنى بأنك تريد أن

تعرف أصل الحياة ومآلها؟! . . وماذا تعمل بعد ذلك؟ . . تفتح دكانًا لاستطلاع الغيب؟!!

خاف كمال إن هو استسلم للارتباك والصمت أن يغلب على أمره أو يضطر إلى التسليم بوجهة نظر أبيه ، فقال مستنجداً شجاعته :

- اعذرني يا بابا إذا لم أكن أحسنت التعبير عن رأيي ، أريد أن أواصل دراستي الأدبية التي بدأتها بعد الكفاءة ، أن أدرس التاريخ واللغات والأخلاق والشعر ، أما المستقبل فأمره بيد الله !

فهتف السيد متهمكماً حانقاً ، وكأنما يتم سرد ما سكت كمال عنه :

- وأدرس أيضاً فن الحوارة والقره جوز وفتح المندل ونبين زين نبين .
لمَ لا ، اللهم غفرانك ، أكنت حقاً تدخر لي هذه المفاجأة؟ ..
لا حول ولا قوة إلا بالله !

اقتنع السيد أحمد بأن الحال أخطر مما قدر ، فحار في أمره ، وجعل يسائل نفسه : أأخطأ فيما أباح لابنه من حرية القول والرأي؟ ، كلما مد له في حبل الصبر والتسامح لج الآخر في العناد وتمادى في الجدل . .
وما لبث أن قام في نفسه صراع بين نزعتيه الاستبدادية وبين تسليمه بحق «اختيار المدرسة» ، حرصاً على مستقبل كمال من ناحية وكراهية للانتهزام من ناحية أخرى ، ولكنه انتهى على غير عادته - أو بالأحرى على غير عادته في الزمن القديم - بتغليب الحكمة ، فعاد إلى النقاش وهو يقول :

- لا تكن غرّاً ، ثمة شيء في عقلك لا أدريه أسأل الله لك منه النجاة ، ليس المستقبل لهوا ولعباً ، ولكنه حياتك التي لن تكون لك حياة غيرها ، فكر في الأمر طويلاً ، الحقوق خير مدرسة لك ، إنني أفهم الدنيا خيراً منك ، ولي أصدقاء من كافة الطبقات ولا خلاف بينهم في ذلك ، أنت طفل أحرق ، ألا تدري ما هي النيابة ، وما هو القضاء؟ هذه وظائف تهز الأرض هزاً وفي وسعك أن تتبوا واحدة منها ، كيف تعرض عنها بكل بساطة وتختار أن تكون . . معلماً؟ !

شد ما يتألم - لا غضبا لكرامة المعلم فحسب - ولكن غضباً لكرامة العلم أولاً وأخيراً، العلم الحقيقي فى نظره! لم يكن حسن الظن بالوظائف التى تهز الأرض هزاً، فطالما وجد الكتاب المسيطرين على روحه يطلقون عليها العظمة الزائفة والمجد الزائل وغير ذلك من نعوت الاستهانة والاستخفاف، فأمن - تبعاً لأقوالهم - بألا عظمة حقيقية إلا فى حياة العلم والحقيقة، واقتربت من ثم كل مظاهر السلطان والجاه فى ذهنه بالزيف والتفاهة، غير أنه تحاشى الإفصاح عن إيمانه هذا أن يستفحل غضب أبيه، وقال برقة وتودد:

- على أى حال مدرسة المعلمين مدرسة عليا!

تفكر السيد ملياً، ثم قال متبرماً يائساً:

- إذا لم تكن بك رغبة فى الحقوق، وبعض الناس يعشقون التعاسة، فاختر مدرسة محترمة: الحرية، البوليس... وشئ خير من لا شئ!

فقال كمال منزعجاً:

- أدخل الحرية أو البوليس وقد نلت البكالوريا؟

- ما حيلتى إذا لم يكن لك فى الطب نصيب؟!

عند ذاك شعر بضوء آت من ناحية المرأة أقلق عينه اليسرى، فمد بصره صوب الصوان، فرأى أشعة شمس العصر المائلة المتسربة إلى الحجرة من النافذة المطلة على الفناء، وقد زحفت من الجدار المواجه للفرش حتى غيبت جانب المرأة، مؤذنة باقتراب موعد انصرافه إلى الدكان، فتزحزح قليلاً مبتعداً عن الضوء المنعكس، ثم نفخ نفخة وشت بضيقه وأنذرت - أو بشرت - فى الوقت نفسه بوشك انتهاء الحديث، وتساءل واجماً:

- ألا توجد مدرسة أخرى غير هذه المدارس المغضوب عليها؟

فقال كمال وهو يغض بصره حرجاً لعجزه عن إرضاء أبيه :

- لم يبق إلا مدرسة التجارة ولا أرب لى فيها!

ومع أن مبادرته إلى الرفض أحقته، إلا أنه لم يجد من نفسه نحو المدرسة الجديدة إلا الفتور، لظنه أنها إنما تخرج «تجاراً»، ولم يكن يرضى لابنه أن يكون تاجراً. لم يغب عن علمه أول الأمر أن متجراً كمتجره - وإن هبأ له حياة صالحة - فإنه أعز من أن يهيئ هذه الحياة لمن يخلقه فيها من أبنائه إذا روعى ما سيفرق من دخله على بقية المستحقين، فلن يعمل على إعداد أحد منهم ليحل محله، على أن ذلك لم يكن السبب الجوهرى لفتوره، كان فى الحق يكبر الوظيفة والموظفين ويدرك خطرهم ومنزلتهم فى الحياة العامة كما لمس ذلك بنفسه، سواء فى أصدقائه من الموظفين أو فى بعض اتصالاته الحكومية المتعلقة بعمله، فأراد أبناءه على أن يكونوا موظفين وأعدهم لذلك، كذلك لم يكن يخفى عليه أن التجارة لا تحظى بربع ما تحظى به الوظيفة من التقدير فى نظر الناس وإن أخلفت أضعافها من المال. وهو نفسه شارك الناس شعورهم وإن لم يعترف بذلك بلسانه، بل كان يعتز بإكبار الموظفين له فيعد نفسه من الناحية «العقلية» موظفاً أو ندا للموظفين، ولكن من غيره يسعه أن يكون تاجراً وندا للموظفين معاً؟ ومن أين لأبنائه بشخصية مثل شخصيته؟! آه يا لها من خيبة أمل! كم تمنى قديماً أن يرى ابناً من أبنائه طبيياً، وكم ناط بفهمى أمنيته حتى قيل له إن البكالوريا الآداب لا تؤدى إلى مدرسة الطب فرضى بالحقوق واستبشر بما بعدها خيراً، ثم علق أمله بكمال فاختر قسم الآداب فعاد الرجل يحلم بما بعد الحقوق، ولكنه لم يتصور قط أن تنجلي المعركة بين آماله وبين الأقدار بوفاة «نابغة» الأسرة، وبإصرار كمال على أن يكون معلماً! أى خيبة أمل! وبدا السيد حزيناً حقاً، وهو يقول :

- لقد أخلصت لك النصيحة وأنت حر فيما تختار لنفسك، ولكن

ينبغي أن تذكر دائماً أنني لم أوافقك على رأيك، فكر في الأمر طويلاً، لا تتعجل، فما يزال أمامك فسحة من الوقت وإلا ندمت على سوء اختيارك مدى الحياة، أعوذ بالله من الحقد والجهل والسخف!!

وطرح الرجل رجله على الأرض آتياً حركة دلت على شروعه في القيام ليأخذ أهفته لمغادرة البيت، فنهض كمال في أدب وحياء، وانصرف.

عاد إلى الصلاة فوجد أمه وياسين جالسين يتحدثان، وكان مُوزع النفس كاسف البال لمعارضته لأبيه ولإصراره على معارضته رغم ما أبدى الرجل من حلم ولين، ثم لما بدا عليه أخيراً من ضيق وحزن، فقص على ياسين خلاصة ما دار في الحجرة من نقاش، وأنصت إليه الشاب وعلى جبهته علامة احتجاج وعلى شفثيه ابتسامة ساخرة، وسرعان ما صارحه بأنه من رأى السيد وأنه يعجب لجهله للقيم الجليلة في هذه الحياة، وتطلعه لأخرى وهمية أو سخيفة. تريد أن تجود بحياتك للعلم؟ ما معنى هذا؟ إنه سلوك رائع كما يبدو في فصل من فصول المنفلوطى أو في نظرة من نظراته، أما في الحياة فما هو إلا عبث لا يقدم ولا يؤخر، وأنت تعيش في الحياة لا في كتب المنفلوطى. . أليس كذلك؟ الكتب تقرر أموراً غريبة وخارقة، مثال ذلك، أنك تقرأ فيها أحياناً «كاد المعلم أن يكون رسولاً»، ولكن هل صادفت مرة معلماً يكاد أن يكون رسولاً؟ تعال معي إلى مدرسة النحاسين أو تذكر من نشاء من معلميك، ودلني على واحد منهم يستحق أن يكون آدمياً لا رسولاً! وما هذا العلم الذي تريد؟ أخلاق وتاريخ وشعر؟ كل أولئك جميل للتسلية، حاذر من أن تفلت من يديك فرصة الحياة الرفيعة، كم انحسر أحياناً على معاكسة الظروف التي حالت بيني وبين مواصلة الدراسة! تساءل عندما خلا إلى أمه على أثر ذهاب الأب وياسين،

ترى ما رأيها؟ . . لم تكن ممن يؤخذ رأيهم فى مثل هذا الأمر، بيد أنها تابعت أكثر حديثه مع ياسين، إلى أنها كانت على علم برغبة السيد فى إلحاقه بمدرسة الحقوق، الأمر الذى باتت تتطير منه فلم ترع إليه، على أن كمال كان يعرف كيف يظفر بموافقتها من أقصر سبيل، قال لها:

- إن العلم الذى أرغب فى دراسته وثيق الصلة بالدين، ومن فروعه: الحكمة والأخلاق، وتأمل صفات الله وكنه آياته ومخلوقاته! فتطلّقت وجه أمينة، وقالت بحماس:

- هذا هو العلم حقاً، علم أبى، علم جدك، إنه أجل العلوم! وفكرت قليلاً وهو ينظر إليها من طرف خفى باسمها، ثم عادت تقول بنفس الحماس:

- منذا الذى يحتقر المعلم يا بنى؟ ألم يقولوا فى الأمثال «من علمنى حرفاً صرت له عبداً»؟

فقال مردداً حجة أبيه الذى هاجم بها اختياره، وكأنما يستوهبها رأياً يؤكد به موقفه:

- ولكنهم يقولون، إن المعلم لا حظ له فى المناصب الرفيعة! فلوحت بيدها باستهانة قائلة:

- المعلم موفور الرزق. أليس كذلك؟ حسبك هذا، إنى أسأل الله لك الصحة وطول العمر وصالح العلم، كان جدك يقول: «إن العلم أعز من المال»!

أليس عجيبياً أن يكون رأى أمه خيراً من رأى أبيه؟ . ولكنه ليس برأى، إنه شعور سليم، لم تفسده ممارسة الحياة الواقعة التى أفسدت رأى أبيه. ولعل جهلها بشئون العالم هو الذى صان شعورها عن الفساد، ترى ما قيمة شعور - وإن سما - إذا كان مصدره الجهل؟ وألا يكون لهذا الجهل نفسه أثره فى تكوين آرائه؟ . . ثار على هذا المنطق،

وقال يحاوره: إنه عرف الدنيا خيرا وشرها فى الكتب وأثر الخير عن إيمان وتفكير، وقد يلتقى الشعور الفطرى الساذج بالرأى الحكيم دون أن تهوى سذاجة الفطرة من أصالة الحكمة. أجل! إنه لا يشك لحظة فى صدق رأيه وجلاله، ولكن هل يدري ماذا يريد؟ ليست مهنة المعلم بالتي تجذبه، إنه يحلم أن يؤلف كتاباً، هذه هى الحقيقة، أى كتاب؟ لن يكون شعراً، إذا كانت كراسة أسراره تحوى شعرا، فمرجع ذلك إلى أن عايذة تحيل النثر شعرا لا إلى شاعرية أصيلة فيه، فالكتاب سيكون نثراً، وسيكون مجلدا ضخماً فى حجم القرآن الكريم وشكله، وستحديق بصفحاته هوامش الشرح والتفسير كذلك، ولكن عم يكتب؟ ألم يحو القرآن كل شىء؟ لا ينبغي أن يأس، ليجدن موضوعه يوما ما، حسبه الآن أنه عرف حجم الكتاب وشكله وهوامشه، أليس كتاب يهز الأرض خيراً من وظيفة وإن هزت الأرض؟! كل المتعلمين يعرفون سقراط، ولكن من منهم يعرف القضية الذين حاكموه؟!

٥

- مساء النور! ..

لا تحيب! هذا ما قدرته وما أنا به عليم. هى البداية دائماً. منذ قديم وإلى الأبد، ها هى توليك ظهرها، ابتعدت عن الحائط نحو حبل الغسيل، تحبك المشابك، ألم تحبكيها من قبل؟ .. بلى ولكنك تدارين موقفك، إنى أفهم كل الفهم، عشرة أعوام فى المجون ليست بالخبرة القليلة، متع عينيك بمنظرها قبل أن يستقر الظلام الزاحف فلا تبدو إلا شبحاً، سمنت واكتنزت، زادت حسناً عما كانت أيام صباها. كالغزال كانت ولكنها لم تكن تملك هذه الأرذاف العبلة، رويدا. .. لم يزل لها

من رشاقة البكارة نصيب محترم، ما عمرك يا شاطرة؟ زعم أهلك قديماً أنك فى سن خديجة. رأى خديجة أنك تكبرينها بسنوات وسنوات. امرأة أبى تؤكد هذه الأيام أنك فى الثلاثين مستشهدة بذكرىات قديمة من نوع: أيام كنت حبلى فى خديجة كانت صبية فى الخامسة الخ، ما قيمة العمر؟ هل أنت ستعاشرها حتى الكبر؟! فى الأيام القصيرة تستوى الشابة والنصف، جميلة وجذابة ومشبعة دسمة، آه، نظرت صوب الطريق ولحظتك، أرأيت مقتلها وهى تلاحظك كالدجاجة؟، لن أبرح موقفى يا مليحة، فتى تعرفين الشئ الكثير عن جماله وقوته وماله، أليس هو خيراً من ذلك الإنجليزى القديم..؟

- هل التحية عندكم لا تستحق رداً ولو بمثلها؟

ولتلك قذاها مرة أخرى، مهلاً.. ألم تبتسم؟ بلى ومن سوى جمالها فجعله فتنة، لقد ابتسمت، مهدت لهذه الخطوة الأخيرة فأحسنت التمهيد، لا شك أنها تعلم بكل حركاتى ومناوراتى السابقة، أن لى.. وأن لك.. من حسن حظى أنك لست من المصابات بداء الحشمة، ذاك الإنجليزى.. جوليون، الجواد الكريم القائم أمامك موطأ المتن، ألا تسمعين حممته؟

- أليس للجار عندكم إكرام؟.. إنى أشحذك تحية هى من صميم حقوقى!

جاءه صوت رقيق خافت - بدا لتحول الوجه عنه كأنه آت من بعيد - وهو يقول:

- ليست من حقك.. على هذا النحو!

أجيب الطارق. رفعت سقاية الباب. لن تظفر بالمناعة حتى تلعق الزجر. اثبت، الثبات.. الثبات.. كما يهتف به المجاورون:

- إذا كان صدر منى ما أغضبك فلن أغتفره لنفسى ما حييت؟

هى فى عتاب :

- إن سطح بيت أم على ، الداية ، فى مستوى سطحنا وسطحكم ،
ما عسى أن يظن الناظر إذا رأى موقفك منى وأنا أنشر
الغسيل؟ ..

ثم فى تساؤل هازئ :

- أم تريد أن تجعل منى أحدى؟!

بُعد الشر عنك؟ هل راعيت هذا الحذر فى موقفك مع جوليون فى
الزمن القديم؟ لكن مهلاً ، إن جمال عينيك وعجيزتك يغفر ما تقدم
وما تأخر من ذنبك!

- لا أبقانى الله فى الحياة لحظة واحدة إن كنت قصدتك بسوء ، لقد
تواريت تحت سقيفة الياسمين حتى غابت الشمس ، ولم أقرب من
السور حتى ثبت عندى خلو سطح أم على الداية ..

ثم وهو يتنهد بصوت مسموع :

- وعذرى بعد ذلك أنى واليت صعود السطح أبدا كى أظفر بهذه
الخلوة .. فلما وجدتها الساعة استخفنى السرور ، وعلى أى حال
ربنا يستر ..

- عجيبة! .. لم هذا التعب كله؟

سؤال لا يبعث عليه الجهل ، يسألن عما يعرفن ، ارتضت أن تحاورك
فاهنا بجوارها ..

- قلت لنفسى : إن تحيها وترد تحيتك ألد من الصحة والعافية!

التفت إليه برأس دلت حركته فى شبه الظلام على تكتم الضحك ،
وقالت :

- لسانك أطول من جسمك ، ترى ماذا وراء كلامك؟

- وراءه؟! هلا اقتربت من السور؟ عندى حديث طويل ، منذ أيام

وأنا أغادر البيت إلى الطريق، لاحت منى التفاتة إلى الأرض
فرأيت ظل يد تتحرك، فنظرت إلى فوق فرأيتك مطلة من
السور، رأيت منظرًا جميلًا لا يمكن أن ينسى . .

دارت على عقبها ولكنها لم تقترب خطوة، ثم قالت فى لهجة تنم
عن الاتهام:

- كيف تنظر إلى فوق؟! . . ولو كنت جارًا حقًا كما تقول
ما سمحت لنفسك بأن تجرح جارتك، ولكنك سيئ النية فيما بدا
منك باعترافك فيما يبدو منك الساعة!

حق أنه سيئ النية، أليس الفسق من سوء النية؟ سوء نية من النوع
الذى تحببته، آه من النسوان، بعد ساعة ستطالبين به كحق من حقوقك،
بعد ساعتين سأهرب وتجددين فى أثرى، على أى حال ليلتنا فل . .

- ربنا يعلم بحسن نيتى، نظرت إلى فوق لأنى لا أستطيع أن أمنع
النظر عن مكان تكونين فيه، ألم تدركى هذا؟ ألم تشعرى به؟
جارك القديم يتكلم وإن تأخر به الزمن .

هازئة:

- تكلم . أطلق الحرية للسانك الطويل، ارفع صوتك، ماذا تفعل لو
اقتحمت عليك السطح امرأة أبيض فرأتك ورأتنى؟

لا تزوغى يا بنت اللبوة، سيكون من المعجزات أن أطوى عقلك،
أتخافين امرأة أبى حقًا؟ آه . . إن ليلة فى حضنها تساوى العمر كله!

- سأسمع وقع الأقدام قبل مجيئها، خيلنا فيما نحن فيه . . .

- ما هذا الذى نحن فيه؟

- إنه يجلب عن الوصف!

- لا أجد شيئًا مما تقول، لعل هذا ما أنت وحدك فيه!

- لعله، إنه لأمر مؤسف حقًا، أمر مؤسف أن يتكلم قلب فلا يجد

من يستجيب له ، إنى أذكر أيام زيارتك لبيتنا . تلك الأيام التى كنا فيها وكأننا أسرة واحدة ، وأنحسر . .
غمغمت وهى تهز رأسها :
- تلك الأيام !

لم عدت إلى الماضى ؟ أخطأت خطأ كبيراً ، احذر أن يفسد عليك الألم جهدك كله ، ركز إرادتك كى تنسى كل شىء إلا الحاضر . .
- ثم رأيتك أخيراً فأريت شابة جميلة كالزهرة ، تتطلع فى ظلام الليل فتنوره ، فكأنما أراك لأول مرة ، ساءلت نفسى أتكون هذه جارتنا مريم التى كانت تلعب مع خديجة وعائشة ؟ كلا . . هذه فتاة اكتمل لها الحسن ونضج ، وشعرت بأن الدنيا تتغير من حولى . .
قالت ، وقد عاود صوتها عبثه :

- فى تلك الأيام لم تكن عيناك تستبيحان التطلع إلى أحد !! كنت جاراً بمعنى الكلمة ، ولكن ماذابقى من تلك الأيام ؟ تغير كل شىء ، عدنا كالأغراب ، وكأننا لم نبادل كلمة ، ولم ننشأ معاً نشأة الأسرة الواحدة . هذا ما أراده أهلك .
- دعينا من هذا ، لا تحملينى هماً إلى همّ .

- اليوم تتطلع بعينيك . . فى النافذة ، وفى الطريق ، وها أنت تقطع على السطح !

ماذا يمنعك من الذهاب إن كنت حقاً تريدنه ؟ كذبك ألد من الشهد يا نور الظلام . .

- هذا قليل من كثير ، إنى أتطلع إليك أيضاً من حيث لا تدريين ، وأراك فى الخيال أكثر مما تتصورين ، أقول لنفسى الآن وأنا على بينة مما أقول : إما القرب وإما الموت !
هسيس ضحكة مكتومة اهتز لها قلبه ، ثم تساءلت :

- من أين لك هذا الكلام؟
أشار إلى صدره، وهو يقول:
- من قلبي!

مسحت بقدمها على أرض السطح محدثة بالشبشب حفيفا ينذر
بالتحرك ولكنها لم تزايل موضعها، وقالت:

- ما دام الأمر قد بلغ القلب، فينبغي أن أذهب!

بحماس علا به صوته أولا حتى انتبه إلى نفسه فخفضه:

- بل يجب أن تأتي، أن تأتي إليّ، الآن وإلى الأبد.. (ثم بمكر) إلى
قلبي.. هو لك وما يملك!

وبلهجة وعظيمة عابثة:

- لا تفرط في نفسك على هذا النحو، حرام على أن أحرملك قلبك
وما يملك..

إلى أى مدى ذهب بك الفهم؟ إنى أخاطب فيك اللبؤة التى أحبها،
لست بلهاء وحق ذكرى جوليون، تعالى يا بنت القديمة، أخاف أن
أضىء فى الظلام من شدة النار التى تستعر فى جسدى..

- هو وما يملك لك عن طيب خاطر، سعادته فى أن تقبله وتملكيه،
وأن تكونى له وحده!
قالت ضاحكة:

- أرايت يا ماكر؟.. تريد أن تأخذ لا أن تعطى..

من أين لك بهذا اللسان؟، ولا زنوبة فى زمانها، ملعونة الدنيا من
غيرك!..

- أريد أن تكونى لى كما أكون لك.. أين الظلم فى هذا؟

صمت، ونظر متبادل بين الشبحين، حتى قالت:

- لعلهم يتساءلون الآن عما أحرك!

فقال مستعظفا بمكر :

- ليس ثمة فى الدنيا من يهتم بأمرى !

عند ذاك غيرت لهجتها متسائلة بجذ :

- كيف ابنك ؟ .. لا يزال عند جده ؟

ماذا وراء هذا السؤال الغريب ؟

- بلى ..

- ما عمره الآن ؟

- خمس سنوات ..

- وما أخبار والدته ؟

- إنها تزوجت أو ستتزوج فى القريب العاجل ..

- خسارة ! .. لم لم تردها ولو إكراما لرضوان ؟

يا بنت اللبوة ! .. أفصحى عما ترومين ..

- أهذه رغبتك حقا ؟

وهى تضحك ضحكة خافتة :

- يا بخت من وفق رأسين فى الحلال !

وفى الحرام ؟ !

- لكننى لا أنظر إلى الوراء ..

ساد صمت بدا غريبا مليئا بالفكر .. حتى قالت بصوت جمع بين

التحذير واللين :

- إياك وأن تقطع على السطح مرة أخرى .

فقال بجرأة :

- أمرك مطاع ، ليس السطح بالمكان المأمون ، ألم تعلمى بأن لى بيتا

فى قصر الشوق ؟ !

هتفت مستنكرة :

- بيتك! . . . أهلا يا سى بيته!

فسكت قليلاً، كأنما يحاذر، ثم تساءل :

- خمنى فيم أفكر؟

- لا شأن لى بهذا . .

صمت، ظلام، خلوة، ما أقطع تأثير الظلام فى أعصابى . .

- إنى أفكر فى سورى سطحينا المتلاصقين، بم يوحى منظرهما إليك؟

- لا شىء . .

- منظر حبيبين متلاصقين . .

- لا أحب سماع هذا الكلام . .

- تلاصقهما يذكر أيضاً بأنه ليس ثمة ما يفصل بينهما .

- هيه!

ندت عنها كاستدراج ملء بالوعيد، فقال ضاحكاً :

- كأنهما يقولان لى : اعبرا!

تراجعت خطوتين حتى التصق ظهرها بملاء منشورة، ثم همست فى

تحذير جدى :

- لا أسمح بهذا!

- هذا . . ما هذا؟

- هذا الكلام .

- والفعل؟

- سأتركك غاضبة!

كلا وحياتك الغالية . . أتعنين ما تقولين؟ أنا أغبى مما أظن؟ أم أنت

أمكر بما أتصور؟ لم تكلمت عن رضوان وأمه؟ هل تلوح بالزواج؟ ما أشد رغبتك إليها؟ رغبة جنونية..

قانت مريم بغتة:

- آه.. ما الذى يدعونى إلى البقاء؟

ودارت حول نفسها، ثم تطامن رأسها لتمر من تحت الغسيل، فأرسل صوته وراءها قائلاً فى جزع:

- تذهبين دون تحية!

اشرأب رأسها فوق جبل الغسيل، ثم قالت:

- البيوت من أبوابها، هذه تحيتى..

وانجھت مسرعة نحو باب السطح فمرقت منه.

عاد ياسين إلى الصلاة فاعتذر لأميئة عن طول غيبته بحرارة الجو فى الداخل، ثم ذهب إلى حجرته ليرتدى بذلته. كان كمال يتبعه عينيه فى دهشة وتفكير. ونظر إلى أمه فألفاها هادئة مطمئنة وكانت فرغت من احتساء قهوتها وقراءة الفنجان، فتساءل ترى ماذا يحدث لها لو علمت بما دار فوق السطح؟.. هو نفسه لم يزايله القلق منذ اطلع مصادفة على منظر المتناجين حين مضى وراء أخيه مستطلعاً غيبته، فعل ياسين ذلك، هل هانت عليه ذكرى فهمى؟ لا يستطيع أن يتصور هذا، كان ياسين يحب فهمى حباً صادقاً، وقد حزن عليه حزناً شديداً، لا يجوز أن يرتاب فى إخلاصه، إلى أن هذه «الحوادث» كثيراً ما تقع، ثم إنه لم يدر لمَ يربطون دائماً بين فهمى ومريم؟! لقد علم المرحوم بواقعة جوليون فى حينها، ثم مر زمن طويل بدا عليه أنه نسيها نسياً تاماً وشغل عنها بما هو أجل وأخطر، وما كانت تستحق غير ذلك وما كانت يوماً كفثاله. إنه مما يدعو إلى النظر حقاً أن يتساءل: هل يمكن أن ينسى الحب؟ الحب لا يُنسى، هذا ما يؤمن به، ولكن من أدراه أن فهمى أحب مريم بالمعنى

الذى يفهمه - أو يشعر به - هو من الحب؟ لعلها كانت رغبة قوية، كهذه الرغبة التى تستحوذ الساعة على ياسين، بل كتلك الرغبة القديمة إلى مريم نفسها التى نأوشته هو على عهد البلوغ وعاشت أحلامه، أجل وقع هذا أيضاً، وعانى منها أليين: ألم الرغبة وألم الندم، وكانا فى القوة متعادلين فلم ينقذه من شرهما إلا زواج مريم واختفاؤها. يهمة أن يعلم الآن هل تألم ياسين وهل وخزه الندم؟ وإلى أى مدى؟ لا يتصور أن يكون الأمر جرى سهلاً مهما يكن ظنه بحيوانية ياسين وفتور حماسه للمثل العليا، وعلى رغم نظرتة المتسامحة للأمر كله شعر بامتعاض وقلق كما ينبغى لإنسان لا يعدل بمثاليته شيئاً فى الوجود.

رجع ياسين من الحجرة وقد ارتدى ملابسه وأخذ زيتته، فحياهما وانصرف، وبعد قليل سمعا نقر استئذان على باب الصلاة فدعا كمال القادم - وهو على يقين من هويته - فدخل شاب يماثله فى السن. قصير القامة، وسيم الطلعة، مرتدياً جلباباً وجاكته، فقصد أمينة وقبّل يدها، ثم صافح كمال وجلس إلى جانبه. . . كان فى سلوكه - رغم ما أخذ به نفسه من التأدب - ألفة كأنما كان واحداً من أهل البيت، وأكثر من هذا فقد أقبلت أمينة تحادثه وهى تدعوه بكل بساطة «يا فؤاد»، وتسأله عن صحة أبيه جميل الحمزاوى ووالدته، فيجيبها مستشعراً السرور، والامتنان فى حسن استقبالها، وترك كمال صديقه مع والدته، ومضى إلى حجرته ليرتدى جاكته، ثم يعود إليه فينطلقا معاً.

٦

سارا جنباً إلى جنب صوب درب قرمز، متجنين طريق النحاسين، ليتفاديا من المرور بالدكان حيث يوجد والداها. . . كمال بقامته الطويلة

النحيلة ، وفؤاد بقامته القصيرة ، تكاد صورتاهما تلفتان الأنظار
بتناقضهما . تساءل فؤاد بصوت هادئ :

- أين تذهب هذا المساء؟

فأجابه كمال بصوته الانفعالي :

- قهوة أحمد عبده . .

كان كمال - عادة - يقرر ، وفؤاد يوافق رغم ما عرف عن الأخير من
رجاحة العقل . ورغم نزوات كمال التي كانت تبدو مضحكة في عين
رفيقه ، مثل دعواته المتكررة له للذهاب إلى جبل المقطم والقلعة والخيمة
لتسريح النظر - على حد تعبيره - في مخلفات التاريخ وعجائب
الحاضر ، ولكن الحق أن العلاقة بين الصديقين لم تخل من تأثير بفارق
طبقتيهما ، وكون الأول ابن صاحب الدكان والآخر ابن وكيله ، وعمق
هذا التأثير أن فؤاد اعتاد في صباه أن يؤدي ما يكلف به من شراء بعض
حوائج لبيت السيد أحمد ، وأن يكون صنعة لكرم أمينة التي لم تكن
تضن عليه بأحسن ما عندها من مأكّل - وكثيراً ما يصادف مجيئه أوقات
الغداء - وأصلح ما يمكن استغناء عنه من ملابس كمال ، فربط بينهما
منذ البدء شعور باستعلاء من ناحية وبالتبعية من ناحية أخرى . . وهو
وإن مضى يزول بحلول شعور الصداقة محله ، إلا أن أثره النفسى لم
يُقتلَع من الأعماق ، وقد قضت ظروف بالآلا يجد كمال من رفيق تقريباً
طوال العطلة الصيفية إلا فؤاد الحمزاوى ، ذلك أن رفاق صباه من أهل
الحى لم يواصلوا التعليم إلى النهاية : منهم من توظف بالابتدائية أو
الكفاءة ، ومنهم من اضطر إلى مزاولة عمل من الأعمال البسيطة مثل
صبي قهوة بين القصرين وصبي الكواء البلدى بخان جعفر . كان كلاهما
من أقرانه فى الكتاب ، وما زال ثلاثتهم يتبادلون تحية الزمالة القديمة
كلما اتفق لهم اللقاء ، تحية مشربة بالاحترام من ناحيتهما لما يضيفه طلب
العلم عليه من امتياز ، مشبعة من ناحيته بالمودة الصادرة عن نفس

مطبوعة على التواضع والبساطة، أما أصدقائه الجدد الذين اكتسب صداقتهم في العباسية: حسن سليم، وإسماعيل لطيف، وحسين شداد فكانوا يقضون العطلة في الإسكندرية ورأس البر، فلم يبق له من رفيق إلا فؤاد.

بلغا مدخل قهوة أحمد عبده بعد مسيرة دقائق، فهبطا إلى مستقرها الغريب في جوف الأرض تحت حى خان الخليلي، واتجها إلى مقصورة خالية، وفيما هما يجلسان متقابلين حول المائدة تتم فؤاد في شيء من الحياة:

- ظنتك ستذهب هذا المساء إلى السينما!

وشى قوله برغبته في الذهاب إلى السينما، ولعلها راودته قبل أن يذهب إلى مقابلة كمال في بيته ولكنه لم يفصح عنها، لا لأنه لا يستطيع أن يثنى كمال عن رأى فحسب، وإنما لأن كمال هو الذى يقوم بنفقات السينما إذا ذهب إليها معاً، فلم تواته شجاعته على التلميح إلى رغبته حتى استقر بهما المجلس بالقهوة. . حيث يمكن أن يؤخذ قوله مأخذ الملاحظة البريئة العابرة.

- سذهب يوم الخميس القادم إلى الكلوب المصرى لمشاهدة شارلى شابلن، فلنلعب الآن عشرة دومينو. .

خلعاً طربوشيهما ووضعاهما على مقعد ثالث، ثم نادى كمال النادل، طلب شايا أخضر ودومينو. بدا المقهى المدفون كجوف حيوان من الحيوانات المنقرضة طُمر تحت ركام التاريخ إلا رأسه الكبير، فقد تشبث بسطح الأرض فاغرافاه عن أنياب بارزة على هيئة مدخل ذى سلم طويل، وثمة فى الداخل صحن واسع مربع الشكل مبلط بالبلاط المعصرانى تتوسطه فسقية رصت على حافتها أصص القرنفل، وأحدقت بها من الجهات الأربع أرائك فُرشت بالحصير المزركش والوسائد، أما جدرانها فقد انتظمتها مقاصير صغيرة الحجم متجاورة، كأن الواحد منها

كهف منحوت فى الحائط ، لا نافذة بها ولا باب لها ، واقتصر أثاثها على مائدة خشبية وأربعة مقاعد ومصباح صغير يشتعل ليل نهار فى كوة بأعلى الجدار المواجه للمدخل . وكأن القهوة اكتسبت من موقعها الغريب بعض صفاته ، فهى تهوم فى هدوء غير مألوف لسائر المقاهى ، وضوء غير باهر ، وجورطيب ، وقد انطوت كل جماعة على نفسها فى مقصورتها أو فوق أريكتها ، تدخن النارجيلة وتحسو الشاى وتهيم فى دردشة لا نهاية لها ، تكاد تشملها نغمة صبا وانية متصلة إلا أن تقطعها فى فترات متباعدة سعلة أو ضحكة أو قرقرة مدخن منهم .

كانت قهوة أحمد عبده فى نظر كمال مجتلى للم تأمل وتحفة للحالم ، أما فؤاد - وإن لم تغب عنه طرافتها أول عهده بها - فلم يعد يجد فيها إلا مجلسا كثيباً تغشاه الرطوبة والهواء الفاسد ، ولكنه لم يكن يملك إلا أن يلبي كلما دعى إليها !

- أتذكر يوم أن رأنا أخوك سى ياسين ونحن فى مجلسنا هذا؟

قال كمال باسم :

- نعم ، سى ياسين متسامح ولطيف ولم يشعرنى أبدا بأنه أذى الأكبر ، بيد أنى رجوته يومذاك ألا يشير إلى مجلسنا فى البيت لا خوفاً من أبى ، فإن أحداً عندنا لا يجروء على مكاشفته بمثل هذا الأمر ، ولكن إشفاقاً من إزعاج والدتى ، تصور أنها ترتعب إذا علمت بترددنا على هذه القهوة أو غيرها ، وتظن أن أغلبية رواد المقاهى من الحشاشين وسيئى السمعة !

- وسى ياسين ، ألم تعلم بأنه من رواد المقاهى ؟

- إذا قلت لها هذا قالت لى : إن ياسين «كبير» ولا خوف عليه ، أما أنا فصغير ! الظاهر أنى سأظل معدوداً فى الصغار فى بيتنا حتى يدركنى المشيب !

جاء النادل بالدومينو، وقد حين من الشاي على صينية فاقعة
 الاصفرار، فتركها جميعاً على المائدة وذهب، تناول كمال قدحه من
 فوره وراح يحتسيه من قبل أن تخف حرارته، ينفخ السائل ثم يتمززه،
 وينفخ مرة أخرى ويمصمص شفثيه كلما لسعته الحرارة، ولكن ذلك لا
 يردعه فيعاود المحاولة في عناد وجزع كأنه محكوم عليه بالفراغ منه في
 دقيقة أو دقيقتين، على حين جعل فؤاد يراقبه صامتاً أو يمد بصره إلى لا
 شيء وهو مستند إلى ظهر مقعده في رزاة أكبر من سنه، تلوح في عينيه
 الواسعتين الجميلتين نظرة عميقة هادئة، ولم يمد يده إلى قدحه حتى
 كان كمال قد فرغ من مغالبة قدحه، وعند ذاك أقبل يتحسى الشاي في
 تأنٍ مستطعماً مذاقه مستلذا نكهته، وهو يغمغم بعد كل حسوة «الله..
 ما أطيبه!»، والآخر يحثه على الفراغ منه بصبر نافذ كي يأخذ في
 اللعب، وهو يقول منذراً:

- لأهزمك اليوم. لن يحالفك الحظ أبد الدهر..

فيبتسم فؤاد مغمغماً:

- سنرى..

وأخذ يلعبان..

كان كمال يولى المباراة اهتماماً عصبياً، كأنه يخوض معركة تتوقف
 على نتائجها حياته أو كرامته، بينا مضى فؤاد في نظم قطعه بهدوء
 ومهارة فلم تفارق الابتسامة شفثيه، أقبل الحظ أم أدبر، هش كمال أم
 عبس، وقد خرج كمال - كعادته - عن طوره، فهتف به: «لعب
 سخيف، وحظ سعيد». فلم يزد الآخر عن أن ضحك ضحكة
 مهذبة لا تثير حنقا ولا توحى بتحد. طالما قال كمال لنفسه وهو يتميز
 غيظاً «لن يبرح حظه راكبا حظي»، ولم يكن يلقي اللعب بالتسامح
 الخلق باللهو والتسلية، بل الحق لم يكن ثمة فارق - في اهتمامه

وحماسة - بين جده ولهوه ، . على أن تفوق فؤاد في المدرسة لم يكن دون تفوقه في الدومينو ، كان أول فرقته بينا كان هو في الخمسة الأوائل ، فهل ثمة دور للحظ في ذلك أيضاً؟ كيف يعلل تفوق الشاب الذي ينطوى له في الأعماق على شعور بالاستعلاء ظن أنه ينبغي أن يمتد إلى المواهب العقلية على السواء؟ لم يُعَدِّم رأياً يهون به من تفوق صاحبه ، فهو يقول إنه يكرس وقته كله للمذاكرة وإنه لو كان عقله بالتفوق الذي يزعمون لأغنى عنه بعض هذا الوقت ، ويقول أيضاً : إنه يتجنب الألعاب الرياضية وقد برّز هو في أكثر من نوع منها ، ويقول أخيراً : إن فؤاد يقتصر في مطالعته على الكتب المدرسية ، وإذا تراءى له أن يقرأ كتاباً غير مدرسي في العطلة لاحظ في اختياره أن يكون مفيداً لدراسته اللاحقة ، أما هو فلا تحد مطالعته حدود ولا توجهها منفعة ، فما وجه الغرابة في ذلك في أن يسبقه الشاب في الترتيب؟ غير أن سخطه هذا لم يعرّض صداقتهما للوهن ، كان يحبه ويجد في رفقة مؤانسة ومسرة إلى أنه لم يضمن - على الأقل فيما بينه وبين نفسه - بالإقرار بفضائله ومزاياه .

تواصل اللعب وانتهت العشرة - على غير ما أُنذِر به مطلعها - بانتصار كمال! فتطلق وجهه ، وضحك ضحكة عالية ، ثم سأل غريمه : «عشرة أخرى؟» ، لكن فؤاد قال باسمًا : «حسبنا اليوم ما كان» لعله كان ملّ اللعب ، أو لعله أشفق من أن تحيى نتيجة العشرة المقترحة مخيبة لآمال كمال فينقلب سروره غما ، فهز كمال رأسه كالمتعجب وقال :

- إنك كالسمك من ذوى الدم البارد!

ثم بلهجة المتفقد ، وهو يدلّك أرنبة أنفه العظيم بإبهامه وسبابته :
- إنى أعجب لك ، إذا غلبت لم تأبه للأخذ بشارك ، وتحبّ سعد ولكنك تنكص عن الاشتراك في مظاهرة أريد بها تحيته يوم ولى الوزارة ، وتبارك بسيدنا الحسين ولكن لم تهتز لك شعرة يوم ثبت

لنا من تاريخه أن جثمانه غير ثاو في ضريحه القريب! إنى أعجب لك..

شد ما يحنقه البرود، إن ما يسمونه «العقل» لا يطيقه، وكأنه يحب الجنون ويهيم به، إنه يذكر يوم قيل لهما في المدرسة: «إن ضريح الحسين رمز له ولا شيء غير ذلك». عابداً يومذاك معاً وفؤاد يردد ما قاله مدرس التاريخ الإسلامى، وكان كمال يتساءل منزعجاً: كيف أوتى صاحبه تلك القوة التى تحمل بها الخبر كأنه شأن لا يعنيه؟! أما هو فلم يستسلم لتفكير، ولم يستطع أن يفكر ألبتة، وكيف لثائر أن يفكر؟ سار كالمترنح من هول الطعنة التى نفذت إلى صميم قلبه، كان يبكى خيلاً أنضب وحلماً تبدد، لم يعد الحسين بجارهم، بل لم يكن بجارهم يوماً من الأيام، أين ذهبت القبلات التى طبعت على باب الضريح فى صدق وحرارة؟ أين يذهب الاعتزاز بالقرب والإدلال بالجوار؟ لا شيء من هذا كله، لم يبق إلا رمز فى الجامع ووحشة وخيبة فى القلب، وبكى ليلئذاك حتى بلل وسادته، تلك كانت الصدمة التى لم تحرك فى صديقه العاقل إلا لسانه حين علق عليها مردداً أقوال مدرس التاريخ، ألا ما أبشع العقل!

- هل علم والدك برغبتك فى دخول مدرسة المعلمين؟

قال كمال بحدة جاءت معبرة عن ضيقه ببرود صاحبه وألمه المتخلف عن مناقشة أبيه معاً:

- نعم!...

- وماذا قال لك؟

فقال يروح عن صدره بمهاجمة محدثه عن طريق غير مباشر:

- واأسفاه!.. إن والدى كأكثر الناس ممن يهيمون بالمظاهر الزائفة، الوظيفة.. النيابة.. القضاء.. هذا كل ما يهيمه، لم أدر كيف

أقنعه بجلال الفكر والقيم السامية الحقيقية بالنشيدان فى هذه الحياة!
غير أنه ترك لى حرية التصرف . . .

جعلت أصابع فؤاد تعبت بقطعة من الدومينو، وهو يقول فى حذر وإشفاق:

- قيم جليلة بلا شك، ولكن أين البيئة التى ترفعها إلى المنزلة اللائقة بها؟

- لا يمكن أن أنبذ عقيدة سامية لا لشيء إلا أن من حولى لا يؤمنون بها . .

فعاد يقول فى هدوء مسكن:

- روح جديرة بالإعجاب! . . ولكن ألا يحسن بك أن تقدر مستقبلك فى ضوء الواقع؟

فتساءل كمال بازدرء:

- ترى لو كان زعيمنا قد أخذ بهذه النصيحة، أكان يفكر جدياً فى أن يذهب إلى دار الحماية للمطالبة بالاستقلال؟

ابتسم فؤاد ابتسامة كأنها تقول: «رغم ما فى حجتك من وجهة فهى لا تصلح قاعدة عامة فى الحياة»، ثم قال:

- ادخل الحقوق حتى تضمن عملاً محترماً، ولك بعد ذلك أن تواصل ثقافتك كما تشاء!

- لم يجعل الله لامرئ من قلبين فى جوفه، ثم دعنى أحتج على ربطك العمل المحترم بالحقوق! كأن التدريس ليس عملاً محترماً!!

فبادر فؤاد يقول بتوكيد يدفع به عن نفسه الشبهة:

- لم أقصد هذا مطلقاً، ومنذا الذى يقول إن حفظ العلم ونشره ليس عملاً محترماً؟ . . لعلنى كنت أردد رأى الناس وأنا لا أدرى، والناس كما أشرت إلى شيء من هذا تبهرهم أضواء القوة والنفوذ!

فهز كمال منكبيه استهانة، وقال بإصرار:

- إن حياة تكرر للفكر لهى أجل حياة..

هز فؤاد رأسه كالموافق دون أن ينبس، وظل لاثذا بالصمت حتى
سأله كمال:

- ما الذى دعاك إلى اختيار الحقوق؟

ففكر قليلاً ثم أجابه:

- لم أكن مثلك واقعا فى غرام الفكر، فكان علىّ أن أختار دراسة
عالية على ضوء المستقبل وحده، فاخترت الحقوق...

أليس هذا هو صوت العقل؟ بلى إنه هو، شد ما يثير حنقه تمرده،
أليس من الظلم أن يمضى العطلة الطويلة وهو حبس هذا الحى ولا رفيق
له إلا هذا «العاقل»؟ ثمة حياة أخرى تعارض حياة الحى العتيق معارضة
الضد للضد، وثمة رفاق آخرون يخالفون فؤاد مخالفة النقيض
للتقيض، إلى تلك الحياة وإلى أولئك الرفاق تهفو نفسه، إلى العباسية،
إلى الطراز الطريف من الشباب، وقبل كل شىء إلى الأناقة الرفيعة
والنغمة الباريسية والحلم البديع... إلى معبودته، آه... إن نفسه تنازعه
على البيت، إلى حجرته كى يخلو إلى نفسه فيدعو كراسته، يراجع
تاريخاً أو يستعيد ذكرى أو يسجل نفثة. ألم يئن له أن يقوض هذا
المجلس ويذهب؟

- قابلت أناساً فسألونى عنك...!

تساءل كمال، وهو ينزع نفسه بمشقة من تيار الوجد:

- من؟

فؤاد ضاحكاً:

- قمر ونرجس:

قمر ونرجس ابتتا أبو سريع صاحب المقلّى، قبو قرمز، الأزقة المظلمة
بعد الغروب، العبث المشوب بالسذاجة الدنسة أو الدنس الساذج،

المراهقة المحمومة، ألا يذكر هذا كله؟، ما لشفتيه تتقلصان
تقززا؟ ذلك التاريخ قديم نسيًا، قبل حلول الروح القدس، لا يذكره إلا
ويثور قلبه سخطًا وألما وخجلًا كما ينبغي لقلب أترع بشراب الحب
الطهور.

- كيف قابلتهما؟

- فى زحمة مولد الحسين، فسرت إلى جانبهما دون تردد أو ارتباك،
كأننا أسرة واحدة جاءت لتطوف بالمولد!

- يالك من جرىء!

- أحيانًا، سلمت فسلمتا، وتحادثنا مليا، ثم سألتنى قمر عنك!
تورد وجهه قليلاً، وهو يسأل:

- ثم؟

- اتفقنا مبدئيًا على أن أخبرك، ثم نتقابل جميعًا!
هز كمال رأسه فى نفور، ثم قال باقتضاب:
- كلا..

فقال فؤاد فى دهش:

- كلا؟، ظننتك ترحب بلقاء تحت القبو أو فى فناء البيت المهجور.
نضج جسماهما، وعما قليل تصيران امرأتين بكل معنى الكلمة،
وعلى فكرة كانت قمر مرتدية الملاء اللف ولكنها كانت سافرة
فقلت لها ضاحكًا: لو لبست البرقع ما تجرأت على محادثتك!
قال كمال بإصرار:

- كلا..

- لم؟

- لم أعد أطيق القذارة!

ثم بحدة نمت عن ألم دفين :

- لا أستطيع أن ألقى الله فى صلاتى وثيابى الداخلية ملوثة!
فقال فؤاد بسذاجة :

- تطهر واغتسل قبل الصلاة!

فقال كمال ، وهو يهز رأسه للاستعارة الضائعة :

- إن الماء لا يطهر من الدنس . .

ذلك الصراع القديم ، كان يمضى فى لقاء قمر مضطربا بالشهوة والقلق ويعود بضمير معذب وقلب باك ، ثم عقب الصلاة يستغفر استغفاراً حاراً طويلاً ، لكنه يمضى مرة أخرى مغلوباً على أمره ثم يعود بالعذاب ليستغفر من جديد . . يا لها من أيام نضحت بالشهوة والمرارة والعذاب ، ثم انبثق النور ، هناك وسعه أن يحب وأن يصلى معاً ، كيف لا؟! والحب من منبع الدين يقطر صافياً! قال فؤاد فى شىء من الحسرة :

- انقطعت علاقتى بنرجس منذ مُنعت من اللعب فى الحارة!

فسأله كمال باهتمام :

- ألم تكن - وأنت المؤمن - تتعذب بتلك العلاقة؟

فقال فؤاد ، وهو يغض البصر حياء :

- هنالك أمور ما منها بد . .

ثم متسائلاً وكأنه يدارى حياء :

- أترفض حقاً انتهاز هذه الفرصة؟

- بكل تأكيد!!

- لوجه الدين وحده؟

- أليس هذا كافياً؟

ابتسم فؤاد ابتسامة عريضة، وقال :
- كم تحمل نفسك ما لا يُحتمل . .
فقال كمال بإصرار :

- إنى لكذلك وما ينبغي لى أن أكون غير ذلك . .

وتبادلا نظرة طويلة، أفصحت فى عيني كمال عن الإصرار والتحدى، فانعكست فى عيني فؤاد مهادنة وابتسامة كأشعة الشمس الجهنمية التى تنعكس على سطح الماء لألاء ضاحكًا، ثم واصل كمال حديثه :

- إنى أرى الشهوة غريزة حقيرة، وأمقت فكرة الاستسلام لها، لعلها لم تخلق فينا إلا كي تلهمنا الشعور بالمقاومة والتسامى حتى تعلو عن جدارة إلى مرتبة الإنسانية الحقة، إما أن أكون إنسانًا وإما أن أكون حيوانًا . .

فترث فؤاد قليلاً، ثم قال بهدوء :

- أظن أنها ليست شراً خالصاً، فهي الدافع إلى الزواج، فالذرية !!
خفق قلب كمال خفقة عنيفة لم تجر لفؤاد فى خاطر، أهذا هو الزواج فى النهاية؟ لكنه لم يكن يجهل هذه الحقيقة فى جملتها وإن كان فى حيرة لا يدرى كيف يوفق الناس بين الحب والزواج، إنها مشكلة لم يرتطم بها فى حبه، لأن الزواج بدا دائماً - ولأكثر من سبب - فوق مرتقى أمانيه، ولكن ذلك لم يمنع من قيامه مشكلة تتطلب الحل . ما كان يتصور أن يكون اتصال سعيد بينه وبين معبودته إلا عن طريق العطف الروحى من ناحيتها والتطلع الهيمان من ناحيته، طريق بالعبادة أشبه، بل هو العبادة نفسها، فأى شأن للزواج فى هذا؟
- الذين يحبون حقاً لا يتزوجون .

تساءل فؤاد بدهش :

- ماذا قلت؟!

فطن حتى قبل تساؤل فؤاد إلى أن لسانه خان إرادته، فبدأ عليه الارتباك لحظة حرجة، وراح يتذكر آخر أقوال فؤاد قبل ندود هذه الجملة الغريبة عنه حتى اهتدى بشيء من الجهد - على حداثة العهد بسماعها - إلى كلماته عن الزواج والذرية، فصمم على مداراة هفوته وعلى تصحيح معناها ما أمكن، فقال:

- الذين يحبون ما فوق الحياة لا يتزوجون، هذا ما عنيت .

ابتسم فؤاد ابتسامة خفيفة أو لعله كان يقاوم ضحكة، غير أن عينيهِ العميقتين لم تنما عما وراءهما، واكتفى بأن قال:

- هذه أمور خطيرة، والحديث عنها الآن سابق لأوانه، فلندعها مرهونة بأوقاتها . .

فرفع كمال منكبيه استهانة وثقة، وقال:

- فلندعها ولنتنظر . .

فؤاد فى واد وهو فى واد، على ذلك فهما صديقان، لا يسعه أن ينكر أن الخلاف فى نفسه يجذبه إليه على ما فى ذلك من جهد تعانيهِ أعصابهِ المرة بعد المرة، ألم يثنّ له أن يعود إلى البيت؟ الوحدة ومناجاة النفس تتجاذبانهِ، الكراسية النائمة فى درج مكتبهِ تهيج جيشان صدرهِ، لا بد للمكدود فى مكابدة الواقع من انتجاع بعض الراحة فى الانطواء . .

- أن أن نعود . . .

كان الحنطور يتابع سيره على شاطئ النيل حتى وقف أمام عوامة فى نهاية المثلث الأول من طريق إمبابة ، وما لبث أن غادره السيد أحمد عبد الجواد ثم تبعه على الأثر السيد على عبد الرحيم .

كان الليل قد جثم فى مجثمه وغشيت الظلمة كل شىء إلا أضواء متباعدة تطل من نوافذ العوامات والذهبيات التى يتنظمها الشاطئان من جسر الزمالك فهابطا ، وأنوار خافتة لاحت عند موقع القرية فى نهاية الطريق كالسحابة الناضحة بوهج الشمس فى سماء ملبدة بالغيوم الدكن .

كان السيد أحمد يجيء للعوامة للمرة الأولى على رغم اكتراء محمد عفت لها منذ أربع سنوات - ذلك أن صاحبها خصصها لمجالس الغرام وقد حرمها السيد أحمد على نفسه منذ مصرع فهمى - فتقدمه على عبد الرحيم ليدله على المعبر ، حتى إذا قارب السلم ، قال محذراً :

- السلم ضيق ودرجاته مرتفعة ولا درابزين له ، ضع يدك على كتفى وانزل على مهل . .

هبط بحذر شديد ، وخيرير الماء المتلاطم على الشاطئ ومقدم العوامة يداعب آذانهما ، وقد فغمت أنفيهما رائحة نباتية مازجها عرف الطمى الذى جاد به الفيضان فى ذلك الوقت من أول سبتمبر ، قال على عبد الرحيم وهو يتحسس زر الجرس على جدار المدخل :

- هذه ليلة تاريخية فى حياتك وحياتنا ، ينبغى أن نطلق عليها اسما مناسباً احتفالاً بها . ليلة رجوع الشيخ ؟ . . ما رأيك ؟ . .

قال السيد أحمد، وهو يشد قبضته على منكبه :

- لكننى لست شيخاً، الشيخ الحقيقى كان أبوك! ..

على عبد الرحيم وهو يضحك :

- سترى الآن وجوها لم ترها منذ خمس سنوات ..

قال السيد كالمتردد :

- لا يعنى هذا أتنى أغير من سلوكى أو أحيد عن خطى (ثم بعد لحظة

سكوت) قد .. قد ..

- تصور كلبا يعد بالآ يقرب اللحم إذا تُرك فى المطبخ!

- الكلب الحقيقى كان أبوك يا بن الكلب ..

رن الجرس، فتح الباب بعد نصف دقيقة عن وجه نوبى عجوز، تنحى جانباً وهو يرفع يديه إلى رأسه تحية للقادمين، فدخل الرجلان ومالاً إلى باب على يسار الداخل فجازاه إلى دهليز قصير مضاء بمصباح كهربائى يتدلى من السقف، وقد حُلّى جداراه المتقابلان بمرأتين قام تحت كل منهما مقعد جلدى كبير وخوان، وكان فى نهاية الدهليز المواجه لمدخله باب آخر موارب وشى بأصوات السمار التى اهتز لها صدر أحمد عبد الجواد، فدفعه على عبد الرحيم ودخل، فتبعه السيد، ولكنه ما كاد يعبر عتبته حتى وجد نفسه حيال الحاضرين وهم وقوف، وقد أقبلوا نحوه مرحبين مهللين يكاد يطفر البشر من وجوههم، وكان محمد عفت أسرهم إليه فعانقه، وهو يقول :

- طلع البدر علينا ..

ثم عانقه إبراهيم الفار، قائلاً :

- أتانى زمانى بما أرتضى ..

وتنحى الرجال جانباً، فرأى جليلة، وزبيدة، وامرأة ثالثة وقفت متأخرة عنهما خطوتين ما لبث أن تذكر فيها زنوبة العوادة. آه .. الماضى

كله قد جُمع فى إطار واحد، وتطلعت أساريه وإن بدا عليه شىء من الارتباك، ولكن جليلة ضحكت ضحكة طويلة، ثم فتحت ذراعيها وعانقته، وهى تقول بنبرات غنائية:

- كنت فىن يا حلو غايب ..

ولما أطلقته رأى زبيدة على بعد ذراع كالترددة وإن أضاء وجهها نور الترحيب والسرور، فمد نحوها ذراعه فشدت عليها، وعند ذاك زوت ما بين حاجبيها المزجوجين فى عتاب، قائلة بلهجة لم تخل من تهكم:

- من بعد تلتاشر سنة ..

فما تمالك أن ضحك من أعماق صدره، وأخيراً رأى زنوبة بموقفها لم تبرحه، وقد ارتسمت على ثغرها ابتسامة حياء كأنها لم تجد من ماضيها ما يعطيها حقاً فى رفع الكلفة بينهما، فمد لها يده مصافحاً، وهو يقول مشجعاً ومجاملاً:

- أهلاً بأميرة العوادات ..

ورجعوا إلى مجالسهم، فشبك محمد عفت ذراعه بذراع أحمد ومضى به إلى مجلسه، فأجلسه إلى جانبه، وهو يتساءل ضاحكاً:

- وقعت أم الهوى رماك؟

فغمغم السيد أحمد:

- رمانى الهوى ف وقعت ..

أخذ المكان يستبين لعينيه اللتين غابتا عنه أول الأمر فى حرارة اللقاء ومزاح المرحبين، فوجد نفسه فى حجرة متوسطة الحجم، طليت جدرانها وسقفها بلون زمردى، تطل على النيل بنافذتين وعلى الطريق بنافذتين، وقد أغلق خصاص نوافذها وفتح زجاجها، يتدلى من سقفها مصباح كهربائى ذو غطاء مخروطى من البلور يركز نوره على سطح

خوان توسط الحجره حاملًا الأقداح وقوارير الويسكى ، وقد فرشت الأرض ببساط متجانس اللون مع الجدران والسقف ، وقامت فى كل جانب من الحجره كنبه كبيره شطرت بنمرقه وغشيت بغطاء مزركش ، أما الزوايا فقد احتلت بشلت ووسائد . جلست جليله وزبيده وزنوبه على الكنبه المجاوره للنيل ، واقتعد الرجال الثلاثه الكنبه المواجهه لها ، بينا انتشرت على الشلت آلات الطرب كالعود والدف والدريكه والصنج . أجال بصره فى المكان مليًا ، ثم تنهد بارتياح ، وقال بتلذذ :
- الله . . الله ، كل شىء جميل ، لم لا تفتحون النافذتين المطلتين على النيل ؟

فأجابه محمد عفت :

- يفتحان عندما ينقطع مرور السفن الشراعيه ، وإذا بليتم فاستروا . .

فبادره السيد أحمد باسما :

- وإذا استترتم فابتلوا !

فهتفت جليله كالمتحديه :

- أرنا شطارة زمان !

لم يقصد بقوله إلا المزاح ، والحق أن إقدامه على هذه الخطوة الثوريه - مجيئه إلى العوامه - بعد طول الإحجام أورثه قلقًا وترددًا ، لكن ثمة شىء آخر ، تغيير من نوع ما عليه أن يكتشفه بنفسه ولنفسه ، فليسدد بصره وليمعن النظر ، ماذا يرى ؟ ، هاك جليله وزبيده ، كلتاهما كالمحمل - كما كان يقول قديمًا - أو لعلهما ازدادتا شحما ولحما ، ولكن ثمة شىء يكتنفهما ، لعله إلى متناول الشعور أقرب منه إلى متناول الحس ، إلا أنه وجه من وجوه الكبر بلا مرء ، لعل أصحابه لم يفتنوا إليه لأنهم لم ينقطعوا عن المرأتين مثلما انقطع ، ترى ألم يطرأ عليه هو أيضًا مثل الذى طرأ عليهما ؟ انقبض قلبه وفتر حماسه ، الصديق العائد بعد غيبه طويله

هو أفصح مرآة للإنسان، لكن كيف السبيل إلى هذا التغيير حتى يقبض عليه؟ ليست هنالك شعرة بيضاء واحدة في رأسيهما . . ولكن ما للشيب ورءوس الغواني؟ وليس ثمة تجمعات كذلك . هل غلبت على أمرك؟ كلا، إليك نظرة هاتين العينين، إنها تعكس روحاً خائباً رغم ما يكتنفه من لآلاء براق يستخفى حيناً وراء الابتسام واللعب ثم يبين على حقيقته فيما بين ذلك فتقرأ فيه نعي الشباب، إنه الرثاء الصامت، أليست زبيدة في الخمسين من عمرها؟ وجيليلة جاوزتها بأعوام، إنها لدته ولن تكابر في هذا مهما أنكره لسانها، ثمة تغيير في قلبه أيضاً ينذر بالنفور والتقلص، لم يكن كذلك حين جاء، جاء يجري لا هثا وراء صورة لم يعد لها من وجود، ليكن، حاشا أن يستسلم للهزيمة . . اشرب، واطرب، واضحك، لن يدفعك أحد على رغمك إلى ما لا تود . .

قالت جلييلة :

- لم أكن أصدق أن عيني ستقعان عليك في هذه الدنيا!

وجد إغراء شديداً في أن يسألها :

- كيف ترينني؟

فتدخلت زبيدة بينهما قائلة :

- كالعهد بك، جمل ولا كل الجمال، شعرة بيضاء تلمع تحت

طربوشك ولا شيء خلاف ذلك!

فقال لها جلييلة محتجة :

- دعيني أجب أنا، لأن سؤاله كان لي (ثم مخاطبة السيد) أراك كما

كنت، لا غرابة في ذلك، ما «نحن» إلا أبناء الأمس القريب!

فطن السيد إلى ما رمت إليه، فقال متكلفاً بالجد والصدق :

- أما أنتما فقد ازددتما حسناً ورواء، لم أكن أنتظر هذا كله .

زبيدة ، وهى تتفحصه باهتمام :

- ما الذى غيبك عنا ذلك العمر كله ؟ (ثم ضاحكة) كان بوسعك ، لو كان فيك خير ، أن تلقانا لقاء بريثا ، ألا يكون لقاء بيننا إلا إذا كان الفراش تحتنا؟

قال السيد إبراهيم الفار ، وهو يرعش ذراعه فى الهواء ليحسر كم القفطان عنه :

- لا علم له ولنا بأن ثمة لقاء بريثا يمكن أن يجمع بيننا وبينكن !
زبيدة متأففة :

- أعوذ بالله منكم يا رجال ، لا تودون المرأة إلا مطية !
فقهقتهت جليلة قائلة :

- يا ست أمك احمدى ربنا على ذلك ، أكنت تكتنزين هذا الشحم كله لو لم تضمرى فى نفسك أن تكونى مطية أو حشية ؟
فقال لها زبيدة معاتبة :

- خلى بينى وبين المتهم كى أحقق معه ..
قال السيد أحمد باسما :

- كنت محكوما علىّ بخمس سنوات بريثة بدون شغل ..
فعادت زبيدة تهاجمه قائلة فى تهكم :

- يا ولداه ! حرمت على نفسك اللذات كلها ، كلها يا ولداه ، حتى لم يبق لك منها إلا الطعام والخمر والطرب والمزاح والسهر حتى مطلع الفجر كل ليلة ! فقال السيد كالمعتذر :

- هذه أشياء لا بد منها للقلب الحزين ، أما الأخرى .. !

زبيدة وهى تلوح له بيدها كأنما تقول له «آه منك آه» :

- علمت الآن أنك تعدنا شرا من كافة الذنوب والخطايا ..

محمد عفت هاتفاً مقاطعاً ، كأنما تذكر أمراً هاماً كاد يفلت منه :

.. هل جئنا من أقصى الأرض كي نتكلم ، على حين تطل علينا الأقداح ولا تجد من يعنى بها! ، املاً الأقداح يا على ، اربطى الأوتار يا زنوبة؟ ، اخلع ملابسك يا حضرة المحترم ، أنت حاسب نفسك فى مدرسة؟ ، انزع الجبة والطربوش ، لا تظن أنك أعفيت من التحقيق ، ولكن يجب أولاً أن تسكر المحكمة وأن تسكر النيابة ثم نعود إلى التحقيق ، جليلة أصرت على تأجيل السكر حتى يحضر سلطان الفرفشة أو كما قالت ، هذه الولى تعزك إيمزاز الشيطان للضال المزم ، بارك الله لك فيها وبارك لها فيك . .

نهض السيد أحمد ليخلع الجبة ، قام على عبد الرحيم ليتولى - كعادته - مهمة الساقى ، صدرت عن أوتار العود همسات غير مؤتلفة للاختبار ، دندنت زبيدة فى غمغمة ، سوت جليلة بأناملها خصلات شعرها وطوق الفستان فيما بين ثدييها ، تابعت أعين بتشوق يدى على عبد الرحيم وهو يملأ الأقداح ، تربع السيد أحمد فى مجلسه وهو يجيل بصره فى المكان والناس حتى التقت عيناه اتفاقاً بعينى زنوبة فابتسمت الأعين تحية ، قدم على عبد الرحيم الدفعة الأولى من الكئوس . قال محمد عفت : صحتكم ومحبتك ، قالت جليلة : نخب العودة يا سى أحمد ، قالت زبيدة : نخب الهداية بعد الضلال ، قال أحمد : نخب الأحباب الذين فرق الحزن بينى وبينهم . . شربوا عندما رفع السيد أحمد كأسه إلى شفتيه ، رأى من فوق سفح الكأس وجه زنوبة مرفوعاً كذلك إلى كأسه فهزته نضارته ، قال محمد عفت لعل عبد الرحيم : املاً الثانى ، وقال له إبراهيم الفار : والثالث فى أثره حتى نثبت الأساس ، قال على عبد الرحيم وهو يشمر : خادم القوم سيدهم . وجد أحمد عبد الجواد نفسه يتابع أنامل زنوبة وهى تربط الأوتار ، فتساءل عن عمرها ثم قدره بين الخامسة والعشرين وبين الثلاثين ، ساءل

نفسه مرة أخرى عما جاء بها . . العود؟! . . أم أن خالتها زبيدة تهيب لها سبيل الرزق؟ . قال السيد إبراهيم الفار: إن النظر إلى ماء النيل يدوخه . فهتفت به جلييلة: يا ابن الداخة! . سأل على عبد الرحيم: إذا رميت امرأة في حجم جلييلة أو زبيدة إلى الماء فهل تغرق أم تطفو؟ فأجابه السيد أحمد بأنها تطفو إلا إذا كان بها ثقب، ساءل السيد أحمد نفسه عما يحدث لو نزعت به نفسه إلى زنوبة، فأجابت نفسه بأن ذلك يكون فضيحة لو أراده الآن، أما بعد خمس كئوس فلن يخلو من حرج، وأما بعد زجاجة فيكون واجبا . . اقترح محمد عفت أن يشربوا كأسا في صحة سعد زغلول ومصطفى النحاس اللذين سيسافران في نهاية الشهر من باريس إلى لندن للمفاوضة، اقترح إبراهيم الفار أن يشربوا كأسا آخر في صحة مكدونالد صديق المصريين، تساءل على عبد الرحيم عما عناه مكدونالد بقوله: «إنه يستطيع أن يحل القضية المصرية قبل أن يفرغ من فنجان القهوة الذي كان بين يديه» . فأجابه أحمد عبد الجواد بأن ذلك يعنى أن الإنجليزي يشرب فنجان القهوة - فى المتوسط - فى نصف قرن، تذكر السيد أحمد كيف ثار على الثورة عقب مصرع فهمى وكيف تاب رويدا إلى مشاعره الوطنية الأولى لما أسبغه الناس عليه من تقدير وإكبار بصفته والد لشهيد نبيل، ثم كيف انقلبت مأساة فهمى مع الزمن مفخرة يباهى بها وهو لا يدري!

رفعت جلييلة كأسها صوب السيد أحمد وهى تقول:

- صحتك يا جملى، طالما كنت أسائل نفسى هل نسينا حقاً السيد أحمد؟ ولكنى علم الله عذرتك ودعوت الله أن يلهمك الصبر والعزاء، لا تعجب فأننا أختك وأنت أختى . .

فسألها محمد عفت بخيث:

- إذا كنت أخته وكان أخاك كما تدعين، فهل يفعل الأخوان ما فعلتما فى زمانكما؟

فاطلقت ضحكة أعادت إلى الأذهان ذكريات عام ١٩١٨ وما قبله ،
وقالت :

- سل أخوالك يا روح أمك ..

قالت زبيدة وهى تلاحظ أحمد عبد الجواد بمكر :

- بدا لى رأى آخر فى تفسير غيبته الطويلة ..

سألها أكثر من صوت عما بدا لها ، على حين تتمم السيد أحمد
بصوت المستعيد :

- يا ساتر استر ..

- بدا لى أنه ربما كان حصل عنده ضعف مما يدرك الكهول أمثاله ،
فاعتل بالحزن واختفى ..

قالت جليلة معترضة وهى تهز رأسها على أسلوب العوالم :
- إنه آخر من يدركه الكبير !

فسأل السيد محمد عفت السيد أحمد :

- أى الرايين أصح ؟

فقال السيد أحمد بلهجة ذات معنى :

- رأى الأول يعبر عن الخوف والآخر يعبر عن الرجاء ؟

قالت جليلة بظفر وارتياح :

- لست ممن يخيب عندهم الرجاء :

هم بأن يقول «عند الامتحان يُكرم المرء أو يهان» ، ولكنه خاف أن
يدعى للامتحان أو أن يفهم قوله على أنه تقديم فى الامتحان ، على حين
كان كلما أنعم النظر تمكن منه شعور بالنفور وبالنزهد لم يجر له فى خاطر
قبل المجىء . أجل ثمة تغير لا ينكر ، مضى الأمس ، وليس اليوم
كالأمس ، لا زبيدة بزبيدة ولا جليلة بجليلة ، وليس ثمة ما يستحق

المغامرة، ليقنع بالأخوة التى نوهت بها جلييلة، وليمدها حتى تظلل زبيدة نفسها، قال برقة :

- من أين للكبر أن يدرك آدميا وهو بينكن!

تساءلت زبيدة وهى تقلب عينيها فى الرجال الثلاثة :

- أيكم الأكبر؟

فقال السيد أحمد ببراءة :

- أنا ولدت فى أعقاب ثورة عرابى . . !

فقال محمد عفت محتجاً :

- قل كلاما غير هذا، لقد بلغنى أنك كنت من جنود عرابى . . !

فقال السيد أحمد :

- كنت جندياً من بطونهم، كما يقال الآن : تلميذ من منازلهم . .

فتساءل على عبد الرحيم كالدهش :

- وماذا صنعت المرحومة والدتك وأنت داخل خارج إلى المعركة؟!

صاحت زبيدة بعد أن أفرغت الكأس فى فيها :

- لا تهربوا بالهزار، إنى أسألكم عن أعماركم . .

قال إبراهيم الفار بتحد :

- ثلاثنا بين الخمسين والخمسة والخمسين، فهل تكاشفانا

بعمركم؟ . .

هزت زبيدة كتفيها استهانة، وقالت :

- أنا ولدت . .

ثم ضاقت عيناها المكحولتان وهما ترفعان إلى المصباح فى حال

تذكر، غير أن السيد أحمد عاجلها متمماً ما توقفت عن إتمامه :

- عقب ثورة سعد باشا؟!

ضحكوا طويلاً حتى ألعبت لهم الوسطى ، ولكن جلييلة لم ترحب
بالحديث فيما بدا ، فصاحت بهم :

- دعونا من هذه السيرة المقطرنة ! ما لنا نحن والأعمار ! ليسأل
عنها صاحب الأمر فى سماواته ، أما نحن فالمرأة منا شابة ما
وجدت من يرغب فيها ، والرجل منكم شاب ما وجد من ترغب
فيه . .

هتف على عبد الرحيم بغتة :
- هتئونى !

وسئل عما يهنا عليه ، فواصل الهاتف قائلاً :
- سكرت :

قال أحمد عبد الجواد : إنهم ينبغي أن يلحقوا به قبل أن يضل وحده
فى عالم السكر ، حثتهم جلييلة على أن يتركوه وحده جزاء تعجله ، أوى
على عبد الرحيم فى ركن وفى يده كأس مترعة وهو يقول لهم : ابحثوا
عن ساق غيرى . قامت زبيدة إلى حيث تركت ملابسها الخارجية
وفحصت فى حقيبتها عن حق الكوكايين حتى اطمأنت إلى أنه فى
مكانه ، اغتنم إبراهيم الفار فرصة خلو مكان زبيدة فجلس فيه ثم أسند
رأسه إلى كتف جلييلة وهو يتنهد بصوت مسموع ، نهض محمد عفت
إلى النافذتين المطلتين على النيل وأزاح الخصاص عنهما جانبا فلاح
سطح الماء ظلمات متحركة عدا خطوط من الضياء الهادئ رسمتها على
الأمواج الأشعة المرسلة من مصابيح الذهبيات الساهرة ، لعبت زنوبة
بأوتار العود محدثة نغمة راقصة فاتجهت عينا السيد إليها مليا ثم قام
ليملأ كأسه لنفسه ، عادت زبيدة فجلست بين محمد عفت وأحمد عبد
الجواد وهى تضرب الأخير على سلسلة ظهره ، علا صوت جلييلة وهى
تغنى :

«يوم ما عضتني العضة . .» .

هتف إبراهيم الفار بدوره: هثنونى . . اشترك محمد عفت وزبيدة فى غناء جلييلة عند جملة: «وجابولى طاسة الخضة»، اشتركت زنوبة فى الأغنية، فعاود السيد أحمد النظر إليها وما يدرى إلا وهو ينضم إلى المغنين . جاء صوت على عبد الرحيم من ركن الحجرة مؤيداً. هتف إبراهيم الفار ورأسه لا يزال مسنداً إلى كتف جلييلة: مغنون ستة وسميع واحد هو أنا. قال السيد أحمد لنفسه دون أن يتوقف عن الغناء: سوف تلبي وهى من الرضى والسرور فى نهاية، ثم ساءل نفسه أيضاً: ألييلة عابرة أم معاشرة طويلة؟ قام إبراهيم الفار فجأة واندفع يرقص، جعل الجميع يصفقون على الواحدة ثم غنوا معاً:

«خدنى فى جيبك بقه . . بين الحزام والمنطقة» .

ساءل السيد أحمد نفسه: ترى أتقبل زبيدة أن يكون اللقاء فى بيتها؟ . . انتهت الأغنية والرقص فاستبقوا إلى التراشق بالدعابات دون توقف، جعل أحمد عبد الجواد كلما أطلق دعابة يسترق النظر إلى وجه زنوبة ليرى أثرها فيه، اشتد الهرج والمرج، ومضى الوقت منسرقاً . .

- آن لى أن أذهب . .

قال على عبد الرحيم ذلك، وهو ينهض متجهاً إلى ملابسه . فصاح به محمد عفت ساخطاً:

- قلت لك أن أحضرها معك حتى لا نقطع السهرة!

تساءلت زبيدة وهى ترفع حاجبيها:

- من هى المحروسة؟

فقال إبراهيم الفار:

- رفيقة جديدة، معلمة قد الدنيا وصاحبة بيت بوجه البركة . .

فسأله السيد أحمد باهتمام:

- من . . ؟

أجاب على عبد الرحيم ، وهو يحبك الجبة ضاحكاً :

- صاحبك القديمة سنية القللى . .

فاتسعت عينا السيد الزرقاوان ، وتجلت فيهما نظرة حاملة ، ثم قال

باسما :

- اذكرنى عندها وأقرئها السلام . .

قال على عبد الرحيم ، وهو يفتل شاربه ويتأهب للذهاب :

- سألت عنك واقترحت على أن أدعوك إلى قضاء سهرة فى بيتها بعد

مواعيد العمل ، فقلت لها إن بكره اسم النبى حارسه قد بلغ السن

التي تعد فى أسرتهم موجبة للدخول فى وجه البركة وغيرها من

وجوه الفسق ، فلا يأمن أبوه إن جاء أن يلتقى به فى إحدى

جولاته . . !

وضحك الرجل ملء شذقيه ، ثم سلم وغادر الحجرة إلى الدهليز ،

فتبعه على الأثر محمد عفت وأحمد عبد الجواد ليوصلاه إلى الباب

الخارجى . واستمروا يتحدثون ويتضحكون حتى غادر السيد على

العوامة ، وعند ذاك غمز محمد عفت ذراع أحمد عبد الجواد ، وهو

يتساءل :

- زبيدة أم جلييلة؟

فقال السيد أحمد ببساطة :

- لا هذه ولا تلك ! .

- لم؟ كفى الله الشر!!

فقال بلهجة القانع :

- خطوة خطوة ، سوف أكتفى ما بقى من هذه الليلة بالشراب وسماع

العود . . !

ألح عليه أن يقدم رجله خطوة أخرى ، ولكنه اعتذر فلم يثقل عليه ،
عادا إلى الحجرة المبعثرة الفاقدة الوعي فاستردا مجلسيهما . قام إبراهيم
الفار مقام الساقى ، افتضحت أمارات السكر فى وهج العيون وسلس
الحديث وتحرر الأعضاء ، غنوا جميعاً وراء زبيدة :
«البحر يضحك ليه . . » .

لوحظ أن صوت السيد أحمد عبد الجواد علا حتى كاد يغطى على
صوت زبيدة ، روت جليلة تناتيش من مغامراتها . مذ وقع بصرى عليك
شعرت بأن الليلة لن تمر بلا مغامرة ، ما أملح الصغيرة ، الصغيرة؟ هى
كذلك ما دمت تكبرها بربع قرن . تحسر إبراهيم الفار على العصر
الذهبي للنحاس على أيام الحرب ، فقال لهم بلسان ثقيل «كتم تقبلون
يدى من أجل رطل نحاس» فقال له السيد أحمد : «إن كان لك عند
الكلب حاجة قل له يا سيدى» . اشتكت زبيدة شدة السكر فقامت
تتمشى ذهاباً وجيئة ، وعند ذاك جعلوا يصفقون على إيقاع مشيتها
المرتحة ويهتفون بها :

«تاتا خطى العتبة . . تاتا خطى العتبة» .

الخمر تشل العضو الذى يفرز الحزن ، غمغمت جليلة قائلة :
«حسبنا» ، ونهضت فغادرت الحجرة إلى ردهة تفضى إلى مخدعين
متقابلين ، فمالت إلى المخدع المجاور للنيل ودخلت ، وما لبث أن
ترامت إليهم طقطقة الفراش وهو يتلقى جسمها العظيم ، راق زبيدة
تصرف جليلة فاتبعته أثرها إلى المخدع الآخر باعثة وراءها طقطقة
أعنف ، قال إبراهيم الفار : «إن لسان السرير قد نطق» . تناهى إليهم من
المخدع الأول صوت وان يترنم محاكيا بحة منيرة : «يا حبيبى تعالى» ،
فقام محمد عفت وهو يجيب مترنماً كذلك : «أدينى جى» . نظر إبراهيم
الفار إلى أحمد عبد الجواد متسائلا ، فقال له السيد : «إذا لم تستح
فاصنع ما شئت» ، فقام وهو يقول : «لا حياء فى العوامة!» . . خلا

الجو، ها هي الساعة التي رصدتها طويلاً، نحت الصغيرة العود جانبا وتربعت وهي تسبل حاشية الفستان على ساقها المتشابكتين. ساد صمت وتبدل نظر ثم مدت بصرها إلى لا شيء، تكهرب الصمت فلم يعد يحتمل، نهضت فجأة فسألها: إلى أين؟ فغمغمت وهي تمرق من الباب: «الحمام»، قام بدوره إلى مجلسها فجلس وتناول العود وراح يعبث بأوتاره، وهو يتساءل: «أليس ثمة حجرة ثالثة؟» لا ينبغي لقلبك أن يدق هكذا كأنما الجندي الإنجليزي يسوقك أمامه في الظلام، ليلة أم مريم هل تذكر؟ لا تعد إلى ذكرها فهي ألم، عادت من الحمام.. ما أنضرها!..

- أتضرب العود؟

أجاب باسمنا:

- علميني..

- حسبك الدف فإنك من رجاله!

وهو يتنهد:

- تلك أيام خلت، ما ألطفها، كنت طفلة! ما لك لا تجلسين؟

تكاد تلمسك، ما أحلى أول الصيد!

- خذى العود وأسمعيني..

- شعبنا غناء وعزفا وضحكا، عرفت الليلة أكثر من ذى قبل لماذا

يفتقدونك في كل سهرة!

فابتسم ابتسامة وشت بسروره، ثم قال بمكر:

- ولكنك لم تشبعي شربا؟

فأجابت بالإيجاب وهي تضحك، فوثب كالجواد إلى المائدة، ثم عاد

بزجاجة مملوءة حتى النصف، وكأسين، وجلس وهو يقول: «لنشرب

معاً». الشرهة اللذيذة تنفث عيناها شيطنة وسحراً، سلها عن الحجرة

الثالثة.. سل نفسك: ليلة أم معاشرة.. وعن العواقب لا تسل، أحمد

عبد الجواد بجلالة قدره يفتح ذراعيه لزنوبة العوادة . . بصحاف الفاكهة
كانت تقف بين يديك . . لكن لتحل بك السعادة جزاء نضارتك ، أما
الكبر فلم يكن أبداً من شيمى . . رأى كفها القابضة على الكأس قريبة
من ركبته ، فمد راحته وربت عليها بلطف ، ولكنها سحبتها فى صمت
إلى حجرها دون أن تلتفت إليه ، فساءل نفسه ترى هل يحلو التدلل فى
هذا الوقت المتأخر خاصة إذا كان الداعى مثله وكانت المدعوة مثلها ؟ غير
أنه لم يحد عن سنن الملاينة والملاطفة ، فسألها بلهجة ذات معنى :

- أليس ثمة حجرة ثالثة فى العوامة ؟

قالت تحيب على ظاهر السؤال متجاهلة مغزاه وهى تشير صوب باب
الدهليز :

- فى الناحية الأخرى . .

تساءل وهو يقتل شاربه مبتسماً :

- أليست تسع كلينا ؟

فقالت بصوت لا أثر للدلال فيه ، وإن لم يجاوز حدود الأدب :

- تسعك وحدك إن طاب لك النوم !

فسألها كالدهاش :

- وأنت ؟

فقالت بنفس اللهجة :

- مستريحة كما أنا . .

ترحزح قليلاً مقترباً منها ، ولكنها قامت فوضعت كأسها على
المائدة ، ثم مضت إلى الكنبه المقابلة له ، فجلست راسمة على وجهها
صورة الجد والاحتجاج الصامت حتى عجب الرجل لشأنها فباخ
حماسه ووجد وخزة فى كبريائه ، ثم جعل ينظر إليها وعلى شفثيه
ابتسامة متكلفة حتى سألها :

- ماذا أغضبك؟

فلازمت الصمت ملياً، ثم شبكت ذراعيها على صدرها.

- إنى أتساءل عما أغضبك؟

قالت باقتضاب:

- لا تسأل عما تعلم..

ضحك فجأة ضحكة عالية معلناً بها عن استهائته وعدم تصديقه،
وقام بدوره فملاً الكأسين ثم قدم لها كأسها، وهو يقول:

- روقى مزاجك..

فتناولت الكأس تأدباً ثم أعادتها إلى المائدة، وهى تغمغم «أشكر»
فتراجع إلى مجلسه وقعد، ثم رفع كأسه إلى شفثيه وتجرعها دفعة واحدة
وقهقه ضاحكاً:

أكان فى وسعك أن تتوقع هذه المفاجأة؟، لو أستطيع أن أرجع فى
الزمن ربع ساعة إلى الوراء، زنوبة.. زنوبة.. ولا شىء غير زنوبة فهل
تصدق ذلك؟ لا تشئت حيال الصدمة، من يدري لعله دلال موضحة
١٩٢٤ يا حمصانى ١٩٠٠، ماذا تغير فى؟.. لا شىء.. لكنها
زنوبة.. أليس ذلك هو اسمها؟، لكل رجل حتماً من امرأة تعرض
عنها، وما دامت زبيدة وجيليلة وأم مريم يسعين إليك فمن غير زنوبة-
هذه الخنفساء- تعرض عنك؟! تحمل حتى تحتل، ليس الأمر على أى
حال بكارثة، آه، انظر انظر، ساقها مليحة مدملجة، أساسها متين، لم
تظن أنها أعرضت عنك حقاً؟..

- اشربى يا حلوة..

قالت بصوت يجمع بين الأدب والحزم:

- عندما يروق لى الشراب..

فسدد نحوها بصره، ثم تساءل بلهجة ذات معنى:

- ومتى يروق لك . . ؟

فقطبت معلنة عن مدى فهمها لإشارته ولم تجب . .

تساءل السيد ، وكان يشعر فى تلك اللحظة أنه يتدهور :

- ألم يصادف توددى القبول؟

فطامنت من رأسها لتخفى وجهها عن عينيه ، وقالت برجاء حازم :

- هلا كفت عن هذا؟

تملكه غضب فجائى فجاء كرد فعل لإحساسه بالتدهور ، فتساءل

داهشا :

- لم تجيئين إلى هنا؟

قالت باحتجاج ، وهى تشير إلى العود المستلقى على الكنبه غير بعيد

عنه :

- أجيء من أجل هذا . .

- فقط؟ . . لا تناقض بين هذا وبين ما أدعوك إليه . . !

تساءلت باستياء :

- بالقوة؟

فقال وهو يعانى سكرات الخيبة والحنق :

- كلا ، ولكنى لا أجد سبباً للرفض !

فقالت ببرود :

- لعل عندى أسبابا . .

ضحك ضحكة عالية فاضية ، ثم غلبه الحنق ، فقال هازئاً :

- لعلك تخافين على بكارتك !

رئت إليه بنظرة طويلة قاسية ، ثم قالت بحنق وتشفّ :

- أنا لا أَرْضى إلا بمن أحبه . .

هم بأن يضحك مرة أخرى ، ولكنه أمسك بعد أن ضاق صدره بهذه الضحكات الآلية المحزنة ، ومد يده إلى القارورة فصب منها في كأسه بلا تدبر حتى امتلأت إلى النصف ، ولكنه تركها على المائدة ، وراح ينظر إلى المرأة في حيرة لا يدرى كيف يخرج من المأزق الذى دفع نفسه إليه . . الأفعى بنت الأفعى لا ترضى إلا بمن تحبه ، هل يعنى هذا إلا أنها تحب كل ليلة رجلاً ، هيهات أن تمحى من صفحتك فضيحة الليلة ! السادة هناك فى الداخل ، وأنت هنا تحت رحمة عوادة متدللة . . اسلخها بلسانك . . اركلها بقدمك . . ادفعها أمامك إلى الحجرة قهراً . الأجدر أن تشيح عنها بوجهك وتغادر المكان فوراً ، فى أعيننا لعنة تذلل الأعناق ، ما ألطف جيدها ، لا تمار فى حلاوتها ، طاش الرأى ووجب الألم . .

- لم أكن أتوقع هذا الجفاء . .

وقطب مصمما وقد تجهم وجهه ، فنهض رافعا كتفيه فى استهانة ، وهو يقول :

- ظننتك مثل خالتك لطافة وذوقا فخاب ظنى ، ولن ألوم إلا نفسى . .

سمع وسوسة شفيتها وهى تمتص ريقها مصة الاحتجاج والانتقاد . ولكنه مضى إلى ملابسه فأخذ يلبسها على عجل حتى انتهى منها فى أقل من نصف المدة التى تتطلبها عادة أناقته . كان مصمما غاضباً ، ولكن اليأس لم يبلغ به نهايته ، ظل جزء من نفسه متمرداً يأبى أن يصدق ما وقع أو يعز عليه أن يسلم به ، فتناول عصاه وهو يترقب بين لحظة وأخرى أن يحدث شىء فيكذب ظنه ويصدق أمانى كبريائه الجريح ، كأن تضحك فجأة حاسرة عن وجهها قناع الجذائف ، أو أن تهرع إليه مستنكرة غضبه ، أو أن تثب أمامه لتحول بينه وبين الذهاب ، أجل كثيراً

ما تكون مصة الريق التي ندت عنها مناورة يعقبها الاستسلام، غير أن شيئاً من ذلك لم يحدث.

ولبت وهي بمجلسها تنظر إلى لا شيء، متجاهلة إياه كأنها لا تراه، فغادر الحجرة إلى الدهليز ومنه إلى الباب الخارجى ثم إلى الطريق وهو يتنهد فى حزن وأسف وغبط. قطع الطريق المظلم مشياً على الأقدام حتى بلغ جسر الزمالك وجو الخريف الرطيب يتسلل فى لطف إلى داخل ملابسه، ومن هناك استقل تاكسى، فطوى به الأرض طياً وهو ذاهل من السكر والفكر، حتى انتبه إلى ما حوله فى ميدان الأوبرا والسيارة تدور به فى طريقها إلى العتبة الخضراء، فى أثناء دورانها حانت منه التفاتة فلمح على ضوء المصابيح سور حديقة الأزبكية فعلق به بصره حتى غيبه عنه منعطف الطريق، ثم أغمض عينيه وهو يشعر بشكة تنفذ إلى أعماق قلبه، ووجد فى باطنه صوتاً كالأنين يهتف فى عالمه الصامت داعياً بالرحمة للفقيد العزيز، فلم يجرؤ على ترديد الدعاء بلسانه أن يذكر اسم الله بلسان مشيع بالخمير، وعندما رفع جفنيه، ذرفت عيناه دموعين غزيرتين . .

٨

لم يدر ماذا ركبه!! شيطان رجيم أم داء وبيل؟ نام وهو يأمل أن يكون انتهى من سخف الليلة الماضية، بسخف السكر دعاء، وللسكر سخف لا ريب فيه يفسد لذاته ويقلب مسراته، وعندما ألقى عليه الصباح نوره وجده من قلق يتقلب، ورشاش الدش يترشش على جسده العارى تشتت فكره وخفق قلبه، تخايل لعينيه وجهها وطنت فى أذنيه

وسوسة شفتيها ورجع قلبه صدى الألم، ثم تجتر أفكارك الظامئة كفتى
مراهق والطريق من حولك يحييك تحية الإجلال . يحيون فيك الوقار
والورع وحسن الجوار، ولو علموا أنك ترد تحياتهم فى آلية وفكرك
عنهم غائب مهموم فى حلم جارية عالمة . . عوادة . . امرأة تعرض
جسدها كل ليلة فى سوق المضاجع . . لو علموا ذلك، لأولوك بدل
التحية ابتسامة هزء ورتاء . فلتقل الأفعى «نعم» وعند ذلك أعرض عنها
بكل ازدراء وارتياح، ماذا دهانى وماذا أروم، هل أدركك الكبير؟ أتذكر
ما ابتلى جليلة وزبيدة من عاديات الزمن؟ تلك آثار بغیضة يجدها القلب
ولا يدركها الحس، لكن مهلاً، حذار أن تسلم للوهم فيسلمك الوهم
لقمة سائغة للانهيـار . . ما هى إلا شعرة بيضاء، لغير ذلك من البواعث
أعرضت عنك العوادة الحـقيرة . . الفظها كما تلفظ ذبابة اندست فى فيك
وأنت تتشاءب، وأسفاه!! أنت تعلم أنك لن تلفظها، لعلها الرغبة فى
الانتقام ولاشئ سوى ذلك . رد اعتبار ليس إلا . ينبغي أن تقول الجارية
«نعم» ولك أن تهجرها بعد ذلك قرير العين . لاشئ فيها يستحق
النضال . أتذكر ساقـيها وجيدها وشهوة عينيها؟ لو داويت كبريائك
بلعقة من الصبر لفزت - من ليلتك - بالمتعة والبهجة، ماذا وراء هذا القلق
كله؟! إنى أتألم، أجل! إنى أتألم، إنى مكروب بما نزل بى من مهانة،
أتوعدـها بالازدراء ثم تخطر منها على القلب خطرة فتستعر عروقى . .
استبق الحياء ولا تجعل من نفسك أضحوكة، إنى أستحلفك بالأولاد من
بقى منهم ومن ذهب . . هنية كانت المرأة الوحيدة التى هجرتك فـجريت
وراءها، ماذا لقيت منها؟ ألا تذكر!! فتوة الزفة يرقص ويسكر ويصول
ويجول، ثم يعمل عصاه فى المصاييح وطاقات الورد والمزامير
والمدعوين، حتى يغطى الصلوات على الزغاريد . . ذاك رجل؟! كن
فتوة العوامة واقتل أعداءك بالتجاهل والإعراض . ما أضعف أعداءك
وما أقواهم، ساق مسترخية لا تكاد تقوى على المشى غير أنها تهد

الجبال الرواسى، ما أقطع سبتمبر إذا ارتفعت حرارته المشبعة
بالرطوبة، ما ألطف أماسيه خاصة ما يكون منها فى العوامة . إن بعد
العسر يسرا . .

فكر فى أمرك وانظر فى أى اتجاه تسير، المكتوب لازم تشوفه العين،
الإقدام مُر والنكوص مرعب، كم كنت تراها وهى فى ميعة الصبا فلم
توقظ فيك نائماً ومررت بها كأنها شىء لم يكن، ماذا جد حتى زهدت
فيمن أحببت وأحببت من كنت تزهد، ليست أجمل من زبيدة ولا جليلة
ولو كان بها جمال ينافس جمال خالتها ما اصططحبتها، على ذلك فأنت
تريدها وتريدها بكل قوة نفسك . . آه !! ما جدوى المكابرة؟! لا أرضى
إلا بمن أحبه!! أحبك برص يا بنت اللبوة . . تألم حتى تختنق، ما أذل
الإنسان مثل نفسه، هل تذهب إلى العوامة؟ ليست خير مكان لإذاعة
الفضائح، البيت؟ هناك زبيدة!! أهلا أهلا!! أعدت أخيراً إلى عرينك؟
بم تجيبها؟ لم أعد لذاك، ولكنى أريد بنت أختك! ياله من سخف!
دع الهذر. هل فقدت صوابك؟! استعن بالفار أو بمحمد عفت.
السيد أحمد عبد الجواد يبحث لنفسه عن شفيع إلى . . زنوبة! . . أليس
من الأفضل أن تفصد نفسك حتى يتفصد الدم الخبيث الذى يسيملك
الذل!

كان الليل قد غشى الغورية وأغلقت أبواب حوانيتها، حين أقبل
أحمد عبد الجواد من دكانه عقب إغلاقها، يسير فى خطوات وثيدة
وعيناه تتفحصان الطريق والنوافذ، لاح وراء نافذتى زبيدة ضوء، ولكنه
لم يدر ماذا كان يدور وراءهما، أوغل فى الطريق وقتاً ثم عاد من حيث
أتى، فوصل مسيره إلى بيت محمد عفت بالجمالية حيث يلتقى
الأصدقاء الأربعة قبل انطلاقهم إلى السهرة معا. قال السيد مخاطباً
محمد عفت:

- ما ألطف ليالى العوامة، لا يزال قلبى يحن إليها!

فقال محمد عفت ضاحكاً فى ظفر:

- هى رهن إشارتك فى أى وقت تشاء ..

وعقب على عبد الرحيم على ذلك بقوله:

- حنتت إلى زبيدة، يا عكروت.

فبادر السيد قائلاً فى جد:

- كلا ..

- جلييلة؟

- العوامة ولا شىء عداها ..

فسأله محمد عفت بمكر:

- أتريدها سهرة قاصرة علينا، أم ندعو إليها صديقات الزمان الأول؟

فضحك السيد ضحكاً أعلن بها هزيمته، ثم قال:

- بل تدعوهن يا بن الماكرة، وليكن ذلك مساء الغد، لأن الوقت

تأخر بنا الليلة، ولكنى لن أجاوز الاستمتاع بالمجالسة والمؤانسة ..

قال إبراهيم الفار «إحم»، وقال على عبد الرحيم: «على روحى أنا

الجانى»، وقال محمد عفت ساخراً: «سمه كما تشاء، تعددت الأسماء

والفعل واحد».

ثم كان اليوم التالى كأنما اكتشف قهوة سى على لأول مرة.

انجذب إليها قبيل الأصيل، وجلس على الأريكة تحت الكوة، فأقبل

عليه صاحب القهوة مرحباً، فقال له السيد وكأنه يبرر مجيئه إلى القهوة

لأول مرة:

- كنت راجعاً من بعض الأعمال، فنازعتنى النفس إلى احتساء

شايك العذب.

زيارة لا يبدو أنها من السهل أن تتكرر .. رويداً رويداً!! ستفصح

نفسك أمام الناس ، ما جدوى هذا كله؟! . هل يسرك حقاً أن تراك من وراء الخصاص لتهزأ من تدهورك؟ . إنك لا تدري ماذا تصنع بنفسك، أتعبت عينيك فى محجريهما ودوخت دماغك، لن تبدوا لك، والأدهى من هذا أن تتفرج عليك ساخرة من وراء خصاص، ماذا جاء بك؟ تريد أن تملأ عينيك منها . اعترف، تريد أن تقيس أبعاد جسمها اللدن . . أن ترى ابتسامتها وإغضاءتها . . أن تتابع أناملها المخضبة، فيم هذا كله؟ لم يسلف لك شيء كهذا مع من فُقنها حسنا ورواء وشهرة، أقصى عليك أن تتعذب وتهون فى سبيل الشيء الحقيقير! . لن تبدوا . . تطلع كيفما شئت . . الفت إليك الأنظار . . السيد أحمد عبد الجواد فى قهوة سى على يسترق النظر من الكوة، لشد ما تدهورت!! من أدراك أنها لم تفش سر؟ لعل التخت يدرى، ولعل زبيدة نفسها تدري، ولعل الجميع يدورن!! مديده المحلاة بالخاتم الماسى إلى فصددته ثم توسل إلى فأصررت على صده . . هذا هو السيد أحمد عبد الجواد الذى تشيدون به!! . لشد ما تدهورت!! أقصى التدهور ما تنحدر إليه، بل ما تصر على الانحذار إليه وأنت أعلم الناس بما ينطوى عليه فعلك المشين من مذلة وهوان، إذا عرف السر أصحابك وزبيدة وجليلة، فماذا أنت صانع؟! حقاً أنت ماهر فى مداراة الحرج بالنكتة، ولكن سوف تنحسر موجات الضحك والقهقهة عن الحقيقة المرة . . هذا مؤلم وآلم منه أنك تريدها . لا تكذب على نفسك، فأنت تريدها حتى الممات . ماذا أرى؟ . . تساءل وهو ينظر إلى عربة كارو جاءت فوقفت أمام بيت العالمة، ثم ما لبث أن فُتح الباب فخرجت عيوشة الدفافة ساحبة وراءها عبده القانونجى، ثم تبعتها بقية الجوقة، فأدرك أنهم ذاهبون إلى فرح من الأفراح . وشعر الرجل شعوراً عنيقاً بخفقان قلبه وهو يتطلع إلى الباب فى ترقب مشوق محزن اشرب بعنقه فى غير ما حيطة متجاهلاً ما حوله من الناس، ثم رنت ضحكة وراء

الباب، ثم برز العود فى جراب بمبى يسبق صاحبتة التى خرجت فى نشاط ثورى ضاحكة ثم وضعت العود على مقدم العربية، وصعدت إليها بمعونة عيوشة، وجلست فى الوسط حتى لم يعد يرى منها إلا منكبا يبدو خلال زاوية انفرجت ما بين عيوشة وعبدہ الضرير . أصر السيد على أسنانه حيننا وحقنا معا . أتبع العربية عينيه وهى تتمايل ذات اليمين وذات الشمال موعلة فى الطريق ، مخلقة فى صدره إحساسا عميقا بالكآبة والهوان ، وتساءل : هل يقوم فيتبعها؟ غير أنه لم يحرك ساكنا ولم يزد على أن قال لنفسه : « كان المجرى إلى هنا حماقة جنونية » .

ذهب فى المساء الموعود إلى العوامة بإمبابة ، لم يكن استقر على رأى فيما ينبغى أن يفعل على كثرة ما أدار الأمر فى ذهنه . ثم أخيرا ، رهن حل مشاكله بيد الظروف والفرص . . حسبه أنه ضمن رؤيتها ومجالستها والانفراد بها فى آخر الليل ، سوف يجس النبض من جديد وربما أعاد الكرة مستعينا هذه المرة بكافة ضروب الإغراء ، دخل العوامة كالوجل ، وعلى حال لو رآها على غيره وحده بواعثها لأغرقه ضحكا وسخرية . هنالك وجد الإخوان وجيللة وزبيدة ولكنه لم يعثر للعوادة على أثر!! وقد استقبل استقبالاً حاراً ، وما كاد يخلع جبته وطربوشه ويتخذ مجلسه حتى انفجرت القهقهات من حوله فاندمج فى جوها بقوة مرونته . حدث ونكت ومازح وداعب مغالباً قلقه محاوراً همه ، غير أن مخاوفه كمننت تحت تيار المرح دون أن تتبدد كما يكمن الألم إلى حين تحت تأثير المخدر ، وما برح يأمل أن يفتح باب فتأتى منه أو أن يشير أحد إليها بكلمة تفسر غيابها أو تعد بقرب حضورها ، وكلما مضى الوقت متاقلاً متثاقباً شحب أمله وفتّر حماسه وغيم المأمول من صفوه .

ترى أيهما كان الطارئ : حضورها أول أمس ، أم تخلفها اليوم؟ ، لن أسأل أحدا ، الظواهر تنم على أن سرك لا يزال مصونا ، لو علمت به زبيدة ما تورعت أن تجعل منه فضيحة وجرسة . ضحك كثيرا وشرب

أكثر، سأل زبيدة أن تغنيه «أضحك من الفم وأبكي من صميم قلبي»، أو شك مرة أن يخلو بمحمد عفت ليكاشفه بما يريد، أو شك مرة أخرى أن يجس نبض زبيدة نفسها بيد أنه ضبط نفسه فخرج من أزمته مصون السر والكرامة.

ولما قام على عبد الرحيم عند منتصف الليل ليذهب إلى رفيقته بوجه البركة، قام معه على غير توقع من أحد ليعود إلى بيته، وعبثا حاولوا أن يشنوه عن عزمه أو أن يستنظروه ساعة، فذهب مخلفا وراءه دهشة، وخيبة للذين حدسوا وراء مجيئه المرسوم ظنوناً لم تقع.

ثم كان يوم الجمعة فخرج إلى جامع الحسين قبيل الصلاة بقليل، وإنه ليسير في شارع خان جعفر، إذ رآها عابرة من حارة الوطاويط في طريق الجامع! .. آه.. لم يخفق قلبه مثل تلك الخفقة من قبل، وأعقبها على الأثر جمود شمل حركته النفسية كلها، حتى خيل إليه - فيما يشبه الغيبوبة، وخلافاً للواقع - أنه توقف عن السير، وأن العالم من حوله صمّت صمّت القبور، كمثّل السيارات التي تتوقف محركاتها عن الدفع فيخرس أزيزها ولكنها تسير بقوة القصور الذاتى فى سكون شامل، ولما أفاق إلى نفسه وجدها تتقدمه بمسافة غير قصيرة، فتبعتها على الأثر دون تدبر أو روية، فمر بالجامع دون أن يعرج إليه، ثم مال وراءها عن بُعد إلى السكة الجديدة. ماذا يبغى؟ إنه لا يدرى!! كان يطيع رد الفعل طاعة عمياء، لم يكن سبق له أن تعقب امرأة في الطريق ولا فى أيام شبابه الأول فأخذ يتتابه الحرج والحذر، ثم دهمته فكرة ساخرة مفزعة معاً: أن يهتك سر المطاردة الخفية، ياسين أو كمال! . على أنه حرص على ألا تقصر المسافة بينه وبينها عما كانت عليه منذ بدأت المطاردة، وراحت عيناه ترتويان من هيئة جسمها اللطيف بنهم وظماً وهو يستقبل موجات متتابعة من الأشواق والآلام، حتى رآها تعدل عن الطريق إلى دكان صائغ من معارفه يدعى يعقوب، تباطأت قدماه كي يتيح لنفسه فرصة

للتدبر وتضاعف شعوره بالحرج والحذر: ألا يعود من حيث أتى؟، أم يمر بالدكان دون أن يلتفت نحوها؟ أم ينظر إلى الداخل وينتظر ما يحدث؟

كان يقترب من الدكان ويبدأ، حتى إذا لم يبق بينه وبينها إلا أقدام خطرت له خاطرة جريئة، فاندفع إلى تنفيذها بلا تردد متجاهلاً خطورتها، وهى أن ينتقل إلى الطوار ثم يسير متمهلاً أمام الدكان على أمل أن يراه صاحبه فيدعوه كعادته إلى الجلوس فيلبى دعوته! . . مضى متمهلاً فوق الطوار حتى بلغ الدكان، فنظر إلى الداخل كأنما ينظر عفواً، فالتقت عيناه بعيني يعقوب . . وإذا بالخواججا يهتف به :

- أهلاً بالسيد أحمد، تفضل . .

ابتسم السيد متودداً ثم عرج إلى الداخل فتصافحا بحرارة ودعاه الخواججا إلى كوب خروب، فقبل الدعوة قبول الكرام، وجلس على طرف كنبه جلدية من قبل الخوان المنصوب عليه الميزان. لم يبد عليه أنه فطن إلى وجود ثالث فى الدكان حتى جلس فترأت أمام عينيه زنوبة وهى واقفة حيال الخواججا تقلب بين يديها قرطاً فتظاهر بالدهش، والتقت عيناهما وهو على تلك الحال . . ابتسمت فابتسم، ثم بسط راحته على صدره محيياً، وهو يقول :

- صباح الخير . . كيف حالك؟

فقالت وهى تعاود النظر إلى القرط :

- بخير ربنا يكرمك . .

كان الخواججا يعقوب يعرض استبدال القرط بأسورة مع دفع فرق اختلافاً عليه، فانتهاز السيد فرصة انشغالها ليملاً عينيه من صفحة خدها، ولم يغب عليه ما فى المساومة والاستبدال من فرص تتيح له التدخل بالحسنى، لعل وعسى . . غير أنها قطعت عليه سبيله وإن لم تدر بما

أضمر، فردت القرط إلى صاحبه وهى تعلنه بأنها عدلت نهائياً عن المبادلة، وطلبت إليه إصلاح الأسورة، ثم حيته، وحيث السيد بإحناء من رأسها وغادرت الدكان! . حدث هذا كله بسرعة لم يكن ثمة داع إليها فيما بدا له، فأخذ وانزعج واستحوذ عليه الفتور والضيق. ولبت مع الخواجا يعقوب يتبادلان حديث المجاملات المألوف حتى شرب كوب الخروب، ثم استأذن فى الانصراف وذهب .

ذكر - فى خجل شديد - صلاة الجمعة التى أوشكت أن تفوته، ولكنه تردد فى المضى إلى الجامع، لم تواته الشجاعة على الانتقال المباشر من تعقب امرأة وقت الصلاة إلى الجامع، ألم ينقض نزقه وضوءه؟، بل ألم يجعله غير أهل للوقوف بين يدي الرحمن؟ عدل عن الصلاة محزوناً متألماً فسار فى الطرقات ساعة على غير هدى، ثم عاد إلى البيت معاوذا التفكير فى ذنبه، على أن رأسه - حتى فى تلك اللحظات الحساسة المليئة بالندم - لم يغلق بابه دون زنوبة! . قال مخاطباً محمد عفت، وكان قد سبق إلى بيته مساء ليخلو إليه قبل توافد الأصدقاء :

- أريد منك خدمة، أن تدعو مساء الغد زبيدة إلى العوامة!

ضحك محمد عفت، وقال له :

- إن كنت تريدها فلم هذا اللف والدوران! لو طلبتها أول ليلة لفتحت لك ذراعيها على الرحب والسعة . .

فقال أحمد عبد الجواد فى شىء من الحرج :

- أريد أن تدعوها وحدها . . !

- وحدها؟! يا لك من رجل أنانى لا تفكر إلا فى نفسك، والفار وأنا؟! بل لنجعلها ليلة من ليالى العمر، ولنُدع زبيدة وجليلة وزنوبة أيضاً! . .

تساءل أحمد عبد الجواد فيما يشبه الاستنكار :

- زنوبة؟!!

- لمَ لا؟! إنها احتياطي لا بأس به، يُرجع إليه عند الضرورة..

ما أَلْمَنِي!.. كيف تمنعت بنت القديمة ولم؟!!

- أنت لم تدرك بعد غايتي، الحق أني لا أنوي المجيء غدا!

قال محمد عفت في استغراب:

- تطلب أن أدعو زبيدة! وتقول إنك لن تحيى غدا! ما هذه الألغاز!!

ضحك أحمد ضحكة عالية يدارى بها ارتباكها، ثم لم يجد بدا من أن

يقول كاليائس:

- لا تكن بغلا، سألتك أن تدعو زبيدة وحدها، كي تبقى زنوبة في

البيت وحدها!

- زنوبة يابن أم أحمد؟!!

ثم وهو يسترسل في الضحك:

- لمَ كل هذا التعب؟ لمَ لمَ تطلبها أول ليلة في العوامة؟! ولو أشرت

إليها بأصبعك لطارت إليك، ولزقت فيك بالغراء!

ابتسم ابتسامة فارغة، رغم شعوره الأليم بالامتعاض، ثم قال:

- نفذ ما أمرت به، هذا ما أريد..

قال محمد عفت وهو يقتل شاربه:

- ضعف الطالب والمطلوب!

فقال أحمد عبد الجواد جادا جداً:

- ليكن هذا سرّاً بيننا..

طرق الباب فى ظلام دامس وفى خلاء من المارة، وكانت الساعة تدور فى التاسعة، فُتح الباب بعد حين دون أن يبدو الفاتح، ثم جاءه صوت ارتج له فؤاده ارتجاءً يتساءل قائلاً: «من؟» فقال بهدوء «أنا»، وهو يدخل بغير استئذان، ثم رد الباب وراءه فوجد نفسه قبالتها وهى واقفة على آخر درجة من السلم مادة ذراعها بالمصباح، حدجته بنظرة داهشة، ثم غمغمت:

- أنت!

فوقف صامتاً ملياً، وعلى فيه ابتسامة خفيفة تنم عن الإشفاق والقلق، ولما لم يأنس منها اعتراضاً أو غضباً تشجع قائلاً:

- أهذا هو استقبالك لصديق قديم؟!

فولته كشحها، ومضت ترقى فى الدرج، وهى تقول:

- تفضل . .

تبعها صامتاً، وقد استنتج من فتحها الباب بنفسها أنها بمفردها فى البيت، وأن مكان الجارية جلجل التى ماتت منذ عامين لا يزال شاغراً. . تبعها حتى دخلا إلى الدهليز، فعلمت المصباح بمسار مثبت فى الجدار على كئيب من الباب، ثم دخلت وحدها حجرة الاستقبال، فأوقدت المصباح الكبير المدلى من السقف - زادته هذه الحركة اطمئناناً إلى استنتاجه - ثم خرجت فأومأت له بالدخول وذهبت . .

مضى إلى الحجرة ثم جلس فى الموضع الذى كان يجلس فيه فى العهد القديم على الكنبه الوسطى، فنزع طربوشه وحطه على النمركة

التي تشطر الكنبه ، ومد ساقه وهو يلقي نظرة فاحصة على ما حوله . . إنه يذكر المكان كما لو كان لم يغادره إلا أمس القريب ، هذه الكنبات الثلاث ، وهذه المقاعد ، وهذا البساط الفارسي ، وهذه الأخوة الثلاثة المطعمة بالصدف ، كل شيء كان بصفة عامة كما كان!! هل يذكر متى جلس آخر مرة في هذا المكان؟ إن ذكرياته عن بهو الطرب وحجرة النوم أوضح وأثبت ، بيد أنه لا يمكن أن ينسى أول لقاء تم بينه وبين زبيدة في هذه الحجرة ، في هذا الموضع بالذات!! وجملته ما دار فيه ، لم يكن أحد يومذاك مثله خلو بال وثقة بالنفس؟ ترى متى تعود؟ ماذا أحدثت زيارته في نفسها؟ إلى أي درجة سيرتفع غرورها؟ وهل أدركت أنه جاء من أجلها هي لا من أجل خالتها؟ إن أخفق هذه المرة فقل عليه السلام!

سمع وقع شبشب خفيف ، ثم بدت زنوبة عند الباب في فستان أبيض منمنم بورد أحمر ، ملتفة بوشاح مرصع بالترتر ، أما رأسها فحاسر ، وأما شعرها فمجدول في ضفيرتين غليظتين استرسلتا على ظهرها . . استقبلها واقفاً باسماء متفائلاً بالزينة التي بدت فيها ، فحيته بابتسامة ، وأشارت إليه أن يجلس ، ثم جلست على الكنبه التي تتوسط الجدار الذي إلى يمينه ، وهي تقول بصوت لم يخلُ من دهش :

- أهلا وسهلا ، أي مفاجأة!

فابتسم السيد متسائلاً :

- من أي نوع يا ترى هذه المفاجأة؟

قالت وهي ترفع حاجبيها في حركة غامضة لم تنم عما إذا كانت ستكلم جادة أم ساخرة :

- سارة طبعاً!

ما دمنّا قد أطعنا أقدامنا حتى جاءت بنا إلى هنا فعلينا أن نتحمل الدلال بكافة أنواعه : ثقيله وخفيفه .

تفحص جسمها ووجهها - فى هدوء - كأنما ينقب فيهما عما لوعه وعبت بوقاره ، فساد الصمت حتى رفعت إليه وجهها دون أن تنبس ، ولكن فى حركة غمت عن تساؤل مُشرب بأدب ، كأنما تقول له : «نحن فى الخدمة» .

فتساءل السيد فى مكر :

- هل يطول انتظارنا للسلطانة ؟ ألم تفرغ بعد من ارتداء ملابسها ؟

فحدجته بنظرة غريبة وهى تضيق عينيها ، ثم قالت :

- السلطانة ليست فى البيت . .

فتساءل متظاهراً بالدهشة :

- أين هى يا ترى ؟

فقال وهى تهز رأسها ، راسمة على شفيتها ابتسامة غامضة :

- علمى علمك . .

فكر فى إجابتها قليلاً ، ثم قال :

- ظننتها تطلعك على خط سيرها ؟

فلوحت بيدها كالمستنكرة ، وقالت :

- إنك حسن الظن بنا (ثم ضاحكة) السلطة العسكرية زمانها انتهى !

وإن شئت فأنت أحق منى بالاطلاع على خط سيرها !

- أنا ؟ !

- لم لا ، أأست صديقها القديم ؟

قال ، وهو يحدجها بنظرة باسممة عميقة ناطقة :

- الصديق القديم والغريب سواء ، ترى هل يطلع أصدقاؤك القدماء

على خط سيرك ؟

رفعت منكبها الأيمن وهى تمط بوزها، قائلة :

- ليس لى أصدقاء، لا قدماء ولا حديثون . .

فراح يعبث بفردة شاربه وهو يقول :

- هذا كلام لمن لا عقل له، أما من له ولو شئ من العقل فلا يتصور

كيف يمكن أن تكونى بين قوم يبصرون ولا يستبقوا إلى

صداقتك . . .

- إن هى إلا تصورات الكرماء أمثالك ! ولكنها لا تعدو التصورات

الخيالية، الدليل على هذا أنك صديق قديم لهذا البيت، فهل راق

لك يوماً أن تهبنى قسطاً من صداقتك ؟

قطب فى ارتباك، ثم قال بعد تردد :

- كنت وقتذاك، أعنى أنه كانت ثمة ظروف . .

ففرقت بأصابعها، وقالت ساخرة :

- لعلها نفس الظروف التى حالت بينى - يا عينى - وبين الآخرين !

ألقى بظهره إلى مسند الكنبه فى حركة سريعة تمثيلية ثم مد نظره إليها

من فوق أنفه العظيم، وهوى بهز رأسه كالمستعيز بالله منها، ثم قال :

- أنت عقدة، وها أنا أعترف بأننى لا قبل لى بك !

فدارت ابتسامة بعثها الشئاء، ثم تظاهرت بالدهشة، وهى تقول :

- لا أفهم مما تعنى شيئاً، الظاهر أنك فى واد وأنى فى واد، المهم أنك

قلت إنك جئت لمقابلة خالتى، فهل من رسالة أبلغها إياها عند

عودتها؟ . .

ضحك السيد ضحكة قصيرة، ثم قال :

- قول لها إن أحمد غبد الجواد جاء ليشكونى إليك، فلم يجداك !

- تشكونى أنا!، ماذا صنعت ؟

- قولى لها إنى جئت أشكو إليها ما لقيت منك من قسوة ليست من شيم الحسان!

- يا له من قول خليق برجل يجعل من كل شىء مادة لمزاحه ودعابته! فاعتدل فى جلسته ، وقال جادا :

- معاذ الله أن أجعل منك مادة للمزاح أو الدعابة؟! إن شكواى صادقة ، ويخيل إلى أنك واقفة على سرها ، ولكنه دلال الحسان ، وللحسان الحق كل الحق فى التدلل ، ولكن عليهن مراعاة الرحمة أيضاً .

فمصصت بشفتيها قائلة :

- عجب! ..

- لا عجب ألبتة!! أتذكرين ما كان بالأمس فى دكان يعقوب الصائغ؟ هل يستحق ذلك اللقاء الجاف من كان يعتز بمثل مودتى لكم وقدم عهدى بكم؟ وددت لو استعنت بى مثلاً فيما كان بينك وبين الصائغ ، ووددت لو أتحت لى الفرصة كى أضع خبرتى فى خدمتك ، أو أن تتواضعى درجة أخرى فتسمحى لى بأن أنهض بالأمر كله كما لو كانت الأسورة أسورتى أو كانت صاحبته صاحبتى! ..

ابتسمت ، وهى ترفع حاجبيها فى شىء من الارتباك ، ثم قالت باقتضاب :

- تشكر ..

تنفس الرجل تنفساً عميقاً ملأ به صدره العريض ، ثم قال بحماس :
- مثلى لا يقنع بالشكر ، ماذا يفيد الجائع إن أعرضت عنه ، وأنت تقولين له : «على الله؟!»، الجائع يريد الطعام ، الطعام الشهى اللذيذ .

شبكت ذراعيها على صدرها وهى تتظاهر بالدهش ، ثم قالت
ساخرة :

- أنت جائع يا سى السيد؟! عندنا ملوخية وأرانب تستاهل فمك ..
وهو يضحك عاليًا :

- عال ، انفقنا ، ملوخية وأرانب ، تضاف إليها زجاجة ويسكى ، ثم
نحلى بشيء من العود والرقص ، ونتمدد ساعة معًا حتى نهضم ..
فلوحت له بيدها كأنما تهتف به «إلى الوراء» ، وقالت :

- الله الله ، سكتنا له دخل بحماره .. بُعذك !

ضم أصابع يمينه الخمس ، حتى صارت كفم مزمووم ، وجعل يرفعها
ويخفضها بتؤدة ، وهو يقول بلهجة وعظية :

- يا بنت الحلال لا تضيعى الوقت الغالى فى الكلام ..
وهى تهز رأسها فى زهو ودلال :

- بل قل لا تضيعى الوقت الغالى مع الكهول .. !

مسح السيد صدره العريض بكفه فى حركة توحى بالتحدى الباسم ،
ولكنها هزت منكبيها ضاحكة ، وهى تقول :

- ولو ...

ولو؟ يالك من طفلة ، حرام على النوم إن لم أعلمك ما ينبغى أن
تعلميه ، هاتى الملوخية والأرانب والويسكى والعود وزنار الرقص ،
هيا .. هيا ..

ثنت سبابة يسراها وألصقتها بحاجبها الأيسر ، ثم أرعشت حاجبها
الأيمن ، وهى تتساءل :

- ألا تخاف أن تكبسننا السلطانة على غفلة؟

- لا تخافى ، لن تعود السلطانة الليلة ..

فحدجته بنظرة حادة مريبة ، وتساءلت :

- من أدراك بذلك؟

انتبه إلى عشرة لسانه، فأوشك لحظة أن يغلبه الارتباك، ولكنه تخلص منه قائلاً في لباقة:

- السلطانة لا تبقى في الخارج حتى هذه الساعة إلا لضرورة تستدعي بقاءها حتى الصباح!

جعلت تحديق وجهه طويلاً دون أن تنبس، ثم هزت رأسها في سخرية ظاهرة، ثم قالت بصوت ملئ بالثقة:

- يالمكر الكهول! يضعف فيهم كل شيء إلا مكرهم! هل حسبتني غفلانة؟ كلا وحياتك، إنى أعلم كل شيء...

عاد إلى العبث بفردة شاربه في شيء من الضيق، ثم سألها:

- ماذا تعلمين:

- كل شيء!

وتريث قليلاً لتزيد من ارتباكها، ثم استطردت:

- أتذكر يوم جلست على قهوة سى على لتسترق النظر من نافذة القهوة؟ يومها عيناك حفرت جدار بيتنا من شدة النظر! ولما ركبت العربدة الكارو مع أفراد التخت ساءلت نفسي: ترى هل يتبعنا مهللاً وراءنا كما يفعل الصبية؟ ولكنك عقلت وانتظرت فرصة أحسن!

قهقه الرجل حتى اشتدت حمرة وجهه، ثم قال بتسليم:

- اللهم اعف عنا...

- ولكنك نسيت عقلك أمس، عندما رأيتني أمام خان جعفر فتبعتنى حتى دخلت ورائي دكان يعقوب...

- عرفت هذا أيضاً يا بنت أخت زبيدة؟

- نعم يا زين العشاق، بيد أنى لم أكن أتصور أنك ستدخل ورائي

الدكان، ولكنى ما لبثت أن وجدتك جالساً فوق الكنبه ولا عفريت
النسوان نفسه، ولما تظاهرت بالدهشة لرؤيتى كدت أطلق لسانى
فيك بما قسم، ولكن الموقف أملى على الأدب . .
تساءل ضاحكاً، وهو يضرب كفا بكف:

- ألم أقل إنك عقدة؟

فواصلت الحديث وهى فى نشوة من الفوز والسرور:

- وما أدرى ليلة إلا والسلطانة تقول لى: استعدى، إننا ذاهبان إلى
عوامة محمد عفت، فمضيت لأستعد، ولكنى سمعتها تقول بعد
ذلك: إن السيد أحمد هو الذى اقترح الدعوة! لعب فى عبي
الفار، وقلت لنفسى: السيد أحمد لا يقترح شيئاً لوجه الله،
وفهمت الفولة، فلم أذهب معتلة بصداع!

- يا لى من مسكين! وقعت فى مخالاب من لا يرحم، هل عندك
مزيد؟ . .

- لو اطلعت على الغيب لا اخترتم الواقع . . .

- ما أحلى هذا الكلام! قلد الوعاظ، يا أفسق خلق الله!
وهو يضحك عالياً:

- الله يسامحك . . .

ثم متسائلاً فى سرور غير خاف:

- فهمت الفولة هذه المرة أيضاً، ولكنك بقيت، فلم تغادرى البيت أو
تخفى نفسك . .

ونهض قبل أن يتم جملة فاتجه نحوها، وجلس إلى جانبها، ثم
تناول طرف الوشاح المصع بالترتر فقبله، وهو يقول:

- اللهم إنى أشهد بأن هذه المخلوقة الجميلة ألد من أنغام عودها،

لسانها سوط ، وحبها نار ، وعاشقها شهيد ، وسوف يكون لهذه
الليلة شأن فى التاريخ كله . .

أبعدته عنها بكفها قائلة :

- لا تأخذنى فى دوكة ، هوه ! عد إلى مجلسك . .

- لن يفصل بيننا شىء بعد الآن . . .

جذبت وشاحها فجأة من يده ونهضت مبتعدة قليلاً ، ثم وقفت على
بعد ذراع منه تمنع فيه نظراً صامتا ، وكأنما تراجع نفسها فى أمور ذات
شأن ، ثم قالت :

- لم تسألنى عما جعلنى أتخلف عن الذهاب إلى العوامة - يوم دعانا
محمد عفت - بناء على اقتراحك . .

- كى تزيد النار اشعالا !!

ضحكت ثلاث ضحكات منقطعة ، ثم صمتت مليا ، ثم
قالت :

- فكرة لا بأس بها ولكنها قديمة ، أليس كذلك يا زين الفساق؟ . .
ستظل الحقيقة سرا حتى أرى أن أفشيهِ عندما يحلولى . .
- أقدم حياتى ثمنا له . .

ابتسمت ابتسامة صافية لأول مرة ، ولاحت فى عينيها نظرة رقيقة
جاءت فى أعقاب سخرياتها ، كما يجىء الهدوء فى أعقاب زوبعة ،
وبشر حالها بسياسة جديدة ومعنى جديد ، فاقتربت منه خطوة ومدت
يديها إلى شاربه برشاقة وراحت تجذله بعناية ، ثم قالت بنبرات لم
يسمعه من قبل :

- إذا قدمت حياتك ثمنا لهذا ، فماذا يبقى لى أنا؟

وجد راحة عميقة لم يجد مثلها منذ تلك الليلة الخاسرة فى العوامة ،

وكأنما كان يفوز بامرأة لأول مرة فى حياته ، تناول يديها من فوق شاربه وأودعهما بين راحتيه الكبيرتين ، ثم قال بحنان وامتنان :

- أنا نشوان يا ست الكل نشوان لحد يعجزنى عن الوصف ، دمت لى إلى الأبد ، إلى الأبد ، لا عاش من رد لك رجاء أو طلبًا ، أتمى نعمتك على وهيتى مجلسنا ، الليلة ليست كالليالى الأخريات ، وهى تستحق أن نحتفل بها حتى مطلع الفجر . .

قالت وهى تلعب بأناملها بين راحتيه :

- ليست هذه الليلة كالليالى الأخريات حقًا ، ولكن ينبغى أن نقنع منها بالقليل . . .

القليل ! هل ثمة صد بعد هذا اللطف كله ؟ لم يعد بك صبر .

مضى يربت كفيها ، ثم بسط راحتيها ، ونظر بافتتان فى لون الحناء الوردى الذى يصبغهما ، وما يدرى إلا وهى تسأله بصوت ضاحك :

- هل تقرأ الكف يا سيدنا الشيخ ؟

ابتسم ، وقال مداعبًا :

- أنا من المشهود لهم فى قراءته ، أتحبين أن أقرأ لك كفك ؟

أحنت رأسها بالإيجاب . فراح يتأمل راحتها اليمنى متظاهراً بالتفكير ، ثم قال باهتمام :

- فى طريقك رجل سيكون له شأن فى حياتك . .

تساءلت ضاحكة :

- فى الحلال يا ترى ؟

ارتفع حاجباه وهو يمعن النظر فى كفها ، ثم قال دون أن يبدو على وجهه أثر ولو خفيف للمزاح :

- بل فى الحرام !

- أعوذ بالله! ما عمره؟

نظر إليها من تحت حاجبيه ، ثم قال :

- غير واضح ولكن إذا قسته بمقياس مقدرته فهو فى عنفوان الشباب! ..

فتساءلت بمكر:

- أهو كريم يا ترى؟

آه، لم يكن الكرم مما يزيك عندهن قديما.

- لم يعرف البخل قلبه ..

فكرت قليلاً ثم عادت تتساءل :

- هل يرضيه أن أبقى كالتابعة فى هذا البيت؟

العجل وقع هاتوا السكاكين ..

- بل سيجعلك سيدة قد الدنيا! ..

- أين يا ترى سأقيم فى كنفه؟

زبيدة نفسها لم تكلفك شيئاً من هذا، سيقولون فيك ويعيدون ..

- شقة جميلة ..

- شقة؟! ..

عجب للهجتها المستنكرة، فسألها داهشاً:

- ألا يعجبك هذا؟

قالت وهى تشير إلى راحتها:

- ألا ترى ماء يجرى؟ .. انظر جيداً ..

- ماء يجرى! .. أتودين السكنى فى حمام؟

- ألا ترى النيل .. عوامة أو ذهبية ..؟! ..

أربعة جنيهاً أو خمسة شهرياً دفعة واحدة، غير النفقات الأخرى،
آه!، لا تعشقوا أولاد السفلة! ..

- لماذا تختارين مكاناً بعيداً عن العمران؟ ..

اقتربت منه حتى مست ركبها ركبته، وقالت:

- لست دون محمد عفت جاهاً، ولست دون السلطانة حظاً ما دمت
تحبني كما تقول، وفي وسعك أن تسهر فيها أنت وأصحابك، إنها
حلمى محققه لى...!

أحاط وسطها بذراعيه، ولبت صامتة ليستشعر في هدوء مسها
ولينها، ثم قال:

- لك ما تشائين يا أملى...

فكان الشكر أن ألصقت راحتيها بخديه، ثم قالت:

- لا تظن أنك تعطى دون أن تأخذ، اذكر دائماً أنه من أجلك سأغادر
هذا البيت الذي عشت عمري فيه إلى غير رجعة، واذكر أنني إذ
أطالبك بأن تجعلني سيدة فما ذلك إلا لأنه لا يليق بمن كانت صاحبة
لك أن تكون أقل من سيدة...!

شدّ ذراعيه حول وسطها حتى التصق صدرها بوجهه، ثم قال:

- إنى أدرك كل شيء يا نظرى، سيكون لك ما تحبين وأكثر، أحب
أن أراك كما تحبين أن ترى نفسك، والآن هيئى لنا مجلسنا، أريد
أن أبدأ حياتي من الليلة...

أمسكت بساعديه، ثم ابتسمت إليه ابتسامة اعتذار، وقالت برقة:

- عندما نجتمع فى عوامتنا على النيل...

قال لها محذراً:

- لا تشيرى جنونى، هل تستطيعين أن تقاومى صولتى؟

فتراجعت وهى تقول بلهجة تجمع بين التوسل والإصرار:

- ليس فى البيت الذى عملت فيه وصيفة، انتظر حتى يجمعنا المسكن الجديد، مسكنك ومسكنى، عند ذاك أكون لك إلى الأبد، ليس قبل ذلك وحياتك عندى وحياتى عندك . . !

١٠

«خير إن شاء الله» . . .

هذا ما رده أحمد عبد الجواد فى نفسه وهو يطالع ياسين مقبلاً نحوه فى الدكان . . كانت زيارة غريبة وغير متوقعة، أعادت إلى ذاكرته زيارته القديمة لدكانه، يوم جاءه ليشاوره فيما ترمى إليه من اعتزام المرحومه أمه الزواج للمرة الرابعة، والحق أنه أيقن أنه لم يجئه لتبادل التحية والسلام ولا للحديث فى شأن عادى مما يمكن أن يحدثه فى البيت، أجل إن ياسين لا يجىء إلى مقابلته فى الدكان إلا لشأن خطير. صافحه، ثم دعاه إلى الجلوس، وهو يقول:

- خير إن شاء الله . . .

جلس ياسين على كرسى قريب من مجلس أبيه وراء مكتبه، مولياً بقية الدكان ظهره حيث وقف جميل الحمزاوى أمام الميزان يزن بضاعة لبعض الزبائن، ونظر إلى أبيه فى شىء من ارتباك وكد حدسه، فأغلق الرجل دفترأ كان يسجل فيه أرقامأ واعتدل فى جلسته متأهبأ لما يجىء، وقد بدت إلى يمينه الخزينة نصف مفتوحة، وفوق رأسه صورة سعد زغلول فى بدلة الرئاسة معلقة فى الجدار تحت إطار البسملة القديم. ولم يكن قصد الدكان اعتباطاً ولكن عن تدبر وتفكير باعتباره أأمن مكان لمقابلة أبيه بما جاء من أجله، إذ إن وجود جميل الحمزاوى به ومن يتفق وجودهم من الزبائن خليق بأن يهيبأ له درعأ واقياً من الغضب إذا

جاءت دواعيه ، وكان يحسب ألف حساب لغضب أبيه رغم الحصانة التي اكتسبها بتقدم العمر والمعاملة الطيبة التي يحظى بها بوجه عام . .

قال ياسين بأدب بالغ :

- اسمح لى بقليل من وقتك الغالى ، لولا الضرورة ما تجرأت على إزعاجك ، ولكنى لا يمكن أن أخطو خطوة دون استئارة برأيك ، واعتماد على رضاك . .

ابتسم باطن السيد أحمد هازئاً من هذا الأدب الجم ، وجعل يتأمل فتاه الضخم الجميل الأنيق فى حذر ، ملقياً عليه نظرة إجمالية شملت شاربه الجدول على طريقته - هو - وبذلتة الكحولية وقميصه ذا البنية المنشية والبايون الأزرق والمنشة العاجية والحذاء الأسود اللامع ، ولم يكن ياسين قد مس مظهره - تأدبا فى محضر أبيه - إلا فى نقطتين ، فأخفى طرف منديلته الحريرى الذى يطل من جيب جاكته الأعلى ، وعدل طربوشه الذى يعوجه عادة إلى اليمين . يقول : إنه لا يمكن أن يخطو خطوة دون استئارة برأيه !! مرحى . . هل استئارة به وهو يسكر؟ وهو يسبح على وجهه فى وجه البركة الذى حرمه عليه؟ هل استئارة به ليلة وثب على الجارية فوق السطح؟ مرحى !! مرحى !! ماذا وراء هذه الخطبة المنبرية؟

- طبعاً ، هذا أقل ما ينتظر من رجل عاقل مثلك ، خير إن شاء الله؟

التفت ياسين التفاتة سريعة لحظ بها جميل الحمزاوى ومن معه ، ثم قرب الكرسي من المكتب ، واستجمع شجاعته ، قائلاً :

- اعترمت - بعد موافقتك ورضاك - أن أكمل نصف دينى . .

مفاجأة حقيقية! غير أنها مفاجأة سارة على غير ما توقع ، ولكن مهلاً!! لن تكون سارة حقاً إلا بشروط ، فليتنظر حتى يسمع الأهم من الحديث!! أليس ثمة ما يدعو إلى القلق؟ بلى! تلك المقدمة البالغة فى الأدب والتودد ، إشارته الدكان مكاناً للحديث لدواع لا يمكن أن تخفى

عن فطنة الفطن، أما الزواج في ذاته فطالما تمناه له، تمناه حين ألح على محمد عفت ليرد إليه زوجته، وتمناه حين دعا الله في أعقاب صلواته أن يهديه إلى الرشاد وبنت الحلال، بل لعله لولا إشفاقه من أن يخرجه مع أصدقائه كما أخرجته من قبل مع محمد عفت لما تردد من تزويجه مرة أخرى، فليتتظر! وعسى ألا يتحقق شيء من مخاوفه..

- اعترام جميل أوافق عليه كل الموافقة، فهل وقع اختيارك على أسرة معينة؟

خفض ياسين عينيه لحظة، ثم رفعهما قائلاً:

- وجدت بغيتي، بيت كريم خبرناه بطول الجوار، وكان ربه من معارفك المحمودين..

رفع السيد حاجبيه متسائلاً دون أن ينبس، فقال ياسين:

- المرحوم السيد محمد رضوان!

- لا...!

ندت عن السيد أحمد قبل أن يتمالك نفسه، ندت عنه في تأفف واحتجاج حتى شعر بأنه ينبغي أن يبرر تأففه واحتجاجه بسبب وجيه يدارى به حقيقة مشاعره، ولم يعوزه ذلك، فقال:

- أليست كريمته مطلقة؟! فهل ضاقت الدنيا حتى تتزوج من ثيب؟!...

لم يفاجأ ياسين بهذا الاعتراض، كان يتوقعه منذ اللحظة التي عزم فيها على الزواج من مريم، غير أنه كان قوى الأمل في التغلب على معارضة أبيه التي لم يتصور أن تكون إلا صدى لتفضيل البكر على الثيب أو تجنباً لامرأة عسية بأن تذكره بمأساة ابنه الراحل، وكان يؤمن بحكمة أبيه ويرجو أن تستهين في النهاية بهذين المأخذين الواهيين، بل كان يعتمد كل الاعتماد على موافقته في التغلب على المعارضة الحقيقية

التي يتوقعها عند امرأة أبيه . . تلك المعارضة التي وقف أمام التفكير فيها حائرا حتى خطر له أن يغادر البيت مغادرة الهارب كي يتزوج كما يحلو له مواجهها الجميع بالأمر الواقع ، ولولا أن إغضاب أبيه كان فوق طاقته لفعل ، إلا أنه عز عليه أن يتجاهل عواطف أمه الثانية - بل أمه الأولى - قبل أن يبذل قصاراه لاستمالتها واقتناعها برأيه ، قال :

- لم تضق بى الدنيا ، ولكنها القسمة والنصيب . . أنا لا أبحث عن المال أو الجاه ، وحسبى الأصل الطيب والخلق القويم . .

إن كان ثمة عزاء وسط هذه الأمور المعقدة المؤسفة ، فهو صدق رأيه الذى لا يكذب أبداً . هذا هو ياسين بلا زيادة ولا نقصان ، إنسان - أو حيوان - تسير المتاعب بين يديه ومن خلفه ، ولو جاء نبأ سعيد أو زف إليه بشرى سارة لما كان ياسين ولخاب تقديره ورأيه فيه ، لعله مما لا يعيبه ألا يبحث فى الزوجة عن المال أو الجاه أما الخلق فمسألة أخرى ، ولكن البغل معذور ويبدو - وهذا طبعى - أنه لا يدرى شيئاً عن سيرة أم الفتاة التى يرومها زوجة ، تلك سيرة يعرفها هو وحده معرفة الفاعل ، ولعل آخرين سبقوه إليها أو لحقوا به ، فما العمل ؟ أجل قد تكون الفتاة مهذبة ، ولكن من المؤكد أنها لم تظفر بأحسن أم ولا بأحسن بيئة ، ومن المؤسف أنه لا يستطيع أن يجهر برأيه - ذاك - ما دام لا يسعه أن يقرن القول بالدليل ، خاصة وأنه رأى خليف بأن يقابل - ممن يسمعه لأول مرة - بالإنكار والانزعاج ، والأدهى من ذلك أنه يخاف أن يلمح إليه . فيدفع ياسين إلى البحث والاستقصاء فيعثر آخر الأمر على أثر بصماته هو - أبيه - فتكون الفضيحة التى ليس وراءها فضيحة .

المسألة إذن دقيقة حرجة ، ثم إن ثمة شوكة حادة تكمن فى تضاعفها - هى - تاريخ قديم يتصل بفهمى ، ألا يذكر ياسين ذلك ؟ كيف هان عليه أن يرغب فى فتاة تطلع إليها قديماً أخوه الراحل ؟ أليس هذا سلوكاً بغيضاً ؟ بل إنه لكذلك وإن كان لا يشك فى إخلاص الشاب لأخيه

الراحل ، إن منطق الحياة القاسى يقيم عذراً لأمثاله ، إن الرغبة طاغية أعمى لا يرحم وهو أخبر الناس بذلك !

قطب الرجل ليشعره بتضايقه ، ثم قال :

- إن قلبى لم يرتح لاختيارك ، لا أدرى لماذا ، كان المرحوم السيد محمد رضوان رجلاً طيباً حقاً ، ولكن الشلل حال بينه وبين رعاية بيته من زمن بعيد سابق لوفاته ، لم أقصد بهذه الملاحظة إساءة الظن بأحد ، كلا!! ولكنه كلام يقال ، ربما رددته بعض الناس ، هه؟ الأهم عندى أن الفتاة مطلقة ، لماذا طلقت؟ هذا سؤال من أسئلة كثيرة ينبغى أن تعلم جوابها ، لا يصح أن تأمن مطلقة حتى تستقصى كل شئ عنها ، لعل هذا ما أردت قوله ، والدنيا ملأى بينات الناس الطيبين .

قال ياسين متشجعاً بأسلوب أبيه ، الذى اقتصر على النقاش والنصح :

- بحثت بنفسى وبواسطة آخرين ، فتبين لى أن الحق كان على الزوج ، إذ كان متزوجاً وأخفى عنهم ذلك ، فضلاً عن عجزه عن الإنفاق على بيتين فى وقت واحد وسوء خلقه !

سوء خلقه ! إنه يتكلم - بلا حياء - عن سوء الخلق ، البغل يمدك بمادة بكر لمزاح سهرة كاملة ! قال :

- إذن فرغت من البحث والتقصى !

قال ياسين بحياء ، وهو يتهرب من عينى أبيه الحادثين :
- تلك خطوة بديهية . .

فسأله الرجل وهو يخفض عينيه :

- ألم تدرك أن تلك الفتاة ترتبط بذكريات أليمة لنا؟
اعتراه الارتباك حتى اختطف لونه ، وهو يقول :

- لم يكن من الممكن أن يغيب عنى هذا، ولكنه وهم لا أصل له،
فإنى أعرف عن يقين أن المرحوم لم يهتم بالأمر كله إلا
أيامًا معدودات ثم نسيه نسيانًا تامًا، وأكاد أجزم بأنه ارتاح
فيما بعد إلى فشل مسعاه إذ اقتنع بأن الفتاة لم تكن طلبته كما
توهم ..

ترى: أيقول ياسين الحق، أم يدافع عن موقفه؟ كان نجى المرحوم
ولعله الشخص الوحيد الذى يستطيع أن يزعم أنه مطلع على ما لا علم
للآخرين به من خاصة شئونه، فليته كان صادقًا! أجل، ليته كان صادقًا
إذن لأعفاه من عذاب يؤرقه كلما ذكر أنه وقف يومًا عشرة فى سبيل
سعادة الفقيد أو كلما خطر بباله أنه ربما مات تعيس القلب أو ناقمًا عليه
استبداده وتعتته، تلك الآلام التى نهشت قلبه، هل يريد ياسين أن يعفيه
منها؟

سأل ياسين بلهفة لم يظن الشاب إلى عمقها:

- أأنت حقًا على يقين مما تقول؟ هل صارحك به؟

ولثانى مرة فى حياته رأى ياسين أباه على حال من الانكسار لم يشهد
مثلها إلا يوم مصرع فهمى، وهو يقول له:

- كاشفنى الحقيقة عارية عن كل تخفيف، الحقيقة الكاملة،
هذا يهمنى فوق ما تتصور، (وكاد يعترف له بألمه، ولكنه
أمسك الاعتراف وهو على طرف لسانه) .. الحقيقة الكاملة
يا ياسين!

فقال ياسين دون تردد:

- إنى على يقين مما أقول! خبرته بنفسى وسمعتة بأذنى، لا شك فى
ذلك مطلقًا! ..

فى ظروف أخرى لم يكن هذا القول - ولا أبلغ منه - كافياً لإقناعه بصدق ياسين، لكنه كان فى الحق متعطشاً إلى تصديقه، فصدقته وأمن به، وامتلاً قلبه نحوه بامتنان عميق وسلام شامل. لم تعد مسألة الزواج - فى تلك اللحظة على الأقل مما يكرهه، ولاذ بالصمت ملياً هائثاً بالسلام الذى غمر قلبه، ورويدا رويدا! مضى يسترد شعوره بالموقف ويرى ياسين بعد أن غيبه عن عينيه الانفعال، فعاد يفكر فى مريم وأم مريم وزواج ياسين وواجبه وما يستطيع قوله وما لا يستطيع قوله، قال:

- مهما يكن من أمر فإننى أود أن تولى المسألة تفكيراً أعمق، وحذراً أشد، لا تتعجل، مد لنفسك فسحة التدبر والمراجعة، إنها مسألة مستقبل وكرامة وسعادة، وإنى على استعداد لأن أختار لك بنفسى مرة أخرى إذا وعدتني وعد رجل صادق ألا تجعلني أندم على تدخلنى لما فيه صلاحك، هه؟ ما رأيك؟

صمت ياسين متفكراً، مستاء من تحول الحديث إلى مجرى ضيق محفوف بالخرج، حقاً أن الرجل يتحدث بحلم عجيب، ولكنه لم يخف قلقه وعدم ارتياحه. فإذا أصر على رأيه بعد ذلك فقد يجرحهما النقاش إلى شقاق غير مستحب، ولكن هل ينكص تفادياً من هذه العاقبة؟ كلا! لم يعد طفلاً! سيتزوج بمن يشاء كما يشاء، ولكن فليعنه الله على الاحتفاظ بمودة أبيه! قال:

- لا أريد أن أجشمك تعباً جديداً، شكراً لك يا بابا، غاية ما أتمنى أن أحظى بموافقتك ورضاك..

لوح السيد يده فى نفاد صبر، وقال بلهجة لم تخل من حدة:

- تأبى أن تفتح عينيك على ما فى رأى من حكمة..!

فقال ياسين برجاء حار:

- لا تغضب يا بابا، أستحلفك بالله ألا تغضب، إن رضاك بركة،
ولا أطيق أن تضن على بها، دعنى أجرب حظى وادع لى
بالتوفيق . .

اقتنع أحمد عبد الجواد بأن عليه أن يسلم بالأمر الواقع، فسلم به فى
حزن ويأس . . أجل! ربما كانت مريم - رغم استهتار أمها - فتاة شريفة
وزوجة صالحة، ولكن لا شك كذلك فى أن ياسين لم يوفق إلى اختيار
أصلح الزوجات ولا أفضل البيوت .

الأمر لله، مضى الزمن الذى كان يملئ فيه إرادته إملاء فلا يجد راداً
لها، وياسين اليوم رجل مسئول ولن يجنى من محاولة فرض رأيه عليه
إلا العصيان . . فليسلم بالأمر الواقع، وليسأل الله السلامة . .

عاود النصيح والتبصير فلجأ ياسين كرة أخرى إلى الاعتذار والتودد
حتى لم يعد ثمة زيادة لمستزيد . . غادر الدكان وهو يقنع نفسه بأنه نال
موافقة أبيه ورضاه، على أنه كان يعلم أن الأزمة الخطيرة حقا هى التى
تنتظره فى البيت، وكان يعلم أيضاً أنه سيرك البيت حتماً، لأن مجرد
التفكير فى إمكان ضم مريم إلى الأسرة ضرب من الجنون، فرجا أن
يتركه بسلام غير مخلف وراءه عداوة أو حقداً، إذ لم يكن من اليسير
عليه أن يستهين بامرأة أبيه أو يتنكر لعهداها وفضلها عليه، لم يكن
يتصور أن تدفعه الأيام إلى وقوف هذا الموقف الغريب من البيت وآله،
ولكن تعقدت الأمور وضافت السبل حتى لم يبق من منفذ إلا الزواج .
والعجب أنه لم تغب عن فطنته السياسة النسائية التى رسمت للإيقاع
به، سياسة قديمة تلخص فى كلمتين: التودد والتمنع . ولكن الرغبة
فى الفتاة كانت قد تسربت إلى دمه ولم يعد بد من إروائها بأى سبيل ولو
كان الزواج، وأعجب من ذاك أنه كان يعلم من تاريخ مريم ما يعلمه
أفراد أسرته جميعاً - عدا والده بطبيعة الحال - ولكن رغبتة طغت فلم

يصده ذلك عن فكرته أو يزهد فيهها ، وقال لنفسه : لم أكرب قلبى على
ماض فات لست مسئولاً عنه ، سنبدأ معاً حياة جديدة ، ومن هنا تبدأ
مسئوليتى ، وإن ثقّيتى بنفسى لا حد لها ، وإذا حدث أن خيبت ظنى
نبذتها كما ينبذ الحذاء البالى . . والحق أنه لم يستلهم فيما عزم فكره
ولكنه استخدمه فى تبرير رغبته الجامحة التى لا تزدرج ، فأقبل على
الزواج هذه المرة كبديل من مخادنة امتنعت عليه ، غير أن ذلك لا يعنى
أنه أضمر نحوه سوءاً أو أنه اتخذ ذريعة مؤقتة لقضاء لبانه ، فالحق أيضاً
أن نفسه - رغم تقلباتها التى لا تنفك عنها - كانت تهفو إلى حياة الزوجية
والبيت المستقر . .

مرّ هذا كله بخاطره وهو متخذ مكانه - إلى جنب كمال - بمجلس
القهوة ، ذلك المجلس الذى يبدو أنه يشهد آخر أيامه فيه ، ومضى يعجل
طرفه بين كنباته وحصره الملونة والفانوس الكبير المدلى من سقفه فى كثير
من الأسى ، وكانت أمينة متربعة كعادتها على الكنبه القائمة بين بابى
حجرة نوم السيد وحجرة المائدة ، عاكفة على المجرمة رغم دفء الجو
لتصنع قهوتها ، وقد تلفعت بخمار أبيض فوق جلباب بنفسجى ثم عن
ضمورها ، واكتنفها هدوء يشاب عند الصمت بأمارات الحزن ، كما
الشاطئ إذا استكن شف عما فى باطنه . شد ما شعر بالأسف والخرج
وهو يأخذ أهفته للإفصاح عما فى ضميره ، ولكن لم يكن من الإفصاح
بد ، فقال بعد أن فرغ من احتساء قهوته دون أن يذوق لها طعماً :
- والله يا نينة لدىّ مسألة أريد أن أستشيرك فيها . .

وتبادل مع كمال نظرة دلت على أن الأخير على علم سابق بموضوع
الحديث ، وأنه يترقب عواقبه باهتمام لا يقل عن اهتمام ياسين نفسه .
قالت أمينة :

- خير يا بنى . .

قال ياسين باقتضاب :

- قررت أن أتزوج . .

فتجلى في عينيها العسليتين الصغيرتين اهتمام باسم ، ثم قالت :

- خير ما قررت يا بنى ، لا ينبغي أن يطول انتظارك أكثر مما طال .

ثم لاحت في عينيها نظرة متسائلة ، ولكنها بدل أن تفصح عن تساؤلها ، قالت وكأنما تستدرجه إلى الاعتراف كأن ثمة سر :

- خاطب والدك أو دعنى أخاطبه ، ولن يعجزه أن يجد لك زوجة جديدة خيراً من الأولى . .

قال ياسين فى رزانه بدت لها أكثر مما يستدعى الأمر :

- خاطبت أبى بالفعل ، وليس هناك حاجة إلى تكليفه عناء جديداً لأننى اخترت بنفسى ، وقد وافق أبى ، فأرجو أن أحوز موافقتك أيضاً .

تورد وجهها حياء وسروراً بما أولاهما من أهمية ، فقالت :

- ربنا يوفقك إلى ما فيه الخير ، عجل حتى تعمّر لنا الدور المهجور ، ولكن من بنت الحلال التى قررت أن تتخذها زوجة؟

تبادل مع كمال نظرة أخرى ، ثم قال فى عناء :

- جيران تعرفينهم! . .

ارتسم بين حاجبيها تقطيب التذكر وهى عمد نظرها إلى لا شئ ، محرّكة سبابتها كأنما تحصى من فى مخيلتها من الجيران ، ثم قالت :

- إنك تحيرنى.يا ياسين ، هلا تكلمت وأرحتنى!

قال وهو يتسم ابتسامة شاحبة :

- جيراننا الأقربون! .

- مَنْ . ؟ !

ندت عنها فى إنكار وانزعاج وهى تحملق فى وجهه ، فخفض رأسه وأطبق شفثيه متجههم الوجه ، فعادت تقول بصوت متهدج ، وهى تشير بإبهامها إلى الوಾರೆ :

- أولئك ؟ ! مستحيل ، هل تعنى ما تقول يا ياسين ؟ !

فأجاب بالصمت المتجههم حتى زعقت :

- خبر أسود . . أولئك الذين شمتوا بنا فى أجل مصاب ؟ !

فلم يتمالك أن هتف بها :

- أستحلفك بالله ألا ترددى هذا القول ، إنه وهم باطل ، ولو اقتنع به قلبى لحظة واحدة . .

- طبعاً تدافع عنهم ، ولكنه دفاع لا ينطلى على أحد ، لا تتعب نفسك فى إقناعى بالمحال ، يا ربى !! أى ضرورة تدعو إلى هذه الفضيحة ؟ ! كلهم نقائص وعيوب ، فهل من فضيلة واحدة تبرر هذا الاختيار الجائر ؟ قلت إنك نلت موافقة أبيك ، الرجل لا يعلم عن هذه الأمور شيئاً ، قل إنك خدعته . .

قال ياسين بتوسل :

- هدئى روعك ، ليس أكره عندى من إغضابك ، هدئى روعك ولتتكلم فى هدوء . .

- كيف أسمع لك وأنا ألتقى منك هذه اللطمة القاسية ؟ ! قل إن الأمر لا يعدو أن يكون مزاحاً سخيفاً ، مريم ؟ ! الفتاة المستهتره التى تعرف من أمرها ما نعرف جميعاً ؟ . . هل نسيت تاريخها الفاضح ؟ . . هل نسيت حقاً ؟ أتريد أن تجيء بهذه الفتاة إلى بيتنا ؟ ! قال وهو يزفر كأنما يطرده من صدره الكرب والاضطراب :

- لم أقل هذا قط ، هذا أمر لا أهمية له ، المهم عندي حقاً أن تنظري إلى المسألة كلها نظرة جديدة خالية من التحامل . .

- أى تحامل يا هذا؟! هل ادعيت عليها بالباطل؟ تقول إن أباك وافق ، فهل أخبرته عن عبثها الفاضح مع الجنود الإنجليز؟ ماذا جرى لأولاد الناس الطيبين يا ربى؟!

- هدئي روعك ، دعينا نتحدث فى هدوء ، ماذا يجدى هذا الهياج؟!

صاحت بحدة لم تكن من طباعها فى الزمن الأول :

- إن روعى لا يمكن أن يهدأ ما دام الأمر يتعلق بالكرامة .
ثم بصوت باك :

- وأنت تسيء إلى ذكرى أخيك الغالى .

ياسين وهو يزدرد ريقه :

- أخى؟ رحمه الله وأسكنه فسيح جناته ، إن هذا الأمر لا يمس ذكره فى أى شيء ، صدقيني فلانى أدرى بما أقول ، لا تقلقى مرقده!

- لست أنا التى أقلق مرقده ، إنما يقلق مرقده حقاً أخوه الذى يتطلع إلى هذه الفتاة ، أنت تعلم هذا يا ياسين!! ولا تستطيع أن تنكره . .

ثم فى انفعال شديد :

- لعلك كنت تتطلع إليها حتى فى ذلك الزمن البعيد!

- نينة!!

- لم تعد لى ثقة فى شيء ، كيف تبقى لك ثقة فى شيء بعد هذا الغدر؟! هل ضاقت الدنيا وأقفرت حتى لم تجد من فتياتها زوجة

إلا الفتاة التي أدمت قلب أخيك؟ ألا تذكر ما أصابه من حزن وهو يستمع معنا إلى قصة الجندى الإنجليزي؟! ..

بسط ياسين ذراعيه في توسل، قائلاً:

- فلنؤجل هذا الحديث إلى وقت آخر، سأثبت لك فيما بعد أن المرحوم لبي نداء ربه وليس في قلبه أى أثر لهذه الفتاة، أما الآن فلم يعد الجو صالحاً للكلام. . .

صاحت به غاضبة:

- هيهات أن يصلح عندي جو لهذا الكلام، إنك لا ترعى ذكرى فهمى. . .!

- ليتك تتصورين ما يحدثه في كلامك من حزن!

صاحت، وقد بلغ بها الغضب منتهاه:

- أى حزن؟! إنك لم تحزن على أخيك! من الغرباء من حزن عليه أكثر منك!

- نينة! ..

وهمّ كمال بالتدخل في الحديث، ولكنها أسكتته بإشارة من يدها، وهتفت:

- لا تدعنى نينة، لقد كنت لك أما حقاً، ولكنك لم تكن لى ابناً ولم تكن لابنى أخاً!

لم يعد يحتمل البقاء، فنهض محزوناً مكتئباً، وغادر الصالة إلى حجرته، وما لبث كمال أن لحق به ولم يكن دونه حزناً وكأبه فقال له:

- ألم أحذرك؟ ..

فقال ياسين مقطباً:

- لن أبقى في هذا البيت دقيقة واحدة بعد الآن! ..!

فقال كمال بجزع :

- يجب أن تعذرها ، أنت تعلم أن والدتي لم تعد كما كانت ، إن أبى نفسه يغضى عن بعض هفواتها أحياناً ، ما هى إلا غضبة لا تلبث أن تسكت فلا تحاسبها على كلامها ، هذا رجائى إليك . .

قال ياسين ، وهو يتنهد :

- لن أحاسبها يا كمال ، لن أبيع جميل الأعوام بإساءة ساعة ، إنها معذورة كما قلت ، ولكن كيف أطلعها بوجهى صباح مساء ، وهذا ظنها بى ؟

ثم بعد لحظات صمت مشحونة بالكآبة :

- لا تصدق أن مريم أدمت قلب المرحوم ، لقد استأذن المرحوم يوماً فى أن يخطبها فرفض أبوك ، وتناسى المرحوم الأمر حتى نسيه فانتهى كل شىء ، فما ذنب الفتاة فى ذلك ، وما ذنبى أنا إذا أردت أن أتزوجها بعد ست سنوات من ذلك التاريخ ؟ !

قال كمال برجاء :

- لم تعد الحق فيما قلت : وسوف تقتنع نينة به عاجلاً ، فأرجو أن يكون كلامك عن عدم البقاء فى البيت مجرد هفوة لسانية . .

فقال ياسين وهو يهز رأسه فى حزن :

- أنا أول من يعز عليه هجر هذا البيت ، ولكنى سأتركه عاجلاً أو آجلاً ما دام انتقال مريم إليه مستحيلاً ، فلا تنظر إلى مسألة ذهابى إلا من هذه الزاوية ، سأنتقل إلى بيتى بقصر الشوق ، ومن حسن الحظ أن شقة أمى لا تزال خالية ، وسأقابل والدى فى الدكان وأوضح له أسباب ذهابى متحاشياً كل ما يعكر صفوه ، لست غاضباً ، سأترك البيت أسفاً عليه كل الأسف ، أسفاً على فراق أهله

وأولهم نينة، لا تحزن ستعود المياه إلى مجاريها فى وقت قريب،
ليس فى هذه الأسيرة قلب أسود، وقلب والدتك أنصعها بياضاً .
ومضى إلى صوان ملابسه ففتحه، وجعل ينظر إلى ملابسه
ولوازمه، وتردد قليلاً قبل أن ينفذ ما عقد العزم عليه، فالتفت إلى
كمال، وهو يقول:

- سأزوج من هذه الفتاة كما قضت بذلك المقادير، ولكنى - علم الله
- مقتنع كل الاقتناع بأننى لم أسئ إلى ذكرى فهمى، أنت أعلم
يا كمال بما كان من حبنى له، كيف لا؟ إذا كان هناك من سيساء بهذا
الزواج، فهو أنا...!

١١

قادت خادم صغيرة ياسين إلى حجرة الاستقبال ثم انصرفت. كان
يقوم بزيارة بيت المرحوم السيد محمد رضوان لأول مرة فى حياته،
وكانت الحجرة - على طراز الحجرات ببيت أبيه - واسعة الأركان،
مرتفعة السقف، فيها مشربية تشرف على شارع بين القصرين ونافذتان
تطلان على العطفة الجانبية التى يفتح عليها مدخل البيت، وقد فرشت
أرضها ببسط صغيرة، واصطفت فى جوانبها الكنبات والمقاعد،
وأسدلت على الباب والمنافذ ستائر من مخمل رمادى باهت من القدم،
وعلى الجدار المواجه للباب علقت البسملة فى إطار أسود كبير، بينا
توسطت الجدار الأيمن - فوق الكنية الرئيسية - صورة للمرحوم السيد
محمد رضوان تمثله فى أوسط العمر .

اختار ياسين أول كنية صادفته إلى يمين المدخل، فجلس وهو

يتفحص المكان بعناية حتى ثبتت عيناه على وجه السيد محمد رضوان الذى بدا وكأنه يبادل له النظر بعيني مريم! ابتسم ابتسامة راضية وراح ينش لا شيء بمنشته العاجية . . ثمة مشكلة قد واجهته مذ فكر فى المجيء لخطبة مريم، هى خلو البيت من جنس الرجال وعدم توفيقه إلى إنابة أحد من جنس النساء عنه، فكانت النتيجة أن جاء وحده كأنه مقطوع من شجرة - على حد تعبيره - الأمر الذى أخجله بعض الشيء كرجل ورث عن وسطه الاعتزاز بالأهل والأسرة، غير أنه كان مطمئنا من ناحية أخرى إلى أن مريم لا بد وأن تكون قد مهدت له السبيل عند أمها، بحيث إن مجرد إعلان زيارته سيسبى بما جاء من أجله، ومن ثم يهيم له جوا طيبا لإنجاز مهمته .

عادت الخادم إلى الظهور حاملة صينية القهوة، فوضعتها على المنضدة أمامه، وتراجعت وهى تخبره بأن ستها الكبيرة فى الطريق إليه . . . وستها الصغيرة ترى هل علمت بحضوره؟ وما صدى ذلك فى نفسها الرقيقة؟ سوف يحملها بحسنها إلى قصر الشوق، ولتفعل بنا القوة ما تشاء! من كان يظن لأمانة هذه القدرة على الغضب؟ كانت فى وداعة الملاك . قاتل الله الحزن!! كذلك غضب أبوه وهو يعترف له فى الدكان بأنه هجر البيت ولكن غضب رحيم كشف عن تأثره وحزنه . ترى: هل تطلعه أمانة على تاريخ مريم؟ غضب الثكلى شيء مخيف، ولكن كمال وعد بأن يحملها على السكوت . . فى قصر الشوق صادفتك أول مفاجأة سعيدة فى هذا الجو العاصف!! هو موت الفكهاني وحلول ساعاتى محله، إلى القبر . .! سمع نحنحة عند الباب، فاتجه بصره إليه وهو ينهض، وما لبث أن رأى ست بهيجة وهى تدخل بجنبها، إذ إن مصراع الباب المفتوح لم يكن ليتسع لها إذا دخلت بعرضها، ولمح عن غير قصد الخطوط التى تحد تفاصيل جسمها الجسيم،

فلم يتمالك من العجب عندما مرت أمام عينيه عجيزتها التي كادت قمتهـا تبلغ منتصف ظهرها ويفيض أسفلها على فخذيها، فكأنها كرة منطاد!! وأقبلت نحوه في خطوات متمهلة ناءت بقناطير اللحم والشحم، ثم مدت له يداً بضة بيضاء برزت من كم فستانها الأبيض الفضفاض، وهى تقول:

- أهلا وسهلاً، شرفت ونورت..

فصافحها ياسين بأدب، ولبث واقفاً حتى جلست على الكنبه المجاورة فجلس.. كان يراها عن كثب لأول مرة، إذ إن علاقتها القديمة بأسرته واكتسابها مع الأيام منزلة أشبه بمنزلة الأم فى السن والاحترام حملاه على تجنب تفحصها - كما يفعل مع غيرها من النساء - كلما لمحها عن بُعد فى الطريق، لذلك خيل إليه أنه عثر على كشف جديد. وكانت ترتدى فستانا قد غطى على جسمها من العنق إلى ما فوق القدمين، وحتى القدمان وارتهما فى جورب أبيض رغم دفء الجو، بينا امتد كماً الفستان على ذراعيها وساعديها حتى المعصمين، ولقّت رأسها وعنقها بخمار أبيض طرح ذيله العريض على أعلى الصدر والظهر فبدت فى احتشام يناسب المقام ويوافق العمر الذى قارب الخمسين - فيما علم - وإن تبدت فى صحة ريانة تنطق بصفاء المزاج وشباب القلب. ولاحظ فيما لاحظ أنها تظالعه بوجه طبيعى لم يمسّه زخرف أو زواق رغم ما عُرف عنها من حب التبرج وإتقان التزين، الأمر الذى نصبها من قديم مرجعاً لكل ما يتعلق بالذوق النسائى من ملابس وزواق فى الحى كله. وذكر بهذه المناسبة كيف كانت أمينة تدافع عن هذه المرأة كلما عنّ لأحد أن ينتقد إفراطها فى التبرج، ثم كيف انقلبت تحمل عليها لآتفه الأسباب فى السنوات الأخيرة رامية إياها بقله الحياء وتجاهل ما يستوجبه عمرها من احتشام.

- خطوة عزيزة يا ياسين أفندى . .

- الله يكرمك !!

كاد يختم جملته بقوله «يا تيزة» ولكن إحساساً غريزياً خوفه فى اللحظة الأخيرة من النطق بها، خاصة وأنه لاحظ أنها لم تدعُها بيا «ابنى» كما كان المنتظر، وعادت المرأة تسأل .

- كيف حالكم؟ ، والدك وأم فهمى وخديجة وعائشة وكمال؟

أجاب، وهو يشعر بحياء لسؤالها عن الذين ناصبوا العداء بلا سبب وجيه :

- كلهم بخير، سألت عنك العافية . .

لا شك أنها تفكر الآن فى الجفاء الذى قوبلت به فى بيت أبيه عقب وفاة فهمى فاضطرها إلى الانقطاع عن أسرته بعد معاشرة دامت العمر كله . يا له من جفاء!! بل يا لها من عداوة صامتة!! لم يكن إلا أن أعلنت امرأة أبيه يوماً أن «شعورها» يحدثها بأن مريم وأمها لم يصدقوا فى حزنهما على فهمى! . . لم كفى الله الشر؟ قالت إنه من غير المعقول أن يكون رفض السيد لخطبة مريم لم يبلغهما فى حينه عن طريق أو آخر أو حتى استنتاجاً، ومن غير المعقول أن تعلموا به ولا تضطغناه عليهم! ورددت كثيراً أنها سمعت أن مريم تندب فهمى فى المأتم فتقول: «أسفى على شبابك الذى لم تتمتع به» فترجمتها إلى «أسفى على شبابك الذى وقف أهلك فى سبيله فلم تتمتع به!». وزادت على ذلك ما شاء لها حزنها وقهرها، ولم تنفع معها حيلة فى تحولها عن «شعورها»، وسرعان ما تغير سلوكها نحو مريم وأمها حتى كانت القطيعة! . . قال وهو لم يزل تحت تأثير الحياء والخرج :

- لعن الله الشيطان!

فقلت بهيجة مؤمنة على قوله :

- ألف لعنة! . . طالما ساءلت نفسى عما جنيت حتى ألقى ما لاقيت

من الست أم فهمى ، ولكنى أعود فأدعو لها بالصبر . . المسكينة!

- جزاك الله كل خير على نبل خلقك وطيبة قلبك ، حقاً إنها مسكينة

وفى حاجة إلى الصبر!!

- ولكن ما ذنبى أنا؟!

- لا ذنب لك ، إنه الشيطان لعنة الله عليه .

هزت المرأة رأسها هزة الضحية البريئة ، وصمتت قليلاً ، حتى حانت

منها التفاتة إلى فنجال القهوة الذى بدا كالمنسى على صينية القهوة ،

فقلت وهى تومئ إليه :

- ألم تشرب قهوتك بعد؟

فرفع ياسين الفنجال إلى فيه ، وحسا الحسوة الأخيرة ، ثم أعاده إلى

الصينية ، وتنحنح قليلاً ، ثم أنشأ يقول :

- شد ما ساءنى ما انتهت إليه صداقة الأسرتين ، ولكن ما باليد حيلة ،

على أى حال ينبغى أن نتناسى ذلك تاركين أمره للزمن ، والواقع

أننى لم أكن أحب أن أثير أسيف الذكريات ، فما لهذا جئت ، إنما

جئت لغرض آخر هو أبعد ما يكون عن الذكريات الأسيفة . .

هزت المرأة رأسها هزة كأنما تطرد الذكريات الأسيفة ، ثم ابتسمت

ابتسامة استعداد لسماع جديد ، كانت تهز رأسها وابتسامتها كالآلة

الموسيقية المصاحبة للمغنى إذا غيرت عزفها تمهيداً لدخول المغنى فى

طبقة جديدة من النغم ، قال ياسين مستمداً من ابتسامتها طلاقة :

- أنا نفسى لا تخلو حياتى من ذكريات أسيفة تتصل بحياتى

الماضية . . أعنى تجربتى الأولى فى الزواج الذى لم يوفقنى الله فيه

إلى بنت الحلال! ولكنى لا أريد أن أرجع إلى ذلك ، الواقع أننى

جئت بعد أن عزمت - متوكلاً على الله - على فتح صفحة جديدة
مستبشراً الخير كله فيما اعتزمت . .

التقت عيناها على الأثر فطالع فيهما الترحيب الجميل . . ترى : هل
كان موفقاً في الإشارة إلى زواجه الأول؟ ترى ألم يترام إلى سمع هذه
المرأة شيء عن الأسباب الحقيقية لفشل ذلك الزواج؟ لا تشغل بالك، إن
ملامحها الجميلة توحى بالتسامح إلى غير حد، ملامحها الجميلة!!
أليس كذلك؟ بلى، لولا فارق السن لكنت أجمل من مريم، كانت بلا
مراء أجمل من مريم في شبابها الذاهب . . . كلا! إنها أجمل من مريم
رغم فارق السن! . . إنها كذلك! . .

- أظنك فطنت إلى مقصدي، أعنى إلى أننى جئت طالبا يد كريمتك
مريم هانم . .

أضاء الوجه الرقراق ابتسامة بثت فيه حيوية جديدة، وقالت:

- لا يسعنى إلا أن أقول أهلا وسهلا، نعم الأسرة ونعم الرجل، أمس
أوقعنا سوء الحظ فيمن لاخلق له، اليوم يسعى إلى مريم رجل جدير
حقاً بإسعادها، وستكون بفضل الله جديرة بإسعاده، ونحن - مهما
فرق بيننا سوء التفاهم - أسرة واحدة من قديم الزمن . .

اغتبط ياسين حتى راحت أصابعه تسوى الباييون بلمسات سريعة
غير مقصودة، ثم قال وقد تورد وجهه الأسمر الجميل:

- أشكرك من صميم قلبي، جزى الله عنى لسانك الحلو، نحن أسرة
واحدة كما قلت رغم أى شيء، ومريم هانم فتاة يزدان بها حيناً كله
أصلاً وخلقاً، أرجو أن يعوضها الله من صبرها خيراً وأن يعوضنى
بها من صبرى خيراً.

غمغمت «آمين» وهى تنهض، ثم أقبلت بجسمها المفتخر نحو
المنضدة، فتناولت صينية القهوة وهى تنادى ياسمينه، ثم استدارت

حاملة إياها فأعطتها الخادمة التي جاءت على عجل ، ولفتت عنقها فجأة لتقول له «آنستنا» فباغتته وهو يحملق في رديها الثقيلتين!! . .
وشعر لتوه بأنه «ضُبط في حالة تلبس» فبادر بخفض عينيه ليوهمها بأنه كان ينظر إلى الأرض ، ولكن بعد فوات الأوان! . . وارتبك وجعل يسأل نفسه عما عسى أن تظن به ، ثم اختلس منها نظرة بعد أن عادت إلى مجلسها فلمح على شفيتها ابتسامة خفيفة كأنما تقول له «رأيتك» .
لعن عينيه اللتين لا تعرفان الحياء ، وتساءل عما يمكن أن يكون قد دار في رأسها . . أجل إنها تحاول أن تبدو كأنها لم تر شيئاً ، ولكن هيئتها - بعد ابتسامتها - تقول له أيضاً «رأيتك!» . لينس الهفوة فهذا خير حل ، ولكن هل تصير مريم مثل أمها يوماً ما؟ متى يجيء هذا اليوم؟! للآم مزايا لا وجود بها الزمان إلا في النادر ، يا لها من امرأة!! إن خير وسيلة لتغيير أفكاره وتبديد سحابة الشك هي أن يمزق الصمت ، قال :

- إذا حاز طلبى القبول ، فستجدينى رهن إشارتك لمناقشة التفاصيل الهامة . .

ضحكت ضحكة قصيرة ، فبدا وجهها في إشراقها لطيفاً شاباً ، وقالت :

- كيف لا يحوز القبول يا ياسين أفندى؟! أصل وجوار على رأى المثل . .

قال ، وقد تورد وجهه :

- إنك تأسريننى بلطفك!

- ما عدوت الحق ، والله شهيد!

ثم متسائلة بعد فاصل صمت قصير :

- هل تمت موافقة البيت؟

تجلت فى عينيه نظرة جد لحظة، ثم ضحك ضحكة فاترة من أنفه،
وقال :

- دعينا من البيت وسيرته !

- لم كفى الله الشر؟

- ليس البيت على ما يرام !

- ألم تشاور السيد أحمد؟

- أبى موافق . .

فضربت يدا على يد، وقالت :

- فهمت ، أم فهمى؟! أليس كذلك؟! إنها أول من تبادر إلى ذهنى

وأنت تفاتحنى بالموضوع ، طبعاً لم توافق ، هه؟ سبحان الذى لا

يتغير ، امرأة أبيض امرأة غريبة!

هز كتفيه استهانة ، وهو يقول :

- لا يقدم هذا ولا يؤخر . .

قالت متشككة :

- طالما ساءلت نفسى عما جنيت؟ أى إساءة أسأت بها إليها!

- لا أحب أن أقدم على حديثنا حديثاً آخر لا يجنى منه الإنسان إلا

وجع الدماغ ، ليكن ظنها ما يكون ، المهم أنى ماضٍ إلى هدفى ،

ولا يعينى إلا موافقتك أنت . .

- إذا لم يتسع لك بيتك فبيتنا تحت أمرك . .

- شكراً . . لدى بيتى بقصر الشوق بعيداً عن الحى كله ، أما بيت أبى

فقد غادرته من أيام . .

ضربت صدرها بيدها هاتفة :

- طردتك! . .

قال ضاحكاً :

- كلا لم يبلغ الأمر إلى هذا الحد، المسألة وما فيها أن اختياري أَلَمَها لأسباب قديمة لها صلة بالمرحوم أخى (هنا نظر إليها نظرة ذات معنى)، ومع أننى لم أجد فى معارضتها وجه حق مقنع، فإننى رأيت من اللياقة أن أعد للزوجة بيتاً جديداً .

سألته، وهى ترفع حاجبيها وتهز رأسها فيما يشبه الشك :

- لمَ لمَ تنتظر فى بيتك حتى يحين ميعاد الزواج؟

فضحك ضحكة تسليم، وقال :

- أثرت الابتعاد خوفاً من تفاقم الخلاف!

فقال كالمتهكمة :

- ربنا يصلح الحال . .

وقامت مرة أخرى قبل أن تتم جملتها، فاتجهت إلى النافذة المطلة على العطفة الجانبية وفتحتها لتفتح لنور الأصيل بعد أن بات باب المشربية غير كاف لإضاءة الغرفة، وجد نفسه على رغمه وحذره يسترق النظر إلى كنزها النفيس وهو يطالعه كالقبة . رآها وهى تعتمد على الكنبه بركبتها ثم تميل على حافة النافذة لتشبك مصراعها فرأى منظرًا عجبًا ترك فى نفسه أثراً دامياً . تساءل وهو يشعر بجفاف حلقه : لمَ لمَ تدع الخادمة لتفتح النافذة؟ كيف ارتضت أن تعرض أمام ناظريه - اللذين باغتتهما منذ قليل فى حالة «تلبس» - هذا المنظر الذى لا يخفى عنها مغزاه؟ لم وكيف وكيف ولم؟ كان فيما يتصل بالنساء مرهف الحس سيئ الظن، فلاح له شئ كالشك يتردد على عتبة إدراكه لا يريد أن يدخل ولا يريد أن يختفى، ولكنه بادر فأغمض عينيه متأثراً بخطورة الموقف . إما أن يكون مجنوناً وإما أن تكون - هى - المجنونة، أو فلا هذا ولا ذاك؟ من له بمن ينتشله من حيرته! استقام جسمها المائل، فوقفت،

ثم تحولت عن النافذة متجهة إلى مجلسها . فبادر إلى رفع عينيه صوب البسملة - قبل تحولها - متظاهرا بالاستغراق فى تفحصها ، ولم يلفت رأسه نحوها حتى صدرت عن الكنبه طقطقة تنبئ بجلوسها ، وعند ذاك التقت عيناها ، فرأى فى عينيها نظرة باسمه ماكرة أشعرته بأنه لم تخف عنها خافية ، وكأنها تقول له بأفصح لسان « رأيتك ! » . لبث حيناً مضطرب النفس والخطار ، ولم يكن على بينة من شئ فخاف أن يكون ظلمها أو أن يكون عرض نفسه أمامها للاتهام ، وبدا له أنه سيحاسب على كل حركة تبدر منه ، وأن أى هفوة قد تنقلب فضيحة .

- ما زال الجو مائلاً إلى الحرارة والرطوبة . .

جاء صوتها هادئاً طبيعياً ، ودل - إلى ذلك - على رغبتها فى إزاحة الصمت ، فقال بارتياح :

- أجل إنه كذلك . .

عاودته الطمأنينة ، غير أنه ما لبث أن تخايل لعينيه المنظر الذى رآه عند النافذة ، وجد نفسه على رغمه يجتره ويتيه فى جاذبيته ، ويتمنى لو كان عشر على مثله فى إحدى مغامراته . لو كان لمريم مثل هذا الجسم ! ألا فى مثله فليتنافس المتنافسون . ولعلها ظنته - لصمته - لا يزال مشغولاً بما أثارته من حديث خلافه مع امرأة أبيه ، فقالت فيما يشبه الدعابة :

- لا تشغل بالك ، لا شئ فى هذه الدنيا يستحق شغلة البال !

ثم لوح ببيديها ورأسها - واهتز جسمها فيما بين ذلك اهتزازة خاصة - كأنما لتحثه على الاستهانة بالهموم ، فابتسم مطاوَعاً وهو يغمغم : « نطقت بالحق » . غير أنه كان يبذل قصاراه ليملك نفسه . أجل فقد حدث أمر جلل . ثم يكن فى ظاهره إلا تلك الحركة الشاملة التى أرادت بها الإفصاح عن الاستهانة وحثه عليها ، إلا أنها كانت حركة

بالغة الخطورة من حيث دلالتها على الخلاعة والدلال والاستهتار، وقد نددت عنها في لحظة نسيان فخرجت بها عما التزمته طوال الجلسة من تأدب واحتشام وكشفت عن خبيثة طبيعتها وهي لا تدري، أو وهي تدري؟ لا يستطيع أن يقطع بهذا أو بذاك ولكنه لم يعد به شك في أنه حيال امرأة جديرة حقاً بأن تكون أم مريم ذات التاريخ القديم! أبى أن يتراجع عن رأيه مهما يكن من أمر، فهذه الحركة الراقصة المغناج لا يمكن أن تصدر عن سيدة مصون! ولم يكن إزعاجه إلا لحظة عابرة، فسرعان ما حل محله إحساس بسرور شهواني مكر، وراح يتذكر أين ومتى رأى هذه الحركة من قبل، على زنوبة؟ جلييلة ليلة اقتحمت على أبيه المنظرة ببيت آل شوكت؟ أه... هذه هي! . وخيل إليه أنها رغم سنّها أشهى من مريم وألذ، وغلبته فطرته فحدثته نفسه بأن يجس النبض والأ يقف إن أمكن عند حد! وشعر برغبة في الضحك من غرابة أفكاره، وبأنه سيسلك طريقاً وعراً لم يطرق من قبل، ولكنه لم يعتد يوماً أن يزجر النفس عن هوى... أين يتأدى به هذا المسلك؟ هل يمكن أن يعدل عن مريم إلى أمها! كلا! إنه لا يضمّر ذلك قط، ولكن تصوروا كلباً قد عثر على عظمة وهو في طريقه إلى المطبخ فهل يتعفف؟... بيد أنها مجرد أفكار وتخيلات وفروض! فلا تنتظر!... وتبادلاً ابتساماً في الصمت الذي عاد فسحب ذيله بينهما، أما ابتسامتها فكانت فيما بدا تحية مضيف لضيف، وأما ابتسامته فقد انفغمت على فم حائر بهمسات الاعتداء المختنق.

- نورت بيتنا يا ياسين أفندى..

- ياستى بيتك لا ينقصه النور، أنت تنورين البلد وما فيها..

ضحكت ضحكة مالت برأسها إلى الوراء، وهي تتمتم:

- الله يكرمك يا ياسين أفندى!..

كان ينبغي أن يعود إلى الحديث عن طلبه أو أن يستأذن في الانصراف على أن يسمى موعداً آخر لمواصلة الحديث، ولكنه لم يعد إلى الحديث ولم يتسأذن في الانصراف.. بل راح يحدجها بنظرات ريبة تطول حيناً وتقصّر حيناً دون انقطاع وفي صمت مريب. النظرات معان لا تخفى على ذى عينين!! لا بد من إيصال أفكاره إليها بالنظرات وحدها حتى يرى رد الفعل.. اعرف لقدمك قبل الخطو موضعها وليسقط أَلنبي، خذى هذه النظرة النارية وخبريني إن كنت صادقة عن أى مجنون يسعه أن يتجاهل سوء مقصدها أو يدعى براءتها؟ انظر هاهى ترفع عينيهما وتخفضهما كالشاردة وعلى حال بينة من الفهم المريب، تستطيع الآن أن تقول إن الفيضان وصل إلى أسوان وأنه لا مناص من فتح الخزان، وأنت تخطب إليها ابنتها؟! مجنون من لا يؤمن بالجنون بعد اليوم، أنت الآن أشهى شئ إلى نفسى، وليكن بعد ذلك الطوفان.. منظر لا يوحى باليأس أبدا!

- هل تقيم فى قصر الشوق بمفردك؟

- نعم..

- قلبى عندك..

جملة قد تصدر عن شيطان، وقد تصدر عن ملاك، ترى هل تنتصت مريم الآن وراء الباب؟

- أنت جربت الوحدة بنفسك فى بيتك هذا، إنها شئ لا يُحتمل!..

- حقا لا يُحتمل!

وفجأة امتدت يدها إلى خمارها فنزعتة من حول رأسها وعنقها وهى تقول كالمعتذرة «لا تؤاخذنى الدنيا حارة». فبدا رأسها فى منديل برتقالى وأسفر عنقها الوضىء. رنا إلى عنقها مليا فى قلق متزايد، ثم لحظ الباب

كالمسائل عمن عسى أن يكون رابضاً وراءه . . أغيشوا الذى جاء يخطب
البنت فوق فى الأم . وقال رداً على اعتذارها :

- خذى راحتك ، أنت فى بيتك ، ولا غريب فى البيت . .

- ليت أن مريم كانت فى البيت لأزف إليها الخبر !

خفى قلبه خفقة حادة كإشارة الهجوم ، وتساءل :

- وأين هى ؟

- عند جماعة من معارفنا فى الدرب الأحمر .

وداعا يا عقلى ! خاطب بتك يريدك وأنت تريدنه ، ليرحم الله من
يحسنون الظن بالنساء ، لا يمكن أن يكون فى رأس هذه المرأة عقل ،
جارية العمر ولا تعرفها إلا اليوم ! . . مجنونة . . مراهقة فى
الخمسين ! . .

- متى تعود مريم هانم ؟

- قبيل المساء . .

قال بخبث :

- أشعر بأن زيارتى قد طالت . .

- لم تطل زيارتك ، أنت فى بيتك . .

فسألها بخبث أيضاً :

- ترى هل أطمع فى أن تردى لى الزيارة ؟

فابتسمت ابتسامة عريضة ، كأنما تقول له «إنى أدرك ما وراء هذه
الدعوة» ، ثم أطرقت فى حياء وإن لم يغب عنه ما فى حركتها من تمثيل ،
ولكنه لم يبالها ، وراح يصف لها موقع بيته من الحارة وموضع شقته من
البيت ، وهى مطرقة صامته باسمه . ترى ألم تشعر بأنها تسىء إلى ابنتها
أبلغ إساءة ، وأنها تعتدى عليها أنكر اعتداء ؟ !

- متى تتكرمين بالزيارة؟

غمغمت وهى ترفع وجهها:

- لا أدري ماذا أقول!

فقال بتوكيد وثقة:

- أقول أنا بالنيابة عنك، مساء الغد، ستجديننى فى انتظارك!

- ثمة أمور يجب أن نعمل حسابها!.

- سنعمل حسابها معاً.. فى بيتى!

وقام من فوره وهم بأن يتقدم نحوها، فأشارت إليه وهى تلتفت نحو الباب محذرة، ثم قالت وكأنما لا تقصد إلا التفادى من صولته:

- غداً مساء..!

١٢

وعرف بيت قصر الشوق بهيجة زائرة مواظبة. كانت إذا نشر الظلام ستاره، تتلفع بملاءتها، وتمضى إلى الجمالية، فإلى بيت هنية.. وهنالك تجدد ياسين فى انتظارها بالحجرة الوحيدة المفروشة فى الشقة. لم يجر لمريم ذكر بينهما إلا حين قالت له مرة:

- لم أستطع أن أخفى عن مريم نبأ زيارتك، لأن خادمتنا تعرفك، ولكنى قلت لها: إنك فاتحتنى برغبتك فى خطبتها بعد تذليل العقبات التى تعترض سبيلك فى محيط الأسرة!

ووجد نفسه مذهولاً عن مناقشتها، فأبدى موافقته واستحسانه.

واستقبلاً معاً حياة حافلة بالمتع ، وجد ياسين ذات «الكتر» ملبية بين يديه ، فانطلق انطلاق الجواد الجامح ، ولم تكن الحجرة التى أثنت على عجل واقتصاد بالمكان الصالح لمطارحة الغرام ، ولكنه لم يألُ عن تهيئة الجو الخلاب بتوفير الطعام والشراب حتى يطيب له الوصال فيواصل صولاته بذلك النهم الغريزى الذى لا يعرف حداً أو اعتدالاً . وما لبث أن أدركه الملل قبل أن يتم الأسبوع الأول دورته . هى نفس الحلقة التى تدور فيها شهوته حتى غدا الدواء نوعاً من الداء بيد أنه لم يؤخذ على غرة ، كلا! ولم يضمر نحو تلك العلاقة الغريبة من بادئ الأمر أى نية حسنة ولا قدر لها أى دوام ، بل لعله لم يبلغ من وراء المغازلة فى حجرة الاستقبال إلا ضجعة عابرة ، غير أنه وجد من المرأة تعلقاً به وحرصاً عليه وأملأ فى أن يكون قنع بها راضياً وعدل عن مشروع الزواج ، فلم يربدا من مجاراتها كيلاً يفسد على نفسه لذتها مؤمناً بأن الزمن وحده كفيل بإرجاع كل شىء إلى أصله ! وما أسرع أن رجع كل شىء إلى أصله بالنسبة إليه هو ، بل ربما أسرع مما قدر ، وكان جاراها وهو يظن أن جدة محاسنها خليفة بأن تحتفظ برونقها أسابيع أو شهراً ، ألا ياربما كذب الظن! . . أما عن مظهرها الشهى فبحسبه أن جعله يرتكب أكبر حماقة فى حياته العامرة بالحماقات ، ولكن الكهولة تكمن وراء ذلك كما تكمن الحمى وراء تورّد الخدين الكاذب ، وإن القناطير المقنطرة من اللحم البشرى المتحركة تحت طيات الثياب - على حد قوله - غيرها إذا تجردت ، للعيان ، وليس كاللحم البشرى مسجل لآثار العمر الحزينة ، حتى قال لنفسه «الآن أدرك لماذا تعبد النساء الملابس!» لم يكن عجيباً بعد ذلك أن يقول عنها وقد ضاق باندلاقها عليه إنها «مرض» ، وأن يجمع العزم على قطع علاقته بها . وعادت مريم - بعد خمود النزوة الجنونية - إلى سابق مكانتها من نفسه ، كلا ، لم تكن بارحتها ، ولكن النزوة الطارئة غشيتها كما تغشى السحابة العجلى وجه القمر ، عجباً! لم تعد رغبته فى مريم

مجرد استجابة لولعه الخالد بجنسها وإن غلب ذلك عليها، ولكنها أرضت من ناحية أخرى حينه إلى تكوين الأسرة التي كان يعتدها مصيراً محتوماً ومرغوباً فيه أيضاً! واستوصى بالصبر - كارها - على أن تثوب بهيجة إلى رشدها، أن تقول له يوماً «حسبنا لعباً وهلم إلى عروسك» ولكنه لم يجد لأمله صدى في نفسها، كانت تواظب على الزيارة ليلة بعد أخرى، وما تزداد إلا إغراقاً ونهالكا، وشعر بأنها تمتلئ مع الزمن إيماناً بحقها عليه كأنه بات محور حياتها وملك يمينها.

أجل! لم تكن تنظر إلى الأمر بعين الاستهانة أو اللهو، وإلى هذا تكشف نفسها له عن خفة وطيش ونزق أقنعتة جميعاً بأن سلوكها الشاذ معه في أول مقابلة لم يكن أمراً مستغرباً، فاستهان بها وازدراها وتضخمت عيوبها في عينيه الزاريتين حتى ضاق بها كل الضيق وصمم على التخلص منها في أول فرصه تسنح، وإن حرص على تجنب الفظاظة أن تبعثر العراقيل في طريق مريم. قال لها مرة:

- ألا تتساءل مريم عن سر اختفائي؟

فقالت وهي تطمئنه بحركة من رأسها:

- إنها على بينة من معارضة أسرتك.

فقال بعد تردد:

- أصارحك بأننا كنا نتحدث أحياناً فوق السطح، وإنى رددت لها

مرات بأننى مصمم على الزواج منها مهما يكن من معارضة المعارضين.

فحدجته بنظرة نافذة، وهي تتساءل:

- ماذا تريد؟

قال متظاهراً بالبراءة:

- أريد أن أقول إنها سمعت منى ذلك التوكيد، وأنها علمت بعد ذلك بزيارتى لك، فينبغى أن تقتنع بسبب وجيه لاختفائى! . . .
فقلت بغير مبالاة أدهشته :

- لن يضيرها ألا تقتنع، فليس كل كلام بمفض إلى خطبة ولا كل خطبة بمفضية إلى زواج، إنها تعلم علم اليقين . . .
ثم بصوت منخفض :

- ولن يضيرها أن تفقدك، إنها شابة فى عز جمالها، ولن تعدم خاطباً اليوم أو غداً! . . .

كانها تعتذر عن أنانيتها، أو تلمح إلى أنها هى - لا ابنتها - التى يضيرها فقده، فلم يزه قولها إلا ضيقاً ومللاً، إلى أنه أخذ يتوجس خيفة من معاشرة امرأة تكبره بعشرين عاماً، متأثراً بما يتردد بين العامة من أن مخادنة الكهلات تذبل الشبان، حتى شحنت ساعات اللقاء - من ناحيته - بالتوتر والحذر فمقتها مقتاً . . . وإنه لعلى ذاك إذ صادف مريم يوماً فى السكة الجديدة، فتقدم منها دون تردد، وسلم عليها، وسار إلى جانبها كأنه من ذوى قرباها، كانت قلقة عابسة، فأخبرها بأنه كان يقنع والده بالموافقة حتى ظفر بها، وأنه يعد مسكنه بقصر الشوق ليكون صالحاً لهما، واعتذر عن طول غيبته بكثرة مشاغله، ثم قال لها: «أخبرى والدتك بأننى سأجىء غداً لمقابلتها للاتفاق على عقد القران!» ومضى سعيداً بانتهاز الفرصة التى سنحت على غير ميعاد، غير عابئ - فى غمرة السعادة - بما سيكون موقف بهيجة منه . وفى مساء ذلك اليوم جاءت بهيجة فى ميعادها إلى قصر الشوق، ولكنها جاءت هذه المرة منفعة كسيرة النفس، بادرته هاتفة قبل أن ترفع برقعها:
- بعتنى غيلة وغدرا . . .

ثم انحطت على الفراش، وهى تنزع برقعها فى نرفزة، وتقول:

- لم يطف بخاطري أنك تضمر لى هذا الغدر كله ، ولكنك جبان
غادر كسائر الرجال . .

قال ياسين برقة المعتذر :

- ليس الأمر كما تتصورين ، الحق أنى قابلتها صدفة . .

فصاحت بوجه مكفهر :

- كذاب ! كذاب ! وحق من هو قادر على أن يرينى فيك ما
أشتهى . هل تظننى أصدقك ما حييت بعد ما كان (ثم وهى تحاكيه
محاكاة كاريكاتورية) الحق أنى قابلتها صدفة أى صدفة يا عمر؟ !
وهبها صدفة حقاً ، فلم كلمتها فى الطريق أمام الرائح والغادى؟
اليس هذا فعل الغادر السيئ النية؟ (ثم وهى تعود إلى المحاكاة
الكاريكاتورية) الحق أنى قابلتها صدفة . . !

فقال فى شىء من الارتباك :

- وجدتني معها فجأة - وجها لوجه - فامتدت يدي بالسلام عليها ! ما
كان بوسعى تجاهلها بعد ما كان من تحدثنا فوق السطح .

فصاحت به بوجه مصفر من الغضب :

- فامتدت يدي بالسلام عليها ! اليد لا تمتد إلا إذا مدها صاحبها ،
قطعت اليد وصاحبها ، قل إنك مددت يدك إليها لتتخلص
منى . .

- لم يكن من السلام بد ، أنا إنسان وفى وجهى دم !

- دم؟ ! أين هو ذاك؟ دم يلطشك يا غادر يا بن الغادر . .

ثم بعد أن ازدردت ريقها :

- ووعدك إياها بالمجيء للاتفاق على عقد القران ، هل أفلت منك
أيضاً كما أفلتت يدك؟ . . تكلم ياسى دم . .

قال بهدوء عجيب :

- إن كل الحى يعلم الآن بآنى هجرت بيت أبى لآنزواج من ابنتك ، فلم يكن من المستطاع تجاهل ذلك وأنا أحدثها . .

فصاحت بحدة :

- كان بوسعك أن تتحلل من الأعذار ما تشاء لو كانت بك رغبة إلى ذلك ، لست ممن يعيبهم الكذب ، ولكنك أردت التخلص منى ، هذه هى الحقيقة . .

قال وهو يتحاشى نظرتها :

- ربنا يعلم بحسن نيتى !

فحدجته بنظرة طويلة ، ثم سأله فى تحد :

- أتعنى أنك تورطت فى وعدك لها على غير رغبة منك ؟

أدرك خطورة التسليم بذلك ، فغض بصره ولاذ بالصمت ، فقالت وهى تزفر من الغيظ :

- أرايت أنك كذاب كما قلت لك ؟

ثم صارخة :

- أرايت ؟! أرايت يا غادر يا بن الغادر ؟!

قال بعد تردد :

- إن سرا لا يمكن أن يخفى إلى الأبد ، تصورى ماذا يقول الناس لو كشفوا سر علاقتنا ، بل تصورى ماذا تقول مريم !

فصرفت بأسنانها من الحنق ، وقالت :

- يا لك من خنزير ! لم لم تذكر هذه الاعتبارات يوم وقفت أمامى

سائل اللعاب كالكلب ؟ آه يا جنس الرجال ، جهنم الحمراء عقوبة تافهة لكم !

ابتسم خفيفًا، وكان أوشك أن يضحك لولا فرملة الجبن، ثم قال
بتودد ورقة :

- لقد قضينا وقتًا طيبًا سوف أذكره دائمًا بكل خير، حسبك
غضبًا واستياء، ما مريم إلا ابتكت، وإنك أول من يروم
سعادتها .

وهي تهز رأسها بتهكم :

- أنت الذى ستسعدنا؟! اسمعى يا حيطان، المسكينة لا تدرى أى
إبليس ستزوج، أنت دائر ابن دائرة، وربنا يكفيها شر ما
وقعت فيه . .

قال بهدوئه الذى التزمه من أول الأمر :

- عند ربنا الصلاح، إنى أرغب رغبة صادقة فى بيت مستقر، وزوجة
بنت حلال!!

قالت هازئة :

- أقطع ذراعى إن صدقت، سوف نرى، لا تظن بأمومنى الظنون،
إن سعادة ابنتى مقدمة عندى على كل اعتبار، ولولا أنك خدعتنى
وغدرت بى ما كان يهمنى أن أهديك إليها على الحذاء!

ساءل ياسين نفسه : ترى هل مرت الأزمة بسلام؟ وانتظر أن تلبس
برقعها وتودعه، ولكنها لم تحرك ساكنًا، ومضى الوقت - وهى
بمجلسها من الفراش، وهو بمجلسه على الكرسي قبالتها - لا يدرى
كيف، ولا متى تنقوض هذه الجلسة الغريبة المتوترة، واسترق النظر
إليها، فوجدها ترنو إلى الأرض كالسارحة على حال من التسليم نزعت
به إلى العطف عليها، هل تعود مرة أخرى إلى المهاترة؟ غير مستبعد!!
ولكنها - فيما يبدو - تفكر فى موقفها الدقيق بينه وبين ابنتها وتنحنى أمام
مقتضياته، وما يدرى إلا وهى تنتزع الملاءة عن نصفها الأعلى وتغمغم

«الجو حار» ثم ترحزحت حتى نهاية الفراش فاستندت إلى شباكه، ومدت ساقها غير عابئة بالحذاء الذى انغرز كعباه فى طيات اللحاف، ثم واصلت شرودها، ترى: ألا يزال لديها ما تقول؟ سألتها بلهجة بالغ فى رقتها:

- هل تسمحين لى بأن أزورك غدا..؟

تجاهلت سؤاله دقيقة أو نحوها، ثم حدجته بنظرة كاللعنة، وقالت:

- على الرحب والسعة يا بن القديمة!

ابتسم قانعاً وهو يشعر بنظراتها تلهب وجهه، وعادت هى تقول بعد هنيهة:

- لا تظننى بلهاء، كنت موطنة النفس على توقع هذه النهاية عاجلاً أو آجلاً، ولولا أنك تعجلتها بطريقة.. (ثم بتسليم وازدراء معا).. ما علينا..

لم يصدقها، ولكنه تظاهر بتصديقها، ومضى يقول: إنه كان واثقاً من ذلك، وأنه يرجو أن تعفو عنه وتشمله برضاها، ولكنها لم تعن بالإصغاء إليه، وترحزحت - مرة أخرى - إلى حافة الفراش، فطرحت ساقها على الأرض، وقامت فأخذت تحبك ملاءتها، وهى تقول: «أستودعك الله».. فقام صامتا وتقدمها إلى الباب وفتحه، ثم تقدمها مرة أخرى إلى الخارج، وما يدرى إلا وصفعة تهوى على قفاه، على حين مرقت المرأة من جانبه إلى السلم وتركته وراءها كالذاهل وكفه منطرحاً على موضع الصفعة، التفتت نحوه ويدها على الدرايزين، وقالت:

تعيش وتأخذ غيرها، أذيتنى أكثر من هذا، ألا يحق لى أن أشفى غليلي ولو بصفعة يا بن الكلب..؟!!

- يا سيد أحمد لا تؤاخذنى إذا صارحتك بأنك تبذر نقودك هذه الأيام بلا حساب . .

قال جميل الحمزاوى ذلك بلهجة جمعت بين أدب المستخدم وإدلال الصديق . وكان الرجل لا يزال قوى البنية جيد الصحة على بلوغه السابعة والخمسين من عمره ، أما رأسه فقد رصعه المشيب ، ولم تؤثر السنون فى نشاطه شيئاً فلم يزل يومه ينقضى على حركة دائبة فى خدمة الدكان وعملائه كعهده منذ التحق به على أيام منشئه الأول . وقد اكتسب مع طول العهد حقوقاً ثابتة واحتراماً جديراً بنشاطه وأمانته ، فنزل من نفس أحمد عبد الجواد منزلة الصديق ، ولم يكن عطف الرجل عليه الذى تمثل أخيراً فى معاونته على إلحاق ابنه فؤاد بمدرسة الحقوق إلا مضاعفاً لإخلاصه وموجباً عليه مصارحته عندما تجب المصارحة لدفع ضرر أو تحقيق منفعة . على أن أحمد قال بلهجة مطمئنة ، ولعله كان يشير إلى الرواج الذى لم تزل تشمل السوق بسكرته :

- الحال معدن ، والحمد لله . .

فقال جميل الحمزاوى باسماء :

- ربنا يزيد وبارك ، غير أنى لا أزال أكرر القول عليك بأنك لو كنت اتخذت من التجار خلقهم كما اتخذت حرفتهم ، لكنت الآن من كبار الأغنياء .

ابتسم أحمد ابتسامة الرضى والقناعة وهو يهز منكبيه استهانة . ربح كثيراً وأنفق كثيراً ، فكيف يأسف على ما جنى من لذات العيش ؟ لم يفقد

يومًا حاسة التوازن بين دخله ومنصرفه، ولم يخل رصيده من الستر، وقد تزوجت عائشة وتزوجت خديجة، وطرق كمال باب المرحلة النهائية من حياته الدراسية، فماذا عليه لو تمتع بعد ذلك بطيبات الحياة؟ على أن الحمزاوى لم يعد الحق فى ملاحظته على تذييره. فالحق أنه يبدو - هذه الأيام - أبعد ما يكون عن الاعتدال والقصد، تشعبت وجوه نفقاته: فالهدايا تستنزف مالا لا يُستهان به، والعوامة تستحلب دسمه، ومحظيته تستأديه القرايين، وفى الجملة فإن زنوبة تدفعه إلى الإسراف دفعًا، وهو من ناحيته يدفع بلا مقاومة تذكر، لم يكن كذلك فى الأيام الخالية، حقًا كان ينفق عن سعة!! ولكن امرأة لم تستطع أن تخرجه عن حد الاعتدال أو تضطره إلى ركوب الإسراف. كان بالأمس مستشعرا قوته، ولم يكن يبالي كثيرًا أن تجاب كل مطالبه الحبيبة، ولم يكن يبالي إن تدلت عليه أن يتدلل عليها تياها بفتوته وفحولته. اليوم أذل حرصه على حبيبته عنقه فهان عليه الغالى، وكأنه لم يعد يروم من مطلب فى هذه الحياة وراء استبقاء مودتها واستمالة قلبها، ويا لها من مودة متعززة، ويا له من قلب عصي!! ولم يكن فى واقع حاله ليغيب عن فطنته، شعر به شعور الألم والحزن، وذكر به أيام عزته فى لهفة وأسى وإن لم يقر بأنها ذهبت وتولت، ولكنه لم يحرك أصبعًا للمقاومة الجدية ولم يكن ذلك فى طوقه! وقال مخاطبًا جميل الحمزاوى فيما يشبه السخرية:

- لعله من الظلم أن تعدنى تاجرًا!! .. (ثم فى تسليم). . الله هو الغنى . .

وجاء نفر من الناس فشغل بهم الحمزاوى، وما كاد أحمد يخلو إلى نفسه حتى رأى قادمًا يزحم الباب على سعتة ويتجه إليه متبخترا. كانت مفاجأة وذكر لتوه أنه لم تقع عيناه على القادم منذ أربع سنوات أو يزيد، ثم نهض مرحبًا مدفوعًا بأدبه وحده، وهو يقول:

- أهلاً وسهلاً، بجارتنا المكرمة . .

فمدت له أم مريم يدها ملفوفة في طرف ملاءتها قائلة :

- أهلاً بك يا سيد أحمد . .

ودعاها إلى الجلوس فجلست على الكرسي الذى جلست عليه يوماً يُعتبر الآن من التاريخ، ثم قعد وهو يتساءل . . لم يكن رآها منذ جاءت لمقابلته فى هذا الدكان بعد مرور عام على وفاة فهمى محاولة استدراجه إلى بيتها مرة أخرى . عجب يومئذ لجرأتها - ولم يكن أفاق من الحزن - فقابلها بجفاء وشيئها ببرود . ترى ما الذى جاء بها اليوم؟! وألقى عليها نظرة شاملة فوجدها كالعهد بها: جسامة وأناقة، يفوح من أعطافها الطيب، وتتألق عيناها فوق البرقع . غير أن تبرجها لم يجد فى إخفاء دبيب الزمن، فلاحت أمارات الكبر تحت عينيها، وذكر بها جليلة وزبيدة، شد ما يستبسل أولئك النسوة فى معركة الحياة والشباب، أما أمينة فسرعان ما تهاوت فريسة للحزن والذبول! . . وقربت بهيجة الكرسي من المكتب، ثم قالت بصوت خافت :

- لا تؤاخذنى يا سى السيد على هذه الزيارة، فللضرورة أحكام . .

فقال أحمد - من فوره - وقد كان يبدو رزيناً جاداً :

- أهلاً وسهلاً، إن زيارتك تشريف لنا وتكريم . .

فقالت باسمه، وقد غمت نبرات صوتها على الامتنان :

- تشكر، والحمد لله على أنى وجدتك بخير وعافية!!

فشكرها بدوره، ودعا لها بالصحة والعافية، فعادت تشكر له شكره ودعاءه وتدعو له من جديد، ثم سكنت لحظات، وقالت باهتمام :

- جئتك لأمر هام، قيل لى : إنه بلغ إليك فى حينه، وإنه نال

موافقتك، وأعنى طلب ياسين أفندى ليد ابنتى مريم، فهل صحيح

ما قيل لى؟ هذا ما جئت من أجل التحقق منه . .

خفض أحمد عبد الجواد عينيه أن تقرأ فيهما الحق الذي اشتعلت به جوانحه وهو يتابع كلامها، ولم يخدع بتظاهرها بالاهتمام بموافقته، فلتحاول خداع غيره ممن يجهلون خباياه، أما هو فيعلم علم اليقين أن موافقته وعدمها عندها سواء، بل ألم تدرك ما وراء تخلفه عن زيارتها مع ابنه؟ . . ولكنها جاءت لتحمله على الإقرار بالموافقة، وربما لغرض آخر لا يلبث أن يستبينه، رفع إليها عينين هادئتين، وقال :

- حدثني ياسين عن رغبته فدعوت له بالتوفيق، كانت مريم ولم تزل ابنتنا . .

- الله يبارك لى فى عمرك يا سى السيد . هذه المصاهرة ستشرفنا بين الناس . .

- أشكر حسن ظنك . .

فقال بحماس :

- ويسرنى أن أصارك بأننى أجلات إعلان موافقتى حتى أتأكد من موافقتك أنت!

قارحة! لعلها أعلنت موافقتها حتى قبل أن ترى ياسين!

- أكرر الشكر، يا ست أم مريم . .

- لذلك كان أول ما قلت لياسين أفندى، دعنى أتأكد أولاً من موافقة والدك، فإن كل شىء يهون إلا سخطه!

الله . . الله! . لم تكذب تسرق البغل حتى نشطت لرمى الأحابيل حول صاحبه . .

- ليس بمستغرب أن يصدر عنك ذلك القول النبيل!

فواصلت حديثها فى حماس مظفر، قائلة :

- إنك يا سى السيد رجلنا، وخير من يفخر به حيناً كله!

مكر النساء ، ودلال النساء ، ما أضيقه بهما معاً ، هل خطر لها ببال
أنه يتمرغ فى التراب مناشدة لعطف عوادة زهد فيها السكارى؟!
قال فى تواضع :
- أستغفر الله ..

فقالت بلهجة حزينة علا بها صوتها قليلاً ، حتى خاف أن يبلغ
الموجودين بالناحية الأخرى من الدكان ، فحرك رأسه نحوهم محذراً :
- لشد ما حزنت عندما أنبأنى بأنه هجر بيت والده ..
فبادرها قائلاً وقد تجهم وجهه :

- الحق أن سلوكه أغضبنى . فعجبت كيف تأتى له أن يرتكب تلك
الحماقة ، كان ينبغى أن يستشيرنى أولاً ، ولكنه حمل متاعه إلى
قصر الشوق ، ثم جاء يعتذر إلى!! عبث صبيانى يا ست أم مريم .
وقد وبخته ولم أكثرث لخلافه المزعوم مع أمينة . ذلك تعلل سخيف
حاول به أن يبرر حماقة أسخف منه!!

- هذا ما قلته له وحياتك ، ولكن الشيطان شاطر ، وقلت له أيضاً :
إن ست أمينة معذورة ، ربنا يصبرها على ما ابتلاها به .. وعلى أى
حال فمثلك يرجى منه الصفح يا سى السيد ..

فأشار بيده إشارة قصيرة ، كأنما تقول «دعينا من هذا» فقالت متوددة :
- لكننى لا أقنع إلا بالصفح والرضى ..

أف ، ليته يستطيع أن يصارحها بمدى اشمئزازه منهم جميعاً ، هى
وابنتها والبغل الكبير ..

- ياسين ابنى على كل حال ، وفقه الله إلى الهداية ..
أملت رأسها إلى الورا قليلاً ، وأبقته على وضعه ملياً ريثما تستمتع
بلذة النجاح والارتياح ، ثم عادت تقول فى نبرات لطيفة :
- ربنا يجبر خاطرك يا سيد أحمد ، ساءلت نفسى وأنا قادمة إليك ؛

ترى : أيكسفى وىردنى خائبة؁ أم يعامل جارتة القديمة بما تعود أن يعاملها به فى الأيام الخالية؟ الحمد لله فأنت دائما عند حسن الظن بك؁ مد الله فى عمرك ومتعك بالصحة والعافىة!!

تظن أنها ضحككت على ذقنه؁ يحق لها هذا؁ ما أنت إلا أب خائب مات خير أبناؤه؁ وخاب الإبن الثانى؁ وركب الثالث رأسه؁ كل هذا على رغمى يا قارحة..

- إنى عاجز عن شكرك..

وهى تخفض رأسها:

- مهما قلت فىك فهو دون ما تستحق؁ طالما أقررت لك به فىما مضى..

آه؁ ذلك الماضى! أوصدى ذلك الباب و حياة البغل الذى جئت تسجلين حق ملكيته! . وبسط راحته على صدره آية على الشكر؁ فراحت تقول بلهجة حاملة:

- كيف لا؁ ألم أعزك إعزازاً لم يحظ به إنسان قبلك ولا بعدك؟

هذا هو المطلوب؁ كيف لم يفطن إليه من أول لحظة؟! لم تجيئى من أجل ياسين ولا من أجل مريم؁ ولكن من أجلى أنا؁ بل من أجل نفسك! أنت أنت لم يغير الزمن منك شيئاً؁ إلا شبابك؁ ولكن رويدك!! هل تستطيعين أن تردى الأمس الذى ولى؟ مرقولها دون تعليق مكتفياً بابتسامة شكر؁ فابتسمت ابتسامة عريضة كشفت عن أسنانها من ثقب البرقع؁ وقالت فىما يشبه العتاب:

- يىدو أنك لا تذكر شيئاً..

أراد أن يعتذر عن فتوره دون أن يمس إحساسها فقال:

- لم يبق فى الرأس عقل أذكر به..

فهتفت بإشفاق:

- لشد ما أغرقت في الحزن، الحياة لا تحتل هذا ولا تسيغه، وأنت -
ولا تؤاخذني على ما سأقول - رجل ألف الحياة المليحة، فالحزن إذا
أثر في الإنسان العادي قيراطا يؤثر فيك أربعة وعشرين قيراطاً .

موعظة يراد بها منفعة الواعظ، ليت أن ياسين كان يعتصم بمثل
شعبي، لماذا أتقزز منك؟ أنت دون شك أطوع من زنوبة وأقل نفقة بما لا
يقاس، ولكن يبدو أن قلبي أصبح مولعاً بالمتاعب . قال بدهاء ومسكنة
معاً:

- من أين للقلب المحزون أن يضحك؟

اندفعت تقول بحماس وكأنها شامت برق أمل:

- اضحك يضحك قلبك، لا تنتظر حتى يضحك هو، هيهات أن
يضحك وحده بعد ما عانى من طول الوجوم، عد إلى حياتك
القديمة تعد إليك بهجتها الغافية، ابحث عن مسرات زمانك الأول
وأحبابه، من أدراك أن ليس ثمة قلوب تهفو إليك وتقيم على
عهذك رغم إعراضك الطويل عنها؟

طرب الفؤاد على رغمه وتاه هذا ما ينبغي أن يقال حقاً لأحمد عبد
الجواد، وما كان يسكب في أذنيه على قرع الكئوس في ليالي الطرب،
أين العوادة لتسمع هذا المديح عليها تخفف من غلوائها؟! لكن يردده من
أنت عنه راغب! قال بصوت لا أثر فيه للطرب:

- ولي ذلك الزمان . .

مال نصفها الأعلى إلى الوراء استنكاراً، وقالت:

- لم تزل شاباً ورب الحسين! . . (ثم وهي تبسم في حياء) جمل له
طلعة البدر! لم يول زمانك ولن يولي أبداً، لا تكبر نفسك قبل
الأوان، أو دع الحكم على ذلك للآخرين فلعلهم يرونك بغير العين
التي ترى بها نفسك . .

قال بأدب ، ولكن بلهجة تعبر بلطف عن رغبته فى إنهاء الحديث :

- اطمئنى يا ست أم مريم إلى أننى لا أقتل نفسى حزناً ، فإننى أتسلى عن الهم بشتى ضروب التسلية . .

تساءلت وقد فتر حماسها قليلاً :

- أيكفى هذا للترفيه عن رجل مثلك ؟

فقال بقناعة :

- لا تتطلع النفس إلى شىء وراءه . .

بدا أنه تنغص صفوها ، وإن تظاهرت بالارتياح وهى تقول :

- أحمد الله على أننى وجدتك على ما أحب لك من راحة البال وصفائه . .

لم يعد ثمة قول يقال ، فنهضت وهى تمد له يدها ملفوفة فى طرف الملاءة ، فتصافحا ، ثم قالت وهى تهم بالذهاب :

- فتك بعافية . .

وذهبت وهى تحول عنه عينين لم يجد التصنع فى إخفاء ما غشيهما من خيبة . .

١٤

طوت سوارس شارع الحسينية ، ثم أخذ جواداها المهزولان يخبان فوق أسفلت العباسية والسائق يلهمهما بسوطه الطويل . كان كمال جالساً فى مقدمة العربة على طرف المقعد الطويل فيما يلى السائق ، فأمكنه أن يرى بلفتة من رأسه - فى غير جهد - شارع العباسية ممتداً أمام

عينيه، فى اتساع لا عهد للحى القديم به وطول لا يلوح له منتهى، أرضه مستوية ملساء، وبيوته على الجانبين ضخمة ذوات أفنية رحبية بعضها يزدان بحدائق غناء.

كان يضممر للعباسية إعجاباً كبيراً ويكن لها حبا وإجلالاً يبلغان حد التقديس، أما الإعجاب فمرده إلى نظافتها وهندستها والهدوء المريح المخيم على ربوعها، وكل أولئك سمات لا يعرفها حيّه العتيق الزياط. وأما الحب والإجلال فمرجعهما إلى أنها وطن قلبه ومنزل وحي حبه ومثوى قصر معبودته.

منذ أعوام أربعة وهو يتردد عليها بقلب مرهف وحواس مشحودة حتى حفظها عن ظهر قلب، فحيثما مد بصره ارتد إليه بصورة مألوفة كأنها وجه صديق قديم، وجميع معالمها ومناظرها ودروبها وعدد من أهلها قد اقترن فى ذهنه بأفكار وعواطف وأخيلة أمست - فى جملتها - جوهر حياته ومعقد أحلامه، فحيثما ولى وجهه فثمة مناد يدعو القلب لللسجود.

وأخرج من جيبه خطاباً تلقاه من البريد أول أمس، وكان مرسله حسين شداد ينبئه فيه بعودته - وصديقه حسن سليم وإسماعيل لطيف - من المصيف، ويدعوه إلى مقابلتهم جميعاً فى بيته الذى تسير به سوارس إليه. . . نظر إلى الخطاب بعين حاملة شاكرة وامقة ساجدة عابدة متعبدة، لا لأن مرسله شقيق معبودته فحسب، ولكن لظنه أن الخطاب كان مودعا فى مكان ما بالبيت قبل أن يكتب حسين عليه رسالته، وأنه والحال كذلك غير مستبعد أن تكون عينها الجميلة قد وقعت عليه فى ذهابها أو مجيئها أو أن تكون أناملها قد لمست له سبب أو لآخر أو حتى عفواً، بل حسبه أن يظن أنه كان مودعاً فى نفس المكان الذى يحل فيه جسمها وتعمره روحها كى يستخيل الخطاب إلى رمز قدسى تهفو إليه روحه ويشتاق إليه قلبه. ومضى يقرأ الخطاب للمرة العاشرة حتى وقف عند

هذه الجملة «عدنا إلى القاهرة مساء أول أكتوبر» أى أنها شرفت العاصمة منذ أربعة أيام وهو لا يدري، كيف لم يدرك؟! كيف لم يفتن إلى وجودها سواء بالغريزة أو بالشعور أو بالبصيرة؟! كيف جاز للوحشة التي غشيتها طوال الصيف أن تمد ظلها الثقيل على هذه الأيام الأربعة المباركة؟! هل رانت الكأبة المتواصلة على حساسيته بطبقة من البلادة والجمود؟ على أى حال فالساعة يرف قلبه وتحلق روحه فى أجواء من السمر والسعادة!! الساعة يشرف على الدنيا من ذروة رفيعة تبدو منها معالمها فى هالة من الشفافية والنورانية كأنها أطياف فى دنيا الملائكية!! الساعة يضطرم وجدانه بنشاط الحيوية ونشوة الحبور وسكرة الطرب!! الساعة - أو حتى فى هذه الساعة - يطوف به طائف الألم الذى يلزم مسرة الحب عنده ملازمة الصدى للصوت. قديما كانت تحمله سوارس فى هذا الطريق نفسه وقلبه من الحب خال لم يمس، ماذا كان يجد من مشاعر وآمال وخوف ورجاء؟ لا يذكر حياة ما قبل الحب إلا ذكرى مجردة، ينكرها ما عرف للحب قدره، ويحن إليها كلما نبا به ألم، ولكنها لشدة إحساسه بخاطره كادت تلحق بالأساطير، لذلك بات يؤرخ بالحب حياته، فيقول: كان ذلك قبل الحب «ق.ح»، وحدث ذلك بعد الحب «ب.ح».

وقفت العربية عند الوايلية، فأعاد الخطاب إلى جيبه، وغادرها متجها إلى شارع السرايات وعيناه تتطلعان إلى أول قصر على اليمين فيما يلى صحراء العباسية. بدا القصر بدوريه من الخارج بناء ضخما عالياً، يتصل مقدمه بشارع السرايات وينتهى مؤخره بحديقة رحيبة تراءت رءوس أشجارها العالية من وراء سور رمادى متوسط الارتفاع يحيط بالقصر والحديقة معا ويرسم مستطيلاً هائلاً ممتداً فى الصحراء التي تكتنفه من الجنوب والشرق. كان منظره مطبوعاً على صفحة نفسه، يستأسره جلاله وتفتنه أى فخامته، ويرى فى عظمتة تحية مزجاة عن

جداره بصاحبه ، وتلوح لعينه نوافذ مغلقة وأخرى مرخاة الستائر ، فيلمح فى تحفظها وانطوائها ما يرمز إلى عزة محبوبه وعصمته وامتناعه وغموضه ، وهى معان تؤكدها الحديقة المترامية والصحراء الغارقة فى الأفق ، وتعرض هنا أو هناك نخلة سامقة أو لبلاب متسلق جداراً أو جدائل ياسمين مسترسلة فوق سور فتناوش قلبه بذكرىات انعقدت فوق هاماتها كالثمار تساره بحديث الوجد والألم والعبادة وقد غدت ظلاً للحبيب ونفحة من روحه وانعكاساً للملامحه ، ناشرة بجملتها - وبما عرف من أن باريس كانت لأهل القصر منفى - جواً من الجمال والحلم تواءم مع حبه فى سموه وقداسته وبذخه وتطلعه إلى المجهول .

رأى وهو يقترب من مدخل القصر البواب والطاهى وسائق السيارة جالسين فوق أريكة على كذب من الباب كعادتهم فى العصارى ، فلما بلغ مجلسهم وقف البواب ، وقال له «حسين بك ينتظرك فى الكشك» فدخل مستقبلاً مزيجاً من عرف الفل والقرنفل والورد التى نُضدت أصصها على جانبى السلم المفضى إلى الفراندا الكبيرة التى تطالع القادم على بعد يسير من الباب ، ثم مال يمنة إلى ممر جانبى يفصل القصر عن السور ويسير بينهما حتى مشارف الحديقة فيما يلي الفراندا الخلفية للقصر .

ليس من الهين على قلبه الخفاق أن يمشى فى هذا المحراب الكبير ، ولا أن يطأ أديماً وطئته قدماها من قبل ، إنه يكاد من إجلال يتوقف ، أو يمد يده إلى جدار البيت تبركاً ، كما كان يمدّها إلى ضريح الحسين من قبل أن يعلم أنه لم يكن إلا رمزاً ، ترى : فى أى مكان من القصر يمرح محبوبه الساعة؟ وما عسى أن يفعل إذا طالعت بلفتها الفاتنة؟ ليته يجدها فى الكشك كى تجزى عين عن طول التصبر والتشوق والتسهد!!

ألقي على الحديقة نظرة شاملة حتى سورها الخلفى الذى ترامت وراءه الصحراء ، وكانت الشمس المائلة فوق القصر صوب الشارع تجلو

منها أعالي الأشجار والنخيل وسقائف الياهمين المبطنة للسور من كافة نواحيه، ودوائر الأزهار والورود ومربعاتها وأهلتها تكتنفها ممرات الفسيفساء، ثم سار في ممشى وسيط يفضى إلى كشك قائم وسط الحديقة، وقد تراءى فيه عن بعد حسين شداد، وضيافه: حسن سليم وإسماعيل لطيف جلوساً على كراسى خيزران حول مائدة مستديرة خشبية انتشرت عليها أكواب حول دورق ماء. سمع هتاف ترحيب صدر عن حسين فأذنه بانتباههم إلى مقدمه، وما لبثوا أن قاموا للقاءه فعانقهم واحداً واحداً بعد فراق دام الصيف كله، حمداً لله على السلامة، أنت أوحشتنا جداً، شد ما اسمرت وجوهكم فلا خلاف الآن بينكما وبين إسماعيل، بل أنت بيننا كأوروبى بين ملونين، عما قليل يعود كل شيء إلى أصله، كنا نتساءل لم لا تلوننا شمس القاهرة؟ منذا يجروء على التعرض لشمس القاهرة إلا من رام ضربة شمس! ولكن ما سر هذه السمرة المكتسبة؟. . أذكر أننا تلقينا تفسيراً لهذا فى بعض دروسنا، أجل لعله فى الكيمياء، لقد درسنا الشمس خلال علوم شتى كالجغرافيا الفلكية والكيمياء والطبيعة، ففى أى من أولئك نجد تفسيراً لسمرة المصيف! هذا سؤال متأخر عن أوانه لأننا انتهينا من الدراسة الثانوية! إلينا إذن بأخبار القاهرة، بل عليك أنت أن تحدثنا عن رأس البر، وعلى حسن وإسماعيل أن يحدثانا بعدك عن الإسكندرية، انتظروا فلكل وقت حديثه. .

لم يكن الكشك إلا مظلة خشبية مستديرة تقوم على عمود ضخمة، وأرضه رملية تحديق بها أصص الورد، ويقتصر أثاثه على المائدة الخشبية والكراسى الخيزران، وقد جلسوا وراء المائدة على هيئة نصف دائرة مولين وجوهم شطر الحديقة. بدوا سعداء باللقاء وكان الصيف يفرق بينهم فيما عدا حسن سليم وإسماعيل لطيف اللذين يصيفان عادة فى الإسكندرية، ومضوا يتضاحكون لأقل سبب، وأحياناً لمجرد تبادل

النظر كأنما يجترون ذكريات مزاح ماضية . وكان الأصدقاء الثلاثة يرتدون قمصانا حريرية وبنطلونات رمادية . كمال وحده بدا فى بدلة رصاصية خفيفة ، إذ كان يعتبر رحلة العباسية ذات صفة رسمية على خلاف حيّه الذى يجول فيه مكتفيا بلبس الجاكتة فوق الجلباب . كل شىء من حوله كان يخاطب قلبه فيهزه من الأعماق . هذا الكشك الذى تلقى فيه رسالة الحب ، وهذه الحديقة التى خصت وحدها بسره ، وهؤلاء الأصدقاء الذين يحبهم للصدقة ويحبهم مرة أخرى لأقترانهم بسيرة حبه ، كل شىء يخاطب حبه وقلبه ، يتساءل متى تجيىء؟ وهل يمكن أن تمضى الجلسة دون أن تقع عليها عيناه المشوقتان؟ وعلى سبيل التعويض راح يطيل النظر إلى حسين شداد ما وسعه ذلك ، ولم يكن ينظر إليه بعين الصديق فحسب ، لأن أخوته لمعبودته أضفت عليه سحراً من السحر وسراً من السر ، فبات يكن له - إلى الحب - إكباراً وتقديساً ودهشاً . وكان حسين يشبه شقيقته إلى حد كبير بعينيه السوداوين وقامته الطويلة الرشيقة وشعره السبط العميق السواد ولفتاته وسكناته الجامعة بين السمو واللطافة ، فلم يكن ثمة فارق جوهرى بينهما إلا فى أنفه الأفى الممتلىء وبشرته البيضاء التى غشيتها سمرة المصطاف . ولما كان كمال وحسين وإسماعيل من الناجحين فى امتحان البكالوريا ذلك العام - مع ملاحظة أن الأولين كانا فى السابعة عشرة والأخير فى الحادية والعشرين - فقد تحدثوا عن الامتحان وما تفرع عنه من شئون المستقبل ، وكان البادئ بالحديث إسماعيل لطيف ، وكان إذا تحدث تطاول بعنقه كأنما ليدارى قصر قامته وضآلة حجمه - على الأقل بالقياس إلى أصدقائه الثلاثة - غير أنه كان مدمج الخلق مفتول العضلات ، وفى نظرة عينيه الضيقتين الحادة الساخرة وأنفه المدبب الحاد وحاجبيه الكثيفين وفمه العريض القوى ما يكفى لتحذير من تحدثه نفسه بالتهجم عليه . قال :

- نتيجتنا هذا العام مائة فى المائة ، لم يحصل شىء كهذا من قبل -
على الأقل - فيما يخصنى أنا . كان ينبغى أن أكون فى السنة النهائية
من التعليم العالى كحسن الذى دخل معى مدرسة فؤاد الأول فى
يوم واحد وسن واحدة ، وقد سألتنى أبى ساخرًا لما رأى رقمى فى
الجريدة بين الناجحين « ترى هل يمد الله فى عمري حتى أراك من
حملة الدبلوم؟! » .

قال حسين شداد :

- لست متأخرًا إلى الحد الذى يرر يأس والدك . .

قال إسماعيل ساخرًا :

- صدقت فقضاء عامين فى كل فصل ليس بالشىء الكثير . .

ثم موجهًا الخطاب إلى حسن سليم :

- أما أنت فلعلك مشغول منذ الآن بما بعد الليسانس ؟

كان حسن سليم بالسنة النهائية بمدرسة الحقوق ، فأدرك أن إسماعيل
لطيف يدعوه إلى إعلان رأيه فيما ينويه عقب الفراغ من الدراسة ، غير
أن حسين شداد سبقه إلى الرد على إسماعيل قائلاً :

- لا داعى لأن يشغل نفسه ، سوف يحصل حقًا على وظيفة فى

النيابة أو فى السلك السياسى !

خرج حسن سليم عن هدوئه المتسم بالكبرياء ، ولاح فى وجهه
الحسن الدقيق القسمات التحفز للنضال ، فتساءل متحدثًا :

- من أين لى بما يجعلنى أطمئن إلى رأيك؟! !

وكان يعتز باجتهاده وذكائه ويريد الجميع أن يقرؤا له بهما ، ولم يكن
أحد يمارى فى ذلك ، ولكن لم يكن أحد كذلك ينسى أنه نجل سليم بك
صبرى المستشار بمحكمة الاستئناف ، وأن تمتعه بهذه الأبوة ميزة يفوق

أثرها كل ما للذكاء والاجتهاد من أثر، بيد أن حسين شداد تحاشي ما يهيجه، فقال:

- فى تفوقك الضمان الذى تسأل عنه . .

ولم يتركه إسماعيل لطيف كى يستمتع بإطراء حسين له، فقال:

- وهناك والدك، وهو فيما أعتقد أهم من التفوق بكثير . . !

ولكن حسن قابل الهجوم باستماتة غير متوقعة، إما لأنه ملّ مناخزة إسماعيل الذى لم يكذب يفترق عنه يوماً طيلة اصطيفاهما بالإسكندرية، وإما لأنه بات يرى فى صاحبه مشاكساً «محترفاً» لا يصلح أن يأخذ أقواله دائماً مأخذ الجد. على أن رابطة الأصدقاء لم تكن تخلو من نقار جدلى يبلغ أحياناً حد الشغب دون أن يوهن من قوتها. تساءل حسن سليم وهو يرمق إسماعيل متهكماً:

- وأنت كيف انتهى سعى الساعين لك؟

ضحك إسماعيل ضحكة عالية، كشف عن أسنانه الحادة المصفرة من أثر التدخين الذى كان من أوائل رواده من تلاميذ الثانوى، وقال:

- نتيجة لا تسر، لم تقبلنى الطب ولا الهندسة لنقص المجموع، فلم يبق أمامى إلا التجارة والزراعة، فاخترت أولاهما . .

لاحظ كمال فى تأثر كيف تجاهل صاحبه مدرسة المعلمين كأنما ليست فى الحسبان، غير أنه وجد فى إثارة لها، مع قدرته على دخول الحقوق التى لا نزاع فى مكانتها، وجد فى ذلك مثالية تعزى بها على حزنه ووحشته. ضحك حسين شداد ضحكته اللطيفة التى تجلو جمال ثغره وعينه، وقال:

- أه لو اخترت الزراعة! تصوروا إسماعيل فى حقل يقضى عمره بين الفلاحين . . !

قال إسماعيل بقناعة :

- لا علىّ من هذا لو كان الحقل فى عماد الدين . .

عند ذاك نظر كمال إلى حسين شداد متسائلاً :

- وأنت؟

مد حسين بصره إلى بعيد متفكراً قبل أن يجيب، فأتاح لكمال فرصة كى يتوسمه، شد ما تفتنه فكرة أنه شقيقها، أى أن بينهما ما قام يوماً بينه وبين خديجة وعائشة من مخالطة وألفة، تصور يعز عليه أن يعتنقه، لكنه يجالسها ويحادثها وينفرد بها ويلمسها، يلمسها؟! ويؤاكلها! ترى كيف تتناول طعامها؟ هل تتمطق؟ هل تأكل الملوخية والمدمس مثلاً؟ ما أبعد هذا عن التصور أيضاً! المهم أنه شقيقها، وأنه - كمال - يلمس يده التى تلمس يدها، لو أتيح له أن يشم أنفاسه التى تماثل ولا شك أنفاسها؟! أجاب حسين شداد :

- مدرسة الحقوق بصفة مؤقتة . .

ألا يحتمل أن يتخذ من فؤاد جميل الحمزاوى صديقاً؟ لم لا؟ لا شك أن الحقوق مدرسة جليلة الشأن حقاً ما دام حسين سيلتحق بها، من المجازفة أن تحاول إقناع الناس بقيمة مثال معنوى . .

قال إسماعيل لطيف ساخراً :

- لم أكن أعلم أن من الطلاب من يلتحق بمدرسة ما بصفة مؤقتة! حدثنا عن هذا من فضلك . .

قال حسين شداد جاداً :

- جميع المدارس عندى سواء، ليس فى هذه المدرسة أو تلك ما يجذبنى إليها، حقاً أريد أن أتعلم، ولكنى لا أريد أن أعمل، ولن أجد فى مدرسة من مدارسنا ما أبتغيه من علم لا يراد به عمل، ولكنى لم أظفر فى بيتنا بشخص يوافقنى على رأى، ولا أرى مناصاً من أن أجاريهم إلى حد ما، وساء لثهم أى مدرسة

تختارون؟ فأجاب أبى : وهل يوجد غير الحقوق؟ فقلت إذن لتكن الحقوق!

إسماعيل لطيف محاكياً لهجته وحر كاته :
- بصفة مؤقتة . .

ضحكٌ عام ، ثم استطرد حسين شداد قائلاً :

- أجل بصفة مؤقتة أيها المشاكس ، فمن غير المستبعد إذا سارت الأمور على ما أشتهى أن أقطع دراستى المحلية كى أسافر إلى فرنسا ولو بحجة دراسة القانون فى معاهدها ، وهناك أنهل من منابع الثقافات بغير قيد ، وهنالك أفكر وأرى وأسمع . .

إسماعيل لطيف مصرراً على محاكاة لهجته وحر كاته ، وكأنما يتم ما ظن أن الآخر سكت عنه :

- وأذوق وألمس وأشم . . !

واصل حسين شداد حديثه بعد فاصل ضحك قائلاً :

- ثق بأن مقصدى غير ما نحلم به !

صدقه كمال بكل قلبه بلا حاجة إلى دليل لا لأنه يكرمه عن شبهة الكذب فحسب ، ولكن لأنه يؤمن بأن الحياة التى يتطلع إلى الاستمتاع بها فى فرنسا خليقة «وحدها» باستهواء النفوس ، هيهات أن يدرك إسماعيل هذه الحقيقة على بساطتها ، لا هو ولا أضرابه ممن لا يؤمنون إلا بالأرقام والمظاهر . طالما أثار حسين أحلامه ، هذا حلم منها يمتاز بالرحابة والجمال ، حلم عامر بثمار الروح والفكر والسمع والبصر !! كم طاف بى فى نومى أو فى يقظتى ، ثم بعد شدة التطلع وطول السعى انتهى المطاف بى وبه إلى مدرسة المعلمين !! وسأل حسين :

- أتعنى حقاً ما قلت من أنك لا تريد أن تعمل ؟!

فقال حسين شداد وفى عينيه السوداوين الجميلتين نظرة حاملة :

- لن أكون مضارباً في البورصة كأبى ؛ لأنى لا أطيق حياة : العمل المتواصل جوهرها والمال غايتها، ولن أكون موظفًا، لأن الوظيفة عبودية فى سبيل الرزق، ورزقى موفور. أريد أن أحيأ فى الدنيا سائحًا، أقرأ وأرى وأسمع وأفكر، وأنتقل من جبل إلى سهل ومن سهل إلى جبل ..

قال حسن سليم معترضًا، وكان يرمقه طيلة الحديث بنظرة استخفاف داراها بتحفظه الأرستقراطى :

- ليست الوظيفة وسيلة إلى الرزق دائماً، إنى مثلاً فى غنى عن السعى إلى الرزق، ولكن يهمنى بلا شك أن أشغل وظيفة سامية، فإنه يجب على الإنسان أن يعمل، وإن العمل السامى هدف يراد لذاته .

وقال إسماعيل لطيف، مصدقاً على قول حسن :

- هذا حق، الأعمال القضائية والدبلوماسية وظائف يتمناها أغنى الأغنياء (ثم ملتفتاً إلى حسين شداد) لم لا تختار لنفسك وظيفة من هذه الوظائف وهى فى حدود طاقتك ... ؟
وقال كمال مخاطباً حسين أيضاً :

- السلك السياسى حقيق بأن يهيج لك العمل السامى والسياحى معا!

وحسن سليم قال بلهجة ذات معنى :

- إنه باب ضيق!

فقال حسين شداد :

- للسلك السياسى مزايا رائعة بلا ريب، إلا أنه فى الغالب وظيفة شرفية فلا يتعارض كثيراً مع رغبتى عن عبودية العمل، وهو سياحة و فراغ يتيحان لى ما أحب من الحياة الروحية والجمالية، ولكننى لا

أظنتى بالغه، لا لأنه باب ضيق كما قال حسن، ولكن لأنى أشك
فى أنى سأواصل التعليم النظامى حتى نهايته . .
إسماعيل لطيف، وهو يضحك متخابثاً:

- يغلب على ظنى أنك تريد فرنسا لأمر لا شأن لها بالثقافة، وحسناً
تفعل . . ضحك حسين شداد وهو يهز رأسه سلباً، ثم قال:

- كلا أنت تفكر بأهوائك، إن لرغبتى عن التعليم المدرسى أسباباً
أخرى، أولها: أننى غير مكترث لدراسة القانون، ثانياً: أنه لا
توجد مدرسة يمكن أن تمدنى بما أريد الإلمام به من شتى المعارف
والفنون، كالمرح والتصوير والموسيقى والفلسفة . ما من مدرسة
إلا وستشحن رأسك بالتراب كى تعثر فيه - إن عثرت - على ذرات
من التبر، فى باريس يتاح لك أن تشهد محاضرات فى شتى الفنون
والمعارف دون تقيد بنظام أو امتحان، إلى ما يتهيأ لك من الحياة
السامية الجميلة . .

ثم مستطردا بصوت خافت، وكأنه يخاطب نفسه:
- وربما تزوجت هناك كى أقضى العمر سائحاً فى عالمى الواقع
والخيال!

لم يد على وجه حسن سليم أنه يولى الحديث اهتماماً جدياً، أما
إسماعيل لطيف فرفع حاجبيه الكثيفين، تاركاً عينيه تُفحصان عما
يضطرب فى صدره من مكر وسخرية . . كمال وحده الذى بدا متأثراً
متحمساً، إنه يستشرف نفس الآمال مع شىء من تعديل لا يمس
الجوهر، لا تهمه السياحة ولا الزواج فى فرنسا، ولكن من له بهذه
المعارف التى لا تتقيد بنظام أو امتحان؟ إنها أجدى بلا جدال من التراب
الذى سي شحن به رأسه فى المعلمين كى يفوز فى النهاية بذرات من التبر،
باريس؟! غدت حلمًا جميلاً منذ علم بأنها احتضنت عهداً غضا من عمر

معبودته، لا تزال تدعو حسين بسحرها، وتفتن خياله هو بشتى
وعودها، كيف الشفاء من لوعة الآمال؟

قال بعد تردد وإشفاق :

- يخیل إلى أن أقرب المدارس فى مصر إلى تحقیق ولو جزء يسیر من
رغبتك هى المعلمین العلیا!

تحول إسماعیل لطیف نحوه فیما یشبه القلق، وسأله :

- ماذا اخترت أنت؟ لا تقل مدرسة المعلمین! رباه، نسیت أن بك
لوثة قرية الشبه بلوثة حسین!

ابتسم کمال ابتسامة عریضة كشفت عن مرونة منخریه العظیمین،
وقال :

- التحقت بالمعلمین للسبب الذى ذكرت!..

فنظر حسین شداد إليه باهتمام، ثم قال باسمًا :

- لا شک أن میولک الثقافیة أتعبتک کثیراً قبل أن یقع اختیارک..

فقال له إسماعیل لطیف بلهجة نمت عن الاتهام :

- إنک مسئول لدرجة کبيرة عن توكید میوله هذه، بل الحق أنك
تتکلم کثیراً وتقرأ قليلاً، أما المسکین فیأخذ الأمر مأخذ الجد ویقرأ
لحد العمی، انظر إلى تأثیرک السیئ فیہ کیف دفع به إلى المعلمین
نهاية الأمر!..

استطرد حسین حدیثه متجاهلاً مقاطعة إسماعیل :

- هل ثبت لديك أن فى المعلمین ما تود؟!!

قال کمال بحماس، وقد انشرح صدره بأول صوت يتساءل عن
مدرسته بلا احتقار أو استنکار :

- حسبى أن تناح لى دراسة الإنجلیزیه لأتخذ منها وسیلة ناجعة:

للاطلاع غير المحدود، وإلى هذا فهناك فرصة طيبة - فيما أظن -
لدراسة التاريخ والتربية وعلم النفس . .

فكر حسين شداد قليلاً، ثم قال :

- عرفت كثيراً من المعلمين الذين خالطتهم عن كُثْب في دروسى
الخصوصية، لم يكونوا مثلاً طيباً للرجل المثقف، ولكن لعل
النظام الدراسى العتيق هو المسئول عن ذلك . .

فقال كمال بحماس لم يفتر :

- حسبى الوسيلة، الثقافة الحقة تتوقف على الإنسان لا المدرسة !

وتساءل حسن سليم :

- أتنوى أن تصير معلماً؟

ومع أن حسن طرح سؤاله بأدب، فإن كمال لم يطمئن إليه كل
الاطمئنان، إذ أن التزامه الأدب كان طبعاً مأثوراً عنه فلا يزايله إلا عند
الضرورة القصوى أو حيث يشرع غيره فى العراك، وذلك نتيجة طبيعية
لرذائته من ناحية، ولتربيته الأرستقراطية النبيلة من ناحية أخرى، فلم
يكن من اليسير على كمال أن يعرف إن كان سؤال صاحبه يخلو حقاً من
الاستنكار أو الازدراء، لذلك حرك منكبيه استهانة، وقال :

- لا مفر من ذلك ما دامت مصمماً على تعلم ما أروم من العلم !

وكان إسماعيل لطيف يتفحص كمال من طرف خفى . . رأسه
وأنفه، وعنقه الطويل وقامته النحيلة، وكأنما كان يتخيل أثر هذه الصورة
فى التلاميذ عامة وفى أشقيائهم خاصة، فما ملك أن غمغم :

- تلك لعمري كارثة !

أما حسين شداد، فعاد يقول فى لطف وشى بميله إلى كمال :

- الوظيفة شىء ثانوى عند ذوى الأهداف البعيدة، على أنه لا ينبغي
أن ننسى أن نخبة من نابهى مصر قد تخرجوا فى المدرسة .

انقطع حديث المدرسة عند ذاك، فساد الصمت، وحاول كمال أن يلقي بروحه فى أحضان الحديقة، غير أن الحديث ترك فى رأسه حرارة كان عليه أن ينتظر حتى تبرد، وسنحت منه نظرة، فرأى دورق الماء الثلوج على المائدة، فخطرت له خاطرة قديمة طالما منته بالسعادة فى مثل ظرفه هذا، أن يملأ كوباً ويشربه لعله يلمس بشفتيه موضعاً منه يكون قد اتفق أن لمستته شفتاها وهى تشرب مرة، فقام إلى المائدة، وملأ من الدورق كوباً وشربه، ثم عاد إلى مجلسه مركزاً انتباهه فى نفسه وهو يترقب، كأنما كان ينتظر - فيما لو حالقه الحظ فأصاب الهدف - أن يتغير شأنه، أن تنبثق من روحه قوة سحرية لا عهد له بها، أن يتشئ بنشوة إلهية يرقى بها فى معارج السماوات السعيدة، ولكنه، أجل!! ولكنه قنع فى النهاية بلذة المغامرة وبهجة الأمل، ثم راح يتساءل فى قلق: متى تجيء؟ . . هل يمكن أن تلحق هذه الفترة الواعدة بأشهر الفراق الثلاثة الماضية؟ . . وعادت عيناه إلى الدورق، فطافت به ذكرى حديث قديم دار بينه وبين إسماعيل لطيف عن هذا الدورق أو بالحرى عن الماء الثلوج الذى لا يقدم شئ خلافه فى سراى شداد! وكان إسماعيل قد أشار - وهو بصدد الحديث عن ذلك - إلى النظام الاقتصادى الدقيق الذى تخضع له السراى من السطح إلى البدر، وتساءل: أليس ذلك نوعاً من البخل؟ غير أن كمال أبى أن توصم أسرة معبودته بما يشين، فدفع عنها التهمة مستشهداً ببذخها وخدمها وحشمها والسيارتين اللتين تملكهما: الميرفا، والفيات التى يكاد يختص بها حسين، فكيف تُتهم بعد ذلك بالبخل؟! هنالك قال إسماعيل - ولم يكن يعوزه طول اللسان - إن البخل أنواع، وإنه لما كان شداد بك مليونيراً بكل معنى الكلمة، فإنه رأى لزماً عليه أن يحيط نفسه بمظاهر الجاه، ولكنه اكتفى بما يعد فى «بيتته» من الضروريات، أما القاعدة المتبعة التى لا يحيد عنها فرد من الأسرة، فهى ألا يتسامح فى إنفاق مليم واحد فى غير موضعه وبلا موجب . . الخدم يتناولون أدنى الأجور ويأكلون أقل

الطعام، وإن كسر أحدهم طبقاً خصم ثمنه من مرتبه . حسين شداد نفسه
فتى الأسرة الوحيد لا يعطى مصروفاً أسوة بأمثاله من الأبناء أن يتعود بعثرة
التقود بلا ضرورة، أجل ربما ابتاع له أبوه كل عيد عدداً من الأسهم أو
السندات، ولكنه لا يعطيه قرشاً فى يده . . أما زوار النجل العزيز، فلا
يقدم لهم إلا الماء المثلوج! . . أليس هذا بخلاً، وإن يكن بخلاً
أرستقراطياً؟! . . ذكر كمال ذلك الحديث وهو ينظر إلى الدورق، وتساءل
كما تساءل قديماً فى ارتياح: أمن الممكن أن ترتقى إلى أسرة معبودته هنة
من الهنات؟ أبى قلبه أن يصدق هذا إباء من ينزه الكمال عن المآخذ وإن
هانت بيد أنه خيل إليه أن ثمة شعوراً بما يشبه الارتياح يعابثه هامساً فى أذنه
«لا تفزع . . أليس هذا النقص إن صح مما ينزلها ولو درجة إليك، أو
يرفعك ولو درجة إليها؟!»، ومع أنه وقف من أقوال إسماعيل موقف
التحفظ والارتياب، فإنه وجد نفسه يعيد النظر وهو لا يدري فى «رذيلة»
البخل، فيقسمها إلى نوع دنىء وآخر ليس إلا سياسة حكيمة تمد الحياة
الاقتصادية بأسس بارعة من النظام والدقة، فمن الإسراف كل الإسراف
تسميته بخلاً أو اعتباره رذيلة، كيف لا، وهو لا يتعارض مع تشييد
القصور واقتناء السيارات واتخاذ كافة مظاهر البذخ والبلهنية؟ كيف لا،
وهو يصدر عن نفوس سامية مطهرة من الخبائث والضعفة؟!

استيقظ من أفكاره على يد إسماعيل لطيف وهى تقبض على ذراعه
وتهزه، ثم سمعه وهو يقول مخاطباً حسن سليم:
- حذار، ها هو مندوب الوفد يرد عليك!

أدرك من فوره أنهم طرّقوا حديث السياسة وهو عنهم ساه، حديث
السياسة . . ما أشقه وما ألهه، دعاه إسماعيل «مندوب الوفد» فلعله يتهمك،
فليتهمك ما شاء له أن يتهمك، الوفد عقيدة تلقاها عن فهمى واقرنت فى قلبه
باستشهاد وتضحيته . نظر إلى حسن سليم، وقال باسمًا:

- أيها الصديق الذى لا تبهره إلا العظمة، ماذا قلت عن سعد؟

لم يبد على حسن سليم أنه اكثرث لحديث العظيمة ، ولم يكن كمال يتوقع غير ذلك ، فطالما صاوله حتى وقف على رأيه العنيد المتعجرف - ولعله رأى أبيه المستشار أيضاً - فى سعد زغلول الذى يكاد هو من حب وإخلاص أن يقدسه . لم يكن سعد زغلول إلا مهرجا شعبياً فى نظر حسن سليم ، وكان يردد هذا الوصف فى تقرز وازدراء مشيرين خارقاً المعتاد من أدبه ودمائته ، ثم يمضى فى السخرية من سياسته ومأثوراته البلاغية ، منوها فى الوقت نفسه بعظمة عدلى وثروت ومحمد محمود وغيرهم من الأحرار الدستوريين الذين لم يكونوا فى نظر كمال إلا «خونة» أو إنجليز مطربشين ! أجاب حسن سليم بهدوء :

- كنا نتحدث عن المفاوضات التى لم تستمر إلا ثلاثة أيام ، ثم قطعت ! فقال كمال بحماس :

- يا له من موقف وطنى جدير بسعد حقاً ، طالب بحقوقنا الوطنية مترفعاً عن المساومة ، ثم قطع المفاوضات حين وجب قطعها ، وقال قولته الخالدة : «لقد دعونا إلى هنا لكى نتحرر ، ولكننا رفضنا الانتحار ، وهذا كل ما جرى» .

قال إسماعيل لطيف ، وكان يجد فى السياسة مادة للعبث :

- لو قبل أن ينتحر لتزوج حياته بأجل خدمة يمكن أن يؤديها إلى بلاده !

انتظر حسن سليم حتى فرغ إسماعيل وحسين من الضحك ، ثم قال :

- ماذا أفدنا من هذه المأثورة ؟ ليست الوطنية عند سعد إلا نوعاً من البلاغة التى تستهوى العامة ، «لقد دعونا إلى هنا لكى نتحرر إلخ إلخ» ، «يعجبني الصدق فى القول إلخ إلخ» ! . . كلام فى كلام ، هنالك رجال لا يتكلمون ولكنهم يعملون فى صمت ، وقد حققوا للوطن الفائدة الوحيدة التى جناها فى تاريخه الحديث . .

احتدم الغيظ في قلب كمال ، ولولا ما يكتنه لحسن من احترام لشخصيته وسنه لا نفجر ، وعجب كيف يتابع «شاب» مثله أباه - وهو من جيل قديم على أى حال - فى انحرافه السياسى !

- أنت تقلل من شأن الكلام كأنه لا شىء ، الحق أن أخطر ما تمخض عنه تاريخ البشرية من جلائل الأمور يمكن إرجاعه فى النهاية إلى كلمات ، الكلمة العظيمة تتضمن الأمل والقوة والحقيقة ، نحن نسير فى الحياة على ضوء كلمات ، على أن سعد ليس صانع كلمات فحسب ، إن سجله حافل بالأعمال والمواقف !! تخلل حسن شداد شعره الفاحم بأنامله الطويلة الرشيقة وهو يقول :

- أوافق على ما قلت عن قيمة الكلمة بصرف النظر عن سعد . . !

لم يعبأ حسن بمقاطعة حسين شداد ، فقال مخاطباً كمال :

- إن الأمم تحيا وتتقدم بالعقول والحكمة السياسية والسواعد ، لا بالخطب والتهريج الشعبى الرخيص . .

نظر إسماعيل لطيف إلى حسين شداد ، وهو يتساءل ساخرا :

- ألا ترى أن من يتعب نفسه فى الكلام عن إصلاح هذا البلد كالنافخ فى قربة مثقوبة ؟

التفت كمال إلى إسماعيل ليخاطب من وراء حسن بما تردد عن مخاطبته وجها لوجه ، قال منفسا عن غيظه :

- أنت لا تهملك السياسة فى شىء ، لكن مزاحك يفصح أحيانا عن موقف «قلة» من المحسويين على المصريين كأنك ناطق بلسانهم ، تراهم يائسين من نهوض الوطن ، يأس الاحتقار والتعالى لا يأس الطموح والتطرف ، ولولا أن السياسة مطية لأطماعهم لاعتزلوها كما تفعل أنت !

ضحك حسين شداد ضحكته اللطيفة ، ومد يده إلى ذراع كمال ، فشد عليها قائلا :

- أنت مجادل عنيد، يعجبني حماسك وإن لم أشاركك الإيمان به، على أننى كما تعلم محايد، لا من الوفديين ولا من الدستوريين، لا استهانة كإسماعيل لطيف، ولكن لا اعتقادى بأن السياسة تفسد الفكر والقلب، ينبغى أن تعلو عليها حتى تتراءى لك الحياة ميدانا لانهايتياً للحكمة والجمال والتسامح، لا معترك صراع وكيد..

ارتاح إلى صوت حسين فسكنت فورته، كان يطرب لموافقته إذا وافقه على رأى، ويتسع صدره لمعارضته إذا عارضه فيه، ومع أنه كان يشعر بأن تبريره للحياة ما هو إلا اعتذار عن ضعف وطنيته، فإنه لم يحق عليه لذلك ولم ير فيه نقیصة ولكن وسعها عفوه وحلمه وتسامحه، قال يجاريه:

- الحياة هى هذا كله، هى الصراع والكيد والحكمة والجمال، فأى وجه تتجاهله من وجوها تفقد به فرصة لاستكمال فهمك لها وقدرتك على التأثير فيها بما يوجهها نحو الأحسن، لا تحتقر السياسة أبداً، فالسياسة هى نصف الحياة، أو هى الحياة كلها إذا عدت الحكمة والجمال مما فوق الحياة..

حسين شداد كالمعتذر:

- فيما يتعلق بالسياسة، أصارك بأنى لا أثق فى جميع أولئك الرجال..

سأله كمال كالتودد:

- ماذا نزع ثقتك من سعد؟

- بل دعنى أسألك عما يجعلنى أضع ثقتى فيه!.. سعد وعدلى وعدلى وسعد، ما أسخف هذا كله، على أنه إذا كان سعد وعدلى سيين عندى فى الناحية السياسية فإننى لا أراهما كذلك كرجلين، إذ لا يمكن أن أتجاهل ما يمتاز به عدلى من كريم الأصل وعظيم

الجاء والثقافة، أما سعد - وإياك أن تغضب - فما هو إلا أزهرى
قديم! . .

آه، شد ما يحز في نفسه أن يند عن حسين أحياناً ما يشى بتعالیه عن
الشعب فيشعر وهو من الحزن في نهاية كأنه يتعالی عنه هو أو - وهو
الأدهى والأمر - كأنه ينطق بلسان الأسرة جميعاً، أجل، إنه إذا حادثه
أشعره كأنما يتكلم عن شعب غريب «عنهما» معاً، ولكن أكان ذلك عن
خطأ في التصوير أم عن مجاملة؟ ومن عجب أن موقف حسين هذا لم
يغضبه من ناحية دلالة العامة بقدر ما أحزنه من ناحية دلالة الخاصة به،
فلم يستثر عداوته الطبقية ولا إحساسه الوطني . . انهزمت هذه المشاعر
حيال بشاشة وضيئة تنم عن الصراحة وحسن الطوية، وتراجعت أمام
حب لا تنال منه الآراء والأحداث، على الضد من هذا كان شعوره
حيال موقف حسين شداد منه، فكان - رغم صداقتهم - يهيج غضبه
لوطنه - ولم يشفع له عنده تأدبه في الخطاب وتحفظه في إظهار مشاعره،
بل لعله أنس فيهما «حكمة» تضاعف من مسؤوليته وتؤكد تعصبه
الأرستقراطي الموجه ضد الشعب، قال مخاطباً حسين :

- أفى حاجة أنا أن أذكرك بأن العظمة شىء غير العمامة والطربوش
أو الفقر والغنى؟ يبدو لى أن السياسة تضطرننا أحياناً إلى مناقشة
البديهيّات! . .

قال إسماعيل لطيف :

- إن ما يعجبني في الوفدين - أمثال كمال - هو شدة تعصبهم!

ثم وهو يجيل بصره في الجالسين :

- أما ما يسوءنى منهم، فهو شدة تعصبهم أيضاً!

قال حسين شداد ضاحكاً :

- أنت سعيد الحظ، لأنك مهما أبديت في السياسة من رأى، فلن
يعترض سبيلك معقب . . !

هنا سأل حسن سليم حسين شداد قائلاً:

- تزعم أنك تربأ بنفسك عن السياسة، فهل تصر على ذلك حتى إذا تعلق الأمر بالخديو السابق؟

اتجهت الأعين نحو حسين في تحد باسم لما هو معروف عن تشيع والده شداد بك للخديو السابق، الأمر الذي أبعد من أجله أعواماً قضاها في باريس، ولكن حسين قال في غير مبالاة:

- لا تعنيني هذه الأمور في كثير أو قليل، كان والدي ولا يزال من رجال الخديو، ولكنني لست مطالباً باعتناق آرائه..

سأله إسماعيل لطيف، وفي عينيه الضيقتين بريق ضاحك:

- أكان والدك من الذين يهتفون «الله حي.. عباس جي»؟

فقال حسين شداد ضاحكاً:

- لم أسمع عن هذا الذكر إلا منكم، والحق الذي لا ريب فيه، أنه لم يعد بين أبي وبين الخديو إلا الصداقة والوفاء، وفضلاً عن ذلك فليس ثمة حزب - كما تعلمون - يدعو اليوم إلى عودة الخديو..

قال حسن سليم:

- أمسى الرجل وعهده في ذمة التاريخ، الحاضر يمكن تلخيصه في كلمتين، وهما، أن سعد يأبى أن يقوم في مصر من يتكلم باسمها غيره ولو كان خير الرجال وأحكمهم!

لم يكذب يتلقى الضربة كمال حتى جاوبه قائلاً:

- الحاضر في كلمة واحدة، أن ليس في مصر من يتكلم باسمها إلا سعد، وأن التفاف الأمة حوله جدير في النهاية بأن يبلغ بها ما نرجو من الآمال..

وشبك ذراعيه على صدره، ومد ساقيه حتى مس طرف حذائه رجل المائدة، وهم بالاسترسال في حديثه لولا أن جاءهم من وراء صوت

غير بعيد يتساءل «ألا تريدن يا بدور أن تحمى أصدقاءك القدماء؟» فانعقد لسانه، ووثب قلبه وثبة عنيفة رجت صدره رجا أفزعه أول الأمر وآله، وفي أسرع من لمعان البرق استغرقته سكرة طاغية من السعادة كاد يغمض لها عينيه من شدة التأثير، ثم وجد أن كل خاطرة تنبض بها نفسه قد اتجهت صوب السماء، قام مع الأصدقاء كما قاموا، واستدار معهم إلى الوراء، فرأى على بعد خطوة من الكشك عايذة واقفة ممسكة بيد بدور شقيقتها الصغرى ذات الأعوام الثلاثة، وهما يتطلعان إليهم بأعين هادئة باسمه . . ها هي ذى بعد انتظار ثلاثة أشهر أو يزيد، ها هو «الأصل» الذى تملأ «صورته» روحه وجوارحه ويقظته، ونومه، ها هي قائمة أمام عينيه شاهدا على أن الألم الذى لا حد له والسرور الذى لا وصف له واليقظة المحرقة للنفس والحلم المدوم فى السماء، إن كل أولئك ربما رجعت فى آخر الأمر إلى آدمى لطيف تترك قدماه انطباعاتهما على أرض الحديقة! ورنا إليها فجذب مغناطيسها شعوره كله حتى سلبه الإحساس بالزمان والمكان والأناسى والنفس، فعاد كأنه روح مجردة تسبح فى فراغ نحو معبودها . . على أن إدراكه لها هي نفسها لم يكن حسيًا بقدر ما كان روحيًا، تمثل فى نشوة ساحرة وغبطة شادية وسبحة عالية، بينا وهنت منه الرؤية أو تلاشت، كأن قوة انفعاله الروحي استأثرت بكل حيويته فغودرت حواسه وقواه العاقلة والمدركة والملاحظة فى سبات أشرف به على نوع من الفناء، لذلك كانت دائمًا أطوع لذاكرته منها إلى حواسه، لا يكاد يرى منها وهو فى محضرها شيئًا، ولكنها تراءى فيما بعد فى ذاكرته بقامتها الهيفاء ووجهها البدرى الخمرى وشعر عميق السواد مقصوص «ألاجرسون» ذى قصة مسترسلة على الجبين كأسنان المشط وعينين ساجيتين تلوح فيهما نظرة لها هدوء الفجر ولطفه وعظمته، كان يرى هذه الصورة بذاكرته لا بحواسه كالنغمة الساحرة نفنى فى سماعها فلا نذكر منها شيئًا حتى تفاجئنا مفاجأة سعيدة فى اللحظات الأولى من الاستيقاظ أو فى ساعة انسجام،

فتتردد في أعماق الشعور في لحن متكامل . وتساءلت أحلامه وأمانيه :
تري هل تغير من طريقته المألوفة فتمد يدها للمصافحة فيلمسها ولو مرة
في الحياة؟ لكنها حيتهم بابتسامة ونخية من رأسها ، وهي تتساءل بذلك
الصوت الذي يزرى بأحب الألحان إليه :

- كيف حالكم جميعاً؟

فاستبقت الأصوات إليها بالتحية والشكر والتهنئة على سلامة
العودة ، عند ذاك عبثت أناملها الرشيقة برأس بدور وهي تقول لها :

- صافحي أصدقاءك !

فنت بدور شفيتها داخل فيها وعضت عليهما وهي تردد عينيها بينهم
في حياء حتى استقرتا على كمال ، فابتسمت وابتسم ! قال حسين
شداد ، وكان على علم بما بين الطفلة وكمال من مودة :

- إنها تبتسم لمن تحبه !

- أتحبين هذا حقاً؟ (ثم وهي تدفعها نحوه) إذن سلمى عليه . .

مد لها كمال يديه متورد الوجه من السرور ، فأقبلت نحوه ، فرفعها
بين يديه حتى أقرها في حضنه ، وراح يقبل خديها في حنان وتأثر
شديدين ، كان بهذا الحب سعيداً فخوراً ، ليست التي بين يديه إلا فلذة
من جسد الأسرة ، فهو يضم الكل إذ يضم الجزء إلى صدره ، هل أمكن
اتصال العبد بمعبوده إلا عن وساطة كهذه الوساطة؟ . . والسحر كل
السحر في هذا الشبه الغريب بين الطفلة وشقيقتها ، كأن المطمئنة إلى
صدره عايدة نفسها في طور من أطوار حياتها الماضية ، كانت يوماً مثل
بدور سنا وحجماً وجوداً فتأمل! . . فليهنأ هذا الحب الطاهر . . ليسعد
بعناق جسم تعانقه هي . . ويتقبل وجنة تقبلها هي . . وليحلم حتى
يشرد منه العقل والقلب . إنه يدري لم يحب بدور ولم يحب حسين ولم
يحب القصر وحديثه وخدمه ، إنه يحبها جميعاً إكراماً لعائدة ، أما
الذي لا يدريه فهو حب عائدة نفسها! . . رددت عائدة عينيها بين حسن
سليم وإسماعيل لطيف ، ثم سألتها :

- كيف وجدتما الإسكندرية؟

فقال حسن :

- رائعة! ..

على حين تساءل إسماعيل :

- ماذا يجذبكم إلى رأس البر دواما؟

فقالت بصوت رخيم مشربة نبراته بعذوبة موسيقية :

- صيفنا مرات فى الإسكندرية ، ولكن الاصطياف لا يطيب لنا إلا فى رأس البر ، هنالك الهدوء والبساطة وألفة لا تجدها إلا فى بيتك!

فقال إسماعيل ضاحكاً :

- من سوء الحظ أن الهدوء لا يطيب لنا ..

ما أسعده بهذا المنظر .. هذا الحديث .. هذا الصوت ، تأمل أليست هذه هى السعادة؟! فراشة كنسمة الفجر تقطر ألوانا بهيجة وترشف رحيق الأزاهر .. هذا أنا ، لو يدوم هذا الموقف إلى الأبد! ..

قالت عائدة :

- كانت رحلة ممتعة ، ألم يحدثكم حسين عنها؟

قال حسين بلهجة انتقادية :

- بل كانوا يتناقشون فى السياسة!

فالتفت ناحية كمال قائلة :

- هنا شخص لا يحلو له إلا حديثها ..

من عينيها نظرة تلقى إليك كالرحمة ، صفاؤها يجلو روحا ملائكيًا ، بعثت كما يبعث عباد الشمس فى ضوئها المشرق ، لو يدوم هذا الموقف إلى الأبد! ..

- لم أكن المسئول عن إثارة المناقشة اليوم ..

فقالت باسمه :

- لكنك اغتنمت الفرصة ..

ابتسم فى تسليم ، وعند ذاك حولت عينيها إلى بدور هاتفة :

- أنتوين أن تنامى بين ذراعيه ! .. كفك سلاماً ..

غلب الحياء بدور ، فدفنت رأسها فى صدره ، فجعل يربت على

ظهرها فى حنان ، غير أن عايده توعدتها قائلة :

- إذن سأتركك وأرجع وحدى ..

فرفعت بدور رأسها ومدت لها يدها وهى تغمغم «لا» ، فقبلها كمال

وأنزلها إلى الأرض ، فجرت إلى عايده وقبضت على يدها ، ألقت

عايده عليهم نظرة شاملة ثم لوحت بيدها تحية وذهبت من حيث أتت .

عادوا إلى مقاعدهم فواصلوا الحديث كيفما اتفق ، هكذا كانت تقع

زيارات عايده فى كشك الحديقة ، مفاجأة سعيدة قصيرة ولكنه بدا قانعاً ،

وشعر بأن تصبره طيلة أشهر الصيف لم يذهب هدرًا ، لم لا يتتحر الناس

ضنا بالسعادة كما يتتحدرون فراراً من الشقاء؟ ليس من الضرورى أن

تسيح كما يود حسين أن يسيح كى تلقى متع الحواس والعقل والروح ،

فمن الجائز أن تفوز بكل أولئك فى لحظة خاطفة دون أن تبرح مكانك !

من أين لبشر أن يؤتى القدرة على إحداث هذا كله؟ ! أين فورة

السياسة وحرارة الجدل واحتدام الخصام وتصادم الطبقات؟ .. ذابت

كلها وتوارت تحت نظرة من عينيك يا معبودتى ، ما الفاصل بين الحلم

والحقيقة وفى أيهما ترانى أهيم الساعة؟

- موسم الكرة سيبدأ عما قريب ..

- كان الموسم الماضى موسم الأهلى دون شريك !

- هُزم المختلط بالرغم من أن فريقه يضم أبطالاً أفذاذاً ..

انبرى كمال للدفاع عن المختلط - كما دافع عن سعد - صادا عنه هجمات حسن سليم . كان أربعتهم من لاعبي الكرة على تفاوت في الخلق والحماس ، فكان إسماعيل أمهرهم إلى حد أنه برز بينهم كالمحترف بين الهواة ، على حين كان حسين شداد أضعفهم ، أما كمال وحسن فكانا بين ذلك ، وقد اشتدت المناظرة بين كمال وحسن ، ذاك يرجع هزيمة المختلط إلى سوء الحظ وهذا يردها إلى تفوق لاعبي الأهلي الجدد . . واستمر الجدل دون أن ينزل أحدهما عن رأيه . تساءل كمال : لم يجد نفسه دائماً في الجانب المضاد للجانب الذي يقف فيه حسن سليم ؟ الوفد الأحرار ، المختلط الأهلي ، حجازي مختار ، وفي السينما يفضل شارلي شابلي فيفضل الآخر ماكس لندر !

غادر المجلس قبيل المغيب ، وفيما هو يسير في الممر الجانبى المفضى إلى الباب الخارجى إذ سمع صوتاً يهتف :
- ها هو ذا . .

رفع رأسه مسحوراً فرأى عائدة في إحدى نوافذ الدور الأول ، مُجلسة بدور على حافة النافذة بين يديها وهى تشير لها إليه ، وقف تحت النافذة مباشرة مرفوع الرأس ، يتطلع بوجه باسم إلى الطفلة التى لوحت له بيدها الصغيرة ، ويلمح بين لحظة وأخرى إلى الوجه الذى استقرت فى هيئته ورموزه آماله فى الحياة وما بعد الحياة ، وقلبه يتلاطم بين الضلوع سكرًا ، لوحته له بدور بيدها مرة أخرى ، فسألتها عائدة :
- تذهبين إليه ؟

حنت الصغيرة رأسها بالإيجاب ، فضحكت عائدة من هذه الرغبة التى لن تتحقق ، على حين مضى هو يتوسمها متشجعاً بضحكاتها - غارقاً بروحه فى حور عينيها وملتقى حاجبيها مسترجعاً صدى ضحكاتها المترعة ونبرات وصوتها الدافئ حتى اضطربت أنفاسه من وجد وهيام ،

ولما كان الموقف يملأ عليه أن يتكلم ، فقد سأل معبودته وهو يشير إلى محبوبته الصغيرة :

- هل ذكرتني في المصيف؟

قالت عائدة وهي تتراجع برأسها قليلاً :

- سلها هي ، لا شأن لى بما بينك وبينها !

ثم مستدركة قبل أن ينبس هو بكلمة :

- هل ذكرتها أنت؟

آه ، موقفك فوق السطح بين مريم وفهمى ، قال بحرارة :

- لم تغب عن ذاكرتى يوماً واحداً . .

نادى عند ذاك صوت من داخل القصر فاعتدلت عائدة فى وقفته
ورفعت بدور بين يديها ، ثم قالت معلقة على كلامه وهي تهم
بالذهاب :

- يا له من حب عجيب !

وغابت عن النافذة . .

١٥

لم يبق من رواد مجلس القهوة إلا أمينة وكمال ، وحتى كمال كان
يبرحه عند الأصيل إلى الخارج فتلبث الأم بمفردها أو تدعو أم حنفى إلى
مؤانستها حتى يحين وقت النوم . وكان ياسين قد خلف وراءه فراغاً ،
ومع أن أمينة حرصت دائماً على ألا تعود إلى ذكره فإن كمال شعر
لغيابه بوحشة غاضت أبهج ما كان يجد فى مجلس القهوة من متعة .

وكانت القهوة - قديمًا - شراب المجلس الذى يجتمع حوله الأبناء للسمر . فانقلب اليوم - عند الأم - كل شيء فيه ، فأسرفت فى حسوها إسرافاً وهى لا تدرى حتى صار صنع القهوة وحسوها سلوة وحدتها ، فربما احتست خمسة أو ستة - وأحياناً عشرة - فناجيل تباعاً ، وكان كمال يتابع إفراطها بقلق ويحذرهما من عواقبه ، فترد عليه بابتسامة كأنما تقول له «وماذا أفعل إذا لم أشرب؟» ثم تقول له بلهجة الواصل المطمئن «لا ضرر من القهوة» جلساً متقابلين ، هى على الكنبه الفاصلة بين حجرتى النوم والمائدة ، وهو على الكنبه المتوسطة لحجرتى نومه ومكتبه ، وكانت عاكفة على المجرمة التى دفنت الكنجه حتى نصفها فى جمراتها ، وكان صامتاً شارد النظرة ، وفجأة سألته :

- فيم تفكر يا ترى؟ دائماً ترى وكأنك مشغول الفكر بأمر ذى بال .

أنس من صوتها ما يشبه العتاب ، فقال :

- العقل يجد دائماً ما يشغله !

فرفعت إليه عينيها الصغيرتين العسليتين كالمستأثلة ، ثم قالت فى شيء من الحياء :

- مضى زمن كنا لا نجد وقتاً يتسع لحديثنا !

حقاً؟ ذلك ماض مضى ، عهد الدروس الدينية وقصص الأنبياء والشياطين ، عهد تعلقه بها لحد الجنون ، انقضى ذلك العهد ، فيم يتحدثان اليوم؟ إلا تكن دردشة لا معنى لها فلا وجه للكلام على الإطلاق ، ابتسم كأنما يعتذر بابتسامته عن صمته السابق واللاحق معاً ، ثم قال :

- نحن نتكلم كلما وجدنا للكلام موضوعاً .

فقالته بركة :

- ليس للكلام حدود لمن أراد أن يتكلم ، ولكنك تبدو غائباً دائماً أو كالغائب . .

ثم بعد تفكير :

- أنت تقرأ كثيراً ، فى عطلتك تقرأ كما تقرأ فى وقت دراستك ، لم تستوف يوماً حظك من الراحة ، أخاف أن تكون أتعبت نفسك أكثر مما ينبغي . .

فقال كمال بلهجة دلت على أنه لم يرحب بهذا التحقيق :

- اليوم طويل جداً ، وقراءة ساعات لا يمكن أن تتعب إنساناً ، ليست إلا نوعاً من التسلية وإن تكن تسلية مفيدة . .

فقال بعد تردد :

- أخاف أن تكون القراءة سبب ما يبدو عليك كثيراً من الصمت والشروء . . .

كلا ليست القراءة ، القراءة ملاذ من التعب لو تعلمين ، شىء آخر يشغل عقله طيلة الوقت ولا يسلم منه وقت القراءة نفسه ، شىء لا علاج له لا عندها ولا عند غيرها من البشر ، إنه مرض قلب يتعبد حائراً ولا يدري ماذا وراء عنائه يروم ! قال بمكر :

- القراءة كالقهوة لا ضرر منها ! ألا تحبين أن أصير «عالمًا» كجدى ؟

فشاعت البهجة والفخار فى الوجه المستطيل الشاحب ، وقالت :

- بلى ، إنى أود ذلك بكل قلبى ، ولكننى أحب أن أراك دائماً منشرح الصدر . . .

وقال باسمًا :

- إنى منشرح الصدر كما تحبين ، فلا تشغلى البال بمحض أوهام .

كان يلاحظ أن رعايتها له ازدادت فى السنوات الأخيرة أكثر مما

ينبغي ، وأكثر مما يود ، وأن تعلقها به وحدها عليه وإشفاقها مما يضره -
أو مما تتوهم أنه يضره - باتت شغلها الشاغل إلى حد ضايقه واستفزه
للذود عن حرите وكرامته ، بيد أنه لم تغب عنه أسباب هذا التطور الذى
بدأ عقب مصرع فهمى وابتلائها بفقده ، فلم يجاوز أبداً فى ذوده عن
حرите حدود اللطف والأدب :

- يسرنى أن أسمع هذا منك وأن يكون حقاً وصدقاً ، لست أبغى إلا
سعادتك ، ولقد دعوت لك اليوم فى سيدنا الحسين دعاء أرجو أن
يمن الله باستجابته !
- آمين . .

ونظر إليها وهى ترفع الكنجة لتملأ فنجانها للمرة الرابعة ، فانفرج
ركنا فيه عن ابتسامة خفيفة . . ذكر كيف كانت زيارة الحسين لديها أمنية
فى حكم المستحيل ، ها هى اليوم تزوره كلما زارت القرافة أو السكرية ،
ولكن ما أفدح الثمن الذى دفعته نظير هذه الحرية الضئيلة ! هو نفسه له
أمانيه التى فى حكم المستحيل فأى ثمن تقتضيه كى تتحقق ؟ ألا إن أى
ثمن - وإن جل - يهون فى سبيل ذلك ، عاد يقول ضاحكاً ضحكة
مقتضبة :

- إن لزيارة الحسين ذكريات لا تنسى . .

تحسست ترقوتها بيديها ، وهى تبسم قائلة :

- وأثر باق لا يزول . .

فقال كمال فى شىء من الحماس :

- لست اليوم حبيسة البيت كما كنت قديماً ، أصبح من حقك أن
تزورى خديجة وعائشة أو سيدنا الحسين كلما أردت ، تصورى أى
حرمان كنت تمنين به نفسك لو لم يفك أبى قيودك !
رفعت إليه عينيها فيما يشبه الارتباك أو الخجل ، كأنما كبر عليها أن

تذكر بامتياز نالته نتيجة لشكلها، ثم أطرقت فى وجوم ولسان حالها يقول
«ليتنى بقيت كما كنت وبقي لى فقيدى»، غير أنها تحاشت الإفصاح عما
جاش به صدرها إشفافاً من تكدير صفوه، وقنعت بأن تقول وكأنها
تعتذر عما حظيت به من حرية :

- ليس خروجى بين حين وآخر فرجة أستمتع بها، إنى أزور الحسين
لأدعوك، وأزور أختيك لأطمئن عليهما ولأحل مشكلات لا
أدرى من كان غيرى يحلها!

فابتده المشكلات التى تعنى، ولما كان يعلم أنها زارت السكرية
اليوم، فقد تساءل :

- هل من جديد فى السكرية؟

قالت وهى تنتهد :

- العادة . . !

هز رأسه أسفاً، وهو يبتسم قائلاً :

- مخلوقة للنقار، هذه هى خديجة . .

قالت أمينة بحزن :

- قالت لى حماتها، إن أى محادثة معها مخاطرة غير محمودة
العواقب . .

- الظاهر أن حماتها - نفسها - قد خرفت ! .

- لها من الكبر أعذار، ولكن ما عذر أختك؟

- ترى آآثرتها على الحق أم آآثرت الحق عليها؟

وضحك ضحكة ذات مغزى، فتنهدت أمينة مرة أخرى، وقالت :

- أختك حامية الطبع، وسرعان ما تضيق حتى بالنصيحة الخالصة،

ويا ويلى إذا جاملت حماتها مراعاة لسنها ومكانتها، هنالك

تسألنى وعيناها تحماران «أنت معى أم على؟»، لا حول ولا قوة إلا بالله، معى أم على! هل نحن فى حرب يا بنى؟ ومن الغريب أن يكون الحق أحياناً على حمايتها ولكنها تتمادى فى الخصام حتى ينقلب الحق عليها هى . . !

هيهات أن يسخطه عليها شىء، كانت ولا تزال أمه الثانية ومورد حنان لا ينضب، أين منها عائشة الجميلة السادرة التى تشبعت بالشوكتية حتى ذؤابتها!

- وعم أسفر التحقيق؟

- بدأ الشجار بالزوج هذه المرة وعلى غير المألوف، دخلت الشقة وهما يتجادلان فى عنف حتى عجبت لما أهاج الرجل الطيب، فتدخلت بينهما بالسلام، ثم عرفت سبب هذا كله، كانت معتزمة أن تنفض الشقة، ولكنه ظل نائماً حتى التاسعة فأصرت على إيقاظه حتى استيقظ غاضباً، وركبه عناد مفاجئ فأبى أن يغادر الفراش، وسمعت والدته الزعق، فجاءت على عجل، وما لبثت النار أن اشتعلت، ولم يكد هذا الشجار أن ينتهى حتى شب آخر بسبب أحمد الذى عاد من الطريق مطين الجلباب، فضربته وأرادت أن يستحم من جديد، فاستغاث الولد بأبيه، وتصدى الرجل لحمايته، فكان الشجار الثانى فى نصف نهار!

وهو يضحك :

- وماذا فعلت؟

- بذلت ما فى وسعى ولكنى لم أسلم، فلامتنى طويلاً على وقوفى موقف الوسيط، وقالت لى: كان ينبغى أن تنضمى إلى كما انضمت أمه إليه!

ثم وهى تتهدد لثالث مرة:

- قلت لخديجة: ألا تذكرين كيف كنت تريننى أمام والدك، فقالت بحدة: «هل تظنين أنه يوجد رجل مثل أبى فى هذه الدنيا؟!» .

وردت مخيلته على غير ميعاد صورة عبد الحميد بك شداد وحرمة سنية هانم، وهما يسيران جنباً إلى جنب، من الفراندا إلى السيارة المنيرفا المنتظرة أمام باب القصر، لا سيد ولا مسود ولكن صديقين متساوين، يتحادثان فى غير كلفة وهى تتأبط ذراعه، حتى إذا بلغا السيارة تنحى البك جانباً حتى تركب هى أولاً! هل يتأتى لك أن ترى والدك فى مثل هذه الصورة؟! يا لها من خاطرة مضحكة! يتحركان فى جلال خليق بالمعبودة التى أنجبهاها، ولو أن الهانم لم تكن دون أمه كهولة إلا أنها كانت ترتدى معطفاً نفيساً آية فى الذوق والأناقة والغندرة، وتنطلق سافرة الوجه، وجه مليح وإن يكن دون الوجه الملائكى بما لا يقاس، وتنشر فيما حولها شذى عطراً وروعة أسرة، ود لو يعلم كيف يتحادثان وكيف يأتلفان، وكيف يتخاصمان إن كانا يتخاصمان . شغفاً بمعرفة حياة تمت إلى حياة معبودته بأوثق الوشائج والصلات، أتذكر كيف كنت تطالعهما بين المتعبد الرانى إلى كبار الكهنة والسدنة؟ قال بهدوء:

- لو تطبعت خديجة ببعض طباعك لضمنت حياة سعيدة . .

ابتسمت أساريرها فى سرور، غير أن سرورها ارتطم بالحقيقة المرة، وهى أن طباعها لم تستطع على دمايتها أن تضمن لها السعادة دواما، ثم قالت والابتسامة لا تفارق شفيتها لتدارى بها أفكارها السوداء التى تشفق من إطلاعه عليها:

- هو وحده الهادى، ربنا يزيد طبعك حلاوة حتى تكون من الذين

يحبون الناس ويحبهم الناس . .

فبادرها متسائلاً:

- كيف تجديننى؟

فقال بليمان :

- أنت كذلك، وأكثر . .

لكن كيف يتأتى لك أن تحبك الملائكة؟! ادع صورتها السعيدة وتأمل قليلاً، هل يمكن أن تتخيلها مسهدة طريحة حب وجوى؟ وما أبعد ذلك عن خوارق الظنون، إنها فوق الحب ما دام الحب نقصاً لا يدرك الكمال إلا بالحبيب، اصبر ولا تلو قلبك من الألم، حسبك أن تحب، حسبك منظرها الذى يشعشع بالنور روحك، وأنغام نبراتنا التى تسكر بالتطريب جوارحك، من المعبودة ينبثق نور تتبدى فيه الكائنات خلقاً جديداً، الياسمين واللبلاب من بعد صمت يتناحيان، والمآذن والقباب تطير فوق بساط الشفق صوب السماء، معالم الحى العتيق تنطق عن حكمة الأجيال، أوركسترا الوجود تستأنف زفرات الصراصير، الحنان يفيض من الجحور، الأناقة تزخرف الأزقة والدروب، عصافير الغبطة تزقزق فوق القبور، الجمادات تنبث فى صمت التأملات، قوس قزح يتجلى فى الحصىرة التى تطرح عليها قدميك، هذه دنيا معبودتى!

- كنت مارة بالأزهر فى الطريق إلى الحسين، فقابلتنى مظاهرة كبيرة تهتف بهتافات ذكرتنى بالماضى، هل جد جديد يا بنى؟
قال :

- الإنجليز لا يريدون أن يذهبوا بسلام!

قالت بحدة، وفى عينيها نظرة غضب تبرق :

- الإنجليز . . الإنجليز! . . متى تنزل عليهم نعمة الله العادل؟

انطوت دهرًا لسعد نفسه عن مثل هذه الكراهية، لولا أن أقنعها فى النهاية بأنه لا يجوز أن يعضوا شخصاً أحبه فهمى! وعادت تتساءل فى قلق ظاهر :

- ماذا تعنى يا كمال؟ هل نعود إلى أيام البلاء؟

فقال بامتعاض :

- لا يعلم الغيب إلا الله !

فاعترها ضيق بدا فى تقلصات وجهها الشاحب ، وقالت :

- اللهم قنا العذاب فلنتركهم لغضب القهار ، هذه هى الخطة المثلى ،

أما أن نلقى بأنفسنا إلى التهلكة فهو الجنون والعياذ بالله !

- هدئى من روعك ، لا محيد من الموت ، الناس يموتون بسبب أو

بآخر ، وبلا سبب على الإطلاق !

قالت فى استياء :

- لا أنكر أن قولك حق ، ولكن لهجتك لا تعجبني !

- كيف تريدن أن أتكلم ؟

قالت بصوت مؤثر :

- أريد أن تعلن موافقتك على أنه من الكفر أن يعرض الإنسان نفسه

للتهلكة . .

قال فى تسليم ، وهو يدارى ابتسامة :

- أوافق . .

فرمقته بارتياح ، وقالت بتوسل :

- وأن تقول ذلك بالقلب لا باللسان . .

- بالقلب أتكلم . .

ما أعظم الفارق بين الواقع والمثال ، أنت تتطلع بحماس إلى المثل

الأعلى فى الدين والسياسة والفكر والحب ، الأمهات لا يفكرن إلا فى

السلامة ، أى أم ترضى أن تدفن ابنا فى كل خمسة أعوام ، لا بد للحياة

المثالية من قرابين وشهداء ، . . الجسم والعقل والروح قرايينها ، فهمى

ضحى بحياة واعدة فى سبيل ميتة رائعة ، فهل تستطيع أن تلقى الموت

كما لقيه؟ قلبك لا يتردد عن الاختيار ولو حطم قلب هذه الأم التعيسة، ميتة تستنزف جرحاً وتضمّد جروحاً، يا له من حب.. أجل، ولكنه ليس الذى بينى وبين بدور وأنت تعلمين، الحب العجيب حقاً هو حبنى لك، هو شهادة للدنيا ضد المتشائمين من خصومها، علمنى أن الموت ليس أظلم ما نخاف وأن الحياة ليست أبهج ما نبتغى، وأن من الحياة ما يغلظ ويفر حتى يلتمس الموت، ومنها ما يرق ويشرى حتى يهفو إلى الخلود، ومناداتها لك ما أطربها، بصوت لا تدرى كيف تصفه، لا رفيع النبرة ولا غليظها، مثل «فا» السلم الموسيقى المنبعثة من كمان، رنينه فى صفاء النور، ولونه لو تخيلت له لوناً فى زرقة السماء العميقة، دافئ الإيمان، داعية إلى السماء..

١٦

- يوم الخميس القادم سأعقد زواجى متوكلاً على الله...
- ربنا يوفقك!
- سيكون التوفيق من نصيبى إذا رضى عنى أبى..
- إنه راض عنك، والحمد لله..
- سيقصر الحضور على الأهل، ولن تلقى هنالك ما يضايق حضرتك.
- عظيم عظيم!!
- وددت لو كانت نينة فى الحاضرين، ولكن..
- ما علينا، المهم أن تمر الليلة فى هدوء..

- لم يغب عني هذا بطبيعة الحال، أنا أعرف الناس بطبعك، ولن يعدو اليوم كتابة العقد وشرب الشربات . .

- عظيم، ربنا يهديك إلى سواء السبيل . .

- كلفت كمال أن يبلغ والدته تحياتي وأن يرجوها عني ألا تحرمني من دعائها الطيب كما عودتني من قديم، وأن تعفو عما كان . .

- طبعاً . . طبعاً!!

- أرجو أن تكرر على سمعي أنك راضى عني .

- إني راض عنك، والله أسأل أن يكتب لك التوفيق والفلاح، إنه سميع الدعاء . .

هكذا سارت الأمور ضد مشيئة السيد أحمد، واضطر إلى مجاراتها أن ينصدع ما بينه وبين ابنه، وكان قلبه في الحق أرق من أن يتصدى لياسين بخصام جدى فضلاً عن القطيعة، فقبل أن يسلم بيده ابنه البكر إلى بنت بهيجة، وأن يبارك - بنفسه - العلاقة التي ستضم خليلته السابقة إلى صميم أسرته! بل لم يقبل تدخل أمينة حين أعربت له عن رجائها في أن يمتنع «إخوة فهمي» عن شهود زواج ياسين من مريم، فقال لها بلهجة حاسمة «فكرة سخيفة، من الناس من يتزوج من أرملة أخيه على حبه والوفاء له، ومريم لم تكن زوجة فهمي ولا حتى خطيبته، وذلك تاريخ قديم مضى عليه ستة أعوام، لست أنكر أنه لم يوفق في اختياره ولكنه حسن النية بقدر ما هو بغل، ولم يسئ إلى أحد كما أساء إلى نفسه، أسرة كان بوسعه أن يصهر إلى خير منها، وفتاة مطلقة، الأمر لله وذنبه على جنبه» . . سكنت أمينة كأنما سلمت بحجته، فإنها وإن كانت اكتسبت مع الأيام السود بعض جراءة تعينها على الإفصاح عن رأيها للسيد إلا أنها لم تكن من القوة بحيث تجعلها تراجع أو تجادله، ولذلك فعندما زارتها خديجة لتخبرها بأن ياسين دعاها إلى حضور زواجه،

وأنها تفكر فى ادعاء المرض لتتخلف عن الذهاب لم توافقها على رأيها ونصحتها بقبول دعوة أخيها .

وجاء يوم الخميس ، فذهب السيد أحمد عبد الجواد إلى بيت المرحوم محمد رضوان ، حيث وجد ياسين وكمال - الذى سبقه إليه - فى استقباله ، ثم لحق بهم بعد قليل إبراهيم شوكت و خليل شوكت مصحوبين بخديجة وعائشة ، ولم يكن فى البيت من آل مريم سوى بضع نساء ، فاطمأن السيد أحمد إلى مرور اليوم بسلام ! . وكان فى طريقه إلى حجرة الاستقبال قد رأى معالم مألوفة فى البيت ، مر بها من قبل فى ظروف جد مختلفة ، فهجمت عليه ذكريات الماضى محدثة فى نفسه ألواناً من الاستياء والضجر لسخريتها الصامتة من الدور الجديد الذى جاء يمثله كوالد وقور للعريس ، وراح يلعن فى سره ياسين الذى أوقعه - وأوقع نفسه وهو لا يدري - فى هذا المأزق ، غير أن الأمر الواقع حمله على أن يراجع نفسه ويمنيها قائلاً : إنه ليس على الله بكثير أن يخلق البنت على غير مثال الأم ، وأن يجد ياسين فى مريم زوجاً صالحة بكل معنى الكلمة - وأن يقيه نزق أمها ، ثم سأل الله السترا !

• وكان ياسين أخذاً زيته ، بادهى السرور رغم تواضع الحفل المقام لزواجه ، وسرّة - على وجه الخصوص - أن لم يتخلف أحد من إخوته عن الحضور ، وكان يشفق من أن تؤثر الأم فى بعضهم فيتخلف ! أكان فى وسعه أن يستغنى عن مريم إكراماً لهم ؟ كلا ، أحبها ، ولم تجعل هى من سبيل إليها إلا الزواج فلم يكن من الزواج بد ، لم لا ؟ ليست اعتراضات والده أو زوجه بعادلة أو مما يكثر لعواقبها ، ثم إن مريم أول امرأة يرغب الزواج منها عن معرفة ونظر ، وهو إلى هذا متفائل جداً بزواجه ويرجو أن تستقر به حياة زوجية دائمة ، أليس كذلك ؟ . بلى وهو يشعر أنه سيكون زوجاً طيباً وستكون زوجة طيبة وسيجد رضوان فى

مقبل الأيام بيتا سعيداً ينمو فيه وينضج ، لقد دار كثيراً وأن له أن يستكن ، فى غير الظروف التى اكتنفت زواجه لم يكن يتردد عن أن يحتفل به احتفالاً شاملاً لشتى ألوان البهجة والسرور ، ليس كهلاً ولا فقيراً ولا هو من «يدعون» كراهية الليالى الملاح حتى يرضى بهذا الحفل الموحش الصامت الذى هو بالمأتم أشبه ، ولكن مهلاً ، فللضرورة أحكام ، وليزج تقشفه . هذا تحية لذكرى فهمى .

وكان لقاء مريم بخديجة وعائشة - بعد فراق طال أعواما - مؤثراً على تحفظه ولم يخل من حرج بين . تبادلن القبلات والتهانى ، وتحادثن طويلاً فشرقن وغربن ، ولكنهن تجنبن الماضى ما استطعن إلى ذلك سبيلاً . وكانت اللحظات الأولى أخرجها جميعاً . فتوقعت كل واحدة منهن ترديد الذكرى ماضية على نحو يثير عتاباً أو ملاماً ، ماذا دعا إلى تقاطعهن أو لم تعكر الجو ، ولكنها مرت بسلام ، ثم وجهت مريم الحديث بلباقة إلى ثياب خديجة ورشاقة عائشة التى لا زالت تحافظ عليها رغم إنجابها ثلاثة ، ثم سألت مريم وأمها عن «الوالدة» ، فكان الجواب أنها بخير ولم يزدن حرفاً . ونظرت عائشة إلى صديقتها القديمة بعين ملؤها المودة والحنان وقلب متعطش إلى حب الناس دواما ، ولولا إحساس بالإشفاق لسأقت الكلام إلى الذكريات الماضية ولضحكت ملء فيها ، أما خديجة فجعلت تسترق إليها نظرات متفحصة ، ومع أن مريم ظلت سنوات لا تخطر لها على بال فإن أنباء زواجها من ياسين أطلقت لسانها بالملاحظات المرة ، وراحت تذكر عائشة بواقعة «الإنجليز» وتتساءل عما أعمى ياسين وأصمه ! على أن شعور خديجة العائلى المرهف الذى يقدم سائر مزاياها ، لم يسمح لها بلوك شىء من ذلك على مسمع من آل شوكت غير مستثنية زوجها نفسه ، حتى نبهت أمها إلى ذلك قائلة «سواء رضينا أم لم نرض فستصبح مريم من أسرتنا! . . ولا عجب ، فما زالت خديجة حتى بعد إنجاب عبد المنعم شوكت وأحمد شوكت تعد آل شوكت «أغراباً» لدرجة ما .

وجاء المأذون فى مطلع المساء، ثم عقد الزواج، ودارت أكواب الشرابات، وانطلقت زغرودة واحدة، وتلقى ياسين التهاني والدعوات الصالحات، ودعيت العروس إلى مقابلة «سيدها الكبير» وآل زوجها، فجاءت محاطة بأמהا وخديجة وعائشة وقبلت يده وصافحت الآخرين وعند ذاك قدم السيد لها هدية الزواج، أسورة ذهبية ذات فصوص دقيقة من الماس والزمرد، واستمرت الجلسة العائليه وقتاً غير قصير، وحوالى التاسعة أخذ الحاضرون فى الانصراف تباعاً، ثم جاء حنطور فحمل العروسين إلى بيت ياسين بقصر الشوق الذى جهز دوره الثالث لاستقبال العروس، وظن الجميع أن الستار قد أسدل على الزواج الثانى لياسين بخيره وشره؛ ولكن حدث بعد مرور أسبوعين من تاريخ الزواج أن شهد بيت المرحوم محمد رضوان حفلاً آخر لزواج جديد، عُد بحق مفاجأة غريبة فى بيت السيد أحمد والسكرية وقصر الشوق بل فى حى بين القصرين جميعاً!! فعلى حين غرة - ودون سابق إنذار - لم يدر الناس إلا وبهيجة تعقد زواجها على بيومى الشربتلى!.. عجب الناس لهذا الزواج كل العجب، وكأنما كانوا يفتنون - لأول مرة - إلى أن دكان بيومى الشربتلى تقع على ناصية عطفة بيت آل رضوان تحت إحدى مشربيات البيت العتيقة مباشرة، فوقفوا أمام هذه الحقيقة يتساءلون، وحق للناس أن يعجبوا، فالعروس أرملة رجل عرف فى حياته بينهم بالطيبة والتقوى، وهى معدودة من «سيدات» الحى المحترمات رغم ولعها بالتبرج، فضلاً عن بلوغها الخمسين من عمرها، بينما كان الزوج من العامة ذوى الجلايب يبيع الخروب والتمر هندى فى دكان صغير، ولم يجاوز الأربعين من عمره إلى كونه زوجاً رسخت قدمه فى الحياة الزوجية عشرين عاماً، أنجب خلالها تسعا من الإناث والذكور! كل ذلك أثار القيل والقال!! فخاض الناس - دون تورع - فى مقدمات الزواج التى لم يشعر بها أحد، متى وكيف بدأت ثم كيف نضجت حتى

انتهت بالزواج؟! وأى الطرفين كان البادئ الداعى وأيهما كان المستجيب الملبى؟! . .

قال عم حسنين الحلاق، وكان دكانه يقع فى الجانب الآخر من الطريق لصق سبيل بين القصرين إنه كثيراً ما كان يرى ست بهيجة واقفة أمام دكان بيومى تشرب الخروب، ربما تبادلا حديثاً قصيراً، فلا يظن - لحسن نيته - إلا خيراً! . . وقال أبو سريع صاحب المقل، وكان دكانه يتأخر ميعاد إغلاقه عن بقية الدكاكين: بأنه - أستغفر الله - لاحظ مرات أن قوما يتسللون ليل إلى داخل البيت، ولكنه لم يكن يعلم أن بيومى بينهم! وتكلم درويش بائع الفول، وتكلم الفولى اللبان، ومع أنهم تظاهروا بالراء للأب المعيل وانتقدوا - بمرارة - الرجل الأخرق الذى تزوج امرأة فى سن أمه، فإنهم فى قرارة النفس نفسوا عليه حظه ونقموا عليه ارتفاعه عن طبقتهم بهذه الحيلة «غير المناسبة»، ثم طال الحديث بعد ذلك عن تقدير «ميراثه» المنتظر فى البيت، وعن الغنائم المحتملة من نقود وحلى!

أما بيت السيد وبيت السكرية بل وبيت قصر الشوق فقد زلزلوا زلزالاً شديداً، يا للفضيحة! . . هكذا هتفت ألسنتهم، وغضب السيد أحمد غضباً أربع آل بيته فتجنبوا مخاطبته أياماً متتابعات، أليس من حق بيومى الشربلى أن يدعى قرابته من الآن فصاعداً؟ ملعون ياسين وملعونة شهواته، بيومى الشربلى أصبح «عمه» وأنف الجميع فى الرغام، وصاحت خديجة عندما تلقت النبأ «يا خبر أسود»، ثم قالت لعائشة «منذا يلوم نينة بعد الآن؟ إن قلبها لا يكذبها أبداً»، وأقسم ياسين - بين يدي أبيه - على أن الأمر وقع على غير علم منه ولا من زوجه، وأنه أحزنها حزناً فاق كل تصور، ولكن ما حيلتها؟! ولم تقف الفضيحة عند هذا الحد، فإنه ما كادت زوجة بيومى الأولى تعلم بالخبر حتى طاش عقلها، فغادرت بيتها كالمجنونة سائقة أمامها ذريتها جميعاً، ثم انقضت

على بيومى فى دكانه، فنشب بينهما عراك عنيف استعمل فيه اللسان واليد والقدم والزعق والصراخ على مرأى ومسمع من الأطفال الذين جعلوا يعولون ويستجدون بالمارة حتى تجمهر الناس أمام الدكان السابلة وأصحاب الدكاكين والنساء والأطفال، فخلصوا بين الزوجين وجروا المرأة جراً إلى الطريق، فوقفت تحت مشربية بهيجة مشقوقة الجلباب مزقة الملاءة منفوشة الشعر دامية الأنف، ثم رفعت رأسها إلى النوافذ المغلقة وأطلقت لسانها كالسوط المحملة أطرافه بالرصاص المتفوق فى السم، والأدهى من هذا كله أنها برحت موقفها رأساً إلى دكان السيد أحمد بصفته والد زوج بنت زوجها، وتوسلت إليه بلهجة خطائية باكية أن يستعمل نفوذه لإقناع زوجها فى الرجوع عن غيه، فاستمع السيد إليها وهو يكظم غيظه وحزنه على ما آل إليه أمره، ثم أفهمها برقة - ما استطاع - أن هذا الأمر كله خارج عن دائرة نفوذه بخلاف ما تتصور، وما زال بها حتى صرفها عن الدكان وهو يغلى من الحنق، على أنه رغم حنقه فكر طويلاً وهو بين الحيرة والتساؤل فيما دفع بهيجة إلى هذا الزواج الغريب، خاصة وهو يعلم علم اليقين أنه لم يكن يعز عليها إرضاء قلبها لو كان به رغبة إلى بيومى الشربتلى دون حاجة إلى تعريض نفسها وآلها لشتى القلاقل بالاقتران منه، لم أقدمت على هذه الحمافة غير مبالية بزواج الرجل وعياله ولا عابئة بعواطف ابنتها وآلها الجدد كأنما قد أصابها مس؟ ألا يكون الإحساس المحزن بالكبر هو الذى جعلها تنزع إلى الزواج، بل والتضحية بكثير مما تملك جرياً وراء سعادة كان يضمنها لها الشباب الذى تخلقى عنها؟ تأمل هذه الفكرة فى حزن واكتئاب، وذكر مذلتة بين يدى زنوبة العوادة التى أثبت أن تجود عليه بنظرة عطف حتى حملها إلى العوامة، تلك المذلة التى زعزعت ثقته بنفسه وحملته - على طمأنينته الظاهرة - على التجهم للزمان الذى سبق فتجهمه.

على أى حال لم تتمتع بهيجة بزواجها طويلاً!!
مع نهاية الأسبوع الثالث منه شكت دماً فى ساقها، ثم تبين
بالكشف الطبى أنها مصابة بمرض السكر فنقلت إلى قصر العيني،
وترامت الأخبار عن خطورة حالها أياماً، ثم وافاها الأجل المحتوم.

١٧

أمام سراى آل شداد وقف كمال متأبطاً حقيبة صغيرة، فى بدلة
رمادية أنيقة، وحذاء أسود لامع، وقد استقام طربوشه فوق رأسه
الكبير. . بدا طويلاً نحيفاً، وبرز عنقه من فوق بنية القميص غير عابىء
بحمل الرأس الكبير والأنف العظيم. وكان الجو لطيفاً تتخلله نسائم
باردة تؤذن باقتراب ديسمبر، وكان فى السماء سحب متفرق ناصع
البياض يتحرك وانيا فيحجب شمس الصباح حيناً بعد حين. وقف
كمال وقفة المنتظر وعيناه متجهتان نحو الجراج، حتى خرجت منه
الفيات يسوقها حسين شداد ثم دارت فى شارع السرايات ووقفت
أمامه، وأخرج حسين شداد رأسه من نافذتها وهو يسأل كمال:
- ألم تجيئاً بعد؟

نفخ فى البوق ثلاثاً، ثم عاد يقول وهو يفتح الباب:

- تعالى اجلس إلى جانبى. .

ولكن كمال اكتفى بإدخال الحقيبة وهو يغمغم «صبراً». وترامى إليه
صوت بدور من ناحية الحديقة، فالتفت صوبه فرأها مقبلة تركض وفى
أثرها عايذة. . أجل المعبودة، تخطر بقوامها البديع فى فستان سنجابى

قصير على أحدث موضحة، توارى أعلاه تحت درّاعة من الحرير كحليّة اللون كشفت عن ساعديها الخمريتين الصافيتين، وكانت هالة شعرها الأسود تحديق بقذالتها وعارضيهما وتنوس بحركة مشيتها نوسانا تموجياً، أما أسلاك قصتها الحريرية فاستكنت على الجبين كأسنان المشط، وفي وسط هذه الهالة بدا الوجه البدرى فى طابع من الحسن أنيق ملائكى كأنه سفير سام لدولة الأحلام السعيدة. تسمر فى موضعه تحت تأثير التيار المغناطيسى، على حال بين اليقظة والنوم، ولم يبق من الدنيا فى وعيه إلا عاطفة امتنان وجيشة وجدان، وجعلت هى تقترب فى خفة وتبخر كأنها نغمة حلوة مجسمة حتى سطعه من أعطافها عبير باريسى، ولما التقت الأعين لمعت فى ناظريها وشفتيها المضمومتين ابتسامة موسومة بالبشاشة والهدوء والأرستقراطية معاً فرد عليها كمال بابتسامة حائرة وسجدة من رأسه، عند ذاك خاطبها حسين قائلاً:

- اجلسى أنت وبدور فى المقعد الخلفى . .

تأخر كمال خطوة ففتح باب السيارة الخلفى ووقف منتصب القامة كأحد الحاشية، فكانت مكافأته ابتسامة وكلمة شكر بالفرنسية، وانتظر حتى دخلت بدور فالمعبودة، ثم أغلقه واندس إلى جانب حسين، ونفخ حسين مرة أخرى وهو ينظر صوب القصر، فما لبث أن جاء البواب حاملاً سلة صغيرة فوضعها لصق حقيبة كمال فيما بينه وبين حسين، فقال الأخير ضاحكاً وهو ينقر بأصبعه على السلة والحقيبة:

- ما جدوى رحلة بلا طعام؟!!

وزمجرت السيارة وهى تتحرك، ثم انطلقت إلى شارع العباسية وحسين شداد يقول مخاطباً كمال:

- عرفت عنك أشياء كثيرة، اليوم يتاح لى أن أضيف إليها معلومات جديدة عن معدتك، ويبدو لى أنك رغم نحافتك أكل، فهل ترانى مخطئاً؟

فقال كمال باسمًا ، وكان سعيدا منشراحًا فوق مطمح البشر :
- انتظر حتى تعرف بنفسك ..

سيارة واحدة تحملهما معًا ، مشاركة من نوع ما تعز فيما عدا
الأحلام ، تهمس الأمانى : لو جلست أنت فى المقعد الخلفى وجلست
هى فى المقعد الأمامى للمأت عينيك منها طوال الطريق ولا رقيب ، لا
تكن طماعا جحودًا واسجد حمدًا وشكرًا ، استنقذ رأسك من شتى
الفكر وخلص نفسك من تيار الوجد وعش بكل وعيك فى الساعة
الراهنة ، أليست ساعة بالعمر أو أكثر؟

- لم أستطع أن أدعو حسن وإسماعيل إلى رحلتنا هذه !
نظر كمال إليه كالمسائل دون أن ينبس . بيد أن قلبه خفق فى سرور
وحياء لهذا الامتياز الذى خص به وحده ، على حين استطرد حسين
قائلًا بلهجة المعتذر :

- السيارة كما ترى لا يمكن أن تتسع للجميع ..

فقال كمال بصوت خافت :

- هذا واضح ..

فعاد الآخر يقول باسمًا :

- وإذا لم يكن من الانتخاب بد فانتخب من يشابهك ، ولا شك أن
ميولنا متقاربة فى هذه الحياة ، أليس كذلك؟

فقال كمال بوجه وشت أساريره بالفرحة التى غمرت قلبه :

- بلى ..

ثم وهو يضحك :

- غير أنى قانع بالرحلة الروحية ، أما أنت فيبدو أنك لن تقنع حتى
تصل الرحلة الروحية بالرحلة حول الأرض ..

- ألا تهفو نفسك إلى السباحة فى جنبات الأرض الواسعة؟
فكر كمال قليلاً، ثم قال :

- يخيل إلى أنى مطبوع على حب الاستقرار وكأننى أجفل من
فكرة الرحلات، أعنى من الحركة والاضطراب لا من الرؤية
والاستطلاع، وددت لو كان من الميسور أن يطوف بى العالم
حيث أنا!

ضحك حسين شداد ضحكته اللطيفة المنبعثة من القلب، وقال :
- قف فى منطاد ثابت إن استطعت، وانظر إلى الأرض وهى تدور
من تحتك!

تملى كمال ضحكة حسين اللطيفة الجذابة ملياً، فوردت ذهنه صورة
حسن سليم وراح يقارن بين هذين اللونين من الأرستقراطية: أحدهما
يمتاز باللفظ والبشاشة، والآخر يتسم بالتحفظ والكبرياء، وكلاهما
بعد ذلك جليل . وقال كمال :

- من حسن الحظ أن الرحلات الفكرية لا تقتضى التنقل حتماً . .
فرفع حسين شداد حاجبيه فيما يشبه الشك، غير أنه عدل عن متابعة
الموضوع قائلاً بابتهاج:
- المهم الآن أننا نقوم برحلة قصيرة معاً، وأن ميولنا متقاربة فى هذه
الحياة . .

وما يدرى إلا والصوت العذب يجىء من وراء قائلاً:

- وبالاختصار فإن حسين يعبك كما تحبك بدور . . !

نفذت هذه الجملة المعطرة بالحب الملحنة بالصوت الملائكى فى قلبه
فطيرته نشوة وطرباً، كالنغمة الساحرة التى تند فجأة فى تضاعيف أغنية
فوق المنتظر والمألوف والمتخيل من الأنغام، فتترك السامع بين العقل
والجنون. المعبود يعبث بألفاظ الحب سادراً، يلقيها عليك غافلاً عن أنه

يلقى مغنسيوما على قلب يحترق، استرجع صداها لتستعيد رنين الحب
فى أوتار ثغره، والحب لحن قديم غير أنه يضحى جديداً عجباً فى ترنمة
خالقة، يا إلهى؟! إننى أفنى من فرط السعادة .

قال حسين معلقاً على قول أخته :

- عايذة تترجم أفكارى بلغتها النسائية الخاصة . .

انطلقت السيارة إلى السكاكينى فإلى شارع الملكة نازلى ثم إلى شارع
فؤاد الأول، ومنه مرقت إلى الزمالك فى سرعة عدها كمال جنونية :

- فى السماء غيم، ولكننا فى حاجة إلى مزيد منه لنضمن نهاراً سعيداً
فى سفح الهرم .

وعلا الصوت البديع وهو يخاطب بدور فيما بدا قائلاً:

- انتظرى حتى نصل إلى الهرم، وهناك أجلسى معه كيفما يحلو
لك . . فسألها حسين ضاحكاً :

- ماذا تريد بدور؟

- تريد يا سيدى أن تجلس مع صاحبك . .

صاحبك! لم لم تقولى «كمال»؟ هلا أسعدت الاسم بما لا يطمح إليه
صاحبه؟ وخاطبة حسين قائلاً:

- أمس سمعها بابا وهى تسألنى: هل يجىء معنا أنكل كمال إلى
الهرم؟ فسألنى من يكون كمال؟ ولما أجبته سألتها: «أتحبين أن
تزوجى أنكل كمال؟» فأجابه بكل بساطة «نعم!» .

فالتفت كمال إلى الوراء، ولكنها تراجعحت حتى التصقت بمسند
المقعد وأخفت وجهها فى كتف أختها، فتزود كمال من الوجه البديع
بنظرة خاطفة ثم أعاد رأسه، وهو يقول بلهجة الرجاء:

- لعلها عند الجد لا تنسى كلمتها!

ولما بلغت السيارة طريق الجيزة ضاعف حسين من سرعتها فعلاً

أزیزها وساد الصمت، رحب کمال بالصمت لیفرغ إلى نفسه
 ویتملی سعادته، کان أمس حدیث الأسرة فاختاره ربها زوجاً للصغيرة،
 یا أغارید الزهور والسعادة، احفظ عن ظهر قلب کل كلمة تقال . . املاً
 نفسك بعبیر باریس، زود أذنك بالهدیل والبغام، علك تعود إليها إذا
 عادت لیالی السهاد، كلمات المعبودة عاطلة عن حكمة الحكماء ودرر
 الأدباء، فما بالها تهزك حتی الأعماق وفي فؤادك تفجر ینابیع السعادة!
 هذا الذی جعل السعادة سراً تیه فی العقول والأفهام، أيها المجدون
 اللاهثون وراء السعادة إنی وجدتها فی الكلمة الفارغة والرطانة الغامضة
 والصمت أيضاً وفي لا شیء، رباه ما أعظم هذه الأشجار الباسقة على
 الجانین تتعانق أعاليها فوق الطریق فتتشر سماء من الخضرة الیانة،
 وهذا النیل الجاری مكتسباً من وشى الشمس غلالة من اللالی، متى
 رأیت هذا الطریق آخر مرة؟ فی رحلة إلى الهرم وأنا فی السنة الثالثة،
 فی كل رحلة عاهدت نفسی بالعودة إليه منفرداً، وراءك تجلس من ترى
 بوحیها كل شیء جدیداً وجمیلاً حتی مجرى الحیاة الأثرية فی الحی
 العتیق، هل لك أمنية فوق ما أنت فیة؟ . . نعم: أن تواصل السیارة
 انطلاقتها على هذه الحال التی نحن علیها إلى الأبد، رباه أهذا هو الجانب
 الذی طالما أعیاك وأنت تتساءل عما تريد من هذا الحب؟ هبط علیك من
 وحى الساعة یكتنفه المحال، أسعد بالساعة المتاحة، ها هو الهرم یلوح
 من بعيد صغیراً، وعما قلیل تقف عند قدمیه كالنملة عند أصل الشجرة
 الفارعة . .

- نحن ذاهبون إلى زیارة قرافة جدنا الأول!

فقال کمال ضاحكاً:

- لنقرأ الفاتحة بالهیر وغليفية . .

فقال حسین ساخراً:

- وطن أجلّ مخلفاته قبور وجثث! .. (وهو يشير صوب الهرم)
انظر إلى الجهد الضائع ..

قال كمال بحماس:

- ذلك الخلود! ..

- أوه .. سوف تنشط كعادتك للدفاع، أنت وطنى لحد المرض، لن
نختلف فى هذا، ربما كان أحب إلى أن أكون فى فرنسا من أن أكون
فى مصر ..

فقال كمال وهو يوارى ألمه تحت ابتسامة رقيقة:

- ستجد هنالك الفرنسيين أعظم أم الأرض وطنية! ..

- نعم، الوطنية مرض عالمى، لكنى أحب فرنسا نفسها، وأحب فى
الفرنسيين مزايا لا تمت إلى الوطنية بسبب ..

هذا محزن مؤسف حقا بيد أنه لا يثير حفيظته، لأنه صادر عن حسين
شداد .. إسماعيل لطيف يحنقه أحياناً باستهائته .. حسن سليم يغضبه
أحياناً بتكبره .. أما حسين شداد فيحظى برضاه على أى حال من
الأمر.

وقفت السيارة غير بعيد من سفح الهرم الأكبر منضمة إلى صف
طويل من السيارات الفارغة، ولاح خلق كثيرون هنا وهناك، تفرقوا
جماعات صغيرة، ومنهم من امتطى حماراً أو جملاً أو تسلق الهرم،
غير باعة ومكاريين وجمالين، أرض واسعة لا تحد إلا أن الهرم انطلق
فى وسطها كمارد خرافى، أما تحت المنحدر من الناحية الأخرى فقد
ترامت المدينة، رءوس أشجار وخط مياه وأسطح عمارات، ترى أين
يقع بين القصرين من هذا كله؟ والبيت القديم؟ أين أمه وهى تسقى
الدجاج تحت سقيفة الياسمين؟

- فلتترك كل شىء فى السيارة لتتجول أحراراً ..

غادروا السيارة، ومضوا صفاً واحداً بدأ من السيارة بعائدة فحسين ثم بدور، وأخيراً كمال الذى أمسك بيد صديقه الصغير، وطافوا بالهرم الأكبر متصفحين أركانه ثم أوغلوا فى الصحراء. وكانت الرمال تقاوم أقدامهم فتعرقل انطلاقتهم، غير أن الهواء هفا لطيفاً منعشاً، وراوحت الشمس بين الظهور والاختفاء، وانتشرت تجمعات السحب فى آفاق السماء ترسم فى اللوحة العلية صوراً تلقائية تعبت بها يد الهواء كيفما اتفق. قال حسين وهو يملأ رثيته بالهواء:

- جميل .. جميل ..

ورطنت عائدة بالفرنسية، فأدرك كمال بمعلوماته المحدودة فى تلك اللغة أنها تترجم قول أخيه، وكان الرطانة عادة مألوفة لديها، فخففت من غلوائه فى التعصب للغة القومية من ناحية، وفرضت نفسها على ذوقه كأمانة من أمارات الحسن النسائي من ناحية أخرى. قال كمال بتأثر، وهو يتأمل ما حوله:

- جميل حقاً، سبحان الله العظيم!

فقال حسين ضاحكاً:

- إنك تجد دائماً وراء الأمور إما الله وإما سعد زغلول ..

- أظن أنه لا خلاف بيننا فيما يتعلق بالأول!

- ولكن دأبك على ذكره يضيف عليك مسحة دينية خاصة كأنك من رجال الدين، (ثم بلهجة تسليم) فيم العجب وأنت من حى الدين؟!

أتكمن وراء هذه الجملة سخرية ما؟ وهل يمكن أن تشاركه عايدته فى سخريته؟ ترى ما رأيهما فى الحى القديم؟ وبأى عين تنظر العباسية إلى بين القصرين والنحاسين؟ هل مسك الخجل؟ مهلاً إن حسين لا يكاد يبدى أى اهتمام بالدين، المعبودة فيما يبدو أقل اهتماماً منه، ألم تقل

يومًا إنها تحضر دروس الدين المسيحى فى الميردى ديه وأنها تشهد الصلاة وترغم بأناشيدها؟ ولكنها مسلمة! مسلمة رغم أنها لا تعرف عن الإسلام شيئًا يذكر! ما رأيك فى هذا؟ أحبها، أحبها لحد العبادة، وأحب دينها رغم وخز الضمير، أعترف بهذا مستغفرًا ربى!

أشار حسين بيده إلى ما يحيط بهم من أى الجمال والجلال، ثم قال: - هذا ما يستهوينى حقًا، أما أنت فمجنون بالوطنية، قارن بين هذه الطبيعة الجليلة وبين المظاهرات وسعد وعدلى واللوريات المحملة بالجنود!

فقال كمال باسم:

- الطبيعة والسياسة كلتاها شئ جليل! ..

تساءل حسين فجأة كأنما قد تذكر بتداعى المعانى أمرًا هامًا:

- كدت أنسى، لقد استقال زعيمك!

فابتسم كمال ابتسامة حزينة ولم يجب، فقال الآخر بقصد إغاضته:

- استقال بعد أن ضيع السودان والدستور، هه؟!

قال كمال بهدوء لم يكن يُنتظر منه فى غير هذه الظروف:

- كان قتل سير لى ستاك ضربة موجهة على وزارة سعد ..

- دعنى أكرر على سمعك ما قاله حسن سليم، قال: إن هذا الاعتداء

مظهر للكرهية التى يضمورها البعض - ومنهم القتلة - للإنجليز،

وسعد زغلول هو المسئول الأول عن تهيج هذه الكراهية!

كظم كمال الغيظ الذى أثاره «رأى» حسن سليم فى نفسه، وقال

بالهدوء الواجب فى حضرة المعبودة:

- هذا هو رأى الإنجليز، ألم تقرأ برقيات الأهرام؟ فليس عجيبًا أن

يردده الأحرار الدستوريون ، إن من مفاخر سعد أن يشير العداوة
ضد الإنجليز . .

تدخلت عايذة متسائلة ، وفي عينيها نظرة عتاب أو تحذير مازجتها
ابتسامة جذابة :

- رحلة أم سياسة؟

فأشار كمال إلى حسين ، وهو يقول معذراً :

- إليك المسئول عن فتح هذا الموضوع . .

فقال حسين ضاحكاً ، وهو يتخلل شعره الحريري الأسود بأصابعه
الرشيقة :

- رأيت أن أقدم تعزيتي في استقالة الزعيم ، هذا كل ما هنالك !

ثم متسائلاً بلهجة جدية :

- ألم تشترك في المظاهرات الخطيرة التي كانت تقوم في حيكم على
عهد الثورة؟

- كنت دون السن القانونية!

فقال حسين بلهجة لم تخل من سخرية لطيفة :

- على أى حال تعد واقعة دكان البسبوسة اشتراكاً في الثورة!

وضحكوا جميعاً ، حتى بدور اشتركت في الضحك محاكاة لهم ،
فصدر عنهم أوركسترا رباعى مكون من بوقين وكمان وصفارة ، وبعد
هنيهة صمت ، قالت عايذة كأنما لتدافع عنه :

- كفاية أنه فقد أخاه! . .

فقال كمال مدفوعاً بشعور الفخار الذى دب فى قلبه ، واستزادة من
عطفهما :

- أجل ، فقدنا خير أسرتنا . .

فعادت تسائله باهتمام :

- كان فى الحقوق . . أليس كذلك؟ ، كم كان يكون عمره لو عاش حتى الآن؟

- كان يكون فى الخامسة والعشرين . . (ثم بلهجة أسيفة) . . كان نابغة بكل معنى الكلمة . .

فقال حسين ، وهو يفرق بأصبعيه :

- كان! . . هذه هى الوطنية ، كيف تتعلق بها بعد ذلك؟!
فقال كمال باسمًا :

- سوف نكون جميعاً فى خبر كان ، ولكن شتان بين ميتة وميتة!

فرقع حسين بأصبعيه مرة أخرى دون تعليق ، يبدو أنه لا يرى فى قوله معنى ، ماذا أقحم حديث السياسة عليهم؟ لم يعد به ما يسر ، شغل الشعب بعداوته الحزبية عن الإنجليز ، سحراً لهذا كله ، يخلق بمن يتنسم الفردوس ألا يكرب صدره بهموم الأرض ، ولو إلى حين ، أنت تمشى فى معية عابدة فى صحراء الهرم ، تأمل هذه الحقيقة الرائعة واهتف بها حتى تسمع بناء الهرم ، معبود وعابده يسيران معاً فوق الرمال ، العابد من شدة الوله يكاد يذروه الهواء والمعبود يتسلى بعد الحصى ، لو كان مرض الحب معدياً ، ما باليت بالأمه ، الهواء يهفو بأهداب فستانها ويتخلل هالة شعرها ويسرى فى أعماق صدرها . . ألا ما أسعد الهواء! أرواح العاشقين فوق الهرم تبارك القافلة معجبة بالمعبود رائية للعابد مرددة بلسان الزمان : ليس أقوى من الموت إلا الهوى ، تراها على بعد أشبار منك ولكنها فى الحق كالأفق تخاله منطبقاً على الأرض وهو فى ذروة السماء يحلق . . كم منيت النفس بأن تمس فى هذه الرحلة راحتها ، ولكن يبدو أنك سترحل عن هذه الدنيا قبل أن تعرف مسها ، لم لا تكون شجاعاً فتتهوى إلى انطباعة قدمها فتلثمها؟ . . أو تأخذ منها حفنة

فتجعلها حجاباً يقى من آلام الحب فى لىالى الفكر؟ وأسفاه!! كل
الدلائل تشير إلى أنه لا اتصال بالمعبود إلا بالتراتيل أو الجنون، فرتّل أو
جُنْ . .

شعر باليد الصغيرة تجذب يده، فنظر إليها، فرفعت نحوه ذراعيها
داعية إياه إلى حملها، فانحنى فوقها ثم رفعها بين يديه غير أن عايدة
قالت معترضة:

- كلا، بدأ التعب يساورنا، فلنسترح قليلاً .

على صخرة عند رأس المنحدر المفضى إلى أبى الهول جلسوا على
نفس الترتيب الذى ساروا عليه، مد حسين ساقيه غارزا كعبيه فى
الرمال، جلس كمال واضعاً رجلاً على رجل ضاماً بدور إلى جنبه،
على حين قعدت عايدة إلى يسار أخيها فتناولت مشطها وراحت تسرح
شعرها وتربت خصلاته بأناملها .

وحانت من حسين نظرة إلى طربوش كمال، فسأله منتقداً:

- لماذا تلبس الطربوش فى هذه الرحلة؟

فترع كمال طربوشه ووضعه فى حجرة قائلاً:

- ليس من المألوف عندى أن أسير بدونه . .

فضحك حسين قائلاً:

- إنك مثال طيب للرجل المحافظ!

تساءل كمال: ترى هل يعنى بقوله مدحاً أم ذمّاً؟ وأراد أن يستدرجه
للإيضاح، ولكن عايدة مالت إلى الأمام قليلاً ملتفتة نحوه لتلقى نظرة
على رأسه فنسى ما كان بسبيله، وتحول انتباهه إلى منطقة الرأس فى
قلق، إن رأسه يبدو الآن حاسراً فيكشف عن ضخامته ويعرض شعره
الأجرد العاطل عن الزينة، وها هما العينان الجميلتان ترنوان إليه، فأى
أثر يعكسه عليهما؟ تساءل الصوت الموسيقى:

- لماذا لا تربي شعر رأسك؟

سؤال لم يخطر له على بال من قبل ، هكذا رأس فؤاد جميل الحمزاوى وجميع الرفاق بالحى العتيق ، ياسين لم يُر يطلق شعره وشاربه حتى توظف ، هل يتصور أن يلقي أباه كل صباح على مائدة الفطور بشعر مصفف؟!

- ولم أريه؟

فتساءل حسين مفكراً:

- ألا يكون أجمل؟

- ليس هذا بذى بال ..

حسين ضاحكاً:

- يخيّل إلى أنك خلقت لتكون معلماً.

مدح أم ذم ، على أى حال ليهنأ رأسك بالرعاية السامية .

- أنا خلقت لأكون طالباً ..

- جواب جميل .. (ثم رفع طبقة صوته متسائلاً) .. لم تحدثنى عن مدرسة المعلمين حديثاً شافياً ، كيف وجدتها بعد مرور ما يقرب من الشهرين؟

- أرجو أن تكون مدخلاً لا بأس به للعالم التى أتطلع إليها ، وترانى أحاول الآن أن أعرف عن سبيل الأساتذة الإنجليز معانى للكلمات المحيرة مثل «أدب» و«فلسفة» و«فكر» ..

- هذه هى الثقافة الإنسانية التى نتطلع إليها ..

فقال كمال بحيرة:

- ولكنها خضم مضطرب فيما يبدو ، ينبغى أن نعرف الحدود ، ينبغى أن نعرف ما نريد على نحو أوضح ، إنها مشكلة ..

لاح الاهتمام فى عينى حسين الجميلتين وهو يقول :

- الأمر بالنسبة إلى لا يعد مشكلة ، إنى أقرأ قصصاً ومسرحيات فرنسية مستعينا بعائدة على فهم الصعب من نصوصها ، وأستمع معها أيضاً إلى مختارات من الموسيقى الغربية تعزف هى بعضها بمهارة على البيانو ، وقد طالعت أخيراً كتاباً يلخص الفلسفة الإغريقية فى يسر وسهولة ، لست أبغى إلا السياحة للعقل والجسم ، أما أنت فتريد أيضاً أن تكتب ، وهذا يقتضيك أن تعرف الحدود والأهداف ..

- الأدهى من ذلك أننى لا أدرى فيم أكتب على وجه التحديد . !

تساءلت عائدة بلهجة باسمه :

- أتريد أن تكون مؤلفاً؟

فقال وهو يتلقى موجة عالية من السعادة التى عزت على البشر :

- ربما ! ..

- شاعراً أم ناثراً . . (وهى تميل إلى الأمام لتتمكن من رؤيته) . .

دعنى أضمن بفراستى . .

استنفدت الشعر فى مناجاة طيفك ، الشعر لغتك المقدسة فلا أمتنه ، غاضت دموعى يناعيه فى سواد الليالى ، ما أسعدنى فى مرمى ناظريك وما أتعسنى ، إنى أحيا تحت نظرتك كما تحيا اليابسة بمقلة الشمس . .

- شاعر ، أجل أنت شاعر . .

- حقاً؟ كيف عرفت هذا؟

اعتدلت فى جلستها ، فندت عنها ضحكة خافتة كأنها وسوسة الأمانى ، ثم قالت :

- الفراسة بداهة ، فكيف تطالب بتفسير لها؟ !

- إنها تعبث !

قال حسين ذلك وهو يضحك، فبادرت تقول:

- كلا، إذا كان الشاعر لا يعجبك فلا تكُنْه . .

النحلة فطرتها الطبيعة ملكة، البستان مغناها، رحيق الزهر شرابها،
الشهد نفثها، وجزء الأدمى الطائف بعشرها . . لسعة . . لكنها قالت
«كلا» .

عادت تسأله:

- هل قرأت من القصص الفرنسية شيئاً؟

- بعض ما ترجم عن ميشيل زيفاكو، لا أستطيع أن أقرأ الفرنسية كما
تعلمين . .

فقلت بحماس:

- لن تكون مؤلفاً حتى تتقن الفرنسية، اقرأ بلزاك وجورج صاند،
ومدام دي ستال ولوتي، واكتب بعد ذلك قصة . .

فقال كمال باستنكار:

- قصة!؟ إنها فن على الهامش، إنما أتطلع إلى عمل جدى . .

فقال حسين جادا:

- القصة فى أوربا عمل جدى، ثمة كتاب يتفرغون لها دون غيرها من
فنون الكتابة فترفعهم إلى درجة الخالدين، لست أهرف بما لا
أعرف، ولكن أستاذ اللغة الفرنسية أكد لى ذلك . .

هز كمال رأسه الكبير فى شك، فاستطرد حسين قائلاً:

- حاذر أن تغضب عايده، إنها قارئة معجبة بالقصة الفرنسية، بل إنها
بطلة من بطلاتها!

فمال كمال إلى الأمام قليلاً، ومد إليها بصره ليقراً أثر قول حسين
فيها مغتنماً الفرصة المتاحة ليملاً عينيه من منظرها البهيج، ثم تساءل:

- كيف كان ذلك؟

- إن القصة تستغرقها استغراقًا غريبًا ، فرأسها مفعم بحياة خيالية ،
مرة رأيتهما تختال أمام المرأة ، فسألتهما عما بها؟ فأجابتنى «هكذا
كانت تسير أفروديت على ساحل البحر بالإسكندرية!» .

قالت عايدة وهى تقطب تقطية باسمه :

- لا تصدقه ، إنه أغرق منى فى الخيال ، ولكنه لا يرتاح حتى يرمى
بما ليس فى . .

أفروديت؟ . . ما أفروديت يا معبودتى؟! يحزننى وحق كمالك أن
تتخلى نفسك فى صورة غير ذاتك!

قال بإخلاص :

- لا عليك من هذا ، إن أبطال المنفلوطى ويردر هجارد يستأثرون
بخيالى . . !

فضحك حسين ضحكة رائعة ، وهو يهتف :

- ما أحرى أن يجمعنا كتاب واحد! لماذا نبقى على الأرض ما دمنا
نهفو هكذا إلى الخيال؟ عليك أنت أن تحقق هذا الحلم ، لست كاتبًا
ولا أريد أن أكون كاتبًا ، ولكن فى وسعك أنت أن تجمعنا إذا شئت
فى كتاب واحد .

عايدة فى كتاب تكون أنت مؤلفه! صلاة أم تصوف أم جنون؟!
- وأنا؟!

علا صوت بدور فجأة متسائلًا فى احتجاج فضج ثلاثهم
بالضحك ، وقال حسين فى لهجة تنبيه :

- لا تنس أن تحجز مكانًا لبدور!

فقال كمال وهو يضم الصغيرة بساعده فى حنان :

- ستكونين فى الصفحة الأولى . .

تساءلت عائدة وهى ترمى بناظرها إلى الأفق :

- ماذا تكتب عنا؟

لم يدر ماذا يقول ، فدارى ارتبأكه بضحكة وانية ، ولكن حسين أجاب عنه قائلاً :

- كما يكتب المؤلفون ، قصة غرامية عنيفة تنتهى بالموت أو الانتحار . !

يقذفون كرة قلبك بالأقدام وهم يلعبون .

- أرجو أن تكون هذه النهاية من نصيب البطل وحده؟

قالت عائدة ذلك ضاحكة .

البطل أعجز من أن يتصور معبوده فانيا ، وتساءل :

- هل حتم أن تنتهى بالموت أو الانتحار؟

فأجاب حسين ضاحكاً :

- هى النهاية الطبيعية لقصة غرام عنيف ! .

فرارا من الألم أو ضنا بالسعادة تراءى الموت أمنية . قال كالساخر :

- شئ مؤسف حقاً . .

- ألم تكن تعرف هذا؟ ، يبدو أنك لم تجرب الغرام بعد . . !

من لحظات الحياة الحية لحظة يقوم البكاء فيها مقام البنج فى العملية

الجراحية ، وعاد حسين يقول :

- المهم عندى ألا تنسى أن تحجز لى مكاناً أيضاً فى كتابك ولو كنت

بعيداً عن الوطن . .

حدجه كمال بنظرة طويلة ، ثم سألته :

- ألا تزال تراودك فكرة السفر؟

فانساب الجد فى لهجة حسين شداد ، وهو يقول :

- كل ساعة ، أريد أن أحيأ ، أريد أن أسيح على وجهى طولاً وعرضاً
وارتفاعاً وعمقاً ، ثم ليأت الموت بعد ذلك . .

وإن جاء قبل ذلك؟ هل يمكن أن يحدث هذا؟ ما للحزن يكاد أن
يقتلك؟ أنسيت فهمى؟ الحياة لا تقاس بالطول والعرض دائماً، كانت
حياتك لمحة ولكنها كانت كاملة، أو فما جدوى الفضيلة والخلود؟
لكنك حزين لسبب آخر، كأنما عز عليك أن يهون فراقك على
الصديق المتشوق إلى السفر، كيف تكون دنياك من بعده؟ كيف
تكون إذا حال رحيله بينك وبين القصر الحبيب؟ ما أكذب ابتسامة اليوم،
إنها الآن قريبة، صوتها فى أذنك وعبيرها فى أنفك فهل تستطيع أن
توقف عجلة الزمن؟ هل تعيش بقية العمر حائماً من بعيد حول القصر
كالمجانين . .

- إن أردت رأى فأجل سفرك حتى تتم دراستك . .

فقال عايذة بحماس :

- هذا ما قاله له بابا مراراً . .

- هو الرأى الصواب . .

فتساءل حسين متهمكماً

- أمن الضرورى أن أحفظ المدنى والرومانى كى أتذوق جمال
دنياى؟

عادت عايذة تخاطب كمال قائلة :

- شد ما يسخر أبى من أحلامه ، إنه يتمنى أن يراه قضائياً أو عاملاً
معه فى دنيا المال . .

- القضاء . . المال ! . لن أكون قضائياً ، حتى إذا نلت الليسانس
وفكرت جدياً فى اختيار وظيفة فسيكون السلك السياسى وجهتى ،
أما المال فهل تطمعون فى مزيد منه؟ إننا أغنى مما يطيق الإنسان . .

ما أعجب أن تكون ثروة الإنسان أعظم مما يطيق ، قديماً تخيلت أن تكون تاجراً كأبيك وأن تملك خزانة كخزانتته ، لم تعد الثروة من أحلامك ، ولكن ألا تتمنى أن تكون قادراً على تجريد نفسك للمغامرات الروحية؟ ما أتعس حياة تستغرقها مطالب الرزق .

- إن أسرتى جميعاً لا تفهم آمالى ، يرونى طفلاً مدلاً ، قال خالى مرة متهمكماً على مسمع منى «لا ينتظر أن يكون الذكر الوحيد فى الأسرة خيراً من هذا» ، لم هذا كله؟ ، لأننى لا أعبد المال ولأننى أؤثر الحياة عليه ، أرايت؟ ! إن أسرتنا تؤمن بأن أى نشاط لا يؤدى إلى أى زيادة فى الثروة ضرب من العبث الباطل ، وتراهم يحلمون بالألقاب كأنها الفردوس المفقود ، أتدرى لم يحبون الخديو؟ طالما قالت لى ماما : «لو بقى أفندينا على العرش لنال أبوك الباشوية من زمن بعيد» ، والمال العزيز يهون وينفق بلا حساب فى استقبال أمير إذا شرفنا بزيارته . . (ثم وهو يضحك) . . لا تنس أن تسجل هذه الغرائب إذا فرغت يوماً لتأليف الكتاب الذى اقترحتة عليك .

لم يكذب فرغ من حديثه حتى بادرت عايدة تخاطب كمال قائلة :
- أرجو ألا تتأثر فى تأليفك بتحامل هذا الأخ العاق حتى لا تظلم أسرتنا ! فقال كمال بلهجة ساجدة :

- معاذ الله أن ينال أسرتك ظلم على يدي ! وفضلاً عن ذلك فليس فيما قال ما يشين . .

فضحكت عايدة فى ظفر ، على حين ارتسمت على شفתי حسين ابتسامة ارتياح رغم ارتفاع حاجبيه كالدهش . وكان الأثر الذى تركه حديث حسين فى نفسه أنه لم يكن صادقاً كل الصدق فى حملته على أسرتة ، أجل لم يشك فى قوله أنه لا يعبد المال وأنه يؤثر الحياة عليه ، وأبى - إلى ذلك - أن يرجع هذا الخلق إلى وفرة المال وحدها ولكن إلى

اتساع أفق صاحبه أولاً ما دام الشراء لا يحول دون عبادة المال عند الكثيرين ولكنه خيل إليه أن ما ورد في حديثه عن الخديو والألقاب واستقبال الأمراء إنما ورد على سبيل الفخر المدغم في الانتقاد، لا الفخر وحده ولا الانتقاد وحده، كأنما كان يفاخر بها بقلبه وينتقدها بعقله، أو لعله كان يسخر منها حقاً، ولكنه لم يجد غضاضة في التشهير بها أمام شخص لا يشك في أنها تبهره وتفتنه مهما يكن من مجارته له في انتقادها. عاد حسين يتساءل في هدوء باسم:

- أينا سيكون بطل الكتاب، أنا أم عايدة أم بدور؟

هتفت بدور «أنا!»، فقال لها كمال وهو يشد عليها «اتفقنا».. ثم أجاب حسين:

- سيبقى هذا سرّاً حتى يولد الكتاب!

- وأى عنوان ستختار له؟

- حسين حول العالم!

فضج ثلاثهم بالضحك بما ذكرهم هذا العنوان المفتوح باسم تمثيلية «البربرى حول العالم» التي كانت تمثل في الماجستيك، وسأله حسين بالمناسبة قائلاً:

- ألم تعرف الطريق إلى المسرح بعد؟

- كلا، في السينما الكفاية الآن..

قال حسين مخاطباً عايدة:

- إن مؤلف كتابنا غير مسموح له بالسهر خارج البيت إلى ما بعد التاسعة مساءً!

فقال له عايدة متهمكة:

- على أى حال فهو خير من الذين يسمح لهم بالطواف حول العالم! ثم التفتت صوب كمال، وسألته برقة خليقة بجذبه إلى رأيها سلفاً:

- أمن العيب حقاً أن يتمنى أب أن ينشأ ابنه على مثاله فى النشاط والجاه؟! أمن العيب أن نسعى فى الحياة إلى المال والجاه والألقاب والقيم العالية؟

ابقى حيث أنت تسعى إليك المال والجاه والألقاب والقيم العالية كى تسمو جميعاً بلثم موطن قدميك ، كيف أجيب وفى الجواب الذى تودين انتحارى؟ يا ويح قلبك من مرام لا يرام!

- لا عيب فى هذا أبداً . (ثم بعد انقطاع قصير) على شرط أن يوافق مزاج الشخص!

فاستطردت قائلة :

- وأى مزاج لا يوافق هذا؟! والعجيب أن حسين لا يزهّد فى هذه الحياة الرفيعة طموحاً إلى ما هو أرفع منها ، كلا يا سيدى ، إنه يحلم بأن يحيا بلا عمل ، فى فراغ وبطالة! أليس هذا بعجيب؟! ..

تساءل حسين ضاحكاً فى سخرية :

- ألا يعيش هكذا الأمراء الذين تعبدونهم؟

- لأنه ليس فوق حياتهم حياة يتطلع إليها ، أين أنت من أولئك يا تنبل؟

التفت حسين ناحية كمال قائلاً بصوت لم يخل من أثر للغیظ :

- القاعدة المتبعة فى أسرتنا هى العمل على زيادة الثروة ومصادقة ذوى النفوذ فتأمل من وراء ذلك فى رتبة البكوية ، وعليك بعد ذلك مضاعفة الجهد لإغناء الثروة ومصادقة النخبة الممتازة حتى تنال الباشوية ، وأخيراً أن تجعل غايتك العليا فى الحياة التودد إلى الأمراء والقناعة بذلك ما دامت الإمارة لا تنال بالعمل أو اللباقة ، أتدرى كم كلفتنا زيارة الأمير الأخيرة؟ .. عشرات الألوف من الجنيهات ضاعت فى ابتياع أثاث جديد وتحف نادرة من باريس!

فعارضته عايذة قائلة :

- لم ينفق ذلك المال توددًا لأمر من حيث هو أمير فحسب ، ولكن لكونه شقيق الخديو ، فالدافع إلى المجاملة كان الوفاء والصداقة لا التودد والزلفى ، وهو بعد شرف لا يمارى فيه عاقل .

ولكن حسين تمادى فى عناده قائلاً :

- ولكن بابا لا يفتأ يوطد علاقته بعدلى وثروت ورشدى وغيرهم ممن لا يمكن أن يتهموا بالإخلاص للخديو! .. أليس فى ذلك تسليم بالحكمة القائلة بأن الغاية تبرر الوسطة؟ ..

- حسين! ..

هتفت به بصوت لم يسمعه من قبل ، بصوت ثم عن الكبرياء والاستياء والتأنيب ، كأنما أرادت أن تنبهه إلى أن هذا الكلام لا يجوز أن يقال أو فى الأقل أن يجهر به على مسمع من «غريب» فاحمر وجهه خجلاً وألما وفترت السعادة التى حلق فى أجوائها ساعة بالإندماج فى هذه الأسرة الحبيبة ، وكانت هامتها مرفوعة وشفتاها مضمومتين وفى عينيها نظرة موحية بالتقطيب وإن لم يلمح له أثر فى جبينها ، كانت بالجملة غضبى ولكن كما يخلق بالملكة العريقة أن تغضب ، ولم يكن رآها من قبل منفعة ، ولم يكن يتصور أنها تنفعل ، فرنا إلى وجهها فى دهش وارتياح ، وامتلاً إحساساً بالخرج حتى ود لو يتحل عذراً يتنحى به عن متابعة الحديث ، ولكن لم يمض على ذلك ثوان حتى أفاق من غشيته وراح يتملى جمال الغضب الملكى فى الوجه الملائكى ، ويتذوق لفحة الكبرياء واستعلاء الإباء وتجهم السماء ، ثم عادت كأنما لتسمعه هو :

- إن صداقة بابا لمن ذكرت تعود إلى تاريخ قديم سابق على خلع الخديو ..

عند ذلك رغب كمال صادقاً فى أن يبدد هذه السحابة ، فساءل حسين مداعباً :

- إذا كان هذا رأيك فكيف تحتقر سعد لأنه كان أزهرياً؟

فضحك حسين ضحكته الصافية وهو يقول :

- إنى أكره التودد إلى الكبراء ، ولكن لا يعنى هذا أن أحترم العامة . .

إنى أحب الجمال وأزدرى القبح ، ومن المؤسف أن الجمال قل أن يوجد فى العامة ! . .

ولكن عابدة تدخلت فى الحديث قائلة بصوت معتدل :

- ماذا تعنى بالتودد إلى الكبراء ؟ إنه سلوك يعاب على من ليس

منهم ، ولكن أظننا من الكبراء أيضاً ، وليس توددنا إليهم دون توددهم إلينا . .

فتطوع كمال للإجابة عن حسين قائلاً بإيمان :

- هذا حق لا مرأى فيه . .

وما لبث أن نهض حسين وهو يقول :

- حسبنا جلوساً ، هلموا نواصل السير . .

نهضوا فاستأنفوا السير متجهين نحو أبى الهول فى جو ظليل انتشرت تجمعات السحب فى آفاقه حتى تعانقت وحجبت الشمس بستار شفاف فاكتسى منها لونا أبيض ناصعاً يقطر صفاء وملاحة ، والتقوا فى طريقهم بجماعات من الطلبة والأوربيين نساء ورجالا ، فقال حسين مخاطباً عابدة ، ولعله أراد أن يسترضيها بطريق غير مباشر :

- إن الأوربيات يتفرسن فى فستانك باهتمام ، مبسوطه؟

فافتتر ثغرها عن ابتسامة عجب وارتياح ، وقالت بلهجة تنم عن ثقة مكيئة بالنفس وهى ترفع رأسها فى كبرياء لطيف :

- طبعى . . !

فضحك حسين وابتسم كمال ، ثم قال الأول يخاطب الآخر :

- عايذة تعد مرجعاً للذوق الباريسى فى حيننا جميعه . .

فقال كمال وهو لا يزال يبتسم :

- طبعى . .

فكافاته عايذة بضحكة رقيقة خافتة كسجع الحمام ، مسحت عن قلبه الأثر الخفيف الذى تركه النزاع الأرستقراطى البديع ! . . العاقل من يعرف لقدمه قبل الخطو موضعها . فاعرف أين أنت من هؤلاء الملائكة ، المعبود الذى يشرف عليك من فوق السحاب يتعالى حتى على أهله المقربين ، فما وجه العجب فى هذا ؟! ما كان ينبغى أن يكون له أهل أو أسرة ، فلعله اتخذهم ليكونوا وسطاء بين ذاته وبين عابديه ، أعجب به فى هدوئه وحدته وتواضعه وتكبره وإقباله وإدباره ورضاه وغضبه ، كل أولئك صفاته فارو بالعشق قلبك الظامى . انظر إليها ، إن الرمال تعوق مشيتها فتوانت خفتها واتسعت خطواتها وتمايل أعلاها كالغصن الثمل بالنسيم الوانى ولكنها وهبت الأبصار صورة جديدة من محاسن المشى تضارع فى جمالها مشيتها المعروفة فوق فسيفساء الحديقة ، وإذا التفت إلى الوراء فرأيت آثار القدمين اللطيفتين مطبوعة فوق الرمال ، فاعلم أنها تقيم معالم للطريق المجهول يهتدى بها السالكون إلى سبحات الوجد وإشراقات السعادة ، فى زيارتك السالفة لهذه الصحراء كان نهارك ينقضى فى اللعب والوثب سادراً عن نفحات المعانى لأن برعمة قلبك لم تكن تفتحت . . أما اليوم فأوراقها ندية برضاب الهوى تقطر بهجة وتنز ألماً فإن تكن سلبت طمأنينة الجهالة فقد وهبت القلق السامى . . حياة القلب وأنشودة النور . .

- جعت . .

ندت الشكوى عن ثغر بدور ، فقال حسين :

- آن لنا أن نعود ، ما رأيكم ؟! على أى حال أمامنا مسافة طويلة

سيجوع فى نهايتها من لم يجع . .

ولما بلغوا السيارة أخرج حسين الحقيبة والسلة المملوءتين بالطعام، فوضعهما على مقدمة السيارة وراح يزيح الغطاء عن سلتة، غير أن عابدة اقترحت أن يتناولوا الطعام على درجة من درجات الهرم، فمضوا إليه وارتقوا درجة من درجات الأساس فحطوا الحقيبة والسلة في وسطها، وجلسوا على حافتها تاركين أرجلهم تتدلى . بسط كمال جريدة كانت في حقيبته وطرح عليها الطعام الذي جاء به، دجاجتين وبطاطس وجبنا وموزاً وبرتقالاً، ثم تابع يدي حسين وهو يستخرج من السلة طعام «الملائكة»، فإذا به : سندويشات أنيقة، وأكواب أربع، وترموث . . ومع أن طعامه كان أدسم فإنه بدا - في ناظره على الأقل - عاطلاً عن حلية الأناقة فساوره قلق وحياء، وتساءل حسين وهو يرمق الدجاجتين بنظرة ترحاب عما إذا كان صاحبه قد أحضر أدوات مائدة، فأخرج كمال من الحقيبة سكاكين وشوكا وشرع يقطع الدجاجتين شرائح، وهنا نزع عابدة سداة الترموث وراحت تملأ الأكواب الأربع، فإذا بها تمتلئ بسائل أصفر كالذهب، فلم يملك كمال أن يسأل داهشاً:

- ما هذا؟

فضحكت عابدة ولم تجب، أما حسين فقال ببساطة وهو يغمز أخته

بعينه :

- بيرة . . !

- بيرة؟! !

هتف كمال كالخائف، فقال حسين بتحد وهو يشير إلى

السندويشات :

- ولحم خنزير! . .

- أنت تعبت بي! لا أصدق هذا . .

- بل صدق وكُلْ، يا لك من جحود! جثناك بأنفس ما يؤكل وألذ ما يشرب!

أفصحت عينا كمال عن دهش وانزعاج، وانعقد لسانه فلم يدر ماذا يقول، وكان أشد ما يزعجه أن هذا الطعام والشراب جهز في البيت، وبالتالي عن علم أهله ورضاهم!

- ألم تذق شيئاً من هذا من قبل؟

- سؤال في غير حاجة إلى جواب.

- إذن ستذوقه لأول مرة، والفضل لنا!

- هذا محال . .

- له؟

- له؟! . سؤال في غير حاجة إلى جواب أيضاً . .

رفع حسين وعائدة وبدور أكوابهم وشربوا جرعات ثم أعادوها، ونظر الأولان إلى كمال مبتسمين كأنما يقولان له «أرأيت أنه لم يحدث لنا شيء!»، ثم قال حسين:

- الدين! هه؟ كوب البيرة لا يسكر، ولحم الخنزير كله لذة وفوائد، لست أدري ما حكمة الدين في شئون الطعام!

تقلص قلب كمال لوقع هذا الكلام، بيد أنه لم يخرج عن رفته وهو يقول معاتباً:

- حسين . لا تجدف . .

ولأول مرة منذ افتتحت المأدبة تكلمت عائدة فقالت:

- لا تسيء بنا الظن، نحن نشرب البيرة لفتح النفس ليس إلا، ولعل مشاركة بدور لنا تقنعك بحسن نيتنا، أما لحم الخنزير فلذيذ جداً، جربه ولا تكن حنبلياً، لا تزال أمامك فرصة كبيرة كي تطيع الدين فيما هو أهم من هذا كله . .

ومع أن كلامها لم يختلف فى جوهره عن كلام حسين ، فإنه نزل على قلبه المتألم بردا وسلاماً ، وإلى هذا فقد صادف منه نفساً حريصة كل الحرص على ألا تكدر لهم صفوا أو تخذش لهم شعوراً ، فابتسم فى تسامح رقيق ، ومضى يتناول طعامه وهو يقول :

- دعونى أكل الطعام الذى آلفه ، وأكرمونى بالمشاركة فيه .

ضحك حسين ، ثم قال مخاطباً كمال وهو يشير إلى أخته :

- اتفقنا فى البيت على أن نقاطع طعامك إذا قاطعت طعامنا ، ولكن يخیل إلى أننا لم نحسن تقدير ظروفك ، على هذا فإننى سأتحلل من ذلك الاتفاق إكراماً لك ، ولعل عايده أن تقتدى بى . .

فنظر كمال نحوها برجاء ، فقالت باسمه :

- إذا وعدتنى بالألا تسيء الظن بنا . . !

فقال كمال بابتهاج :

- لا عاش من أساء بكم الظن . .

أكلوا بشهوة عظيمة ، حسين وعايده أولاً ثم تشجع كمال بهما فتابعهما ، وكان يقدم الطعام بنفسه إلى بدور التى اكتفت بسندوتش وقطعة من صدر الدجاجة ثم أقبلت على الفاكهة ، ولم يستطع كمال أن يقاوم الرغبة فى استراق النظر إلى حسين وعايده وهما يأكلان ليرى كيف يتناولان طعامهما ، أما حسين فكان يلتهم الطعام دون مبالاة كأنه منفرد ، غير أنه لم يفقد طابعه الممتاز الذى يمثل فى عينى كمال الأرستقراطية المحبوبة المنطلقة على سجيتها ، وأما عايده فقد كشفت عن أسلوب جديد من الرشاقة والأناقة والتهذيب فى طبيعتها الملائكية سواء فى قطع اللحم أو القبض بأطراف الأنامل على السندوتش أو حركات الشغر عند المضغ ، ومضى هذا كله يسيراً هيناً لا أثر للتكلف أو القلق فيه ، الحق أنه انتظر هذه الساعة بتشوف وإنكار كأنما كان فى شك من أنها

تأكل الطعام كسائر البشر . . ومع أن معرفته لنوع الطعام أزعجت ضميره الدينى أیما إزعاج فإنه وجد فى « غرابته » وخروجه عن مألوف ما يتناوله الناس الذين عهدهم مشابهة تربطه بأكله ، فارتاح لها خياله الحائر المتسائل ، وتناوبه شعوران متناقضان ، قلق بادی الأمر وهو يراها تقوم بهذه الوظيفة التى يشترك فيها الإنسان والحيوان ، ثم داخله شىء من الارتياح لما قربت هذه الوظيفة بينه وبينها ولو درجة واحدة ! على أن نفسه لم تغف من علامات الاستفهام عند هذا الحد ، فوجدها تدفعه إلى التساؤل عما إذا كانت تؤدى سائر الوظائف الطبيعية الأخرى ؟ لم يسعه أن يقول لا ، ولم يهن عليه أن يقول نعم ، فأضرب عن الإجابة وهو يعانى إحساساً لم يعرفه من قبل تضمن - فيما تضمن - احتجاجاً صامتاً على نواميس الطبيعة !

- إنى معجب بشعورك الدينى ومثاليك الأخلاقية . .

نظر كمال إليه فى حذر المرتاب ، فقال حسين بتوكيد :

- عن صدق تكلمت لا عن دعاة . .

ابتسم كمال فى حياء ، ثم أشار إلى ما تبقى من السندوتشات والبيرة قائلاً :

- بالرغم من هذا ، فإن احتفالكم بشهر رمضان يفوق كل وصف ، أنوار تضاء ، قرآن يتلى فى بهو الاستقبال ، المؤذنون يؤذنون فى السلامك ، هه ؟

- إن أبى يحيى لىالى رمضان حباً وكرامة واستمسكاً بالتقاليد التى اتبعها جدى ، وإلى هذا فهو وماما يواظبان على الصوم . .

قالت عائدة باسمه :

- وأنا . .

فقال حسين بجذ أريد به السخرية :

- عايذة تصوم يوماً واحداً من الشهر، وربما أفلست قبيل العصر!

فقال عايذة على سبيل الانتقام:

- وحسين يأكل فى رمضان أربع وجبات يومياً، الوجبات الثلاث المعتادة ووجبة السحور!

فقال حسين ضاحكاً، وقد كاد الطعام يسقط من فيه لولا أن رفع رأسه بحركة سريعة:

- أليس غريباً ألا نعرف عن ديننا شيئاً ذا بال؟! لم يكن عند بابا وماما معلومات تستحق الذكر، وكانت مريتنا يونانية، وعايذة تعرف عن المسيحية وطقوسها أكثر مما تعرف عن الإسلام، نحن بالقياس إليك فى حكم الوثنيين... (ثم مخاطباً عايذة)... إنه يقرأ القرآن والسيرة...!

فقالت بلهجة ربما دلت على شىء من الإعجاب:

- حقاً؟! برافو، ولكن أرجو ألا تسيء بى الظن أكثر مما ينبغى، فإننى أحفظ أكثر من سورة...

فغمغم كمال كالحالم:

- بديع، بديع جداً، مثل ماذا؟

فكفت عن الأكل حتى تتذكر، ثم قالت باسمه:

- أعنى أنى كنت أحفظ بعض السور، لا أدري ماذا تبقى منها... (ثم رفعت صوتها فجأة شأن من تذكر شيئاً أعياء طلابه) مثل السورة التى يقول فيها إن ربنا واحد إلخ...

ابتسم كمال، وقدم لها شريحة من صدر الدجاجة فتناولتها شاكراً، ولكنها اعترفت بأنها أكلت أكثر مما تأكل عادة، ثم قالت:

- لو كان الناس يتناولون الطعام عادة كما فى الرحلات لاختفت الرشاقة من الوجود...

فقال كمال بعد تردد :

- إن نساءنا لا تستهوين النحافة . .

فوافقه حسين على رأيه قائلاً :

- ماما نفسها من هذا الرأى ، ولكن عايذة تعد نفسها باريسية . .

عفا الله عن استهانة معبودتى ، شد ما أزعجت نفسك المؤمنة ، كما أزعجتها من قبل خطرات الشك التى صادفتها فى مطالعتك ، هل تستطيع أن تلقى استهانة المعبود بما لقيت به من خطرات الشك من نقد وغضب؟ هيهات ، نفسك لا تنطوى لها إلا على الحب الخالص ، حتى عيوبها فأنت تحبها ، عيوبها؟! لا عيب لها ولو كان ما بها خفة فى الدين واجترأ على المحرمات ، تلك عيوب لو وجدت فى غيرها ، أخشى ما أخشاه ألا تروق فى عينى حسناء بعد اليوم إذا لم يكن بها خفة فى الدين واجترأ على المحرمات ، هل مسك القلق؟ استغفر الله لنفسك ولها ، وقل إن هذا كله عجيب ، عجيب كأبى الهول ، ما أشبه حبك به أو ما أشبهه بحبك ، كلاهما لغز وخلود!!

أفرغت عايذة آخر ما فى الترموث فى الكوب الرابع ، ثم قالت لكمال بإغراء :

- هلا غيرت رأيك؟ ما هى إلا شراب منعش . .

فابتسم ابتسامة اعتذار وشكر ، وعند ذاك خطف حسين الكوب ورفعه إلى فيه ، وهو يقول :

- أنا بدل كمال . . (ثم وهو يتأوه) . . يجب أن نمسك وإلا متنا امتلاء . .

فرغوا من الطعام ، ولكن فضل منه نصف دجاجة وثلاثة سندوتشات ، فخطر لكمال أن يوزعها على الغلمان الذين يتجولون فى المكان ، غير أنه رأى عايذة وهى تعيد السندوتشات مع الأكواب والترموث إلى السلة ،

فلم يربدا من أن يعيد بقية طعامه إلى الحقيبة وقد وردته ذكرى حديث
إسماعيل لطيف عن الروح الاقتصادية لآل شداد! ووثب حسين إلى
الأرض وهو يقول:

- لدينا مفاجأة سارة لك، أحضرنا معنا فونوغرافا وبعض
الأسطوانات لتساعدنا على الهضم، ستسمع أسطوانات أوروبية
من مختارات عابدة وأخرى مصرية مثل «حزر فزر»، و«بعد
العشى»، و«حود من هنا». . . ما رأيك في هذه المفاجأة؟ . .

١٨

انتصف ديسمبر، غير أن الجو لم يجاوز حد الاعتدال إلا قليلاً على
رغم أن الشهر هلاً بعاصفة من الرياح والأمطار والبرد القارص. وكان
كمال يقترب من سراى آل شداد فى خطوات متتدة سعيدة طارحاً معطفه
المطوى على ساعده الأيسر وقد دل مظهره الأنيق - خاصة مع ملاحظة
ميل الجو إلى الاعتدال - على أنه جاء بمعطفه استكمالاً لمظاهر الأناقة
والوجاهة أكثر منه حيلة لتقلب الجو، وكانت شمس الضحى ساطعة
فرجع عنده أن مجلس الأصدقاء سينعقد فى كشك الحديقة - لا فى
الثوى حيث يجتمعون فى الأيام الباردة - وأن الفرص بالتالى ستسمح
لرؤية عابدة التى لا يتاح لقاءها إلا فى الحديقة، على أن الشتاء إذا كان
يحرمه من لقاءها فى الحديقة، فإنه لم يحل دون رؤيتها فى النافذة المشرفة
على الممر الجانبى للحديقة أو فى الشرفة المطلة على مدخل القصر، فى
هذه أو تلك، وعند مقدمه أو حال منصرفه، ربما لمحها وهى معتمدة
الحافة بمرفقيها أو مفترشة راحتها بذقنها، فيرفع نحوها عينيه حائياً رأسه

فى ولاء العابد؁ فترد تحيته بابتسامة رقيقة ذات وميض يضىء له أحلام اليقظة وأحلام المنام. على أمل رؤيتها اختلس من الشرفة نظرة وهو يدخل القصر؁ ثم من النافذة وهو يقطع الممر الجانبى ولكنه لم يجدها لا فى هذه ولا فى تلك؁ فاتجه - وهو يبنى النفس باللقاء فى الحديقة - نحو الكشك حيث رأى حسين جالسا بمفرده على غير العادة. تصافحا وقلبه يشرق ببهجة المودة التى تبعثها فى نفسه مطالعة هذا الوجه الصبيح؁ أليف روحه وعقله؁ واستمع إليه وهو يرحب به فى لهجته المرحبة الصافية قائلا:

- أهلاً بالمعلم! الطربوش والمعطف! لا تنس فى المرة القادمة الكوفية والعصا؁ أهلاً.. أهلاً..

خلع كمال طربوشه ووضعته على المنضدة؁ وطرح المعطف على كرسى وهو يتساءل:

- أين إسماعيل وحسن؟

- إسماعيل سافر إلى البلد مع والده فلن تراه اليوم؁ أما حسن فقد تلفن لى صباحاً بأنه سيتأخر ساعة أو أكثر لكتابة بعض المحاضرات.. أنت تعلم أنه طالب مثالى مثل حضرتك؁ وهو مصمم على نيل الليسانس هذا العام..

جلسا على كرسيين متقابلين مولين القصر ظهريهما وقد وعدا انفرادهما كمال بجلسة هادئة لا شقاق فيها؁ جلسة يرحب صدرها بالتأملات غير أنها ستخلو فى الوقت نفسه من النضال المتعب اللذيذ معاً الذى يدعو إليه حسن سليم؁ والملاحظات التهكمية اللاذعة التى يبعثرها إسماعيل لطيف دون حساب؁ استطرد حسين قائلا:

- أنا على العكس منكما طالب ردىء؁ أجل إنى أستمع إلى المحاضرات مفيداً من قدرتى على تركيز الانتباه؁ غير أنى لا أكاد

أطبق مراجعة كتبى المدرسية، قالوا لى كثيرا: إن دراسة القانون تتطلب ذكاء نادراً، الأخرى أن يقولوا: إنها تتطلب غباء وصبراً. حسن سليم طالب مجد شأن الذين يحدوهم الطموح، طالما تساءلت عما يجعله يحمل نفسه فوق ما تطبق من العمل والسهر، وهو لو شاء - كأمثاله من أبناء المستشارين - لقمع من العمل بما يكفل له النجاح اعتماداً على نفوذ أبيه الذى سيضمن له فى النهاية نيل الوظيفة التى يتطلع إليها، فلم أجد تفسيراً لذلك إلا كبرياءه الذى يحجب إليه التفوق ويدفعه إليه دفعاً لا هوادة فيه، أليس كذلك؟ ما رأيك فيه؟

قال كمال فى صدق:

- حسن شاب جدير بالإعجاب لخلقه وذكائه . .

- سمعت أبى يقول مرة عن أبيه سليم بك صبرى: إنه مستشار فذ عادل، فيما عدا القضايا السياسية . .

صادف هذا الرأى هوى فى نفس كمال، لما سبق إلى علمه من تشيع سليم بك صبرى إلى الأحرار الدستوريين، فقال ساخراً:

- معنى هذا أنه قانونى بارع، ولكنه غير أهل للقضاء .

فضحك حسين ضحكة عالية، وقال:

- نسيت أننى أخطب وفدياً . .

فقال كمال وهو يرفع منكبيه:

- لكن والدك ليس وفدياً! . تصور أن يجلس سليم بك صبرى

للفصل فى قضية عبد الرحمن فهمى والنقراشى!

هل صادف قوله عن سليم بك صبرى ارتياحاً فى نفس حسين؟ نعم

هذا يبدو جلياً فى العينين الجميلتين اللتين لم تألفا الكذب أو الرياء، ولعله راجع إلى المنافسة التى تقوم عادة - مهما اتسمت بالتهذيب

وآداب اللياقة - بين الأنداد، وقد كان شداد بك مليونيرا ومن رجال المال ذوى المكانة والجاه فضلاً عن صلته التاريخية بالخديو عباس، غير أن سليم بك صبرى مستشار فى أكبر هيئة قضائية وفى بلد تفتتها المناصب إلى حد التقديس، فلم يكن بد من أن يتبادل المنصب الرفيع والمال الوفير نظرات الشزر أحياناً. ألقى حسين على الحديقة المترامية أمام ناظره نظرات هادئة يشوبها شئ من الأسف، فقد تجردت جدائل النخيل وتعرت شجيرات الورد، وشحبت الخضرة اللبنة واختفت ابتسامات الزهور من ثغور البراعم، وبدت الحديقة غارقة فى الحزن حيال زحف الشتاء، ثم قال وهو يشير أمامه:

- انظر إلى فعل الشتاء، هذه آخر جلسة لنا فى الحديقة، ولكنك من هواة الشتاء..

إنه يهوى الشتاء حقاً، ولكن عايذة أحب إليه من الشتاء والصيف والخريف والربيع معا، فلن يغفر للشتاء حرمانه من مقابلات الكشك السعيدة، غير أنه قال موافقاً:

- الشتاء فصل جميل وقصير، وفى البرد والغيم والرضا حياة يستجيب لها القلب..

- يخيل إلى أن هواة الشتاء يكونون عادة من ذوى النشاط والاجتهاد، فهكذا أنت، وهكذا حسن سليم..

ارتاح كمال إلى هذا الشتاء ولكنه أراد أن يخص - من دون حسن سليم - بأكثره، فقال:

- ولكنى لا أعطى واجباتى المدرسية إلا نصف نشاطى فحسب، الحق أن حياة العقل أوسع من المدرسة بكثير..

هز حسين رأسه مستحسنًا، وقال:

- لا أظن أن ثمة مدرسة يمكن أن تستهلك الوقت الطويل الذى

تكرسه للعمل يوميًا . . على فكرة: أنا لا أوافقك على هذا الإسراف وإن أكن أغبطك أحيانًا، خبرني ماذا تقرأ الآن . . ؟
ابتهج كمال بهذا الحديث الذي كان - بعد عايده - أحب شيء إلى نفسه وأجاب قائلاً:

- أستطيع أن أقول لك الآن: إن مطالعاتي أخذت تتبع نوعًا من النظام، لم تعد قراءة حرة كيفما اتفق ما بين قصص مترجمة ومختارات شعرية ومقالات نقدية، أصبحت أتلصص سبيلي على قدر من الضوء لا بأس به، فعمدت أخيرًا إلى تخصيص ساعتين كل مساء للقراءة في دار الكتب وهناك أنظر في دائرة المعارف باحثًا عن معاني الكلمات الغامضة الساحرة، كالأدب والفلسفة والفكر والثقافة، مسجلًا في الوقت نفسه أسماء الكتب التي تصادفتني، إنه عالم بديع تذوب فيه النفس شغفًا واستطلاعًا . . !
كان حسين يصغى إليه بانتباه واهتمام طارحًا ظهره على مسند الكرسي الخيزران، واضعًا يديه في جيبي جاكته الكحلية الإنجليزية، وعلى شفثيه العميقتين ابتسامة مشاركة وجدانية صافية، قال:

- جميل جدًا، بالأمس كنت أحيانًا تسألني عما ينبغي أن يقرأ، اليوم جاءت نوبتي لأسألك أنا، هل وضح لك الطريق؟

- رويدا . . رويدا، يغلب على ظني أنني سأنتجه نحو الفلسفة!

ارتفع حاجبًا حسين كالمسائل، ثم قال باسمًا:

- الفلسفة؟ إنها كلمة مثيرة، حذار أن تذكرها على مسمع من إسماعيل! طالما اعتقدت أنك ستنتجه نحو الأدب . .

- لا لوم عليك، الأدب متعة سامية بيد أنه لا يملأ عيني، إن مطلبى الأول الحقيقة، ما الله، ما الإنسان، ما الروح، ما المادة؟!
الفلسفة هي التي تجمع كل أولئك في وحدة منطقية مضيئة كما

عرفت أخيراً، هذا ما أروم معرفته من كل قلبى ، وهذه هى الرحلة الحقيقية التى تعد رحلتك حول العالم بالقياس إليها مطلباً ثانوياً ، تصور أنه سيمكّننى أن أجد أجوبة شافية لهذه المسائل جميعاً! . .
نور الشوق والحماس وجه حسين وهو يقول :

- هذا بديع حقاً ، لن أتوانى عن مرافقتك فى هذا العالم الساحر ، بل لقد طالعت بالفعل فصولاً عن الفلسفة الإغريقية وإن لم أخرج منها بشيء يعتد به ، لست أحب الاندفاع مثلك ، ولكنى أقطف زهرة من هنا وزهرة من هناك وأسلك بين هذا وذاك سبيلاً ، والآن دعنى أصارحك بأنى أخاف أن تقطع الفلسفة ما كان بينك وبين الأدب من أسباب ، فأنت لا تقنع بالاطلاع ولكنك تريد أن تفكر وأن تكتب ، ولن يتاح لك - فيما أعتقد - أن تكون فيلسوفاً وأديباً فى آن . . !

- لن ينقطع ما بينى وبين الأدب ، إن حب الحقيقة لا يناقض تذوق الجمال ، ولكن العمل شيء والراحة شيء آخر ، وقد عزمت على أن أجعل الفلسفة عملى والأدب راحتى . .
فضحك حسين فجأة ، ثم قال :

- هكذا تملص من تعهدك لنا بأن تكتب عنا قصة جامعة!

فلم يملك كمال أن يضحك قائلاً :

- ولكنى آمل أن أكتب يوماً عن «الإنسان» فيشملكم ضمناً!

- لا يهمنى الإنسان بقدر ما يهمنى أشخاصنا ، انتظر حتى أشكوك إلى عايده!

خفق قلبه لدى سماع الاسم خفقة تحية وحنان وشوق ، فانقلب نشوان كأنما قد ثمل روحه بلحن معربد بالطرب ، هل يرى حسين حقاً أنه أتى من الأمر ما يستأهل عليه مؤاخذه عايده؟ ما أجهل حسين! كيف

غاب عنه أنه ما من شعور يستشعره أو فكرة يتأملها أو شوق يستشرفه إلا وأفاقها تترقق بيهاء عابدة وروحها!

- انتظر أنت، وسوف تثبت لك الأيام أنني لن أتخلي عن عهدي ما حييت. . ثم متسائلاً بعد قليل بلهجة جدية:

- لم لا تفكر في أن تكون كاتباً؟ كل الظروف الراهنة والآنية تهيج لك التفرغ لهذا الفن!

فهز حسين كتفيه استهانة، وقال:

- أأكتب ليقرا الناس؟ ولم لا يكتب الناس لأقرأ أنا؟

- أيهما أعظم شأنًا؟

- لا تسألني أيهما أعظم شأنًا، ولكن سلني أيهما أسعد حالاً، إنني أعد العمل لعنة البشرية، لا لأنى كسول، كلا، ولكن لأن العمل مضیعة للوقت وسجن للفرد وحائل منيع دون الحياة، الحياة السعيدة هي الفراغ السعيد. .

حدجه كمال بنظرة دلت على أنه لم يأخذ قوله مأخذ الجد، ثم قال:

- لا أدري ماذا كانت تكون حياة الإنسان لو لا العمل؟. إن ساعة من الفراغ المطلق تنقضى أثقل من عام حافل بالعمل. .

- يا للتعاسة! إن صدق قولك نفسه هو ما يؤكد هذه التعاسة، هل حسبتني أطيق الفراغ المطلق؟ كلا وأسفاه، لا أزال أشغل وقتي بالنافع والضار، ولكنى أمل يوماً أن أعاشر الفراغ المطلق معاشرة سعيدة. .

هم بالتعليق على قوله، ولكن جاء صوت من ورائهما يتساءل «فيم تتحدثان يا ترى»، صوت أو بالحرى نغمة حلوة ما إن تردد في مسمعيه حتى تعزف أوتار قلبه مجاوبة إياها من الأعماق كأنها عناصر مؤلفة في لحن واحد وسرعان ما خلت نفسه من متوائب الفكر فغمرها فراغ مطلق

- ترى أهو الفراغ المطلق الذى يحلم به حسين؟ - هو ذاته لا شىء، ولكنه السعادة كلها . .

والتفت إلى الوراء، فرأى عابدة قادمة على بعد خطوات تتقدمها بدور حتى وقفتا أمامهما، كانت ترتدى فستاناً كمونيا وسترة صوفية زرقاء ذات أزرار مذهبة، وقد تجلت بشرتها السمراء فى عمق السماء الصافية وصفاء الماء المقطر. وهرعت بدور إليه فتلقفها بين ذراعيه وضمها إلى صدره كأنما ليوارى فى عناقها ما اعتراه من هيمان، وعند ذاك جاء خادم مسرعاً فوقف أمام حسين وهو يقول بأدب «التليفون». فقام حسين مستأذناً، ومضى نحو السلامك والخدام يتبعه . .

وهكذا وجد نفسه معها على انفراد - وجود بدور لم يكن ليغير من هذا المعنى - لأول مرة فى حياته، تساءل فى إشفاق: ترى أتبقي أم تذهب؟ ولكنها تقدمت خطوتين حتى صارت تحت مظلة الكشك جاعلة المنضدة بينها وبينه، فدعاها إلى الجلوس بإشارة من يده، ولكنها هزت رأسها بالرفض باسمه، فقام واقفا ورفع بدور بين يديه فأجلسها على المنضدة، ولبت يرت رأس الصغيرة فى ارتباك وهو يبذل كل قوته كي يملك عواطفه ويتغلب على انفعاله . . مضت فترة صمت لم يسمع خلالها إلا حفيف الغصون وخشخشة أوراق جافة متناثرة وزقزقة عصفور، فبدا المكان فيما لمحت عيناه من أرضه وسمائه وأشجاره وسوره البعيد الفاصل بين الحديقة والصحراء وقصة العبودة المسبلة على جبينها والنور البديع المنبثق من حور مقلتيها، بدا كل أولئك كأنه منظر بهيج من حلم سعيد، لم يدر - على وجه اليقين - إن كان حقيقة ماثلة أمام ناظره أم خيالة ملوحة حيال ذاكرته، حتى سجع الصوت الرخيم وهو يقول مخاطباً بدور فيما يشبه التحذير: «لا تضايقيه يا بدور!» فكان جوابه أن ضم بدور إلى صدره قائلاً: «إن تكن هذه هى المضايقة فما أحبها إلى نفسى!»، ورنا إليها وفى عينيه أشواق، وراح يتملى منظرها

أما هذه المرة من الرقباء منعما فيها التأمل كأنما يستكنه أسرارها ويطبع على صفحة مخيلته ملامحها ورموزها، فتاه فى سحر المنظر حتى بدا ذاهلا أو غائبا، وما يدرى إلا وهى تتساءل :

- ما لك تنظر إلى هكذا . ؟!

فأفاق من غشيته، وتجلى فى عينيه الارتباك فابتسمت متسائلة :

- هل تريد أن تقول شيئا؟

هل يريد أن يقول شيئا؟ إنه لا يدرى ماذا يريد، حقا أنه لا يدرى ماذا يريد، وتساءل بدوره :

- هل قرأت فى عينيّ هذا؟

أجابت وثرغها يفتر عن ابتسامة غامضة :

- نعم . .

- ماذا قرأت فيهما؟

فرفعت حاجبيها كالمتعجبة، وهى تقول :

- هذا ما أردت معرفته . .

أيوح لها بسر المكنون قائلاً بكل بساطة «أحبك» وليكن ما يكون! لكن ما جدوى البوح؟ وماذا يكون من أمره لو قطع الاعتراف ما بينه وبينها من صداقة ومودة - كما هو الراجح - إلى الأبد؟! وانتبه - وهو يتأمل - إلى النظرة التى تلوح فى عينيها الجميلتين، نظرة مطمئنة شديدة الثقة بنفسها جريئة لا يعتورها ارتباك أو خجل، نظرة كأنما تهبط عليه من علّ بالرغم من أنها فى مستوى نظره، فلم يرتح لها وزداته تردداً، ماذا وراءها يا ترى؟ وراءها فيما رأى شعور بالاستهانة، وربما العبث كأنما هى بالغ ينظر إلى طفل، ولعلها لم تخل كذلك من تعال لا يمكن أن يمرره فارق السن وحده إذا لم تكن تكبره إلا بعامين على أكثر تقدير، أفلا تكون هذه النظرة الخليفة بأن يلقيها هذا القصر الشامخ بشارع

السرايات على البيت القديم بين القصرين؟ ولكن لم لم يلمحها في عينيها من قبل ذلك؟ ربما لأنها لم تنفرد به من قبل أو لأنه لم يتح له أن ينعم فيها النظر إلا هذه الساعة، وآله ذلك وأحزنه حتى فترت نشوته أو كادت. ورفعت بدور نحوه يديها داعية إياه لحملها، فتناولها في حضنه، وإذا بعابدة تقول:

- يا للعجب! لماذا تحبك بدور كل هذا الحب؟

فقال وهو ينظر في عينيها:

- لأنني أكن لها مثله وأكثر..

فتساءلت كالمرتابة:

- أهذا قانون يركن إليه؟

- الحكمة السائرة تقول «من القلب للقلب رسول»..

فجعلت تنقر المنضدة بأغلثها وهي تتساءل:

- هب فتاة جميلة أحبها كثيرون، فهل تحبهم جميعاً؟ أرني كيف

يصدق قانونك في هذه الحال..

فقال وقد أذهله سحر الحوار عن كل شيء حتى أحزانه:

- يكون من أمرها أن تحب أصدقهم حباً لها!..

- وكيف تفرزه من الآخرين؟..

لو يدوم هذا الحوار إلى الأبد!

- أحيلك مرة أخرى إلى الحكمة السائرة «من القلب للقلب

رسول»!

فضحكت ضحكة مقتضبة مثل رنة الوتر، وقالت في تحد:

- لو صح هذا ما خاب محب صادق في حبه! فهل هذا صحيح؟!

صدمه قولها كما تصدم حقائق الحياة المستنيم إلى المنطق وحده،

فلو صح منطق له لوجب أن يكون أسعد الناس بحبه ومحبوه،

ولكن أين هو من ذلك؟! الحق أن تاريخ حبه الطويل لم يعد لحظات أمل خلت كان يضيء ظلمات قلبه بسعادة وهمية على أثر ابتسامة حلوة يجود بها المحبوب أو كلمة عابرة قابلة للتأويل أو حلم سعيد عقب ليلة فكر وسهاد ولو إذا بقول سائر له احترامه في نفسه مثل «من القلب للقلب رسول»، فكان يتعلق بالأمل الخلب في إصرار اليأس حتى تعيده الحقيقة إلى وعيه، هاهو الساعة يتلقى هذه الجملة الساخرة الحاسمة كالدواء المر ليتداوى بها مستقبلاً من كواذب الآمال، وليعرف على وجه اليقين موضعه أين يكون، ولما لم يحر جواباً على سؤالها الذي تحدته به، هتفت معبودته ومعذبتة بلهجة المنتصر:

- غلبت...!

واستحكم الصمت مرة أخرى، فعاود مسمعيه حفيف الغصون وخشخشة الأوراق الجافة وزقزقة العصفور، غير أنه تلقاها هذه المرة بوجد فاتر وقلب خائب، ولاحظ أن عينيها تتفحصانه بإمعان لا داعي له، وأن نظرتها تزداد جرأة وثقة وما يوحى بالعبث، وأنها أبعد ما يكون عن منظر أنثى تصدت لذكر، فشعر بغمز في قلبه وبرودة، وتساءل هل قدر له أن ينفرد بها لتقوض أحلامه دفعة واحدة؟! ولاحظت قلقه، فضحكت ضحكة لاهية، وقالت في دعابة وهي تومئ إلى رأسه:

- لا يبدو أنك شرعت في تربية شعرك؟

فقال باقتضاب:

- كلا..

- ألا يروك ذلك؟

وهو يطم بوزه باستخفاف:

- كلا..

- قلنا لك إنه أجمل . .

- هل ينبغي للرجل أن يكون جميلاً . ؟

فقالت باستغراب :

- طبعاً الجمال محبوب ، سواء في الرجال والنساء . . ؟

هم بأن يردد بعض محفوظاته مثل « جمال الرجل في أخلاقه » إلخ ،
ولكن غريزة من غرائزه أوحى إليه بأن مثل هذا القول - مع صدوره عن
شخص في صورته - لن يلقى عند معبودته إلا الهزاء والسخرية ، فقال
وهو يعانى وخزا فى قلبه داراه بضحكة مصطنعة :

- لست من رأيك . .

- أو لعلك تنفر من الجمال كما تنفر من البيرة ولحم الخنزير !

فضحك ضحكة يعالج بها يأسه وقهره ، فعادت تقول :

- الشعر الطبيعى غطاء طبيعى أعتقد أن رأسك فى حاجة إليه ، ألا
تعلم أن رأسك كبير جداً ؟ .

ذو الرأسين ! أنسيت ذلك النداء القديم ؟ . . يا للتعاسة !

- هو كذلك . . .

- لمه ؟ . .

أجاب وهو يهز رأسه فى إنكار :

- سليه بنفسك فإننى لا أدرى . .

ضحكت ضحكة خافتة ، أعقبها صمت ، معبودك جميل فاتن
ساحر ، ولكنه ذو جبروت كما ينبغي له ، ذق جبوته وتلقن شتى أنواع
الآلم . ولم ترحمه فيما بدا ، لم تزل عيناها الجميلتان تصعدان البصر فى
وجهه وتصوبان حتى ثبتتا على . . ، أجل على أنفه ! . . هنالك وجد
قشعريرة فى أعماقه حتى قفّ شعره وغض البصر وهو خائف يترقب ،
وسمعها تضحك ، فرفع عينيه وهو يتساءل :

- ماذا يضحك؟

- ذكرت أموراً مثيرة طالعها في مسرحية فرنسية معروفة، ألم تقرأ «سيرانو دي برجراك»؟ .

أنسب الأوقات للاستخفاف بالألم وقت يزيد فيه الألم عن حده، قال بهدوء واستهانة :

- لا داعي للمدارة، أنا أعرف أن أنفى أكبر من رأسى، ولكن أرجو

ألا تسألنى مرة أخرى «لمه؟» سليه بنفسك إن شئت . . !

وإذا وبدور تمديدها فجأة فتقبض على أنفه، فأغرقت عايده في الضحك وهى تميل برأسها إلى الوراء، ولم يملك هو أيضاً إلا أن يضحك، ثم سأل بدور مداراة لارتبائه :

- وأنت يا بدور، هل هالك أنفى؟! . .

وترامى إليهم صوت حسين وهو يهبط سلم الفراندا، فغيرت عايده من لهجتها فجأة، وقالت له بصوت جمع بين الرجاء والتحذير :

- إياك أن تزعل من مزاحى! . .

عاد حسين إلى الكشك، فجلس على كرسيه داعياً كمال إلى الجلوس فاقترى به - بعد تردد - واضعاً بدور على حجره، غير أن عايده لم تلبث بعد ذلك إلا قليلاً فأخذت بدور وحيتها، ثم انصرفت وهى تلحظ كمال بنظرة ذات معنى خاص، وكأنما تكرر تحذيره من الزعل، لم يجد من نفسه أى رغبة فى استئثار الحديث فاكتفى بالإصغاء أو بالتظاهر بالإصغاء مع المشاركة فيه بين حين وآخر بسؤال أو تعجب أو استحسان أو استهجان لإثبات وجوده ليس إلا، وكان من حسن حظه أن عاد حسين إلى طرق موضوع قديم لا يتطلب انتباهاً أكثر مما عنده، وهو رغبته فى السفر إلى فرنسا ومعارضة أبيه التى يأمل فى التغلب عليها قريباً، . أما الذى كان يشغل قلبه وفكره معاً فهو ذلك المظهر الجديد

الذى تبدت به عايدة فى الدقائق التى جمعت بينهما على انفراد أو على شبه انفراد، ذلك المظهر الموسوم بالاستخفاف والسخرية والقسوة، أجل القسوة! فقد عبثت به بدون رحمة وأعملت فيه دعابتها كما يعمل المصور ريشته فى الخلقة الأدمية ليستخرج منها صورة كاريكاتورية فذة فى قبحها وصدقها معا! ذكر ذلك المظهر ذاهلا، ومع أن الألم كان يسرى فى روحه كما يسرى السم فى الدم ناشرا فيها ظلا ثقيلاً من القنوط والكآبة، فإنه لم يجد فى نفسه سخطاً أو غضباً أو احتقاراً له، أليس هو صفة جديدة من صفاتها؟ بلى، لعله أن يكون غريباً كولعها بالרטانة وشرب البيرة وأكل لحم الخنزير، ولكنه ككل أولئك صفة منسوبة إلى ذاتها، خليفة بأن تتشرف بهذا الانتساب وإن عدت فى غيرها نقيصة أو استهتاراً أو معصية، ولا ذنب لها هى أن نشأ عن صفة من صفاتها ألم فى قلبه أو يأس فى نفسه ما دام العيب عيبه هو لا عيبها هى، وهل كانت هى التى كبرت رأسه أو غلظت أنفه؟ أو هل تراها جارت بدعاباتها على الصدق والواقع؟ لم يحدث شئ من هذا فانتفى عنها الملام وحق عليه الألم، وعليه أن يتقبله بتسليم صوفى كما يتقبل العابد القضاء وهو أصدق ما يكون إيماناً بأنه قضاء عادل مهما يكن من قسوته، وأنه صادر عن معبود كامل لا مظنة فى صفة من صفاته أو إرادة من إراداته . . هكذا خرج من التجربة القصيرة العنيفة التى صهرته منذ دقائق وهو أشد ما يكون ألماً وعذاباً ولكن دون أن ينال ذلك من قوة حبه وافتنانه بالحبيب! . . الساعة يحظى بمعرفة ألم جديد، ألم الرضى بحكم قاس قضى عليه بعدم الأهلية، كما عرف من قبل - عن طريق الحب أيضاً - ألم الفراق وألم الإغضاء وألم الوداع وألم الشك وألم اليأس، وكما عرف أيضاً ألماً يحتمل وألماً يستلذ وألماً لا يسكن مهما قدم له من قرايين التأوهات والدموع، كأنما أحب ليتفقه فى معجم الألم، ولكنه على التماع الشرر المتطايير من ارتطام آلامه يرى نفسه ويعرف أشياء،

ليس الله والروح والمادة - فحسب - ما يجب أن تعرفه، ما الحب؟ ..
 ما البغض؟ .. ما الجمال؟ .. ما القبح؟ .. ما المرأة؟ .. ما الرجل؟ ..
 كل أولئك يجب أن تعرف أيضاً، أقصى درجات الهلاك تماس أولى
 درجات النجاة، اذكر ضاحكاً أو اضحك ذاكراً أنك هممت بالإفشاء
 إليها بمكنون سرّك! . اذكر باكية أن أحذب نوتردام - ملأ حبيبته رعباً
 وهو يحنو عليها مواسياً، وأنه - أحذب نوتردام - لم يستثر عطفها
 البريء إلا وهو يلفظ آخر أنفاسه الأخيرة، «إياك أن تزعل من
 مزاحي»! .. حتى راحة اليأس تضمن بها عليك، فليفصح المعبود عن
 ذات نفسه علناً نخرج من جحيم الحيرة ونطمئن في قبر اليأس، هيهات
 أن يقتلع اليأس جذور الحب من قلبي، ولكنه على أى حال مناجاة من
 كواذب الآمال! ..

والتفت حسين نحوه ليسأله عن سر صمته، ولكنه لمح - فيما بدا -
 شخصاً قادمًا، فأدار رأسه ثم هتف:

- هاهو حسن سليم قد أقبل، كم الساعة الآن؟

فالتفت كمال إلى الورياء، فرأى حسن مقبلاً نحو الكشك ..

١٩

غادر حسن وكمال سراى آل شداد والساعة تدور في الواحدة، وهم
 كمال بافتراق عن صاحبه أمام باب القصر، ولكن الآخر قال له برجاء:
 - هلا تمشيت معي قليلاً من الوقت! ..

فلبى كمال الدعوة عن طيب خاطر، وسارا في شارع السرايات جنباً

إلى جنب . . كمال بقامته الطويلة ، وحسن لا يكاد يبلغ رأسه منكب صاحبه ، لم يكن يخلو من تساؤل !! خاصة وأن الوقت لم يكن أنسب الأوقات للمشى الذى ليس وراءه هدف ، وما يدرى إلا وحسن يلتفت إليه متسائلاً :

- فيم كنتما تتحدثان؟

فأجاب كمال وهو يزداد تساؤلاً :

- فى أمور شتى كالعادة ، سياسة . . ثقافة إلخ . .

فكانت مفاجأة حقاً أن يقول له بصوته الهادئ المتزن :

- أعنى أنت وعابدة . . !

فاستولت الدهشة على كمال ، حتى لبث ثوانى لا يتكلم ، ثم نمالك نفسه فسأله :

- كيف عرفت هذا ولم تكن معنا؟

فقال حسن سليم دون أن يلوح فى وجهه أى تغيير :

- جئت فى أثناء حديثكما ، فترأى لى أن أذهب إلى حين حتى لا أقطعه عليكم . .

ترى أكان يسلك مسلكه لو وجد نفسه فى موقفه؟ واشتدت به الحيرة وخالطه شعور بأنه مقبل على حديث مثير ذى شجون ، قال :

- لا أدري ماذا حملك على ذلك التصرف ، ولو لمحتك ما تركتك تذهب . .

- للياقة أحكام ! أعترف بأننى شديد الحساسية فى هذه الناحية . . آداب أرستقراطية ! . . أين أنت من إدراكها .

- لا تؤاخذنى إذا صارحتك بأنك تدقق أكثر مما ينبغى . .

ابتسم حسين ابتسامة خفيفة لم تمكث على شفتيه ، ثم بدا كالمتنظر ، ولما طال به الانتظار عاد يتساءل :

- نعم؟ . . فيم كتما تحدثان؟

كيف إذن ارتضت آداب اللياقة مثل هذا الاستجواب؟! وفكر لحظات في توجيه هذه الملاحظة إليه، غير أنه دقق في اختيار الصياغة الجديرة بالاحترام الذي يكتنه له - احترام يرجع إلى شخصيته أكثر مما يرجع إلى سنه - حتى قال:

- المسألة أبسط من أن تحتاج إلى هذا كله، غير أنى أتساءل عن مدى التزامى بالإجابة!

فبادره حسن قائلاً بلهجة المعتذر:

- أرجو ألا ترمينى بلهجة المتطفل أو بدس أنفى فى خاص شئونك، فإن لدى من الأسباب ما يبرر هذا السؤال، وسوف أحدثك عن أمور لم تعرض مناسبة تجعلنى أحدثك عنها من قبل، غير أنى اعتقدت - اعتماداً على ما بيننا من صداقة - أنك لن تضيق بسؤالى، أرجو ألا تفهم الأمر على غير هذا الوجه . . !

خف التوتر، ولعله سر لتلقى هذا الكلام الرقيق عن حسن سليم بالذات، الشخص الذى طالما رآه مثلاً للأرستقراطية والنبل والكبرياء، فضلاً عن أنه كان أرغب منه فى استنفاد أوجه الحديث عن أمر يتعلق بمعبودته . لو كان إسماعيل لطيف هو صاحب السؤال ما احتاج الأمر إلى شيء من هذا اللف والدوران حول ما يجب وما لا يجب وما يليق وما لا يليق، وربما كان أفضى إليه بكل شيء وهما يتصاحكان، ولكن حسن سليم لا يخرج عن تحفظه أبداً ولا يخلط بين الصداقة ورفع الكلفة، فلا بأس من أن يؤدى ثمن تحفظه! قال:

- أشكرك على حسن ظنك، وثق بأنه لو كان ثمة ما يستحق أن أخبرك به ما كتمته عنك، ليس إلا أننا تكلمنا بعض الوقت فى شئون عادية وهذا كل ما هنالك، غير أنك أيقظت حب استطلاع

فى نفسى فهل لى أن أسالك - ولو من باب العلم بالشىء - عن
الأسباب التى تراها مبررة لسؤالك؟ . . لست ألح بطبيعة الحال،
بل إنى على أتم الاستعداد للنزول عن سؤالى إذا لم يصادف منك
قبولاً . . !

قال حسن سليم بهدوئه واتزانه المألوفين :

- سأحدثك عما تسأل عنه ، ولكن أرجو أن تنتظر قليلاً، يبدو أنك
لا تود إخبارى عما دار بينكما من حديث ، وهذا حقك لا ريب
فيه ، بل لا أجد فيه إخلالاً بواجب الصداقة ، ولكنى أود أن ألقت
نظرك إلى أن كثيرين يخدعون بحديث عايدة ويفسرونه تفسيراً
لا يمت للواقع بسبب ، وربما أحدثوا لأنفسهم بسبب ذلك متاعب
لا داعى لها . . !

أفصح عما تريد قوله ، فى الجو نذر تجهم لا يلبث أن يتقلب إعصاراً
فيعصف بقلبك المطعون ، كأن به موضعاً سليماً لم يطعن ! أنت أنت
المخدوع يا صاح ، ألا تدري أنه الحياء وحده الذى يمنعى من أن أفضى
إليك بما كان ؟ ! فلتصعقنى الصواعق إن أرحت لك بالاً !
- لم أفهم مما قلت حرفاً . . !

علا صوت حسن قليلاً ، وهو يقول :

- لسانها وجود فى يسر بالطف الكلام ، فيحسبه السامع ذا مغزى أو
أن وراءه عاطفة ما ، ولكنه محض كلام لطيف تخاطب به كل من
يحادثه سراً أو جهراً ! وكم خدع كثيرين . . !

برح الخفاء ، صاحبك مصاب بالداء الذى هصرك ! من يكون حتى
يدع العلم بالبوطن ؟ ! شد ما يثير حنقى ! قال باسمه وهو يتظاهر بعدم
الاكتراث :

- يبدو أنك واثق مما تقول ؟ !

- إنى أعرف عايذة حق المعرفة ، نحن جيران منذ بعيد . .

الاسم الذى يهاب النطق به فى السر فضلاً عن الجهر ينطق به هذا الشاب المفتون بلا مبالاة ، كأنه اسم فرد من غمار الملايين ! هذه الجرأة فيه تخفضه فى قلبه درجات وترفعه فى خياله درجات ، وجملة «نحن جيران منذ بعيد» حزت فى قلبه كالخنجر فاطاحت به كما تطيح النوى بالغريب . سأله بلهجة مؤدبة وإن لم يخل مدلولها من سخرية :

- ألا يجوز أن تكون خدعت أيضاً كالآخرين ؟ . .

فترجع رأس حسن فى كبرياء ، وهو يقول فى يقين :

- لست كالآخرين . . !

شد ما أحنقه غطرسته ، شد ما أحنقه جماله وثقته بنفسه ، هذا الابن المدلل للمستشار الخطير الذى ترتقى الشبهات إلى أحكامه السياسية ! وندت عن حسن «هه» كأنه ذيل ضحكة وإن لم تضحك أساريره ، أراد أن يهدبها للانتقال من طبقة صوتية متغطرة إلى طبقة أخرى لطيفة ، ثم قال :

- إنها فتاة ممتازة لاتشوبها شائبة ، ولو أن مظهرها وحديثها وأنسها تجر عليها الظنون أحياناً !

فبادره كمال قائلاً بحماس :

- إن مظهرها ومخبرها على السواء لفوق كل ظن !

فحنى حسن رأسه بامتنان كأنما يقول له «أحسن» ، ثم قال :

- هذا ما ينبغى أن تراه عين بصيرة سليمة ، غير أن ثمة أموراً تحير بعض الأفهام ، سأضرب لك أمثلة على سبيل التوضيح : إن البعض يسيء فهم اختلاطها فى الحديقة بأصدقاء أخيها حسين ، نابذة ما جرت به التقاليد الشرقية ، والبعض الآخر يقف متسائلاً حيال محادثتها لهذا وملاطفتها لذاك ، وآخرون يتوهمون وراء

الدعابة اللطيفة - تصدر عنها عفوا - سرّاً خطيراً، هل أدركت ما أعنى؟!

فقال كمال بنفس الحماس السابق :

- إنى أدرك ما تعنى طبعاً، ولكنى أخشى أن تكون مغالياً فى ظنونك، عنى أنا شخصياً لم يساورنى شك قط فى أى تصرف من تصرفاتها، لأن أحاديثها ودعابتها ظاهرة البراءة، ولأنها من ناحية أخرى لم تتلق تربية شرعية خالصة حتى تطالب بالمحافظة على التقاليد أو تؤاخذ على الخروج عليها، وأظن أن هذا هو رأى الآخرين أيضاً .

هز حسن رأسه كأنما يتمنى لو يستطيع أن يؤمن برأيه فى «الآخرين»، غير أن كمال لم يعن بالتعليق على ملاحظته الصامتة، كان سعيداً بالدفاع عن معبودته، سعيداً بالفرصة التى تهيأت له لإعلان رأيه فى طهارتها وبراءتها، أجل لم يكن صادقاً فى حماسه - لا لأنه كان يبطن غير ما يعلن، فطالما آمن بأن معبودته فوق منال الشبهات - ولكن حزناً على الأحلام السعيدة التى قامت على افتراض وجود «سر» وراء دعابات المعبودة وتلميحاتها الرقيقة، إن حسن يبدد تلك الأحلام كما بددها حديث اليوم تحت الكشك، ومع أن قلبه المكلم كان يجاهد سرّاً للاستمسك ولو بخيط واه من خيوط الأمل، فإنه جارى حسن سليم مجارة المؤمن برأيه تغطية لموقفه ومدارة لهزيمته وإبطالاً لإدعاء الآخر بأنه «العارف» وحده لحقيقة المعبودة! عاد حسن يقول :

- لا غرابة فى أن تدرك هذا فإنك شاب لبيب، الواقع كما قلت إن عايده بريئة ولكن . . معذرة إذا صارحتك بخصلة فيها ربما بدت غريبة فى عينيك، وربما كانت مسئولة لحد كبير عن سوء فهم الكثيرين لها، أعنى شغفها بأن تكون «فتاة أحلام» كل من يتصل بها من الشباب! . . لا تنس أنه شغف برىء، فإننى أشهد بأننى لم

أصادف فتاة أحفظ لكرامتها منها ، ولكنها مولعة بقراءة الروايات الفرنسية كثيرة التحدث عن بطلاتها مفعمة الرأس بالخيال !
ابتسم كمال ابتسامة مطمئنة أراد أن يعبر بها عن أنه لم يسمع جديداً فيما قال صاحبه ، ثم قال مدفوعاً برغبة فى إغاضته :

- عرفت هذا كله من قبل ، دار حديثنا يوماً - أنا وحسين وهى - عن الموضوع ذاته !

تمكن أخيراً أن يخرجها عن وقاره الأرستقراطى ، فنطقت أساريه بالدهش وتساءل كالمتزعج :

- متى كان ذلك؟ لا أذكر أننى حضرت هذا الحديث ! هل قيل أمام عايده أنها تود أن تكون «فتاة أحلام» كل شاب؟ ..

رمى كمال ما طرأ عليه من تغير بعين الظفر والارتياح ، غير أنه أشفق من التمدادى ، فقال بحذر :

- لم يرد ذكر هذا بلفظه ولكن بالمعنى الذى يؤدى إليه خلال حديث دار حول ولعها بالروايات الفرنسية وإغراقها فى الخيال ! ..

استرد حسن هدوءه واتزانته ، ولزم الصمت ملياً كأنه يحاول أن يستجمع فكرة الذى نجح كمال فى تشتيته إلى حين ، وبدا كالمتردد لحظات حتى شعر كمال بأنه يود أن يعرف كل شئ عن الحديث الذى دار بينه وبين عايده وحسين ، متى وقع؟! ماذا جعلهم يطرقون هذه الشئون الحساسة؟! وما تفصيل ما قيل فيه؟! لولا أن كبرياءه كان يمنعه من السؤال ، وأخيراً قال :

- هأنت نفسك تشهد لصدق رأى ، ولكن من سوء الحظ أن كثيرين لم يفهموا سلوك عايده كما فهمته أنت ، فلم يفتنوا إلى حقيقة هامة وهى أنها تحب حب الشخص لها لا الشخص نفسه !

لو اطلع الأحقق على الواقع ما تجشم كل هذا التعب الضائع ، ألا

يعلم بأننى لا أطمع حتى فى أن تحب حبى؟ انظر إلى رأسى وأنفى وانعم
بالا! قال بصوت لم يخل من تهكم:

- تحب حب الشخص لها لا الشخص نفسه! يا لها من فلسفة!

- هى حقيقة أنا بها عليم!

- ولكنك لا تستطيع أن تضمن صدقها فى جميع الأحوال!؟

- بلى أستطيع وأنا مغمض العينين .

غالب كمال حزنه وهو يتساءل متظاهراً بالدهش :

- أتستطيع أن تؤكد عن يقين أنها لا تحب هذا الشخص أو ذاك؟

فقال حسن بثقة واطمئنان :

- أستطيع أن أؤكد أنها لم تحب أحداً ممن يتوهمون أحياناً أنها تحبهم!

اثنان يحق لهما أن يتكلما بهذه الثقة : المؤمن والأحمق ، وهو ليس

بالأحمق ، ترى لم يتحرك الألم ولا جديد فيما سمعت؟! الحق أنى

تألمت اليوم تألم عام من أعوام الحب .

- ولكنك لا تستطيع أن تؤكد أنها لا تحب إطلاقاً؟!

- لم أقل هذا . .

فرمقه بالعين التى يتطلع بها الإنسان إلى العراف ، ثم سأله :

- أتدرى إذن أنها تحب؟

فحنى رأسه بالإيجاب ، وقال :

- إنما دعوتك إلى المشى لأحدثك عن هذا . . !

غاص قلبه فى أعماق صدره كأنما يحاول الفرار من الألم ولكنه غرق

فى عباب الألم ، كان قبل ذلك يتألم لأنها لا يمكن أن تحبه ، ها هو معذبه

يؤكد له أنها تحب . . إن المعبودة تحب! . . إن قلبها الملائكى يخضع

لنواميس الشوق والحنين والرغبة واللهفة الموجهة جميعاً إلى شخص

معين! أجل كان عقله - لا شعوره - يسلم أحياناً بإمكان ذلك ، ولكن
كما يسلم بالموت كفكرة مجردة لا كحقيقة باردة ناشبة فى جسد عزيز أو
فى جسده هو بالذات ، لذلك فاجأة الخبر كأنه يتحقق لأول مرة فى
الوجود والفكر معاً ، تأمل هذه الحقائق جميعاً واعترف بأن ثمة آلاما فى
هذه الدنيا لم تخطر لك على بال رغم خبرتك العميقة بالألم ، استطرد
حسن قائلاً :

- قلت لك من بادئ الأمر إن لدى من الأسباب ما يبرر هذا الحديث
معك ، وإلا ما سمحت لنفسى بالتدخل فى خاص شئونك . .
ينبغى أن تلتهمه النار المقدسة حتى آخر ذرة من رماد .
- إنى مقتنع بما تقول ، وها أنا مصغ إليك . .

ابتسم حسن ابتسامة خفيفة أوحى بتردده حيال الكلمة الأخيرة
الفاصلة ، فصبر كمال ، ثم تعجله - رغم أن قلبه استشف الحقيقة
المفجعة - قائلاً :

- قلت إنك تدرى أنها تحب . . ؟!
فنبذ حسن التردد قائلاً :

- نعم ، يوجد بيننا ما يجعل لى الحق فى ادعاء ما قلت . . !
عايدة تحب أيتها السماوات ! أوتار قلبك تنقبض باعثة لحنا جنائزياً ،
هل يكن قلبها لهذا الشاب السعيد مثل ما يكنه لها قلبك ، إن صح أن
هذا من الممكنات فأحرى بالعالم أن يتصدع ، ليس صاحبك بكاذب لأن
النبيل الجميل لا يكذب ، قصارى أمالك أن يكون حبها من جنس خلاف
حبك ، وإذا لم يكن من الفاجعة بد فمن العزاء أن يكون حسن هو
المحبوب ، من العزاء أيضاً أن الحزن والغيرة لا يطمسان الحقيقة أمام
عينيك ، هذا الغنى الساحر العجيب ! قال كالذى يضغط على زناد المسدس
وهو يعلم أنه فارغ :

- يبدو أنك مطمئن إلى أنها تحب - هذه المرة - الشخص نفسه لا حب
الشخص لها!

فندت عنه «هه» مرة أخرى ليعرب بها عن ثقته . ولمحه بنظرة سريعة
ليرى مدى إيمانه بما يقول ، ثم قال :

- لم يكن حديثنا قط - أنا وهى - من النوع الذى يحتمل معنيين ! أى
نوع من الحديث هو؟ حياتى كلها أهبها ثمنًا لكلمة منه ، أعرف
الحقيقة كلها وأنجرح العذاب حتى الثمالة ، ترى هل سمع الصوت
المطرب وهو يقول له «أحبك» ؟ بالفرنسية قالها أم بالعربية؟ بمثل
هذا العذاب تشتعل النيران ، قال بهدوء :

- أهتلك ، كلا كما فيما أرى جدير بصاحبه!
- شكرًا . .

- غير أنى أتساءل عما دعاك إلى الإفضاء إلى بهذا السر الثمين؟
فرفع حاجبيه حسن ، وهو يقول :

- لما وجدتكما تتحدثان على انفراد أشفقت أن تخدع ببعض القول
كما خدع كثيرون ، فصممت على مصارحتك بالحقيقة ، لأنى
كرهت فكرة انخداعك أنت بالذات . . !

غمغم كمال قائلاً «شكرًا» تأثرًا بالعطف السامى ، عطف الشاب
الموهوب الذى تحبه عايده ، الذى كره له الانخداع فقتله بالحقيقة ، ترى
ألم تكن أوهام الغيرة بين البواعث التى أغرته بمصارحته بسرّه؟ ولكن
أليس له عينان يرى بهما رأسه وأنفه؟! استطرد حسن قائلاً:

- إنها ووالدتها كثيرًا ما تزوران بيتنا ، وهناك تسنح لنا فرص
للحديث . .
- على انفراد؟

أفلتت العبارة منه بلا وعى ، فارتبك نادما وتورد وجهه ، ولكن
الآخر قال ببساطة :
- أحيانا . .

كم يود أن يراها فى هذا الدور - دور المحبة - الذى لم يخطر له فى
خيال ، كيف تتجلى فى العين الساجية التى تلقى إليه بنظرها من عل لمعة
الوجد والحنان؟ منظر يضىء العقل بقبس من الحقيقة المقدسة ويقتل
القلب قتلاً ، بهذا تستباح لعنة الكفر الأبدية ، روحك يتململ كطائر
سجين يود أن ينطلق ، العالم يلتقى خرابات يستعذب عنه الرحيل ،
لكنك حتى إذا صح عندك أن الشفاة تلاقت فى قبلة وردية فلن تعدم فى
دوامة الجنون لذة الحرية المطلقة ، وسأله مدفوعاً برغبة انتحارية لم
يستطع مقاومتها فضلاً عن فهمها :

- كيف إذن توافق على اختلاطها بأصدقاء حسين؟

تريث حسن قليلاً قبل أن يجيب قائلاً :

- لعلى لا أرتاح إلى ذلك كل الارتياح ، ولكنى لا أجده فيه مأخذاً وهى
تمارسه على مرأى من أخيها ومن الجميع وبحكم تربيتها الأوربية ،
ولا أخفى عليك أنى فكرت أحياناً فى مكاشفتها بامتعاضى ولكنى
كرهت أن ترمينى بالغيرة ، وكم تود لو تثير غيرتى ! أنت تعرف طبعاً
هذه الحيل النسائية وأعترف لك بأننى لا استسيغها . .

لا عجب أن إثبات دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس قد
أطاح بأوهام ودوخ رءوسا .

- كأنها تتعمد مضايقتك ! .

فقال حسن بلهجته الناطقة بالثقة :

- على أنه فى وسعى دائماً أن أحملها على الإذعان لمشيئتى إذا
أردت !

أثارته هذه الجملة واللهجة التي قيلت بها إلى حد الجنون، وتمنى لو يجد سبباً يعتل به على ضربه ليمرغه - وإنه لقادر - فى التراب، ولحظه من علّ فلاح له الفارق بين طوليهما أكثر من الواقع بكثير، لم لم تحب أيضاً الذى دونها سناً؟ وآمن قلبه بأنه خسر الدنيا.

ودعاه حسن إلى تناول الغداء على مائدته، فاعتذر شاكرًا، ثم تصافحا وافترقا.

عاد فاتر النفس مثقل القلب بالقنوط، وكان يود أن يخلو إلى نفسه ليحتضن أحداث يومه متأملاً حتى يستصفى معانيها كلها، بدت الحياة متلفة بشوب حداد، ولكن ألم يكن يعلم من أول الأمر أن هذا الحب ضائع؟ فأى جديد جلبت به الحوادث؟ على أى حال ليكن عزاءه أن الآخرين يتكلمون عن الحب، أما هو فيحب ملء قلبه. إن الحب الذى ينور روحه لا يستطيعه أحد سواه، فهذا هو امتيازاه وتفوقه، ولن يتخلى عن حلمه القديم بأن يظفر بمعبودته فى السماء، فى السماء حيث لا فوارق مصطنعة ولا رأس كبير ولا أنف غليظ، فى السماء ستكون عايده لى وحدى بحكم قوانين السماء..

٢٠

كانه لم يعد له وجود، تجاهلته بحال لا يمكن أن يتأتى إلا عن تعمد، فطن إلى ذلك أول ما فطن إليه صباح الجمعة التالى - بعد مضى أسبوع على حديث حسن سليم بشارع السرايات - فى اجتماع الأصدقاء بكشك الحديقة بسراى آل شداد. كانوا يتحدثون فجاءت عايده كعادتها مصطحبة بدور، لبثت عندهم قليلاً تخاطب هذا وتداعب ذاك دون أن

تعييره التفاتاً، فظن أول وهلة أن دوره سيجىء. ولكن طال به الترقب، ولاحظ إلى هذا أن عينيها لا تريدان أن تلتقيا بعينه أو لعلهما تجتنبانه فخرج عن موقفه السلبي واعترض حديثها بملاحظة عابرة ليحملها على مخاطبته، ولكنها واصلت الحديث متجاهلة إياه، ومع أن أحداً لم يتنبه فيما بدا إلى مناوراته الفاشلة - لانهما كهم في الحديث المحبوب - فإن ذلك لم يخفف من وقع اللطمة التي تلقاها من غير أن يدرك لها سبباً، غير أنه مال إلى تكذيب ما قام بنفسه ودارى شكوكه، وجعل يتحين الفرص لتجربة حظه من جديد وهو من الإشفاق فى غاية، وإذا بيدور تحاول الإفلات من يد عايذة ملوحة له بيدها المطلقة، فتقدم منها ليأخذها بين ذراعيه، ولكن عايذة جذبتها نحوها وهى تقول: «أن لنا أن نذهب»، ثم حيتهم ومضت إلى حال سبيلها!

آه ما معنى هذا؟ إن عايذة غضبانه عليه وما أرادت بمجيئها إلا أن تعالته بغضبها، ولكن فيم أخذته؟ أى ذنب جنى؟ أى هفوة كبيرة أو صغيرة أتى؟ يا لها من حيرة هزئت بمنطقه وشتتت يقينه، بيد أنه قبض على زمام نفسه بيد قوية أن تفضحه شجونه، وكان على ضبط النفس قادراً، فمثل دوره المألوف تمثيلاً حسناً ووارى أثر الضربة القاصمة عن أعين الصحاب، وقال لنفسه بعد تقوض المجلس: إنه يحسن به أن يواجه الحقيقة مهما تكن قاسية، وأن يسلم بأن عايذة حرمة - اليوم على الأقل - من نعمة صداقتها. . إن فى قلبه العاشق مسجلاً كهربائياً دقيقاً لا يترك للحبيب همسة أو خطرة أو لمحة إلا سجلها. حتى النوايا يطلع عليها وحتى الآتى البعيد يبتدعه، ليكن السبب ما يكون أو ليكن الأمر بلا سبب كمرض استعصى على الطب سره، فإنه فى الحالين يرى كأنه ورقة شجر انتزعها ريح عاتية من فنن غصن وألقت بها فى غث النفايات.

ووجد فكره يحوم حول حسن سليم، ألم يختم حديثه معه بقوله «على أنه فى وسعى دائماً أن أحملها على الإذعان لمشيئتي إذا أردت»؟!!

ولكنها جاءت اليوم كعادتها، إن بلواه من تجاهلها إياه لا من غيابها، ثم إنه وحسن افتراقاً على صفاء، وليس ثمة ما يدعو حسن إلى مطالبتها بتجاهله، وليست هي بالتي تمتثل أمر إنسان مهما يكن شأنه، وليس هو بالمذنب، فما سر التجنى يا رب السموات؟! إن لقاء الكشك - بينه وبينها - على قسوته وعبثه الجراح برأسه وأنفه وكرامته لم يخل من مودة ودعابة ثم ختم بما يشبه الاعتذار، ربما يكون قد قضى على أمله فى الحب ولكنه لم يكن فى حبه أمل، أما لقاء اليوم فابتلاه بالتجاهل بالنبذ. بالصمت. بالموت، ولأن يجفو الحبيب أو يقسو خير على أى حال من أن يمر بعابده وكأنه شىء لم يكن، يا للتعاسة! ألم جديد يضاف إلى معجم الآلام الذى يحمله على صدره، ضريبة جديدة للحب، وما أفدح ضرائبه، يؤدى بها ثمن النور الذى يضيئه ويحرقه.

واحتقن بالغضب صدره، عز عليه جداً ألا يحظى على حبه العظيم إلا بهذا الإعراض البارد المتعجرف، وحز فى نفسه ألا يتمخض غضبه إلا عن الحب والولاء، وألا يرد اللطمة إلا بالابتهاال والدعاء، ولو كان المتجنى عليها شخصاً آخر ولو كان حسين شداد نفسه لقطعه دون تردد، أما وهو المعبود فقد ردت شظايا الغضب إلى نحره، وانصبت العداوة على هدف واحد هو نفسه، فتزعت به الرغبة فى الانتقام إلى إنزال العقاب بالجاني - الذى هو نفسه - قضى عليها بالحرمان من الدنيا، وامتلاً بشعور عنيد محزون أملى عليه الإعراض عنها إلى الأبد! رضى فيما رضى بصداقتها، بل اعتبرها فوق أحلام مطعمه بالرغم من أن قوة حبه تضيق عنها السماوات والأرض، ورضى أكثر من هذا باليأس من حبها قانعاً من عريضة الأمانى بابتسامة حلوة أو كلمة رقيقة ولو تكون ابتسامة الوداع وكلمته، غير أن التجاهل أحزنه وأذهله وخبله ثم من الدنيا جميعاً نبذه، ولعله أتاح له أن يشعر بشعور الميت لو كان ميت يشعر، لم ترحمه الفكر ساعة من ساعات يقظته طول الأسبوع الذى

قضاه بعيداً عن قصر آل شداد، وتهالك شعوره في اجترار الخيبة التي قرعته لحظة بعد أخرى، وهو في البيت صباحاً يفطر على مائدة أبيه، وهو في الطريق يسير بحواس زائفة، وهو في مدرسة المعلمين يسمع بعقل غائب، وهو يقرأ مساء بانتباه مشئت، وهو يتذلل للنوم كي يقبله في ملكوته، ثم وهو يفتح عينيه في الصباح الباكر فإذا بالفكر تتخاطفه كأنما كانت على عتبة الوعي ترصده أو كأنما هي التي طرقت بجزع النهم كي تواصل التهامه كرة أخرى، ألا ما أفضع النفس إذا خانت صاحبها! ..

ويوم الجمعة ذهب إلى قصر الحب والعذاب، فبلغه قبل الميعاد المعتاد بقليل. لماذا ترقب هذا اليوم بصبر نافذ؟ ماذا يرجو عنده؟ هل يطمع أن يجد ولو نبضا بطيئاً ضعيفاً ليوهم نفسه بأن جثة الأمل لم تفارقها الحياة بعد؟ هل يحلم بمعجزة ترد معبوده إلى الرضى على غير انتظار وبلا سبب كما غضب على غير انتظار وبلا سبب؟ أو أنه يستزيد من الجحيم ناراً ظمأ إلى برودة الرماد؟! سار في عمر الذكريات إلى الحديقة، وإذا به يرى عايده جالسة على كرسي واضعة بدور على حافة المائدة أمامها، وليس في الكشك سواها أحد! توقف عن المسير وفكر في العودة إلى الخارج قبل أن تلتفت ناحيته، ولكنه نبذ هذه الفكرة بتحد وازدراء، وتقدم صوب الكشك تدفعه رغبة شديدة في مواجهة العذاب وكشف النقاب عن اللغز الذي فتك بأمنه وسلامه، هذا الكائن اللطيف الجميل، هذا الروح الشفاف المتنكر في فستان امرأة، هل يدري ماذا فعل به جفاه؟ هل ينام ضميره قرير العين لو شكاً إليه ما عاناه، ما أشبه استبداده باستبداد الشمس بالأرض الذي قضى عليها بأن تدور حولها في دائرة مرسومة - لا تقترب منها فتندمج ولا تبتعد عنها فتنتهي - إلى الأبد! لو تجود بابتسامة فيتداوى بها من آلامه جميعاً؟! وكان يقترب منها متعمداً أن يحدث في مشيته صوتاً لتنبهها، فأدارت رأسها نحوه كالمسائلة، ثم

لم تفصح أسرارها عن شيء، فوقف على بعد ذراعين من مجلسها،
وحنى رأسه فى خشوع، وقال باسماء:
- صباح الخير..

فحنت رأسها حنوة صغيرة، ولكنها لم تنبس، ثم نظرت فيما
أمامها.

لم يعد ثمة شك فى أن الأمل جثة هامدة، وخيل إليه أنها ستصبح به
«اذهب عنى برأسك وأنفك حتى لا يحجبا عنى ضوء الشمس!»، غير
أن بدور لوحته له بيدها، فمالت عيناه إلى وجهها الجميل المشرق
ومضى نحوها ليدارى فى عطفها البرىء هزيمته فتعلقت بذراعيه، فهوى
رأسه إليها وقبل خدها قبلة حنان وامتنان، وإذا بالصوت الذى فتح له
فيما مضى أبواب الموسيقى الإلهية يقول بجفاء:

- من فضلك لا تقبلها، القبلة تحية غير صحيحة..!

ندت عن ضحكة حائرة لم يدر كيف ولا لم نددت، ثم امتقع لونه،
وبعد دقيقة واجمة ذاهلة قال منكرًا:

١ - إنها ليست القبلة الأولى فيما أذكر!

فرفعت كتفيها كأنما تقول «هذا لا يغير من الحقيقة شيئًا». آه، أيمضى
إلى أسبوع جديد من العذاب دون أن ينطق بكلمة دفاعًا عن نفسه؟

- اسمح لى أن أتساءل عن سر هذا التغير الغريب، فقد جعلت
أتساءل عنه طوال الأسبوع الماضى دون أن أظفر بجواب؟!

لم يبد عليها أنها سمعته، وبالتالي لم تعن بالرد عليه، فعاد يقول
وقد وشى صوته بحيرته وألمه:

- إن ما يحزننى حقًا هو أنى برىء لم أجن ما أستحق عليه العقاب!

ولم تنزل مصرة على الصمت، فخاف أن يجىء حسين قبل

أن يستدرجها إلى الكلام، فبادر يقول بلهجة جمعت بين التشكى والترجى:

- ألا يستحق صديق قديم مثلى أن يكشف على الأقل بذنبه؟
فرفعت نحوه جانب رأسها، ولحظته بنظرة مكفهرة اكفهرار السحاب
المنذر بالمطر، ثم قالت بلهجة غاضبة:
- لا تدع البراءة الكاذبة . . !

يا رب السماوات هل ترتكب الذنوب بلا وعى من الجانى؟! قال فى
نبرات متدافعة، وهو يربت بحركة آلية يذى بدور التى حاولت أن تجذبه
إليها وهى لا تدرك مما يدور شيئاً:

- صدقت ظنوني واأسفاه!، هذا ما حدثنى به قلبى فكذبتى، إنى
مذنب فى نظرك، أليس كذلك؟، ولكن بأى ذنب تتهمينى؟!،
خبرينى وحياتك، لا تنتظرى أن أكون البادى بالاعتراف لسبب
بسيط، وهو أننى لم أجن شيئاً يستحق الاعتراف، مهما أنقب فى
زوايا نفسى وحياتى وتاريخى فلن أعثر على نية أو كلمة أو فعل
وجه ضدك بسوء، إنى أعجب كيف لا تأخذين هذا مأخذ
البديهيّات من الأمور؟!
فقالت بازدراء:

- لست ممن يؤثر فيهن التمثيل، سَلْ نفسك عما قلت عنى!
فقال بانزعاج:

- ماذا قلت عنك؟ ولن قلته؟ أقسم لك . . .
فقاطعت به ضيق قائلة:

- لا يهمنى القسم فى كثير أو قليل، وفره لنفسك، إن الذى يغتاب
الناس لا يؤتمن على قسم، المهم أن تذكر ماذا قلت عنى . . !
رمى بمعطفه على مقعد كأنما ليأخذ كامل أهبطه للنضال، وابتعد

خطوة عن بدور ليتخلص من محاولتها البريثة فى الاستئثار بانتباهه ، ثم قال بحرارة ناطقة بالصدق :

- لم أقل عنك كلمة أخجل من إعادتها الآن على مسمعك ، لم أتفوه عنك بكلمة سوء فى حياتى وما كان ذلك فى وسعى لو تعلمين ، وإذا كان «بعضهم» قد أبلغك عنى ما أغضبك ، فهو واش حقير لا يستحق ثقتك ، وإنى على استعداد لمواجهة أمامك لترى بنفسك مبلغ صدقه أو بالحرى مدى كذبه . ماذا بك من عيب حتى أتحدث به؟! لشد ما أسأت بى الظن!

فقال بتهمك :

- شكراً على هذا الثناء الذى لا أستحقه ، لا أظننى أخلو من نقص ، على الأقل فإننى لم أتلق تربية شرقية خالصة!

نشبت هذه الجملة الأخيرة فى انتباهه ، فذكر كيف وردت على لسانه وهو يحاور حسن سليم دافعاً الشبهات عن معبودته ، فهل يكون حسن أعادها بطريقة أثارت الشك فى حُسن مقصده؟! حسن سليم النبيل؟ هل يتأتى هذا حقاً؟ شد ما يدور رأسه! قال وعينه تنطقان بالدهش والأسف :

- ماذا تقصدين؟! أعترف لك بأننى قائل هذه الجملة ، ولكن سلى حسن سليم يخبرك ، أو ينبغى له أن يخبرك ، بأننى قلتها وأنا أنوه بمزايك! ..

فحدجته بنظرة باردة ، وتساءلت :

- مزايى؟! وهل رغبتى فى أن أكون «فتاة أحلام» كل شاب من بين هذه المزايى؟! ..

فهتف كمال بانزعاج وغيظ :

- هو قائل هذا عنك لا أنا ، هلا انتظرت حتى يحضر لأتحداه أمامك؟! ..

فواصلت تساؤلها الذى تتابع فى مرارة وسخرية قائلة :

- وهل ملاطفتى إياك من بين هذه المزايا أيضاً؟

قال يائسا وقد عجز ، حيال انصباب التهم ، عن الدفاع :

- ملاطفتك إياى؟! أين؟ ومتى؟

- فى هذا الكشك؟! هل نسيت؟! أتُنكر أنك أوهمتته ذلك؟!!

آلمته سخريتها وهى تتساءل «هل نسيت؟!» وأدرك لتوه أن حسن سليم - يا للحماقة - قد ظن بلقاء الكشك الظنون ، فكاشف حبيته بشكوكه أو نسبها إليه ليتحقق منها . . حيل خبيثة راح هو ضحيتها! ، قال بحزن وحنق :

- أنكر ، أنكر بكل قوة وصدق ، إنى نادى على حُسن ظنى بحسن!

فقالت بكبرياء ، كأنما اعتبرت جملته الأخيرة موجهة إليها هى :

- إنه عند حُسن الظن دائماً . .

زفر غبارا ، وخيل إليه أن أبا الهول قد رفع قبضته الجرائيتية الهائلة التى لم تتحرك منذ آلاف السنين ، ثم هوى بها عليه ، فهرسه وواراه تحتها إلى الأبد ، قال بصوت متهدج :

- إذا كان حسن هو الذى أبلغك عنى هذه الأكاذيب فهو كاذب

وضيع ، ويكون هو الذى اغتابنى لا أنا الذى اغتبتك . . !

لاحت فى عينيها الجميلتين نظرة قاسية ، وتساءلت بحدة :

- أتُنكر أنك انتقدت أمامه اختلاطى بأصدقاء حسين؟!!

أهكذا يحرف النبل الأرستقراطى الكلام؟! قال بتأثر شديد :

- كلا ، لم يحصل ذلك ، علم الله أنى لم أقله منتقداً ، ولكنه ادعى

ادعاءات كبيرة ، قال . . قال إنك تحبينه! وقال إنه إن شاء منعك من

الاختلاط بنا! ولم أكن أقصد . . .

قاطعته قائلة بازدرء وهى تقف منتصبه القامة فى كبرياء، حتى
تموجت هالة شعرها الأسود بحركة رأسها المرفوع:

- أنت تهذى! لا يهمنى ما يقال عنى، إنى فوق هذا كله، ولا خطأ
لى فيما أعتقد إلا أننى أهب صداقتى دون تمييز. . . !
وانزلت بدور إلى الأرض وهى تتكلم، فتناولت يدها ثم ولته
ظهرها، وغادرت الكشك، فهتف بها متوسلاً:
- انتظرى لحظة من فضلك كى. . .

ولكنها كانت قد ابتعدت، وكان صوته قد علا أكثر مما ينبغى حتى
خيل إليه أنه أسمع الحديقة كلها، وأن الأشجار والكشك والكراسى
ترمقه بنظرة جامدة ساخرة، فأطبق فاه واعتمد براحتة حافة المائدة،
فمال فرعه الطويل كأنما انحنى تحت ضغط القهر، لم يمكث وحده
طويلاً، فما لبث أن جاء حسين شداد طلق المحيا كعادته، فحياه تحيته
الصافية الحلوة وجلساً على كرسيين متجاورين، وتبعه بعد قليل
إسماعيل لطيف، وأخيراً جاء حسن سليم يسير فى خطواته المتمهلة
وحرركاته المترفعة. وتساءل كمال فى حيرة: ترى ألم يلحقهما حسن من
بعيد كما لحقهما فى المرة السابقة؟ ومتى - وكيف - يدرى بما دار بينهما
من حديث قاطع أسيف! وانفجر فى صدره الغيظ والغيرة كما تنفجر
الذائدة، بيد أنه ألى على نفسه ألا يُشمت به غريباً، وألا يضع شخصه
موضع السخرية أو العطف الزائف، وألا يمكن أحداً من أن يطالع فى
صفحة وجهه أثراً مما تضطرب به جوانحه، فألقى بنفسه فى تيار
الحديث، ضحك لملاحظات إسماعيل لطيف، وعلق طويلاً على تكون
حزب الاتحاد وخروج الخارجين على سعد زغلول والوفد ودور نشأت
باشا فى هذا كله، بالاختصار مثل دوره خير تمثيل حتى انفض المجلس
بسلام، وغادر كمال وإسماعيل وحسن سراى آل شداد عند الظهر،
وكان كمال لم يعد يحتمل مزيداً من الصبر، فخاطب حسن قائلاً:

- أريد أن أحدثك قليلاً . .

فقال حسن بهدوء :

- تفضل . .

فنظر كمال إلى إسماعيل كالمعتذر ، وقال :

- على انفراد!

همّ إسماعيل بالانسحاب ، فأوقفه حسن بإشارة من يده ، وقال :

- لست أخفى عن إسماعيل شيئاً . .

فأحنقته هذه الحركة فاستشف وراءها مريباً يتوجس ، غير أنه قال
دون مبالاة :

- إذن فليسمعنا ، فلست أخفى عنه شيئاً أيضاً . .

وانتظر قليلاً حتى باعد المشى بينهم وبين سراى آل شداد ، ثم
قال :

- قبل حضوركم اليوم اتفق لى أن قابلت عايذة فى الكشك على
انفراد ، فدار بيننا حديث غريب أدركت منه أنك نقلت إليها بعض
حديثنا فى شارع السرايات - أتذكره؟ - مشوها محرفاً حتى دخل
فى روعها أننى حملت عليها حملة ظالمة باغية . .

ردد حسن بين شفتين ممتعضتين لفظى «مشوه ومحرف» ثم قال ببرود
وهو يلقي عليه نظرة كأنما يريد بها أن يذكره بأنه إنما يخاطب «حسن
سليم» لا شخصاً آخر :

- يحسن بك أن تكلف نفسك بعض الجهد فى تخير الألفاظ . .

فقال كمال بانفعال :

- هذا ما فعلته! فالحق أن كلامها لم يدع لى شكاً فى أنك أردت
الوقية بينى وبينها!

حال لون حسن غضباً ، ولكنه لم يستسلم له ، فقال بصوت أمعن في البرود :

- يؤسفني أنني أحسنت الظن طويلاً بفهمك وتقديرك للأمور (ثم بلهجة ساخرة) هلا أخبرتني عما عسى أن أجنيه من وراء هذه الواقعة المزعومة؟! الحق أنك تندفع بلا روية أو عقل . .

فاشتد الغضب بكمال ، وهتف قائلاً :

- بل سوّكت لك نفسك سلوكاً شائناً . . !

وهنا تدخل إسماعيل قائلاً :

- إنني أقترح عليكما تأجيل الحديث إلى وقت آخر تكونان فيه أملك لأعصابكما!

فقال كمال بإصرار :

- إن الأمر من الجلاء بحيث لا يحتاج إلى مناقشة ، وهو عارف وأنا عارف!

فعاد إسماعيل يقول :

- قُص علينا ما دار في الكشك بينك وبينها لعلنا . .

ولكن حسن قال بكبرياء :

- أنا لا أقبل محاكمة . . !

فهتف كمال بنفسا عن غيظه ، وإن كان يعلم أنه من الكاذبين :

- على أي حال أخبرتها بالحقيقة لتعلم أينما أصدق قولاً!

فصاح حسن بوجه ممتقع :

- فلندعها توازن بين ما قال ابن التاجر وما قال ابن المستشار!

اندفع كمال نحوه مكوراً قبضته فحال إسماعيل بينهما ، وكان أقوى

الثلاثة رغم ضآلة حجمه ، ثم قال بحزم :

- لا أسمح بهذا ، كلاكما صديق ، محترم ابن محترم ، دعانا من هذا

العبث الخلق بالأطفال . .

عاد ثائراً هائجاً جريحاً يقطع الطريق بخطوات حادة اعتدائية وباطنه يستعر بالألم، طعن في قلبه وكرامته، معبودته وأبيه، فما بقى له في الدنيا؟! وحسن، الذى لم يحترم زميلاً كما احترمه ولا أعجب بخلق أحد كما أعجب بخلقه، كيف انقلب فى ساعة من الزمان وقاعاً سباً؟! الحق أنه رغم حنقه عليه لم يستطع أن يؤمن بالتهمة التى اتهمه بها إيماناً خالصاً من كل شك أو تردد، فلم يزل يعاوده التفكير فى الأمر، فيسائل نفسه: ألا يجوز أن يكون من وراء ذلك الموقف الأليم ما وراءه من أسرار؟! أليكون حسن شوه كلامه، أم تكون عايذة قد أساءت الفهم أو بالغت فى التكهن أو استسلمت للغضب؟ غير أن الموازنة بين ابن التاجر وابن المستشار رمت به فى جحيم من الغضب والألم جعلاً من محاولة إنصاف حسن ضرباً من العبث. وقد ذهب بعد ذلك إلى سراى آل شداد فى موعد اللقاء المعهود، فوجد حسن معتذراً عن التخلف بطارئ، وأخبره إسماعيل لطيف عقب انفضاض المجلس: بأنه - حسن - آسف جداً على ما بدر منه حين الغضب عن «ابن التاجر وابن المستشار»، وأنه مؤمن بأنه - كمال - ظلمه ظلماً فادحاً باستنتاجاته الواهمة وأنه يرجو ألا تقطع هذه الحادثة العارضة أسباب الصداقة بينهما، وأنه - حسن - كلفه بإبلاغه ذلك عن لسانه، ثم تلقى منه خطاباً بهذا المعنى مشدداً الرجاء فى ألا يعودا إلى الماضى إذا تلاقياً وأن يسدلا عليه ستار النسيان، وختمه بقوله «اذكر جملة ما أسأت به إلىّ وجملة ما أسأت به إليك لعلك تقتنع معى بأن كلانا مخطئ» وأنه لا يصح لأحدنا تبعاً لذلك أن يرفض اعتذار صاحبه!». وطابت نفس كمال بالرسالة حيناً، بيد أنه لاحظ أن ثمة تناقضاً بين كبرياء حسن المعروف وبين هذا الاعتذار الرقيق غير المتوقع، أجل غير المتوقع!! فما كان يتصور أنه يعتذر لأى سبب من الأسباب؟ فماذا غيره؟ لا يمكن أن يكون لصادقته هو هذا التأثير الضخم فى كبرياء صاحبه، فلعله - حسن - أراد أن يسترد سمعته المهذبة أكثر مما أراد

استرداد صداقته ، ولعله حرص أيضاً على ألا يستفحل الشقاق فتترامى أنباؤه إلى حسين شداد أن يستاء الشاب لموقف شقيقته من النزاع أو يغضب بدوره إذا بلغه ما قيل عن ابن التاجر - وهو ابن تاجر - وابن المستشار! أى سبب من أولئك له وجاهته وهو أدنى إلى المنطق فى حال حسن من اعتذار لا يراد به إلا وجه الصداقة وحدها؟! كل شيء يهون ، فليصالحه حسن أو فليخاصمه ، المهم حقاً أن يعرف هل قررت عايده الاختفاء؟ لم تعد تطوف بمجلسهم ، أو تبدو فى النافذة ، أو تلوح فى الشرفة لقد أفشى لها قول حسن بأنه إذا شاء منعها من الاختلاط بأحد ليضمن - اعتماداً على كبريائها - إصرارها على زيارة الكشك فلا يحرم من رؤيتها . لكنها اختفت رغم ذلك ، كأنما رحلت عن البيت كله ، بل عن الحى كله ، بل عن الدنيا كلها فما عاد يجد لها طعمًا ، أيكن أن يطول هذا الفراق إلى ما لا نهاية؟ . . ودلو كان قصدها أن تعاقبه حيناً ثم تعفو ، أو فى الأقل أن يذكر حسين شداد سبباً لغيابها يكذب مخاوفه ، ود هذا أو ذلك كثيراً ، وانتظر وطال انتظاره بلا فائدة .

كان إذا مضى لزيارة السراى أقبل عليها بعينين قلقتين تضطربان فى محجريهما بين اليأس والرجاء ، فيسترق إلى شرفة المدخل نظرة ، وإلى نافذة الممر الجانبى نظرة ، ثم يلحظ شرفة الحديقة وهو فى طريق الكشك أو السلامك ، ويجلس بين الأصدقاء ليحلم طويلاً بالمفاجأة السعيدة التى لا تريد أن تقع ، وينفض المجلس فيغادره ليختلس نظرات متعبة حزينه من النافذة والشرفات ، خاصة نافذة الممر الجانبى التى كثيراً ما تظهر فى أحلام يقظته إطاراً للصورة المعبودة ، ثم يذهب متجرعاً اليأس زافراً الكرب ، وبلغ به اليأس أن كاد يسأل حسين شداد عن سر اختفاء عايده ، غير أن تقاليد الحى العتيق الذى تشبع بها عقلته فلم ينطق ، وجعل يتساءل فى قلق عن مدى إلمام حسين بالظروف التى أدت إلى

توارى المعبودة، أما حسن سليم فلم يشر إلى «الماضى» بكلمة ولم يبد فى صفحة وجهه أنه يفكر على أى وجه فيه، ولكن لا شك أنه كان يرى فى كل جلسة تجمعهم شاهدا على هزيمته - كمال - المجسمة، وكم كان يتألم كمال لهذا الخاطر، تعذب كثيراً، شعر بالعذاب ينفذ إلى نخاعه، وبهذيان العذاب يخالط عقله، وكان شر ما يعذبه لوعة الفراق ومرارة الهزيمة وضيقة اليأس، وأفطع من هذا كله الإحساس بالهوان، بأنه المنبوذ من روضة الرضى، المحروم من أنعام المعبود وأضوائه، فجعل يردد وروحه تذرف دموع الأسى والقهر «أين أنت من أولئك السعداء أيها المخلوق المشوه!»، ما معنى الحياة إن أصرت على الاختفاء؟ أين تجد عيناه النور؟ ويتلقى قلبه الحرارة؟ وتنعم روحه بالغبطة؟ فلتبذ المعبودة بأى ثمن ترضاه، فلتبذ لتحب من تشاء حسن كان أو غيره، فلتبذ ولتهزأ برأسه وأنفه ما شاء لها المزاح واللعب، إن اشتياقه إلى اجتلاء طلعتها وسماع صوتها فاق طاقة النفس على الاشتياق، فأين منه نظرة رانية لتمسح عن صدره سخام الكآبة والوحشة، ولتسر قلباً أمسى مفقد السرور منه كالنور من فقيد البصر، فلتبذ وإن تتجاهله، فإنه إن خسر سعادة القبول عندها فلن تضيع سعادة رؤيتها ورؤية الدنيا بعد ذلك فى مجتلى ضوئها البهيج، أما بغير ذلك فلن تكون الحياة إلا لحظات متصلة من الألم المخلخل بالجنون، وهل كان خروجها من حياته إلا كخروج العمود الفقري من الجسم الإنسانى يرده من بعد توازن وتكامل إلى شبه جثة ناطقة؟

وأخرجه الألم والقلق عن الصبر، فلم يعد يحتمل الانتظار حتى يجيء يوم الجمعة فكان يذهب مع الأصدقاء إلى العباسية فيحوم حول السراى من بعيد لعله يلمحها فى نافذة أو شرفة أو فى خطراتها وهى تظن أنها بمنأى عن عينيه، على أن الانتظار فى بين القصرين كان من فضائله اليأس بخلاف حومان المحموم حول مقام المعبودة، كحومان

مجموعة من الديناميت حول عمود من النيران . ولم يرها ، ولكنه رأى
مرات أحد الخدم وهو ذاهب إلى الطريق أو عائد منه ، فكان يتبعه عينا
متفحصة متعجبة كأنما تسائل المقادير عما جعلها تخص هذا الإنسان
بحظوة القرب من المعبودة والاختلاط بها والاطلاع على شتى أحوالها ،
مستقلية أو مترنمة أو لاهية ، كل ذلك من حظ هذا الإنسان الذى يعيش
فى المحراب ولا تشغل قلبه العبادة!

وفى جولة من جولاته رأى عبد الحميد بك شداد وحرمة المصون
وهما يغادران القصر ليركبا المنرفا التى كانت فى انتظارهما أمام الباب ،
رأى الشخصين السعيدين اللذين تقف عايده أمامهما - من دون العالمين
بإجلال واحترام ، اللذين يخاطبانها بلسان الأمر أحيانا فلا تملك إلا أن
تطيع ! وهذه الأم المقدسة التى حملتها فى بطنها تسعة أشهر ، فما من
رب فى أن عايده كانت جنينا فوليدة كتلك المخلوقات التى كان يرنو
إليها طويلاً فى فراشى عائشة وخديجة . وليس من إنسان هو أعرف
بطفولة معبودته من هذه الأم السعيدة المقدسة ! سوف تبقى الآلام ما بقى
فى متاهة الحياة أو فى الأقل لن تمحى آثارها . أين تذهب لىالى ينائر
الطوال وهو دافن فى الوسادة عينيه الهامعتين ؟ وبسط راحتيه إلى رب
السموات وهو يدعو من الأعماق «اللهم قل لهذا الحب كن رمادا كما
قلت لنار إبراهيم كونى بردا من رب فى أن عايده كانت جنينا فوليدة
كتلك المخلوقات التى كان يرنو إليها طويلاً فى فراشى عائشة وخديجة .
وليس من إنسان هو أعرف بطفولة معبودته من هذه الأم السعيدة
المقدسة ! سوف تبقى الآلام ما بقى فى متاهة الحياة أو فى الأقل لن تمحى
آثارها . أين تذهب لىالى ينائر الطوال وهو دافن فى الوسادة عينيه
الدامعتين ؟ وبسط راحتيه إلى رب السموات وهو يدعو من الأعماق
«اللهم قل لهذا الحب كن رمادا كما قلت لنار إبراهيم كونى بردا
وسلاما» ؟! وتمنيه لو كان للحب مركز معروف فى الكائن البشرى لعله

يبتره كما يبتر العضو النائر بالجراحة؟ وهتافه باسمها المحبوب ليتلقى صدهاء فى سكون الحجر الصامته بقلب خاشع كأنما كان غيره المنادى؟ ومحاكاته لصوتها حينما دعت باسمه ليستعيد حلم السعادة المفقودة؟ وتقليبه البصر فى كراسة الذكريات للتثبت من أن ما كان كان حقيقة لا وهما من الخيال؟!

ولأول مرة منذ أعوام تطلع إلى ما قبل الحب من الماضى بلهفة كما يتطلع السجين إلى ذكريات الحرية الضائعة، أجل لم يتصور شخصاً هو أشبه بحاله من السجين، غير أن قضبان السجن بدت أطوع للتحطيم وأرق أمام الزمام من أغلال الحب الأثرية التى تستأثر المشاعر فى القلب والأفكار فى العقل والأعصاب فى الجسد ثم لا تؤذن بانحلال، ووجد نفسه يوماً يتساءل: ترى هل ذاق فهمى مثل هذا العذاب الذى يعانيه؟ وهفت عليه ذكريات أخيه الراحل مثل لحن كامن حزين. تنهد فى أعماق النفس. فذكر كيف قصّ يوماً على مسمعه مغامرة مريم مع جوليون، فأغمد خنجراً مسموماً فى قلبه بلاحيطة أو حذر. وجعل يستحضر فى ذاكرته وجه فهمى، فتخيل إليه هدوءه الذى انخدع به وقتذاك، ثم تصور تقلصات الألم فى قسماته الجميلة حين خلا إلى نفسه، ومناجاته الشاكية التى لا شك غرق فيها كما هو يغرق الآن فى تأوهات وأنيته. فشعر بغمز فى قلبه وراح يقول: لقد عانى فهمى ما هو أشد من الرصاص قبل أن يستقر الرصاص فى صدره! ومن عجب أنه وجد فى الحياة السياسية صورة مكبرة لحياته. فكان يطالع أنباءها فى الصحف وكأنما يطالع مواقف مما مر به فى بين القصرين أو العباسية. هذا سعد زغلول - مثله هو - شبه سجين وهدف للطعنات الباغية والحملات الظالمة والخيانة الأصدقاء وغدرهم، وكلاهما - هو وسعد - يكابدان أحزانا من اتصالهما بأناس علوا بأرستقراطيتهم وسفلوا بفعالهم. تقمص شخص الزعيم فى كدره كما تقمص حال الوطن فى قهره،

وكان يلقى الموقف السياسى وموقفه الشخصى بعاطفة واحدة وانفعال واحد، فكأنما كان يعنى نفسه وهو يقول عن سعد زغلول «أتلىق هذه المعاملة الظالمة بهذا الرجل المخلص؟»، وكأنما كان يعنى حسن سليم وهو يقول عن زيور «خان الأمانة واستحل القبيح فى سبيل الاستيلاء على الحكومة»، وكأنما كان يعنى عابدة وهو يقول عن مصر «هل تخلت عن رجلها الأمين وهو يذود عن حقوقها؟!».

٢١

كان بيت آل شوكت بالسكرية من البيوت التى لا تحظى بنعمة الهدوء والسكينة، لا لأن أدواره الثلاثة أصبحت مأهولة بالسكان من آل شوكت فحسب، ولكن بسبب خديجة قبل أى شىء آخر. كانت الأم العجوز تقيم فى الدور التحتانى، و خليل وعائشة وأبناؤهما: نعيمة، وعثمان، ومحمد فى الدور الفوقانى، ولكن ضوضاء أولئك جميعاً لم تكن شيئاً بالقياس إلى ضوضاء خديجة وحدها. سواء ما يصدر عنها مباشرة أو ما يصدر عن الآخرين بسببها، وقد حدثت تغيرات فى نظام البيت كانت خليقة بحصر أسباب الضوضاء فى أضيق الحدود، كاستقلال خديجة ببيتها ومطبخها، وكاستئثارها بالسطح لتربية دواجنها، وغرس بستان متواضع فى جانب منه على مثال بستان البيت القديم بعد أن أجلت عنه حماتها ودواجنها، كان كل ذلك خليقاً بتخفيف الضوضاء إلى حد كبير، ولكن الضوضاء لم تخف، أو لعلها خفت بقدر لم يلحظه أحد، على أن روح خديجة اعتورها هذا اليوم فتور، ولم يكن سره - فيما بدا - خافياً، فإن عائشة و خليل انتقلاً إلى

شقتها ليشاركًا في تفريج الأزمة - أجل الأزمة - التي أزمته، جلسوا: الأخوان، والأختان في الصالة على كنبتين متقابلتين، وكانت الوجوه جادة، وكانت خديجة متجهمة، وكانوا يتبادلون نظرات ذات معنى، ولكن أحدا منهم لم يشأ أن يطرق الأمر الذي جمعهم حتى قالت خديجة بنبرة شاكية حانقة معاً:

- هذه المنازعات تقع في كل بيت، هكذا كانت الدنيا منذ خلقها ربنا وليس معنى هذا أن ننشر متاعبنا على الناس، خصوصاً أولئك الذين لا ينبغي أن يشغلوا بالكلام الفارغ، ولكنها أبت إلا أن تجعل من شئون بيتنا فضائح عامة، حسبى الله ونعم الوكيل . .

تحرك إبراهيم في معطفه كأنه يستوى في مجلسه، ثم ضحك ضحكة مختزلة لم يدر أحد على وجه الدقة ماذا أراد بها، فحدجته خديجة بنظرة ارتياب وهي تتساءل:

- ماذا تعنى بهيئ هي؟ . . ألا يهتم قلبك بشيء في الدنيا؟ وأعرضت عنه كاليائسة، ثم استطردت تقول مخاطبة خليل وعائشة:

- هل يرضيكمما ذهابها إلى أبي في الدكان لتشكوني إليه؟ هل يجوز اقحام الرجال - خاصة من كان على شاكلة أبي - في منازعات النسوان؟ ما كان ينبغي أن يعلم بشيء من هذا، ولا شك أنه تضايق من زيارتها وشكواها، ولولا أدبه لصارحها بذلك . . ولكنها ما زالت تلح عليه حتى وعدّها بالمجىء، ما أبشع تصرفها، لم يخلق أبي لهذه الصغائر، فهل يرضيك هذا التصرف يا سى خليل؟ فقطب خليل في استياء، وقال:

- أمى أخطأت، صارحتها أنا نفسى بذلك حتى صبت على غضبها، غير أنها ست كبيرة، وأنت تعلمين أن الإنسان في مثل سنّها يحتاج إلى المدارة والحلم كالأطفال، حبذا . . .

فقاطعه إبراهيم فى ضجر قائلاً:

- حبذا.. حبذا..! كم كررت حبذا هذه حتى مللتها، أمك كما قلت ست كبيرة، ولكن قرعتها وقعت على من لا ترحم..!

التفتت خديجة إليه بحدة وقد عبس وجهها واتسع منخراها، وقالت:

- الله.. الله..، لم يبق إلا أن تعيد هذا الكلام الجائر أمام بابا..! فقال إبراهيم وهو يلوح بيده أسفًا:

- بابا ليس معنا الآن، وهو إن جاء فلن يجيء ليستمع إلى أنا، ولكنى أقرر الحقيقة التى يسلم بها الجميع ولا تستطيعين أنت إنكارها، أنت لا تطيقين أمى ولا تحتملين ظلها، أعوذ بالله، لم كل هذا يا شيخه؟ بشيء قليل من الحلم والكياسة كان يسعك أن تأسريها، ولكن القمر أقرب منالاً من حلمك، هل تستطيعين أن تنكرى كلمة واحدة مما قلت؟!

فرددت عينيها بين خليل وعائشة لتشهدهما على هذا «الظلم» الصارخ، فبدوا حائرين بين الحق والسلامة، حتى تمتت عائشة وهى من الإشفاق فى نهاية:

- سى إبراهيم يقصد أن تغضى قليلاً عما يبدر منها.. وهز خليل رأسه بالموافقة فى ارتياح من ظفر أخيراً بسلم النجاة، ثم قال:

- هو ذلك، أمى سريعة الغضب ولكنها بمنزلة والدتك، وبشء من الحلم تعفين أعصابك من مشقة المشاحنة.. فنفخت خديجة وهى تقول:

- الأصوب أن يقال إنها هى التى لا تطيقنى ولا تحتمل لى ظلاً، لقد أتلفت أعصابى، وما من مرة نتلاقى إلا وتسمعنى - تصريحاً أو

تلميحا - كلمة تهيج الدم وتسم البدن ، ثم أطالب أنا بالحلم ! كانى مخلوقة من ثلج ، أليس يكفينى عبد المنعم وأحمد اللذان استنفدا صبرى وحلمى ؟! يا هوه أين أجد منصفاً ؟!

فقال إبراهيم فى تهكم وهو يتسم :
- لعلك تجددين هذا المنصف فى شخص أبيض ؟!
فهتفت قائلة :

- أنت شامت بى ، أنا أفهم كل شىء ، ومع ذلك فربنا موجود!
فقال إبراهيم بصوت ممطوط يدل على التسليم والتحدى فى آن :
- ربنا موجود!

وقال خليل بعطف :

- هدئى روعك حتى تلقى والدك بنفس مطمئنة!

من أين لها بالنفس المطمئنة ؟ لقد انتقمت العجوز منها شر انتقام ، وعما قليل تدعى إلى لقاء أبيها فى موقف يفر منه قلبها ودمها . وهنا ترامى إليهم صياح عبد المنعم وأحمد من وراء باب حجرتهما وأعقبه صوت أحمد وهو يركى . فقامت على عجل رغم سماتها وانجھت نحو الحجرة ، فدفعت الباب ودخلت وهى تصيح بدورها :

- ما معنى هذا ؟! ألم أنهكما عن الشجار ألف مرة ؟ خصيمى المعتدى منكما . .

قال إبراهيم بعد أن توارت وراء الباب :

- مسكينة كأن بينها وبين الراحة عداً مستحكما ، منذ الصباح الباكر تبدأ بخوض معركة طويلة تستغرق النهار كله فلا تسكن حتى تأوى إلى الفراش ، يجب أن يذعن كل شىء إلى إرادتها وتفكيرها ، الخادم ، الأكل ، الشرب ، الأثاث ، الدجاج ، عبد المنعم ، أحمد ، أنا ، الكل يجب أن يذعن لتنظيمها ، إنى أشفق عليها ، وأؤكد لكم

أن بيتنا يمكن أن ينعم بأحسن حال من النظام والدقة دون حاجة إلى هذه الوسوسة . .

فقال خليل باسم:

- ربنا يعينها . .

- ويعينني معها!

قال إبراهيم ذلك وهو يهز رأسه باسمًا أيضًا، ثم أخرج من جيب معطفه الأسود علبة سجائره، ونهض متجها إلى أخيه فقدمها له فتناول خليل سيجارة، ودعا عائشة لتتناول واحدة ولكنها رفضت ضاحكة، وأومأت إلى الباب الذي توارت وراءه خديجة، وهي تقول:

- خلّ الساعة تمر بسلام . .

فعاد إبراهيم إلى مجلسه وهو يشعل سيجارة، ويقول مشيرا إلى الباب نفسه:

- محكمة، في الداخل الآن محكمة، ولكنها ستعامل هذين المتهمين بالرحمة ولو على رغما . .

عادت خديجة وهي تقول متأففة:

- كيف يمكن أن أذوق طعم الراحة في هذا البيت! كيف ومتى؟!!

وجلست وهي تنهد، ثم قالت مخاطبة عائشة:

- نظرت من المشربية فوجدت الطين المتخلف من مطر الأمس لا يزال يغطى أرض الحارة، فخبّرني وربك كيف يشق أبى سبيله؟! . .

ولم هذا العناد كله؟!!

فسألتها عائشة:

- والسما؟ كيف خالها الآن؟

- قطران! ستجعل الحارات بحورا قبل الليل، ولكن هل أجدى ذلك

فى حمل حماتك على تأجيل ما بيتت من شر ولو إلى يوم
آخر؟ كلا، ذهبت إلى الدكان رغم ما يسببه المشى لها من متاعب،
وما زالت بالرجل حتى تعهد لها بالحضور، ولو سمعها سامع فى
الدكان وهى تشكونى فى هذه الظروف العسيرة لحسبني ربا أو
سكينة!

وضحكوا جميعاً مغتيمين الفرصة التى أتاحتها لهم للتنفيس عن
صدورهم، وتساءل إبراهيم:

- أتخسين نفسك أقل شأنًا من ربا وسكينة؟!

وسُمع نقر على الباب، ولما فتحت الخادم لاح وجه الجارية سويدان
فنظرت إلى خديجة بخوف، وقالت:

- سيدى الكبير حضر..

ثم سرعان ما توارت، وقامت خديجة شاحبة اللون وهى تقول
بصوت خافت:

- لا تتركونا وحدنا..

فقال خليل ضاحكًا:

- معك إلى النهاية يا خديجة هانم!..

فقالت بلهجة وشت بالرجاء والتوسل:

- كونوا فى جانبى..

وغادرت الشقة بعد أن ألقت عائشة نظرة متفحصة على صورتها فى
المراة لتؤكد من خلو وجهها من أى أثر للأصباغ.

كان السيد أحمد عبد الجواد يجلس على كنبه فى صدر الحجرة
القديمة تحت صورة كبيرة للمرحوم شوكت، على حين جلست الأم على
مقعد قريب فى معطف كثيف لم تجد كثافته فى إخفاء ضالة جسمها

الذى احدودب أعلاه، وقد نحل وجهها وعمقت تجاعيده وتكاثر
وجف جلده فلم يبق شيء منه على ما كان عليه إلا أسنانها الذهبية، ولم
تكن هذه الحجرة بالغريبة على السيد أحمد، ولم يهون قدمها من
فخامتها، وإذا كانت الستائر قد بهتت وقطيفة بعض المقاعد والكنبات قد
انجردت أو تهتك عند المقابض والمساند، فإن بساطها العجمي قد صان
رونقه أو استجد نفاسته، إلى أن جوها تنسم برائحة بخور لطيفة مما تولع
به العجوز، وكانت المرأة تميل على مظلتها وتقول:

- قلت لنفسى إذا لم يحضر السيد أحمد كما وعدنى، فلا هو ابنى
ولا أنا أمه . .

فابتسم السيد قائلاً:

- لا سمح الله، إنى طوع أمرك، فأنا ابنك وخديجة ابتك!

فمطت بوزها، وقالت:

- كلكم أبنائى! أمينة هانم ابنتى الطيبة، أنت سيد الناس، أما خديجة
(ورنت إليه وعيناها تتسعان) فلم ترث سجية واحدة من سجايا
والديها الطيبين . . (ثم وهى تهز رأسها) يا لطيف الطف . . !

فقال السيد بلهجة المعتذر:

- إنى أعجب كيف أغضبتك لهذا الحد؟ كان الأمر كله مفاجأة شديدة
على، لا أقبل هذا مطلقاً، ولكن هلا حدثتنى عما فعلت؟

فقال المرأة مقطبة:

- هذا شيء قديم، كنا نخفى عنك كل شيء إكراماً لتوسلات والدتها
التي أعيتها الحيل فى إصلاحها، ولكنى لن أقول كلمة واحدة إلا
فى وجهها، فى وجهها يا سى السيد كما عزمت أمامك فى
الدكان . .

عند ذاك جاءت الجماعة، دخل إبراهيم فى المقدمة، وتبعه خليل،

فعائشة، ثم خديجة، وصافحوا السيد واحدا فواحدا حتى جاء دور خديجة، فانحنى فى أدب مثالى حتى لثمت يده، فلم تتمالك العجوز من أن تقول فى عجب :

- رباه ما هذه البوليتيكا، أنت خديجة حقا؟! لا تخدعك الظواهر يا سيد أحمد ..

فقال خليل معاتباً أمه :

- هلا تركت والدنا حتى يستريح ! ليس ثمة ما يدعو إلى محاكمة على الإطلاق!

فعلا صوت المرأة وهى تحييه قائلة :

- ما الذى جاء بك؟! ما الذى جاء بكم؟ دعوها واذهبوا عنا بسلام ..

فقال إبراهيم برقة :

- وحدى الله .

فصاحت به :

- أنا موحدة أحسن منك يا بغل ! لو كنت رجلا حقا ما أحوجتنى إلى استدعاء هذا الرجل الطيب، ما الذى جاء بك؟ وكان يجب أن تكون غاطا فى نومك كالعادة؟!!

ابتل صدر خديجة ارتياحاً إلى هذه البداية، فتمنت لو تشتد حتى تغطى على قضيتها، ولكن السيد سألها بصوت مرتفع سد الطريق فى وجه المعركة المأمولة :

- ما هذا الذى سمعته عنك يا خديجة؟! أحق أنك لست الابنة المؤدبة المطيعة لوالدتك، أستغفر الله، بل لوالدتنا جميعاً؟!!

خاب أمل خديجة، فغضت بصرها، وتحركت شفتها فى همس

دون أن تبين وهي تهز رأسها نفيًا ، ولكن الأم لوحت بيدها للجميع كي ينصتوا ، ثم أنشأت تقول :

- هذا تاريخ قديم لن أستطيع أن أسرده عليك في هذه الجلسة ، منذ أول يوم لها في هذا البيت وهي تخاصمني بلا سبب ، وتخاطبني بأطول لسان عرفته في حياتي ، لا أحب أن أعيد عليك ما سمعته طوال خمس سنوات ، أوزيد ، كثير كثير ، وقبيح قبيح !! عابت إشرافي على البيت وتنقصت طهبي - هل تتصور هذا ياسى السيد؟ - وما زالت حتى انفصلت بشقتها عنى فانشطر البيت الواحد بيتين ، حتى الجارية سويدان حرمت عليها دخول شقتها لأنها جاريتي ، وجاءت بخادم خصوصية لها ، السطح ، السطح على سعته ياسى السيد ، ضيقته على حتى اضطرت إلى نقل دواجنى إلى الفناء !! ماذا أقول أيضًا يا بنى؟ هذا قليل من كثير ، ولكن ما علينا ، قلت لنفسى ما فات فات ، واحتملته وصبرت عليه ، وقد ظننت بعد الانفصال أن أسباب الشقاق ستتهى ، ولكن هل صدق ظنى؟ كلا وحياتك . .

انقطعت عن الحديث لسعال غلبها ، وراحت تسعل حتى انتفخت أوداجها ، وخديجة تلحظها وهي تدعو الله فى سرها أن يأخذها قبل أن تتم حديثها ، ولكن السعال سكت فازدردت ريقها وتشهدت ، ثم رفعت إلى السيد عيين دامتين ، وسألته بصوت لم يخلُ من بح :

- أتستكف أنت يا سيد أحمد أن تقول لى يا أمى ؟

فقال الرجل الذى تظاهر بالعبوس رغم ابتسام إبراهيم و خليل :

- معاذ الله يا أمى . .

- عوفيت يا سيد أحمد ، لكن ابتك تستكف من هذا ، تدعونى «تيزة» ، أقول لها مراراً ادعيني «نينة» ، فتقول لى «وماذا أدعو التى فى بين القصرين؟» ، أقول لها أنا نينة ، وأملك نينة ، فتقول لى «ليس

لى إلانىة واحدة ربنا يخليها لى». انظر يا سى السيد، أنا التى
تلقيتها بيدى من عالم الغيب!

لقى السيد أحمد على خديجة نظره غاضبة، وسألها محتداً:
- صحيح هذا يا خديجة؟ يجب أن تتكلمى..

كانت خديجة كأنها فقدت القدرة على النطق، كانت من الغيظ فى
نهاية، وكانت من الخوف فى نهاية، وإلى هذا كله كانت يائسة من نتيجة
المناقشة فحدثها غرائز الدفاع عن النفس على التذرع بكافة ضروب
الضراعة والمسكنة، قالت بصوت خافت:

- أنا مظلومة، كل واحد هنا يعلم بأنى مظلومة، مظلومة والله
يا بابا..

كان السيد أحمد فى دهش مما يسمع، ومع أنه فطن من أول الأمر إلى
حال «الكبر» التى تسيطر على المرأة، ومع أنه لم يغيب عن ملاحظته
ما يكتنف الجو من فكاكة بدت آثارها فى وجهى إبراهيم و خليل، فإنه
صمم على التظاهر بالجد والصرامة إرضاء للعجوز وإرهاقاً لخديجة،
وكان يعجب لما يتكشف له من عناد خديجة وحدة طباعها، الأمر الذى
لم يخطر له فى خيال من قبل، أكانت على هذا الخلق مذ كانت فى بيته؟
أتعلم أمينة من أمرها ما لا يعلم؟ هل يكتشف على آخر الزمن
صورة جديدة لابتته مناقضة للصورة التى كونها كما سبق أن اكتشف
لياسين؟!

- أريد أن أعرف الحقيقة؟! أريد أن أعرف حقيقتك، إن التى تتحدث
عنها والدتنا امرأة أخرى غير التى عهدتها، فأيتها تكون
الصادقة؟!

ضمت المرأة أناملها وهزت يدها داعية إياه إلى الصبر حتى تتم
حديثها، ثم استطردت قائلة:

- قلت لها : إنى تلقيتك بيدي من عالم الغيب ، فقالت لى بلهجة شريرة لم أسمع بمثلها من قبل : «إذن أكون نجوت من الموت بأعجوبة!». .

ضحك إبراهيم و خليل ، وخفضت عائشة رأسها لتخفى ابتسامتها . . ، فقالت العجوز مخاطبة ابنيها «اضحكا ، اضحكا ، اضحكا من أمكما!»، ولكن السيد نجهم وإن يكن باطنه ضحك ، ترى أخلقت بناته على مثاله أيضاً؟ أليس هذا مما يستحق أن يروى على إبراهيم الفار وعلى عبد الرحيم ومحمد عفت؟! قال لخديجة بغلظة :

- كلا . . كلا ، لأعرفن كيف أحسابك على هذا حساباً عسيراً . .

فواصلت العجوز حديثها بارتياح قائلة :

- أما سبب شجار الأمس ، فهو أن إبراهيم دعا بعض أصدقائه إلى وليمة فقدمت لهم الشركسية فيما قُدم من أطعمة ، وفى المساء سهر عندي إبراهيم و خليل وعائشة وخديجة ، وجاء ذكر الوليمة فنوه إبراهيم ببناء المدعوين على الشركسية ، فانبسطت ست خديجة ، ولكنها لم تقنع بذلك ، بل راحت تؤكد أن الشركسية هى الصنف المأثور عن بيتها الأول ، فقلت بحسن نية : إن زينب زوجة ياسين الأولى هى التى أدخلت الشركسية فى بيتكم ، وإن خديجة لا بد وأن تكون تعلمتها منها ، أقسم لك أنى ما تكلمت إلا عن حسن نية وأنى ما قصدت أحداً بسوء ، ولكن أبارك الله يا حبيب ، انتفضت غاضبة وصاحت فى وجهى «هل تعرفين عن بيتنا أكثر مما نعرف؟» فقلت لها : إنى أعرف بينكم من قبل أن تعرفيه أنت بعمر مديد ، فصرخت قائلة : «أنت لا تحبين لنا الخير ولا تطيقين أن ينسب لنا شيء حميد ولو كان طهى الشركسية ، الشركسية تؤكل فى بيتنا قبل أن تولد زينب وعيب أن تكذب واحدة فى مثل سنك»

أى والله هذا يا سى السيد ما قذفتنى به أمام الجميع ، فأيتنا الكاذبة
بربك وصلاتك؟!!

قال السيد غاضباً ساخطاً:

- رمتك بالكذب فى وجهك! يارب السماوات والأرض ، ما هذه
ابنتى . .

غير أن خليل قال لأمه باستياء :

- ألهذا جئت بوالدنا؟! أيصح أن نكدر خاطره ونضيع وقته بسبب
نزاع صبيانى حول الشركسية؟! هذا كثير يا أماه . .

فحملت المرأة فى وجهه مقطبة وصاحت به :

- اخرس ، اغرب عن وجهى ، لست كاذبة ، ولا يصح أن يرمى
مخلوق بالكذب ، إنى أعرف ما أقول ولا حياء فى الحق ، لم تكن
الشركسية بالطعام المعروف فى بيت السيد قبل أن تدخله زنب ،
وليس فى ذلك ما يعيب أحداً أو يتقصه ، ولكنها الحقيقة . هاكم
السيد فليكذبني إن كنت كاذبة ، إن طواجن بيته مضرب الأمثال
ويليها الأرز المحشو ، أما الشركسية فلم تقدم على مائدته قبل
مجيء زينب ، تكلم يا سى السيد أنت وحدك الحكم . .

قاوم السيد أحمد إغراء الضحك طيلة حديث المرأة ، ثم قال بلهجة
عنيفة :

- ليت ذنبها اقتصر على الكذب والادعاء الباطل من دون أن تضيف
إليه سوء الأدب ، هل شجعك على هذا السلوك السيئ ابتعادك عن
قبضة يدي؟! إن يدى تمتد إلى حيث يجب أن تمتد بلا تردد ، من
المؤسف حقاً أن يجد أب ابنته مستحقة للتأديب والعقاب بعد أن
اكتمل نضجها واستوت بين النساء زوجة وأما . .

واستطرد ملوحاً بيده :

- إنى غاضب عليك ، والله إنه ليؤلمنى أن أرى وجهك أمامى . .

أجهشت خديجة بالبكاء فجأة، جاء ذلك عن تأثير وتدبير معاً، ولم يكن ثمة وسيلة أخرى للدفاع، ثم قالت بصوت متهدج تخنقه العبرات:

- أنا مظلومة، والله أنا مظلومة، إنها لا ترى وجهي حتى ترميني بكلمات قاسية، ولا تفتأ تقول لي «لولاى لقضيت العمر عانسا» وأنا لم أنلها بسوء أبداً، وكلهم شهود على ذلك..

لم تعد الحركة التمثيلية - الصادقة الكاذبة - أثراً تركته في النفوس: قطب خليل شوكت حانقاً، ونكس إبراهيم شوكت رأسه، والسيد نفسه ولو أن مظهره لم يعتوره تغيير إلا أن قلبه انقبض عند سماعه ما قيل عن العنوس كعهده من قديم، أما العجوز فجعلت تنظر إلى خديجة نظرات نافذة من تحت حاجبيها الأشيبين، وكأنما تقول لها «مثلى دورك يا مأكرة لن يجوز على»، ولما استشعرت في الجو عطقاً على المثلة قالت بتحد:

- ها كم عائشة أختها؟ إنى أستحلفك بعينيك، أستحلفك بالقرآن الشريف إلا ما شهدت بما سمعت ورأيت، ألم ترمنى أختك بالكذب فى وجهي؟ ألم أصف نزاع الشركسية دون مبالغة أو تجاوز، تكلمى يا بنية تكلمى، إن أختك ترمينى الآن بالظلم بعد أن رمتنى بالكذب، تكلمى ليعلم السيد من الظالم ومن المعتدى..

روعت عائشة بجرحها المباغت إلى حومة القضية التى ظنت أنها ستقف منها موقف المشاهد إلى النهاية، وشعرت بالخطر يحرق بها من كل جانب، فرددت عينيها الجميلتين بين زوجها وأخيه كالمستغيثة، فهم إبراهيم بالتدخل، ولكن السيد أحمد سبقه إلى الكلام، فخاطب عائشة قائلاً:

- إن والدتنا تستشهد بك يا عائشة، فيجب أن تتكلمى..

فاضطربت عائشة حتى شحب لونها، ولكن شفيتها لم تتحرك إلا

عند ازدراد ريقها، وغمضت عينيها فراراً من عيني أبيها وأصرت على الصمت. قال خليل محتجاً:

- لم أسمع من قبل أن أختا دعيت للشهادة على أختها. !
فصاحت به أمه:

- ولم أسمع من قبل أن أبناء يتكتلون ضد أمهم كما تفعلون. (ثم ملتفتة إلى السيد) ولكن حسبى صمتها، إن صمت عائشة شهادة لى يا سى السيد. .

ظنت عائشة أن عذابها قد انتهى عند هذا الحد، ولكنها ما تدري إلا وخديجة تقول لها برجاء وهى تحفف عينيها:

- تكلمى يا عائشة، هل سمعتنى أشتما؟

لعتها فى سرها من صميم قلبها، وراح رأسها الذهبى يهتز اهتزازة عصبية، فهتفت العجوز:

- جاءنا الفرج، هى التى تطالب بالشهادة، لم يبق لك عذري يا شوشو. يا ربى إذا كنت ظالمة حقاً كما تقول خديجة فلم لم أظلم عائشة؟ لم تسير الأمور بينى وبينها على خير حال، لم يا ربى لم؟

نهض إبراهيم شوكت من مجلسه، ثم جلس إلى جانب السيد، وقال له:

- يا والدى، يؤسفنى أننا أتعبنك وأضعنا وقتك الثمين هباء، فلندع الشكوى والشهادة جانباً، لندع الماضى كله جانباً ولننظر فيما هو أهم وأجدى، ينبغى أن يكون محضرك خيراً وبركة، فلنعقد الصلح بين أمى وزوجى، ولتتعهدا لك بأن يحافظا عليه على الدوام.

ارتاح السيد أحمد إلى هذا الاقتراح، غير أنه قال بلباقة وهو يهز رأسه معترضاً:

- كلا، لن أقبل أن أعقد صلحاً، فإن الصلح لا يكون إلا بين ندين،
والطرفان هنا هما والدتنا من ناحية وابنتنا من ناحية أخرى،
وليست الأبنة كالأم، فيجب أولاً أن تعتذر خديجة إلى أمها عما
سلف، لتعفو أمها عنها إذا شاءت، ثم نتكلم بعد ذلك في
الصلح ..

ابتسمت العجوز حتى تضامت تجاعيدها، غير أنها نظرت نحو
خديجة بحذر، ثم أعادت بصرها إلى السيد ولم تنبس، فاستطرد السيد
قائلاً:

- يبدو أن اقتراحي لم يصادف قبولاً ..

فقال العجوز بامتنان:

- إنك لا تنطق إلا عن الصواب: سلم فوك، وبارك الله في
عمرك ..

وأشار السيد إلى خديجة فقامت دون تردد واقتربت منه في انكسار
لم تشعر بمثله من قبل حتى مثلت بين يديه، فقال لها بحزم:
- قبلى يد والدتك، وقولى لها: اصفحى عنى يا نينة ..

آه، ما كانت تتخيل - ولا فى الكابوس - أنها يمكن أن تقف هذا
الموقف أبداً، ولكن أباه - أباه المعبود - هو الذى قضى به، أجل قضى
به من لا تستطيع لقضائه رداً. فلتكن مشيئة الله. تحولت خديجة إلى
العجوز، ومالت نحوها، ثم تناولت اليد التى رفعتها إليها - إى والله
رفعتها إليها دون ممانعة ولو فى الظاهر - ولثمتها، وهى تشعر باشمئزاز
وتقزز وقهر أليم، ثم غمغمت قائلة:

- اصفحى عنى يا نينة ! ..

فنظرت العجوز إليها ملياً وقد شاع البشر فى وجهها، ثم قالت:

- صفحت عنك يا خديجة ، صفحت عنك إكراماً لأبيك ، وقبلوا لتوبتك . .

وندت عنها ضحكة صبيانية ، ثم استطردت تقول بتحذير :

- لا جدال بعد اليوم فى الشركسية ، ألا يكفيكم أنكم فقتم الدنيا فى الطواجن والأرز المحشو . . ؟

قال السيد بسرور :

- الحمد لله على الصلح (ثم وهو يرفع رأسه إلى خديجة) . . نينة دائماً ، ليست تيزة ، هذه نينة كالأخرى سواء بسواء . .

ثم بصوت خفيض أسيف :

- من أين جئت بهذا الخلق يا خديجة؟ ما كان ينبغى لأحد نشأ فى بيتى أن يعرفه ، أنسيت أمك وما تتحلى به من أدب ودمائة؟ أنسيت أن أى شر تأتينه إنما يسود وجهى أنا؟ لقد عجبت والله وأنا أستمع إلى حديث أمك ، ولسوف أعجب طويلاً .

٢٢

رقيت الجماعة فى السلم عائدة إلى مساكنها عقب رحيل السيد أحمد عبد الجواد ، كانت خديجة تتقدم القافلة بوجه مريد تعلوه صفرة الغضب والحنق ، وكان الآخرون يشعرون بأن الصفاء لم يزل أبعد ما يكون عن القلوب فأشفقوا مما سيتمخض عنه صمت خديجة ، لذلك صحب خليل وعائشة وخديجة وإبراهيم إلى شقتهما ، رغم أن زياط نعيمة وعثمان ومحمد كان حرياً بأن يعيدهما إلى شقتهما فوراً ، ولما عادوا

إلى مجلسهم بالصالة قال خليل - وهو بسبيل جس النبض - مخاطباً أخاه :

- كانت كلمتك الختامية حاسمة فأنت بخير النتائج . .

فتكلمت خديجة لأول مرة قائلة بانفعال :

- أتت بالصلح أليس كذلك؟ هى السبب فيما نزل بى من مذلة لم أتعرض لمثلها من قبل . .

فتساءل إبراهيم كالمستنكر :

- لا مذلة فى أن تقبلى يد أمى أو تستصفحها . .

فقال دون مبالاة :

- إنها أمك أنت ، ولكنها عدوتى أنا ، ما كنت لأدعوها نينة لولا أمر بابا ، أجل فما هى إلا نينة بأمر بابا ، وبأمر بابا وحده !

مال إبراهيم إلى مسند الكنبه وهو يتنهد يائساً ، وكانت عائشة قلقة ولا تدرى أى أثر تركه امتناعها عن الشهادة فى نفس أختها ، وزاد من قلقها تجنب خديجة النظر إليها ، صممت على محادثتها لتحملها على معالنتها بحقيقة مشاعرها ، فقالت برقة :

- ليس فى الأمر مذلة وقد تصافيتما ، ويجب ألا تذكرى إلا حسن الختام . .

فتصلب جذع خديجة ورمقتها بنظرة غاضبة ، ثم قالت بحدة :

- لا تكلمينى يا عائشة ، أنت آخر شخص فى الدنيا يحق له أن يكلمنى . .

فتظاهرت عائشة بالدش ، وتساءلت وهى تقلب عينيها بين إبراهيم و خليل :

- أنا؟! لماذا لا سمح الله؟!

فقال بصوت كالرصاص برودة وحدة :

- لأنك ختنتي وشهدت بصمتك على ! لأنك أثرت إرضاء الأخرى
على مظاهرة أختك ، هذه هي الخيانة بعينها . . !
- أمرك عجيب يا خديجة ! . . كل واحد يعلم بأن الصمت كان في
صالحك !

فقال بنفس اللهجة أو أشد :

- لو راعيت صالحى حقاً لشهدت لى بالحق أو بالباطل لا يهم ، ولكن
أثرت التى تطعمك على أختك ، لا تكلمينى ، ولا كلمة واحدة ،
لنا أم يكون عندها الكلام .

وفى ضحى اليوم التالى ذهبت خديجة لزيارة أمها رغم توكل
الطرقات وامتلاء منخفضاتها بالمياه الراكدة ، ومضت إلى حجرة الفرن ،
فنهضت أمها لاستقبالها فى سرور وحرارة ، وأقبلت نحوها أم حنفى
مهللة ، ولكنها ردت السلام بكلمات مقتضبة حتى تفحصتها أمها بنظرة
متسائلة ، فقالت دون تمهيد :

- جئت لك لرى رأيك فى عائشة . . فلم يعد بى طاقة لأتحمل أكثر مما
تحملت . .

لاح فى وجه أمينة اهتمام مقرون بالأسى ، فقالت وهى تشير إليها
برأسها كى تسبقها إلى الخارج :

- ماذا حدث كفى الله الشر؟ حدثنى أبوك بما كان فى السكرية ، فما
دخل عائشة فى ذلك؟ (ثم وهما ترقيان فى السلم) . . ربه يا
خديجة ، طالما رجوتك أن توسعى من صدرك ، حمائك عجزوز
ينبغى مراعاة سنهها ، إن ذهابها إلى الدكان وحده فى جو كجو
أمس برهان على ضعف عقلها ، ولكن ما الحيلة؟ كم غضب
أبوك ! لم يكن يصدق أنه يمكن أن تند عنك كلمة سوء ، ولكن

ماذا أغضبك من عائشة؟ لقد صمتت أليس كذلك؟ لم يكن فى وسعها أن تخرج عن الصمت . .

وجلستا فى الصالة - مجلس القهوة - على كنبه جنباً إلى جنب ،
وخديجة تقول محذرة :

- نينة ، أرجو ألا تنضمي إليهم ، مالى يا ربى لا أجد نصيراً فى هذه الدنيا !

فابتسمت الأم ابتسامة عتاب ، وقالت :

- لا تقولى هذا ، لا تتصورى هذا يا بنية ، ولكن خبرينى ماذا وجدت من عائشة ؟

وهى تدفع بيدها الهواء كأنما تلمطم عدوا :

- كل شر ، شهدت على ، فأوقعت بى شر هزيمة .

- ماذا قالت ؟

- لم تقل شيئاً . .

- الحمد لله . .

- إن المصيبة جاءت من أنها لم تقل شيئاً . .

تساءلت أمينة ، وهى تبتسم فى عطف :

- وماذا كان فى وسعها أن تقول ؟

وكأنما كبر عليها تساؤل أمها ، فقالت بعبوس وحدة :

- كان فى وسعها بأن تشهد بأننى لم أعتد على المرأة ، لم لا ، لو

فعلت ما جاوزت واجبات الأخوة ، كان فى وسعها على الأقل أن

تقول إنها لم تسمع شيئاً ، الحق أنها أثرت المرأة على ، خذلتنى

وتركتنى أقع تحت رحمة الماكرة الشامتة ، لن أنسى هذا لعائشة

ما حييت ! . .

قالت أمينة، بإشفاق وألم :

- خديجة لا ترعيبتنى، كان يجب أن يكون كل شيء قد نُسى فى الصباح . .

- نُسى؟! لم أُنم من الليل ساعة، شهدت وبرأسى مثل النار، كل مصيبة كانت تهون لو لم تجئ من عائشة، من أختي؟! لقد ارتضت أن تنضم إلى حزب الشيطان، حسنا، ليكن ما تشاء! كان لى حماة فأصبح لى اثنتان، عائشة! . . رباه طالما سترتها، لو كنت خائنة مثلها لقصصت على أبى ما تزخر به حياتها من قلة الأدب، إنها تحب أن يعرف عنها أنها ملك كريم وأنتى شيطان رجيم، كلا . أنا خير منها ألف مرة، إن لى كرامة لا يعلو إليها التراب، ولولا أبى (وهنا اشتدت نبراتها حدة) لما استطاعت قوة فى الأرض أن تحملنى على أن أقبل يد عدوتى أو أن أدعوها نينة!

ربت أمينة كتفها برقة، وهى تقول :

- أنت غضبى، دائما غضبى، هدئى من روعك، ستبقين معى حتى نتغدى معاً ثم نتحدث فى هدوء . .

- إنى فى كامل عقلى وأعرف معنى ما أقول، أريد أن أسأل أبى، أيتهما خير من الأخرى : التى تلزم بيتها، أم التى تزور بيت الجيران فتغنى وترقص ابنتها؟!

تنهدت أمينة، وقالت بحزن :

- إن رأى أبىك فى هذا لا يحتاج إلى سؤال، ولكن عائشة سيدة متزوجة والرأى الأعلى فى سلوكها لزوجها، ومادام يسمح لها بزيارة الجيران ويعلم بأنها تغنى بين صديقاتها اللاتى يحسبنها ويحبين صوتها فما شأننا نحن؟! لك الله يا خديجة! . . أتسمين هذا قلة أدب؟! هل يغضبك حقا أن ترقص نعيمة؟! إنها فى

السادسة وما رقصها إلا لعباً، لست إلا غاضبة يا خديجة،
سامحك الله . .

فقالت خديجة بإصرار:

- إنى أعنى كل كلمة قلتها، وإذا كان يعجبك أن تغنى ابنتك عند
الجيران وترقص ابتها، فهل يعجبك أيضاً أن تدخن، كالرجال؟!
نعم، ها أنت تدهشين! أكرر على مسمعك أن عائشة تدخن، وأن
التدخين صار لها كيفاً لا تملك الامتناع عنه، وأن زوجها يعطيها
العلبة ويقول لها بكل بساطة «علبتك يا شوشو»، رأيتها بنفسى
وهى تأخذ النفس وهى تخرجه من فمها وأنفها، أنفها أسمعين؟
لم تعد تخفى عنى ذلك كما كانت تفعل أول الأمر، بل دعتنى إليه
مرة بحجة أنه مهدئ للأعصاب الحامية . هذه هى عائشة، فما
قولك؟ وما قول أبى يا ترى؟

ساد الصمت، وبدأت أمينة فى حيرة شائكة، غير أنها صممت على
خطة التهدة التى التزمتها، قالت:

- التدخين عادة قبيحة بالقياس إلى الرجال أنفسهم، أبوك لم
يدخن قط، فماذا أقول عليه بالنسبة إلى النساء؟! ولكن ما
القول أيضاً إذا كان زوجها هو الذى أغراها به وعلمها إياه؟ ما
الحيلة يا خديجة؟ إنها لزوجها لا لنا، ولم يبق إلا النصح إن كان
يجدى . .

فجعلت خديجة تنظر إليها فى صمت وشى بردها قبل أن تقول:

- إن زوجها يدللها تدليلاً معيباً حتى أفسدها وأشركها فى كافة
معاصيه، ليس التدخين بشر عاداته، ولكنه يشرب الخمر فى بيته
دون حياء، أن بيته لا يخلو من الزجاجة كأنها ضرورة من
ضرورات الحياة وسوف يوقعها فى الخمر كما أوقعها فى

التدخين، لمَ لا؟ العجوز تعلم بأن شقة ابنها حانة ولكنها لا تكثرث لذلك، سوف يسقيها الخمر، بل إنى أقطع بأنه فعل فإنى شملت مرة فى فمها رائحة غريبة، وسألتها عنها وضيق عليها رغم إنكارها، أوكد لك أنها شربت الخمر وأنها بسبيل اعتيادها كالتدخين . .

صاحت الأم فى يأس :

- إلهذا يارب، ارحمى نفسك وارحمينا، اتقى الله يا خديجة . .

- إنى تقية وربنا عالم، لا أدخن ولا تفوح من فى روائح مريبة! ولا أسمح للخمر بأن تدخل شقتى! ألم تعلمى بأن البغل الآخر حاول أن يقتنى هذه الزجاجاة المحرمة؟! ولكنى وقفت له بالمرصاد، قلت له بصريح العبارة: إنى لا أبقى مع زجاجة خمر فى شقة واحدة، فتراجع أمام تصميمى، وجعل يحتفظ بزجاجته عند أخيه فى شقة الهانم التى خانتنى بالأمس، وكلمما صرختُ لأعنة الخمر وشاربيها، قال لى - قطع الله لسانه - «من أين جئت بهذه الحنبلية؟ هذا أبوك منبع الأنس كله وقلّ أن يخلو له مجلس من الكأس والعود!» أسمعت ماذا يقال عن أبى فى بيت آل شوكت؟!

لاحت فى عيني أمينة نظرة حزن وجزع، وجعلت تقبض راحتىها وتسطهما فى اضطراب وقلق، ثم قالت بصوت ثمت نبراته عن التشكى والتألم :

- رحماك يا ربى، لم نخلق لشيء من هذا، عندك العفو والرحمة، يا ويل النساء من الرجال، لن أسكت ولا يصح أن أسكت، سأحاسب عائشة حساباً عسيراً، ولكنى لا أصدق ما تقولين عنها، إن سوء ظنك بها جعلك تتخيلين ما لا أصل له، ابنتى طاهرة

وستظل طاهرة ولو انقلب زوجها شيطاناً رجيمًا، سأحدثها حديثاً صريحاً، وسأحدث سى خليل نفسه إن لزم الأمر، فليشرب كما يشاء حتى يتوب الله عليه . . أما ابنتى فحدّ الله بينها وبين الشيطان . .

هفت على نفس خديجة نسمة راحة لأول مرة، فتابعت جزع أمها بعين راضية واطمأنت إلى أن عائشة ستشعر قريباً بمدى الخسران الذى منيت به جزاء خيانتها، ولم تأبه كثيراً لما أضفت على الوقائع من مبالغة فى التصوير أو حدة فى الوصف مما جعلها تسمى شقة أختها حانة، وهى تعلم بأن إبراهيم و خليل لا يقربان الخمر إلا فى أحوال نادرة وفى اعتدال لم يبلغ حد السكر أبداً، ولكنها كانت حانقة ثائرة، أما ما قيل عن أبيها من أنه منبع الأنس . . إلخ، فقول أعادته على أمها بلهجة استنكار لا تدع مجالاً للشك فى كفرها به، ولكن الحقيقة أنها اضطرت من زمن إلى التسليم بما يقال أمام إجماع إبراهيم و خليل وأمهما العجوز، خصوصاً وأنهم كاشفوها بما يعلمون عنه فى غير ما تحامل عليه أو انتقاد له، بل وهم ينوهون بأريحيته ويعقدون له زعامة الظرف فى عصره، قابلت ذلك الإجماع بادئ الأمر بعناد غليظ، ثم داخلها الشك وريداً وإن لم تعلنه، ووجدت عسراً شديداً فى مزج هذه الصفات الجديدة بالشخصية الوقور الجبارة التى آمنت بها طوال حياتها، غير أن هذا الشك لم يهون من شأنها وجلالها، بل لعلها أثرت فى نظرها بما انضاف إليها من ظروف وأريحية . لم تقنع بما أحرزت من نصر، فعادت قول بلهجة التحريض :

- عائشة لم تخنّى فحسب، ولكنها خانتك أنت أيضاً . .

وصمتت ريثما يتغلغل قولها فى الأعماق، ثم استطردت قائلة :

- إنها تزور ياسين و مريم فى قصر الشوق . .

هفت أمينة وهى تحملق فيها بفزع :

.. ماذا قلت؟

فقالت وهى تشعر بأنها تسوّرت ذروة الظفر :

.. هذه هى الحقيقة المحزنة! زارنا ياسين ومريم أكثر من مرة، زارا عائشة وزارانى، أقول الحق إنى اضطرت لاستقبالهما وما كاد يسعنى إلا أن أفعل إكراماً لياسين غير أنه كان استقبلاً متحفظاً، ودعانى ياسين إلى زيارة قصر الشوق، ولست فى حاجة إلى أن أقول لك إننى لم أذهب، وتكررت الزيارة دون أن يغير ذلك من تصميمى حتى قالت لى مريم «لم لا تزورينا ونحن أختان من قديم الزمان؟» ولكنى اعتذرت بشتى المعاذير، وبذلت كل حيلها لاجتذابى، وجعلت تشكو لى معاملة ياسين لها واعوجاج سلوكه وانصرافه عنها، عليها ترقق قلبى ولكنى لم أفتح لها صدرى.. . عائشة على خلاف ذلك، تستقبلها بالترحاب والقبل، الأدهى من ذلك أنها تبادلها الزيارة، وقد صحبت معها مرة سى خليل، وفى مرة أخرى صحبت نعيمة وعثمان ومحمد، لشد ما تبدو سعيدة بتجديد صداقتها لمريم، وقد نبهتها إلى مجاوزتها الحد فى ذلك فقالت لى «لا مأخذ على مريم إلا أننا رفضنا يوماً أن نجعل منها خطيبة للمرحوم الغالى، فأى وجه للعدل فى هذا؟!»، قلت لها «أنسيت الجندى الإنجليزى؟» فقالت لى «لا ينبغى أن نذكر إلا أنها زوجة أختنا الأكبر». هل سمعت يا نينة عن شىء كهذا من قبل؟

استسلمت أمينة للحزن، فنكست رأسها ولاذت بالصمت، فجعلت خديجة تنظر إليها ملياً، ثم عادت تقول :

.. هذه هى عائشة بلا زيادة ولا نقصان، عائشة التى شهدت على أمس فأذلتنى أمام العجوز المخرفة.. .

تنهدت أمينة من الأعماق، ورمقت خديجة بعينين فاترتين، ثم قالت بصوت خافت :

- عائشة طفلة تأبى أن يكون لها عقل أو وزن، ولن تزال كذلك مهما امتد بها العمر، فهل يسعنى أن أقول غير ذلك؟! لا أود ولا أستطيع، هل هانت عليها ذكرى فهمى؟ لا أستطيع أن أصدق ذلك، ألم يكن فى وسعها أن تقتصد فى عواطفها حيال تلك المرأة ولو إكراماً لى؟! لكن لن أسكت عن هذا، سأقول لها إنها أساءت إلىّ وإننى غاضبة حزينة لأرى ما يكون منها بعد ذلك..

فأمسكت خديجة بخصلة من سوافها، وقالت:

- أحلق هذا لو صلح لها حال! إنها تعيش فى دنيا غير الدنيا التى نعيش فيها، لست أتحامل عليها وربنا يعلم، إننى لم أخاصمها ولا مرة مذ تزوجت، حق أننى طالما حملت عليها لم يقع منها من إهمال لأطفالها أو تملق مزر لحمايتها وغير ذلك مما حدثتكَ عنه فى حينه، ولكن حملتى لم تجاوز حد النصيح الحازم أو النقد الصريح، هذه أول مرة يضيق بها صدرى فأعالنها الخصام..

فقالت الأم برجاء وإن ظل وجهها ممتعضاً:

- دعى الأمر لى يا خديجة، أما أنت فلا أحب أن يفصل بينك وبينها خصام أبداً، لا يصح أن يفترق قلبكما وأنتما تعيشان معاً فى بيت واحد، لا تنسى أنها أختك وأنتك أختها، بل أختها الكبرى، إن قلبك أبيض والحمد لله، وهو مترع بالحب لأهلك جميعاً، إنى كلما اشتد أمر لم أجد عزاء إلا فى قلبك، وعائشة ومهما يكن من هفواتها هى أختك، لا تنسى هذا..!

فهتفت فى تأثر:

- إنى أغفر لها كل شىء إلا شهادتها علىّ..!

- لم تشهد عليك، خافت أن تغضبك كما خافت أن تغضب حمايتها فلاذت بالصمت، إنها تكره أن تغضب أحداً - كما تعلمين - وإن

كانت رعونتها كثيراً ما تغضب الكثيرين ، لم تقصد الإساءة إليك أبداً ، فلا تحملى تصرفها أكثر مما يحتمل ، سأزورك غداً لأصفي حسابى معها ، ولكنى سأصلح بينكما وإياك أن تمتنعى عن الصلح . .

ولأول مرة تتجلى فى عيني خديجة نظرة قلقة مشفقة حتى أنها غضت عينيها لتخفيهما عن أمها ، وصمتت قليلاً ، ثم قالت بصوت خافت :

- ستجيبين غداً . . ؟

- نعم ، لم يعد الحال يحتمل الصبر . .

خديجة كأنما تحدث نفسها :

- سوف تتهمنى بأننى أفسيت أسرارها . .

- ولو ! . .

ولما آنست منها مزيداً من القلق والإشفاق ، عادت تقول :

- على أى حال أنا أعرف ما يقال وما لا يقال . .

فقال خديجة بارتياح :

- هذا أفضل ، فهيهات أن تعترف بحسن نيتى ورغبتى فى إصلاح أمرها . . !

٢٣

- آه . . !

ندت عنه بغتة مفعمة بالحرارة والانفعال عندما رأى عايذة خارجة من

باب القصر . كان يقف كعادته كل أصيل على طوار العباسية يراقب البيت من بعيد وغاية أمانيه أن يلمحها فى شرفة أو نافذة . وكان يرتدى بدلة رصاصية أنيقة كأنما أراد أن يجارى الجو الذى بعثت فيه الأيام الأخيرة من مارس أريحية ولطفًا وبشاشة ، فضلاً عن أنه كان يزداد تأنقاً كلما ازداد ألماً وقنوطاً . وكانت عيناه لم تريها مذ خاصمته فى الكشك ، ولكن الحياة لم تكن تتيسر له إلا أن يحج كل أصيل إلى العباسية فيطوف بالقصر من بعيد فى مثابة لا تعرف اليأس ، معللاً نفسه بالأحلام ، قانعاً إلى حين باجتلاء المقام واجترار الذكريات . وكان الألم فى الأيام الأولى للفراق كالمجنون فى هذيانه ووسوسته ، ولو طال به الأمد على ذلك لقضى عليه ، ولكنه نجا من تلك المرحلة الخطيرة بفضل اليأس الذى وطن النفس عليه من قديم ، فانسرب الألم إلى مستقر له فى الأعماق يؤدى فيه وظيفته من غير أن يعطل سائر الوظائف الحيوية كأنه عضو أصيل فى الجسم أو قوة جوهرية فى الروح ، أو أنه كان مرضاً حاداً هائجاً ثم أزم من فزايسته الأعراض العنيفة واستقر ، غير أنه لم يتعز - وكيف يتعزى عن الحب ، وهو أجل ما كاشفته به الحياة؟ - ولكنه كان يؤمن إيماناً عميقاً بخلود الحب ، فكان عليه أن يصبر كما ينبغى لإنسان مقدور عليه بأن يصاحب داء إلى آخر العمر .

ولما رآها وهى تغادر القصر فجأة ندت عنه هذه الآهة ، وتابعت عيناه عن بعد مشيتها الرشيقة التى طال تشوقه إليها حتى رقصت روحه رقصة قطر هيمانها حنيناً وطرباً ، ومالت المعبودة إلى اليمين وسارت فى شارع السرايات ، فشبت فى روحه ثورة اجتاحت الهزيمة التى راض عليها النفس قرابة ثلاثة أشهر ففزع به قلبه إلى أن يطرح همومه عند قدميها وليكن ما يكون . واتجه دون تردد إلى شارع السرايات . كان فى الماضى يحذر الكلام أن يفقدها ، الآن ليس ثمة ما يخاف عليه ، إلى أن العذاب الذى عاناه طيلة الأشهر الثلاثة الماضية لم يدع لها سبيلاً إلى التردد أو

التراجع . ولم تلبث أن انتبهت إلى اقتراب خطاه ، فالتفتت إلى الوراء فرأته على بعد خطوات منها ، ولكنها أعادت رأسها إلى وضعه الأول دون مبالاة . لم يكن يتوقع استقبالا لطف ، ولكنه قال معاتباً :

- أهكذا يكون اللقاء بين الأصدقاء القدماء؟!!

فكان الجواب أن حثت الخطى دون أن تعيره أدنى التفات ، فأوسع خطوه مستمداً من ألمه عناداً ، ثم قال وهو يوشك أن يحاذيها :

- لا تتجاهليني فهذا شيء يفوق الاحتمال ولا داعي له لو راعيت الإنصاف ..

وكان أخوف ما يخاف أن تصر على تجاهله حتى تبلغ هدفها المقصود ، ولكن الصوت الرخيم خاطبه قائلاً :

- من فضلك ابتعد عني ، ودعني أسير في سلام ..
فقال بإصرار وتوسل معاً :

- ستسيرين بسلام ، ولكن بعد أن نصفى الحساب ..

فقالت بصوت تردد عميقاً واضحاً في صمت الطريق الأرستقراطي الذي بدا خالياً أو شبه خال :

- لا أدرى شيئاً عن هذا الحساب ، ولا أريد أن أدرى ، أرجو أن تسلك سلوك الجتلمان .. !

فقال بحرارة ووجد :

- أعدك بأن أسلك سلوكاً يعتبر بالقياس إلى الجتلمان نفسه مثالياً ، وليس في وسعي أن أفعل غير هذا ، إذ إنك أنت التي توحين إليّ بسلوكي .

قالت ولم تكن تنظر إلى ناحيته :

- أعني أن تتركني في سلام ، هذا ما عنيته ..

- لا أستطيع ، لا أستطيع قبل أن تعلن براءتي من التهم الظالمة التي عاقبتني عليها دون استماع إلى دفاعي ..

- أعاقبتك أنا؟!

تغاضى عن الحديث لحظة خاطفة كى يتملى سحر الحال، فقد رضيت أن تحاوره، وأن تتمهل فى خطوها السعيد، وسواء أكان هذا لأنها تود أن تستمع إليه أم لأنها تعتمد إطالة المسافة حتى تتخلص منه قبل بلوغ هدفها فلن يغير هذا من الحقيقة الباهرة، وهى أنهما يسيران جنباً إلى جنب فى شارع السرايات، تحف بهما أشجار الطريق الباسقة، وترنو إليهما من فوق أسوار القصور عيون النرجس الساجية وثغور الياسمين الباسمة، فى هدوء عميق يتعطش قلبه المستعر إلى نفحة منه، وقال:

- عاقبتنى أشد عقاب باختفائك عنى ثلاثة أشهر كاملة وأنا أتعذب عذاب المتهم البريء..

- يحسن ألا نعود إلى ذلك..

فى انفعال وضراعة:

- بل يجب أن نعود إليه، إني مصر على ذلك وأتوسل إليك باسم العذاب الذى عانيته حتى لم يعد بى قوة لتحمل المزيد منه..

تساءلت فى هدوء:

- ما ذنبى أنا فى ذلك؟

- أريد أن أعرف: ألا تزالين تعديننى معتدياً؟ الأمر المؤكد أننى لا أستطيع أن أسوء إليك بحال، ولو تذكرت مودتى طوال الأعوام الماضية لاقتنعت برأى دون عناء، دعينى أفصل لك الأمر بكل صراحة، لقد دعانى حسن سليم إلى مقابلته عقب الحديث الذى دار بيننا فى الكشك...

قاطعته فيما يشبه الرجاء:

- دعنا من هذا، إنه ماض انتهى...

وقعت الجملة الأخيرة من أذنه موقع النياحة من أذن الميت لو كان ميت يسمع، ثم قال بتأثر بدا في نبراته كالنغمة إذا هبطت من الجواب إلى القرار:

- انتهى . . ، أعلم أنه انتهى، لكنى أطمع في حسن الختام، لا أريد أن تذهبي وأنت تظنين بى الغدر، أو الغيبة، إننى برىء ويعز على أن تسيئى الظن بشخص يكن لك كل إعزاز واحترام، فلا يجرى لك ذكر على لسانه إلا مقرونا بكل ثناء . .

ألقت عليه نظرة وهى تميل برأسها إلى الناحية الأخرى كأنما تداعبه قائلة: «من أين لك بهذه البلاغة كلها؟»، ثم قالت بشيء من الرقة: - يبدو أنه وقع سوء تفاهم غير مقصود، ولكن ما فات فات . . بحماس وأمل:

- بل لا يزال فى النفس شيء من الشك فيما أرى . .
فقال بتسليم:

- كلا، لا أنكر أنى أسأت الظن حيناً، ولكن تبين لى الحق بعد ذلك . .

فطفأ قلبه فوق موجة من السعادة ترنح فوقها كالثمل، ثم تساءل:

- متى عرفت ذلك؟

- منذ زمن غير قصير . .

ورنا إليها بامتنان، وعبرته حال من الوجد يحلو معها نوع من البكاء، ثم قال:

- عرفت أننى برىء؟

- نعم . .

هل يسترد حسن سليم احترامه عن جدارة؟

- وكيف عرفت الحقيقة؟

فقلت بعجلة توحى بالرغبة فى إنهاء التحقيق :

- عرفتھا . . وهذا هو المهم . .

تجنب الإلحاح أن يضايقھا ، ولكن خاطراً خطراً فأظلت على قلبه
سحابة من الكدر حتى قال متشكياً :

- ومع ذلك أصررت على الاختفاء! لم تكلفى نفسك إعلان العفو
ولو بإشارة أو كلمة مع أنك افتتنت فى إعلان الغضب! ولكن
عذرك الواضح وهو عندى مقبول . .

- أى عذر هذا؟

بصوت حزين :

- إنك لا تعرفين الألم ، وإنى أسأل الله مخلصاً ألا تعريفه ابداً . .

قالت كالمعتذرة :

- ظننت أنه لا يهملك أن تكون متهماً . . !

- سامحك الله ، لقد اهتممت أكثر عما تتخيلين ، وساءنى جداً أن أجد
الشقة بيننا واسعة ، فلم يقف الأمر عند حد أنك تجهلين ما أكنه لك
من . . من مودة ، ولكنه جاوز ذلك إلى إلصاق التهم الظالمة بى ،
فانظرى أين كنت وأين كنت؟ على أنى أصارحك بأن الاتهام الجائر
لم يكن أسوأ ما عانيت من ضروب الألم . .

باسمة :

- لم يكن ضرباً واحداً من ضروب الألم إذن؟!!

فشجعتھ الابتسامة - كما تشجع الطفل - على الاسترسال فى
عاطفته ، فقال بوجد وانفعال :

- بلى ، وكانت التهمة أخف الآلام ، أما أشدها فكان اختفاؤك ، كان

لكل ساعة من ساعات الأشهر الثلاثة الماضية نصيبها من آلامى،
عشت أشبه ما يكون بالمجانين، لهذا أدعو الله صادقاً ألا يمتحنك
بالألم، دعاء مجرب، فإن لى بالألم تجربة وأى تجربة، وأقنعتنى
هذه التجربة القاسية بأنه إذا كان مقدوراً على أن تختفى من حياتى،
فمن الحكمة أن أبحث لى عن حياة أخرى، كان كل شىء كلعة
طويلة مقيتة، لانهزنى بى، أنا أتوجس من ناحيتك شيئاً كهذا
دائماً، ولكن الألم أجل من أن يهزأ به، لا أتصور أن يهزأ ملاك
كريم مثلك من عذاب الآخرين ودعى جانباً أنك سببه، لكن ما
الحيلة؟ قُضى على من قديم أن أحبك بكل قوة نفسى . .

ساد صمت مقطع بأنفاسه المترددة، وكانت تنظر إلى الأمام فلم
يطالع عينيها، ولكنه وجد فى صمتها راحة لأنه على أى حال أخف من
كلمة سادرة وعدةً توفيقاً. تصور أن يجيئك صوتها ناعماً عذباً معرباً عن
الشعور نفسه! يا له من مجنون! لماذا سكب ماء قلبه المكنون؟ لم يكن إلا
كفافز رام الارتفاع قدما فوجد نفسه يحلق فوق هامة الجو! ولكن أى قوة
تستطيع أن تشكمه بعد ذلك؟

- لا تذكرينى بما لا أحب سماعه فلانى فى غنى عن ذلك، لن أنسى
رأسى لأنى أحمله ليل نهار، ولا أنفى فلانى أراه مرات كل يوم،
ولكن عندى شىء لا نظير له عند الآخرين، حبى لا نظير له، إنى
فخور به، ويجب أن تكونى به فخوراً أيضاً ولو زهدت فيه، هكذا
كان مذ رأيتك أول مرة فى الحديقة، ألم تشعرى به؟ . . لم أفكر فى
الاعتراف من قبل لأنى خفت أن يقطع ما بيننا من مودة وأن يطردنى
من الفردوس، لم يكن من اليسير على أن أغامر بسعادتى، أما وقد
طردت من الفردوس فعلام أخاف؟!

سال سره على لسانه كأنه دم تعذر منعه، ولم يكن يرى من الوجود
إلا شخصها البديع، كأن الطريق والأشجار والقصور والقلعة العابرة قد

غابت وراء سحابة شاملة لم تنحسر إلا عن فرجة لاحت منها المعبودة الصامته بقامتها الهيفاء وهالتها السوداء وعارضها الموسم بالملاحة المنطوى على الأسرار، يبدو فى الظل حيناً أسمر صافياً، وحيناً - إذا مرا بطريق جانبي - وضاء منيراً تحت شعاع الشمس المائلة للغروب، ولم يكن يبالي أن يترسل فى الحديث حتى الصباح!

- أقلت لك إننى لم أفكر فى الاعتراف من قبل؟! فى هذا تجاوز، الواقع أننى هممت بالاعتراف يوم التقينا فى الكشك ونودى حسين للتليفون، كدت أعترف لولا أن عاجلتنى بمهاجمة رأسى وأنفى، فكنت (وهو يضحك ضحكة مقتضبة) كالخطيب الذى همّ بفتح فيه فانهال عليه الحصى من جمهور المستمعين؟

هادئة صامته كما ينبغى لها، ملاك من عالم آخر لا يطيب له التحدث بلغة البشر أو الاهتمام بشئونهم، أما كان من الأكرم له أن يصون سره؟! . . الأكرم؟! الكبرياء حيال المعبود كفر، مواجهة القاتل بالقتيل فن من الحكمة، أتذكر الحلم السعيد الذى استيقظت منه ذات صباح فبكيت عليه؟ . . الحلم سرعان ما يبتلعه النسيان، أما الدموع أو بالحرى ذكرها فتبقي رمزاً خالداً، وإذا بها تقول:

- لم أقل ما قلت إلا على سبيل الدعابة، ورجوتك حينذاك ألا تغضب . .

هذا الشعور الرطيب جدير بالتذوق، كالفرحة السعيدة على أثر وجع ضرس وضرباته، وتداعت الأنغام الكامنة فى نفسه حتى برز منها لحن مليح، عند ذاك تراءت قسّمات المعبودة رموزاً موسيقية للحن سماوى مرموقة على صفحة الوجه الملائكى .

- ستجديننى قانعاً بما دون الرجاء، لأننى كما قلت لك: أحبك . .
والتفتت صوبه فى رشاقة طبيعية، فألقت عليه نظرة باسمّة ثم

استردتها على عجل قبل أن يتمكن من قراءتها، أية نظرة كانت يا ترى؟ . . نظرة رضا؟ تأثر؟ عطف؟ استجابة؟ سخرية مهذبة؟ وهل أصابت الوجه جملة أم اختصت بالرأس والأنف؟ وجاءه صوتها قائلاً:

- لا يسعني إلا أن أشكرك، وأعتذر لك عن إيلا مك الذي لم أتعلمه، أنت رفيق وكرم . .

ونزعت به النفس إلى الارتواء في أحضان الأحلام السعيدة، ولكنها استطردت قائلة بصوت خافت:

- الآن دعني أتساءل عما وراء ذلك؟

ترى أسمع صوت معبودته أم صدى صوته هو؟ هذه الجملة بنصها محلقة في مكان ما من سماء بين القصرين محفوفة بتنهداته، هل آن له أن يجد لها جواباً؟ . . تساءل في حيرة:

- هل وراء الحب شيء؟!

ها هي تبتسم، ترى ما معنى ابتسامتها؟ لكنك غير الابتسام تروم، عادت تقول:

- إن الاعتراف بداية وليس نهاية، إنني أتساءل عما تريد . . ؟
فأجاب بحيرة أيضاً:

- أريد . أريد أن تأذني لى بأن أحبك . .

فما ملكت أن ضحكت، ثم تساءلت:

- أهذا ما تريد حقاً؟! ولكن ماذا أنت فاعل إذا لم آذن لك؟

فقال وهو يتنهد:

- فى هذه الحال أحبك أيضاً .

فتساءلت فيما يشبه الدعابة، الأمر الذى أرعبه:

- فيم إذن كان الاستئذان؟

حقاً ما أسخف هفوات اللسان! إن أخوف ما يخاف أن ينحط على الأرض فجأة كما سما عنها فجأة، وسمعتها تقول:

- أنت تخيرني، ويبدو لي أنك تخير نفسك أيضاً..

قال بجزع:

- إني.. حائر؟ ربما، ولكنني أحبك، ماذا وراء ذلك؟ يخيل إليّ أحياناً أنني أطمع إلى أمور تعجز الأرض عن حملها، ولكنني إذا تأملت قليلاً عجزت عن تحديد هدف لي، خبريني أنت عن معنى هذا كله، أريد أن تتحدثني وأن أستمع، هل عندك ما ينتشلني من حيرتي؟

قالت باسمه:

- ليس عندي مما تسأل شيء، كان ينبغي أن تكون أنت المتحدث وأنا المستمعة، أليس فيلسوفاً؟!

قال واجماً ووجهه يتورد:

- أنت تسخرين مني..!

فقالت بعجلة:

- كلا، غير أنني لم أكن أتوقع هذا الحديث عندما غادرت البيت، فاجأتني بما لم أتوقع، وعلى أي حال فإنني شاكره ممتنة، ولا يسع إنسان أن ينسى عواطفك الرقيقة المهذبة، أما أن يسخر منها فهذا ما لا يخطر على بال..

نعمة أسرة ومناغمة عذبة، ولكنه لا يدري أيجد المعبود أم يلهو، وهل تفتح أبواب الأمل أم توصل في خفة النسيم، وقد سأله عما يريد فما أجاب لأنه لا يدري ماذا يريد، ولكن ماذا عليه لو قال إنه يطمح إلى الوصال، وصال الروح بالروح، وأن يطرق باب السر المغلق بعناق أو

قبلة، ألا يكون هذا هو الجواب؟! وعند مفترق الطرق الذى ينتهى عند شارع السرايات، توقفت عايذة عن السير، ثم قالت برقة ولكن بلهجة قاطعة:

- هنا. . !

فتوقف عن السير أيضاً وهو يحملق فى وجهها بدهش، «هنا» تعنى أنه يجب أن نفترق هنا، لم يكن لجملة «أحبك» هذا الامتداد فى المعنى الذى يغنى عن السؤال، قال دون تدبر أو تفكير:

- كلا. . !

ثم هاتفاً، كمن ظفر بكشف مضىء بغتة:

- ماذا وراء الحب؟ أليس هذا سؤالك؟ هاك الجواب: ألا نفترق. . !

قالت بهدوء باسم:

- ولكن يجب أن نفترق الآن. . !

تساءل بحرارة

- لا كدر ولا سوء ظن؟

- كلا. .

- أعودين إلى زيارة الكشك؟

- إذا سمحت الظروف.

بقلق:

- كانت الظروف تسمح فى الماضى!

- الماضى غير الحاضر. .

آله الجواب إيلا ما عميقاً، فقال:

- يبدو أنك لن تعودى. .

فقال كإنما تنبهه إلى وجوب الافتراق :

- سأزور الكشك كلما سمحت الظروف ، سعيدة ..

وغادرت موقفها متجهة نحو شارع المدرسة فوقف يرنو إليها
كالمسحور ، وعند منعطف الطريق التفتت نحوه فألقت عليه نظرة باسمه
ثم غابت عن ناظره .

ماذا قال ؟ وماذا سمع ؟ سيخلو على هذا عما قليل ، بعد أن يفيق ،
متى يفيق ؟ ! إنه يسير الآن وحده ، وحده ؟ وخفقات القلب وهيمان
الروح وأصدقاء النغم ؟ ومع ذلك شعر بالوحدة بقوة هزت صميم فؤاده ،
وفغمه شذا ياسمين ساحرا أسرا ولكن ما هويته ؟ ما أشبهه بالحب فى
سحره وأسره وغموضه ، لعل سر هذا يفضى إلى ذاك ، ولكنه لن يحل
هذا اللغز حتى يأتى على تراويل الحيرة ..

٢٤

قال حسين شداد :

- هذه جلسة الوداع واأسفاه !

امتعض كمال لدى ذكر كلمة الوداع ، ورمق حسين بنظرة سريعة
ليرى إن كان وجهه ينطق بالأسف حقا كما نطق به لسانه ! على أنه
استشعر جو الوداع منذ أكثر من أسبوع ، إذ إن مجيء يونيو يؤذن عادة
برحيل الأصدقاء إلى رأس البر والإسكندرية ، فما هى إلا أيام حتى
تغيب عن أفقه الحديقة والكشك والأصدقاء ، أما المعبودة فقد ارتضت
الاختفاء من قبل أن يقضى به الرحيل ، وأصرت عليه رغم الصلح الذى

توج به حديث شارع السرايات ، لكن هل يمضى يوم الوداع دون زيارة؟
هل هانت المودة إلى حد الضن بنظرة عابرة قبل سفر ثلاثة أشهر؟ تساءل
كمال باسمًا:

- لم قلت «واأسفاه!»؟

فقال حسين شداد باهتمام:

- وددت لو سافرت معي إلى رأس البر، يا سلام! .. أى تصيف كان
يكون؟!

كان يكون عجبًا بلا ريب، حسبته أن المعبودة لا تستطيع مواصلة
الاختفاء هناك! وخاطبه إسماعيل لطيف:

- كان الله فى عونك! كيف تحتمل حر الصيف هنا، إن الصيف لم
يكذب بعد، ومع ذلك انظر إلى حر اليوم!

كان الجو شديد الحرارة رغم تقلص ذيل الشمس عن الحديقة
والصحراء الممتدة وراءها، غير أن كمال قال بهدوء:

- لا شيء فى الحياة لا يمكن احتماله ..

وفى اللحظة التالية كان يسخر من إجابته ويتساءل: كيف أجاب بها؟
وإلى أى حد يمكن اعتبار أن أقوالنا تعبير صادق عما فى نفوسنا؟ ونظر
فيما حوله فرأى أناسًا سعداء ما فى ذلك ريب، بدوا فى قمصانهم ذوات
الأكمام القصيرة وينطلوناتهم الرمادية كأنما يتحدون الحر، كان هو
وحده الذى يرتدى بدلة كاملة - وإن تكن بدلة خفيفة بيضاء - وطرבוша
وقد وضعه على المنضدة، وإذا بإسماعيل لطيف ينوره بنتيجة الامتحان
قائلًا:

- نتيجة نجاح مائة فى المائة، حسن سليم نال الليسانس، كمال أحمد
عبد الجواد منقول، حسين شداد منقول، إسماعيل لطيف
منقول ..

قال كمال ضاحكاً:

- لو أكتفيت بذكر النتيجة الأخيرة لعرفنا الأخريات بداهة!

فقال إسماعيل وهو يرفع منكبيه استهانة:

- كلانا بلغ هدفاً واحداً، أنت بعد كد وتعب تواصلنا طول العام، وأنا بعد تعب شهر واحد!

- هذا دليل على أنك عالم بالفطرة!

فتساءل إسماعيل ساخراً:

- ألم تقل مرة في أحد أحاديثك التافهة إن برنارد شو كان أخيب تلميذ في عصره؟

فقال كمال ضاحكاً:

- الآن آمنت بأن عندنا نظيراً لشو، على الأقل في خيبته..!

عند ذاك قال حسين شداد:

- عندي خبر ينبغي إذاعته قبل أن يسرقنا الحديث..

ولما وجد أن قوله لم يجد كثيراً في لفت الأنظار إليه نهض فجأة، ثم قال بلهجة لم تخل من تمثيل:

- دعوني أزف إليكم خبراً طريفاً وسعيداً (ثم مستدركاً وهو ينظر نحو حسن سليم) أليس كذلك؟ (ثم وهو يعود برأسه نحو كمال وإسماعيل) تمت أمس خطبة الأستاذ حسن سليم على أختي عائدة..

وجد كمال نفسه أمام هذا الخبر بغتة كما يجد إنسان نفسه تحت الترام وكان أنعم ما يكون عينا بالسلامة والأمن، خفق قلبه خفقة عنيفة كسقطه طيارة منطلقة في فراغ هوائي، بل هي صرخة فزع باطنية تصدعت الضلوع دون تسربها إلى الخارج، وقد عجب - خصوصاً فيما بعد -

كيف استطاع أن يضبط مشاعره ويلاقى حسين شداد بابتسامة التهتة،
فلعله شغل عن القارعة - ولو إلى حين - بالصراع الذى نشب بين نفسه
وبين الذهول الذى طوقها، وكان إسماعيل لطيف أول من تكلم فردد
عينيه بين حسين شداد وحسن سليم الذى بدا هادئاً رزيناً كعادته وإن
شابه هذه المرة شئ من الحياء أو الارتباك، ثم هتف:

- حقاً؟! ياله من خبر سار، سار ومفاجئ، سار ومفاجئ وغادرا
غير أنى سأؤجل الحديث عن الغدر إلى حين، حسبي الآن أن أقدم
خالص التهاني ..

ونفض فصافح حسين وحسن، فقام كمال من فوره للتهتة كذلك،
وكان مأخوذاً رغم ابتسامته الظاهرة بسرعة الحوادث وغرابة الأقوال
حتى خيل إليه أنه فى حلم غريب وأن المطر ينهمر فوق رأسه وأنه يتلفت
باحثاً عن مأوى، وقال وهو يصافح الشابين:

- خبر سار حقاً، تهانى القلبية ..

عاد المجلس إلى سابق هيئته، واختلس كمال من حسن سليم نظرة
على رغبة فرآه هادئاً رزيناً، وكان يشفق من أن يجده مختلاً أو شامتا -
كما تصور هذا - فداخله شئ من الارتياح العابر، وراح يستجدى نفسه
أقصى ما لديها من قوة ليستر جرحه الدامى عن العيون اليواقظ وليتفادى
من موضع الهزء والزراية، تجلدى يا نفسى وأنا أعدك بأن نعود إلى هذا
كله فيما بعد، بأن نتألم معاً حتى نهلك، وبأن نفكر فى كل شئ حتى
نجن، ما أمتع هذا الموعد فى هدأة الليل حيث لا عين ترى ولا أذن
تسمع، حيث يباح الألم والهذيان والدموع دون زراية زار أو لومة لائم .
وثمة البئر القديمة أزح عن فوهتها الغطاء واصرخ فيها مخاطباً الشياطين
ومناجياً الدموع المتجمعة فى جوف الأرض من أعين المحزونين، لا
تستسلم، حذار، فالدنيا تبدو لناظريك حمراء كعين الجحيم . عاد
إسماعيل لطيف يقول متخذاً لهجة الاتهام:

- مهلاً، لنا عندكما حساب، كيف حدث هذا ودون سابق إنذار؟ أو
فلندع هذا إلى حين، ولنسأل كيف تمت الخطبة دون حضورنا؟
قال حسين شداد مدافعاً عن موقفه:

- لم يكن هناك حفل كبير أو صغير، اقتصر الجمع على خاصة
الأهل، موعدنا يوم الكتاب وعليك خير، ستكونان من الداعين لا
المدعوين..

يوم الكتاب! كأنه عنوان لحن جنائزى، حيث يشيع قلب إلى مقره
الأخير محفوفاً بالورد مودعاً بالزغاريد، وباسم الحب تعنوبرية باريس
لشيخ معمم يتلو فاتحة الكتاب، وباسم الكبرياء هجر إبليس الجنة. قال
كمال باسما:

- العذر مقبول والوعد مأمول.

فصاح إسماعيل لطيف محتجاً:

- هذه بلاغة أزهرية إذا لاحت لها فى الأفق مائدة تناست دواعى
العتاب، وتغنت بالتسامح والثناء، كل ذلك فى سبيل لقمة دسمة!
حقاً إنك أديب أو فيلسوف أو ما شاكل ذلك من ضروب الشحاذة،
أما أنا فليست كذلك..

ثم مواصلاً حملة الاتهام على حسين شداد وحسن سليم:

- يا لكما من داهيتين! صمت طويل يعقبه فجأة إعلان خطبة، هه؟
حقاً يا أستاذ حسن أنك الخليفة المنتظر لثروت باشا..

قال حسن سليم وهو يبتسم معتذراً:

- إن حسين نفسه لم يعلم بالأمر إلا قبيله أيام معدودات..

فتساءل إسماعيل:

- خطبة من جانب واحد كتصريح ٢٨ فبراير؟

رفضته الأمة المغلوبة على أمرها بإباء، ولكنه فرض عليها وما كان

كان، وضحك كمال ضحكة عالية، فقال إسماعيل وهو يغمز حسن سليم بعينه:

- استعينوا على قضاء . . لا أذكر ماذا بالكتمان! قالها عمر ابن الخطاب، أو عمر بن أبي ربيعة، أو عمر أفندي، والله أعلم . . وقال كمال فجأة:

- جرت العادة بأن تنضج هذه الأمور في صمت، على أنى أقر بأن الأستاذ حسن أشار في حديث له معي مرة إلى شيء كهذا! فرمقه إسماعيل بارتياح، على حين ألقى عليه حسن نظرة واسعة، وقال مستدركا:

- كان كلاماً أشبه بالعناوين . . !

تساءل كمال في دهش كيف ند عنه ذلك القول؟ إنه كذب أو شبه كذب على أحسن تقدير، كيف يطمع - بهذا الأسلوب الشاذ - أن يفتن حسن بأنه كان على علم بنواياه وأنه لم يفاجأ بها أو يكثرث لها؟ يا للحماسة! أما إسماعيل فقد قال لحسن وهو يحدجه بنظرة عتاب:

- ولكنى لم أحظ بعنوان واحد من هذه العناوين!

قال حسن بجذ:

- أؤكد لك أنه إذا كان كمال قد وجد في حديثي معه ما اعتبره إشارة إلى الخطبة، فإنما يكون قد استعان على ذلك بخياله لا بكلماتي .

ضحك حسين شداد ضحكة عالية، وقال مخاطباً حسن سليم:

- إسماعيل زميلك القديم، وهو يريد أن يقول لك إنه إذا كنت سبقته إلى الليسانس بثلاث سنوات فلا يعنى هذا أن تضمن عليه بأسرارك أو أن تؤثر بها غيره!

فقال إسماعيل باسماء، وكأنما كان يدارى مضايقته:

- إني لا أرتاب في زمالة القديمة ، ولكنني أحاسبه حتى لا يعود إلى
الوقوع في الإهمال يوم القرآن!
فقال كمال باسم :

- نحن أصدقاء الطرفين ، فإذا أهملنا العريس فلن تهملنا العروس . .
إنه تكلم ليثبت أنه حي ، لكنه حي يتألم ، شدا ما يتألم ، ترى هل جرى في
خاطره يوماً أن يكون لحبه نهاية غير هذه النهاية؟ كلا ، غير أن الإيمان بأن
الموت حتم مقدر لا يمنع من الجزع حين حضوره ، وهو ألم مفترس لا يعرف
المنطق أو الرحمة ، لو يستطيع أن يشخصه ليعلم في أى موضع يكمن أو عن
أى ميكروب يصدر؟! وبين نوبات الألم يرشح بالملل والفتور . .

- ومتى يعقد القرآن؟

إن إسماعيل يسأل عما يدور بخاطره كأنه موكل بأفكاره ،
ولكنه لا ينبغي له أن يصمت . قال :

- نعم ، هذا مهم جداً حتى لا نؤخذ على غرة ، متى يعقد القرآن؟
فتساءل حسين شداد ضاحكاً :

- لم تتعجلان الأمر؟! فليهنأ العريس بما بقى من عهد عزوبيته . .
وقال حسن بهدوئه المعتاد :

- ينبغي أن أعرف أولاً إن كنت سأبقى في مصر أم لا . . ؟
فقال حسين شداد معقبا :

- إما أن يعين في النيابة ، أو في السلك السياسى . .

هكذا يبدو حسين شداد مسروراً بالخطبة ، فاستطيع أن أزعم أنني
كرهته ولو دقيقة عابرة ، كأنه خائني فيمن خانوني ، أخائني أحد؟
اختلطت الأمور علىّ ، غير أن هذا المساء يعدني بخلوة حافلة . .
- أيهما تفضل يا أستاذ حسن؟

فليختر ما يحلو له ، النيابة . . السلك السياسى . . السودان . . سوريا إن أمكن . .

- النيابة بهدلة ، إنى أفضل السلك السياسى . .

- يحسن أن تفهم والدك ذلك جيداً حتى يركز عنايته فى إلحاقك بالسلك السياسى . .

أفلنت هذه الجملة أيضاً؟ ولا شك أنها أصابت الهدف ، ينبغى أن يتمالك أعصابه وإلا وجد نفسه مشتبكاً مع حسن فى نزاع علنى ، ثم ينبغى أن يراعى خاطر حسين شداد ، فهما الآن أسرة واحدة ، ما أقسى هذه الشكة من الألم ! هز إسماعيل رأسه كالأسف ، وقال :

- هذه آخر أيامك معنا يا حسن ، بعد عشرة العمر كله ، يا لها من نهاية محزنة !

يا للحماقة ! يحسب أن الحزن يمس قلباً واحة المعبود مرتعه .

- الواقع أنها نهاية محزنة يا إسماعيل . .

كذب فى كذب ، مثل تهنتك له ، يستوى فى هذا ابن التاجر وابن المستشار .

قال :

- أيعنى هذا أنك ستقضى عمرك كله خارج القطر ؟

- هذا هو المتوقع ، لن نرى مصر إلا فى القليل النادر . .

قال إسماعيل متعجباً :

- حياة غريبة ! هلا فكرت فيما ينتظر أولادك من متاعب ؟ !

واقبله ! أيليق هذا العبث بالمعانى ؟ ! يحسب الشرير أن المعبودة تحبل وتتوحم وتنداح بطنها وتكور ثم يجيئها المخاض فتلد ! أتذكر خديجة وعائشة فى الأشهر الأخيرة ؟ هو الكفر ، لم لم تشرك فى جمعية الكف السوداء ؟ الاغتيال خير من الكفر وأنجع ، وتجدد نفسك يوماً فى قفص الاتهام وعلى المنصة سليم بك صبرى والد صديقك الدبلوماسى

وحمو معبودتك، كما مثل بين يديه قتلة السردار فى هذا الأسبوع،
الخائن!

حسين شداد ضاحكا:

- أنقطع الدول علاقتها السياسية حتى يربى أولاد الدبلوماسيين فى
بلادهم؟!!

بل تقطع الرؤوس! عبد الحميد عنایت . . الخراط . . محمود
راشد . . على إبراهيم . . راغب حسن . . شفيق منصور . . محمود
إسماعيل . . كمال أحمد عبد الجواد الإعدام شنقا، القاضى الوطنى
سليم بك صبرى، القاضى الإنجليزى مستر كرشو، الاغتيال هو
الجواب، أترید أن تُقتل أم تُقتل؟!
وخاطب إسماعيل حسين قائلاً:

- رحيل أختك سيحمل والدك على الإصرار على رفض فكرة سفرك
أنت!

فقال حسين شداد باطمئنان:

- قضيتى تقترب من الحل الموفق بخطى ثابتة . .

عايدة وحسين فى أوربا! إنسان يفقد فى ساعة حبيبه وصديقه، تفتقد
روحك معبودها فلا تجده ويفتقد عقلك أليفه فلا يجده، وفى الحى
العتيق تعيش وحيدا مهجوراً كأنك صدى حنين هائم منذ أجيال، تأمل
الآلام التى ترصدك، آن لك أن تحصد ثمار ما زرعت من أحلام فى
قلبك الغر، توسل إلى الله أن يجعل الدموع دواء للأحزان، وعلق إن
استطعت جسمك بحبال المشائق أو ضعه على رأس قوة مدمرة تنقض
بها على العدو، غدا تلقى روحك خلاء كما لقيت بالأمس ضريح
الحسين، يا خيبة الآمال، والمخلصون قتلى أما أبناء الخونة فسفراء. قال
إسماعيل لطيف وكأنما يخاطب نفسه:

- لن يبقى فى مصر إلا أنا وكمال ، وكمال غير مأمون الجانب ، لأن
صديقه الأول - قبل أو بعد أو مع حسين - هو الكتاب . .
فقال حسين فى ثقة وإيمان :

- لن يقطع الرحيل ما بيننا من أسباب . .

فخفق قلب كمال رغم فتوره ، وقال :

- على أن قلبى يحدثنى بأنك لن تحتمل الغربة إلى الأبد . .

- هذا هو الراجع ، ولكنك ستفيد من رحلتى بما سأرسله لك من
كتب ، سواصل أحاديثنا بالرسائل والكتب . .

هكذا يتكلم حسين كما لو كان السفر قد بات أمراً مفروغاً منه ، هذا
الصديق الذى يسعد بلقياءه سعادة فاتنة فحتى الصمت يستمتع به فى
محضره ، ولكل عزاء فذهاب المعبودة سيعلمه كيف يستهين بالخطب وإن
جل ، هكذا هانت وفاة جدته المحبوبة على النفس التى اكتوت بنار الحزن
على فهمى ، غير أنه ينبغى أن يذكر دائماً أنه فى جلسة الوداع كى يملأ عينيه
من الورد والأزهار الثملة بالنضرة لا تبالى فى أى حزن يهيم ، وثمة مشكلة
ينبغى أن يجد لها حلاً : كيف يسمو بشر إلى معاشره المعبود أو كيف يهبط
المعبود حتى يعاشره بشر؟! فإذا لم يجد لذلك حلاً فسوف يسير فى
طريقه بقدمين ترسفتان فى الأغلال وفى حلقه شجاً ، والحب حمل ذو
مقبضين متباعدين خلق لتحمله يدان . . فكيف يحمله وحده؟ وكان
الحديث يطرد ويتفرع وهو يتابعه بعينه وهزات رأسه وكلمات يثبت بها
أن الخطب لم يقض عليه بعد ، وكان الأمل معقوداً بأن قاطرة الحياة تسير
وأن محطة الموت فى الطريق على أى حال ، وهما هى ساعة الغروب . .
ساعة الظلام والهدوء . .

تحبها كما تحب الفجر ، وعائده والألم لفظان لمعنى واحد فينبغى أن
تحب الألم وأن تطرب للهمزية منذ اليوم ولا تزال عجلة الحديث فى
دوران غير منقطع والأصدقاء يتضاحكون ويتناظرون كأن واحدا منهم

لم يعرف الحب قلبه . . حسين ضحكة الصحة والصفاء ، وإسماعيل ضحكة العريضة والعدوان ، وحسن ضحكة التحفظ والاستعلاء ، ويأبى حسين إلا أن يتحدث عن رأس البر ، أعدك بأن أحج إليها يوما وأن أسأل عن الرمال التي وطئتها أقدام المعبودة لألثمها ساجدا ، الآخران يتغنيان بسان استفانو ويتحدثان عن أمواج كالجبال ، حقا؟ تصور جثة تقذف بها الأمواج إلى الشاطئ وقد امتص البحر الرهيب جمالها ونبلها؟ ولتعترف بعد هذا كله بأن الملل يطوق الكائنات وأن السعادة ربما كانت وراء أبواب الموت ، وتواصل السمر حتى آن للجمع أن يتفرق ، فتصافحوا بحرارة . . شد كمال على يد حسين ، وشد حسين على يد كمال ، ثم مضى وهو يقول :

- إلى اللقاء . . فى أكتوبر!

كان فى مثل هذا الموقف من العام الماضى وما قبله يتساءل فى لهفة : متى يعود الأصدقاء؟ الآن ليست أشواقه رهينة بعودة أحد ، ستظل مستعرة جاء أكتوبر أو لم يجرى ، عاد الأصدقاء أو لم يعودوا . لن يلوم شهور الصيف بعد الآن لأنها تباعد بينه وبين عايده ، فالهوة التى تفصل بينهما أعمق من الزمن ، وقد كان يعالج الزمن بجرعات الصبر والأمل ، ولكنه يخاصم اليوم عدوا مجهولاً وقوة خارقة غامضة لا يدرك من تعاويذها ورقاها حرفا واحدا . . فليس أمامه إلا الصمت والتعاسة حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً . تراءى له حبه معلقا فوق رأسه كالقدر ، يشده إليه بأسلاك من الألم المبرح ، أشبه ما يكون فى جبريته وقوته بالظاهرة الكونية ، فتأمله بعين ملؤها الإكبار والحزن .

افترق الأصدقاء الثلاثة أمام سراى آل شداد : فسار حسن سليم إلى شارع السرايات ، واتجه كمال وإسماعيل نحو الحسينية فى طريقهما المعهود الذى يفترقان فى نهايته ، فيمضى إسماعيل إلى غمرة ، ويمضى

كمال إلى الحى العتيق ، وما إن انفردا حتى ضحك إسماعيل ضحكة عالية طويلة ، فسأله كمال عما أضحكك ، فقال فى خبث :

- ألم تظن بعد إلى أنك كنت فى الأسباب الجوهرية التى دعت إلى الإسراع فى إعلان الخطبة؟

- أنا؟!

ندت عن كمال وعيناه تتسعان فى ذهول ، فقال إسماعيل فى استهانة :

- نعم أنت ، لم يكن حسن يرتاح إلى صداقتكما ، هذا يبدو لى محققا رغم أنه لم ينبس لى عنه بكلمة ، إنه ذو كبرياء شديد - كما تعلم - ولكنى أعرف كيف أصل إلى ما أريد ، أؤكد لك أنه لم يكن يرتاح إلى صداقتكما ، أتذكر ما نشب بينكما ذلك اليوم؟ الظاهر أنه طالبها بأن تحذ من حريتها فى الاختلاط بالأصدقاء ، والظاهر أنها ذكرته بأنه لا حق له فى مطالبتة فأقدم على هذه الخطوة الكبيرة ليكون من أصحاب الحقوق!

قال كمال وخفقان قلبه يكاد يعلو على صوته :

- لكننى لم أكن الصديق الوحيد! كانت عايذة صديقتنا جميعاً!
فقال إسماعيل متهمكماً :

- ولكنها أختارتك أنت لتثير قلقه! ربما لأنها أنست فى صداقتك حرارة لم تجدّها عند غيرك ، على أى حال ، إنها لا تلقى الأمور ارتجالاً ، وقد صممت منذ قديم على الظفر بحسن فجنت أخيراً ثمرة صبرها!

«الظفر بحسن»؟ «ثمرة صبرها»! ما أشبه هاتين العبارتين بقول مأفون «شروق الشمس من الغرب» ، قال وقلبه يتأوه :

- ما أسوأ ظنك بالناس! إنها ليست على شىء مما تتصور!

فقال إسماعيل دون أن يفطن إلى شعور صاحبه :

- لعل الأمر وقع اتفاقاً أو لعل حسن كان واحماً ، على أى حال
جاءت العواقب فى صالحها . .
هتف كمال غاضباً :

- صالحها ! ماذا تظن ؟ ! سبحان الله ، إنك تتحدث عنها كما لو كانت
خطبتها لحسن تعتبر ظفراً لها لا له !!
فحدجته إسماعيل بنظرة غريبة ، ثم قال :

- إنك فيما يبدو غير مقتنع بأن أمثال حسن قليلون ؟ أسرة ومركز
ومستقبل ، أما مثيلات عائدة فلسن قليلات ، هن أكثر مما تتصور ،
ترى هل تقدرها أكثر مما تستحق ؟ إن أسرة حسن ارتضت زواجه
منها لثروة أبيها الهائلة فيما اعتقد ، إنها فتاة . . (ثم بعد تردد) . .
ليست بارعة الجمال على أى حال !

إما أن يكون مجنوناً وإما أن تكون مجنوناً أنت ! حزه ألم كهذا من
قبل يوم اطلع على كلمة جارحة تهجم بها كاتبها على نظام الزواج فى
الإسلام ، ألا لعنة الله على الكافرين جميعاً ، تساءل بهدوء يغطى به
على لوعته :

- لم إذن كثر المعجبون من حولها ؟

أبرز إسماعيل فكاهة الأسفل فارتفع ذقنه فى حركة استهانة ، ثم قال :
- لعلك تعينى فىمن تقصد ! لا أنكر أنها خفيفة الروح ، و طراز
وحدها فى الأناقة ، إلى أن أسلوبها الغربى فى اللباقة الاجتماعية
يريق عليها فتنة وإغراء ، لكنها بعد ذلك سمراء نحيلة لا شىء فيها
يشتهى ! تعال معى إلى غمرة تر ألوانا من الجمال تزرى بجمالها
جملة وتفصيلاً ، هنالك ترى الملاحاة الحقة فى البشرية الوضيئة
والنهد الكاعب والردف الملىء ، هذا هو الجمال إن أردته . . لا
شىء فيها يشتهى !

كانها شئ يشتهى كقمر ومريم!، نهد كاعب وردف ملئ . . كمن
يصف الروح بصفات الجسد! يا لشدة الألم، كتب عليه اليوم أن يتجرع
كأس الألم حتى ثمالتها، إذا توالى الضربات القاتلة فمن الخير أن
ترحب بالموت . .
وعند الحسينية افترقا، فسار كل إلى سبيله . .

٢٥

تنقضى السنون ولا يفتر حبه لهذا الطريق، قال لنفسه، وهو يلقي
على ما حوله نظرة ضيقة: «لو شابه حبي للمرأة التي يختارها قلبي حبي
لهذا الطريق لأراحنى من متاعب جمّة»، أعجب به من طريق كالتيه، لا
يكاد يمتد بضعة أمتار طولا حتى ينعطف يمينا أو يسرة، وفي أى موضع
منه يطالعك منحني يطوى وراءه مجهولا، وضيق ما بين جانبيه يريق
عليه تواضعا وألفة فهو كالحیوان الأليف، والجالس فى دكان على يمينه
يستطيع أن يصفح الجالس فى دكان على يساره، سقوف بمظلات الخيش
تمتد بين أعالي الحوانيت فتحجب أشعة الشمس المحرقة وتنثف فى الجو
الرطب سمرة حاملة، وعلى الأرائك والرفوف جوائق مرصوفة مترعة
بالحناء الخضراء والشطة الحمراء والفلفل الأسود وقوارير الورد والعطر
والقراطيس الملونة والموازين الصغيرة، وتتدلى من عل الشموع فى
أحجام وألوان شتى كأنها التهاويل، فى جو مفعم بشذا العطارة والعطر
كأنها أنفاس حلم قديم تائه لا يذكر متى رآه، أما الملاءات اللف والبراقع
السود والعرائس الذهبية والأعين الكحيلة والأرداف الثقيلة فمنها جميعاً
أستعيز بواهب النعم، سير الحالم فى تهاويل حلم جميل رياضة محبوبة

بيد أنى أشكو ضنى القلب والعين، إن تعد النسوان هنا لا تحصيهن،
 مبارك المكان الذى يضمهن ولا منجى لك إلا أن تهتف من أعماق
 الفؤاد: يا خراب بيتك يا ياسين، هنالك يجيبك صوت أن افتح دكان فى
 التريعة واستقر، أبوك تاجر . . سيد نفسه . . ينفق فى مسراته أضعاف
 أضعاف مرتبك، افتحها وتوكل ولو بعت لذلك ربع الغورية ودكان
 الحمزاوى، تجيء مع الصبح كالسلطان لا ميعاد يربطك ولا رئيس
 يربك، تجلس وراء الميزان فيجيشك النسوان من كل فج: صباح الخير
 يا سى ياسين، واقعد بالعافية يا سى ياسين، على وعلى إن تركت
 مصونة دون تحية أو متهتكة دون ميعاد! ما ألد الخيال وأقساه على من
 سيقى إلى آخر العمر ضابطا بمدرسة النحاسين، والعشق داء أعراضه
 جوع دائم وقلب قلب فوارحمته لمن خلق بشهوة خليفة وسلطان ضابط
 مدرسة، تهدم الرجاء فلا جدوى من الكذب، ويوم حملتها إلى قصر
 الشوق كان الأمل يعذك بحياة هادئة مطمئنة، قاتل الله الملل كيف يمازج
 النفس كما تمازج مرارة المرض للعباب! عدوت وراءها عاما ثم مللتها
 فى أسابيع فما التعاسة إن لم تكن هذا؟ بيتك أول بيت يضج بالشكوى
 فى شهر العسل، سل قلبك أين مريم؟! . . أين الملاحه التى لوعتك؟ . .
 يجيبك بضحكة كالتأوه ويقول أكلنا وشبعنا وصرنا نتقزز من رائحة
 الطعام، وهى ما كرة يستعذب اللعب بها ولا تفوتها شاردة، مرة بنت
 مرة، اذكروا حسنات موتاكم هل كانت أمك خيرا من أمها؟! المهم أنها
 ليست كزینب يسهل خداعها وما أثقل غضبها إذا غضبت، لا هى بالتى
 تغضى ولا أنت بالذى يقنع، هيهات أن تشيع جوعك المستعر امرأة أو
 يعرف الاستقرار قلبك، ومع ذلك توهمت أنك ستظفر بحياة زوجية
 سعيدة! ما أعظم أباك وما أحقرك! لم تستطع أن تكون مثله ودواؤك أن
 تكون مثله؟! رباه ما هذا الذى أرى؟! أهذه امرأة حقا؟! كم قنطاراً يا
 ترى تزن؟! اللهم إنى لم أر من قبل طولا كهذا الطول ولا عرضا كهذا

العرض ، كيف تملك هذه الضيعة؟! إنى أنذر إذا وقعت بين يدي امرأة
فى قدرها أن أنيمها فى وسط الحجرة عارية ، وأن أدور حولها سبعا وأنا
أفقر . .

- أنت . . !

جاء الصوت من وراء فاهتز له قلبه ، وسرعان ما تحولت عيناه عن
المرأة الضخمة إليه ، فرأى شابة فى معطف أبيض ، فما تمالك أن هتف :
- زنوبة!

وتصافحا فى حرارة وهى تضحك ، غير أنه حثها على السير حتى لا
يلفتا إليهما الأنظار ، فسارا جنبا إلى جنب يشقان الزحام . هكذا التقيا
بعد طول الفراق ، ولم تكن ترد على خاطره إلا فى القليل النادر بعد أن
شغلته عنها الشواغل ، ولكنه وجدها جميلة كيوم هجرها أو لعلها
ازدادت جمالا ، ثم ما هذا الزى الحديث الذى استبدلته بالملاءة اللف؟!
وانبعثت فيه موجة من النشاط والسرور ، وإذا بها تتساءل :

- كيف حالك؟

- عال ، وأنت؟

- كما ترى . .

- عال جدا والحمد لله ، أنت غيرت زيك ، لم أكن أعرفك عند أول
نظرة ، لا أزال أذكر مشيتك فى الملاءة اللف . .

- وأنت لم تتغير ، لم تكبر ، ازدادت سمانة ، هذا كل ما فى الأمر . .

- أنت الآن شىء آخر! ، بنت إفرنجية! . . (وهو يبتسم فى حذر) . .
إلا أن ردها من الغورية!

- لسانك!

- أرعبتنى! كأنك تبت أو تزوجت . . !

- لا شىء على الله بكثير . .

- أما التوبة فهذا المعطف الأبيض يكذبها، وأما الزواج فلا يبعد أن
تسوقك قلة العقل يوما إليه!

- حاسب، إنى متزوجة تقريبا..!

ضحك - وكانا يميلان إلى الموسكى - قائلاً:

- مثلى تماما..

- لكنك متزوج بالفعل، أليس كذلك؟

- كيف عرفت هذا؟.. (ثم مستدركا) أوه.. كيف نسيت أن أسرارنا
عندكم أول بأول!

وضحك مرة أخرى ضحكة ذات معنى، فابتسمت ابتسامة غامضة،
وقالت:

- تقصد بيت السلطنة؟

- أوييت أبى، أليس الود متصلا؟

- تقريبا!

- كل شيء عندك الآن بالتقريب! أنا كذلك متزوج تقريبا، أعنى أنى
متزوج وأبحث عن رفيقة..

هشت بيدها ذبابة على وجهها، فوسوست أساورها الذهبية المحيطة
بساعدتها وهى تقول:

- أنا مرافقة وأبحث عن زوج!

- مرافقة؟! من السعيد ابن ال..

قاطعته وهى تشير إليه محذرة:

- إياك والسب، إنه رجل ذو مقام..

فقال وهو يلحظها ساخرا:

- ذو مقام؟! حق حق، زنوبة!.. أود لو أنطحك..

- أتذكر متى تقابلنا آخر مرة؟

- أوه، ابني رضوان عمره الآن ستة أعوام، فنكون قد تقابلنا آخر مرة منذ سبعة أعوام.. تقريبا!
- عمر طويل..
- ولكن لا ينبغي لحي أن ييأس في هذه الدنيا من اللقاء..
- ولا الفراق..
- الظاهر أنك خلعت الوفاء مع الملاة اللف!
- فحدجته بنظرة مقطبة وهي تقول:
- أتتحدث عن الوفاء يا ثور!
- فسره رفع الكلفة إلى هذا الحد وشجع مطامعه، فقال:
- الله وحده يعلم كم سررت بلقائك، كثيراً ما كنت تخطين ببالي، ولكنها الدنيا!
- دنيا النسوان، هه؟
- فقال متظاهراً بالتأثر:
- دنيا الموت، ودنيا المتاعب..
- لا يبدو أنك تحمل للمتاعب هما، إن البغال لتحسبك على صحتك..
- لولا أن العين الجميلة لا تحسد..
- أتخاف على نفسك! كأنك عبد الحليم المصري طولا وعرضا..
- فضحك مختالا، وصمت قليلا، ثم قال بلهجة جديدة جادة:
- أين كنت ذاهبة؟
- لم تذهب الواحدة إلى التريعة؟ أم ظننت الناس مثلك لا همّ لهم إلا التحكك بالنسوان؟
- مظلوم والله..

- مظلوم! لما لمحتك وجدتك تغوص بعينيك فى امرأة كالبوابة ..

- بل كنت شاردا أفرک لا أعى فیم أنظر ..

- أنت! إنى أنصح من يروم لقاءك أن ينقب فى التريبعة عن أضخم امرأة، وأنا كفيلة بأنه سيجدك وراءها لابداً كما تلبد القراضة فى الكلب ..

- أنت يا ولية لسانك كل يوم يطول عن يوم ..

- اسم الله على لسانك أنت ..

- ما علينا، خيلنا فى الأهم، أين أنت ذاهبة الآن؟

- سأسوق قليلا، ثم أعود إلى بيتى!

فصمت لحظة كالمتردد، ثم قال:

- ما رأيك فى أن نقضى معا بعض الوقت؟

فلحظته بعينها السوداءوين اللعوبتين، وقالت:

- ورائى رجل غيور!

فقال وكأنه لم يسمع اعتراضها:

- فى مكان لطيف لنشرب كأسين!

فعادت تقول بصوت أعلى من سابقه:

- قلت لك ورائى رجل غيور ..

فاستطرد قائلا دون اكتراث:

- توفايان، ما رأيك؟، إنه مكان لطيف وابن حلال، سأنادى هذا

التاكسى ..

فند عنها صوت احتجاج، ثم تساءلت فى استياء وشى وجهها بغيره

قائلة: «بالقوة؟!» ثم نظرت فى ساعتها بمعصمها - وقد كادت هذه

الحركة الجديدة تضحكه - وقالت بلهجة الشارط:

- على ألا أتاخر، الساعة الآن السادسة، وينبغي أن أكون فى البيت قبل الثامنة . .

تساءل والتاكسى يطوى بهما الطريق : ترى هل لمحتهما عين ما بين التريبعة والموسكى؟ غير أنه هز كتفيه استهانة وهو يزحلق طربوشه المائل فوق حاجبه الأيمن إلى الوراء بمقبض منشته العاجية، ماذا يهمه؟! مريم وحيدة وليس وراءها وحش مثل محمد عفت الذى قوض أول بيت زوجية بناء، وأما أبوه فرجل لبق وهو يعلم أنه لم يعد الطفل الغرير الذى نكّل به فى فناء البيت القديم . وفى حديقة توفايان جلسا حول مائدة متقابلين، كان المشرب غاصا بالنساء والرجال، والبيانو الميكانيكى يعزف مقطوعاته الرتيبة، على حين هفت رائحة الشواء مع نسيم الأصيل من ركن قصى . وأدرك من ارتباكها أنها تجلس فى مكان عام لأول مرة فداخله سرور حريف، ثم أيقن فى اللحظة التالية أن ما به حنينا حقا لا محض رغبة عابرة، وبدت له أيامها الغابرة أسعد الأيام كلها . وطلب قارورة كونياك ثم طلب شواء، وجرى ماء الحياة فى خديه، ثم خلع طربوشه فبدا شعره الأسود مفروقاً من الوسط على جانبي الرأس كشعر أبيه، فما إن لمحته زنوبة حتى ارتسمت على شفثيها ابتسامة خفيفة لم يفتن بطبيعة الحال إلى ما وراءها . كانت أول مرة يجالس فيها امرأة فى حانة غير حانات وجه البركة، وكانت أول مغامرة له بعد زواجه الثانى مع استثناء إلمامة واحدة بدرب عبد الخالق . وربما كانت أول مرة كذلك يشرب فيها كونياك «راقيا» خارج البيت، إذ إنه لا يتناول الجيد منه إلا فيما يقتنى من زجاجات فى البيت للاستعمال «الشرعى» على حد تعبيره . ملأ الكأسين فى زهو وارتياح، ثم رفع كأسه وهو يقول لها:

- صحة زنوبة مارتل!

فقالت بكبرياء خفيف الظل :

- إنى أشرب الديوارس مع البك . .

فقال متأففا :

- دعينا من سيرته ، ربنا يقدرنا على جعله فى خبر كان ..

- بعدك !

- سنرى ، كلما شربنا كأسا تفتحت لنا أبواب وانحلت عقد ..

ولإحساسهما بقصر الوقت المتاح تعجلا الشراب فامتلا الكأسان وفرغا تباعا ، وهكذا أخذ الكونياك يزغرد بلسانه النارى فى معدتيهما فيرتفع زئبق النشوة فى ترمومتر العروق ، أما الأوراق الخضراء المتطلعة من الأصص وراء سور الحديقة الخشبية فافترت ثغورها عن بسمات متألفة ، وأخيراً وجد البيانو أذانا متسامحة ، والوجوه الحاملة المعربة تلاقى أعينها مرارا فى أنس ومودة ، وجو الأصيل سبج فى موجات موسيقية صامته ، وبدا كل شىء طيبا وجميلاً :

- أتعرف ماذا طفر إلى لسانى أول ما رأيتك اليوم وأنت تحملى فى

المرأة كالمسعود ؟

- أفندم ؟ .. ولكن أفرغى كأسك أولا حتى أملاه ..

وهى تتناول ريشة شواء :

- كدت أصبح بك : يا بن الكلب ..

وهو يضحك ضحكة ريانة :

- ولم لم تفعلى يا بنت القارحة ؟

- أصلى لا أشتم إلا الأحباء ! وكنت وقتها غريبا أو كالغريب !

- والآن ماذا ترينى ؟

- ابن ستين ..

- يا سلام ، الشتيمة تسكر أكثر من الخمر أحيانا ، هذه الليلة المباركة

ستحدث عنها الجرائد غدا ..

- لم كفى الله الشر؟ ناو تعمل حادثة؟!
- الطف يا رب بى وبها . .
- وعند ذاك قالت فى شىء من الاهتمام :
- لم تحدثنى عن زوجك الجديدة . . ؟
- فربت ياسين شاربه وهو يقول :
- حزينه المسكينه ! ماتت أمها هذا العام . .
- العمر الطويل لك ، كانت غنية؟
- تركت بيتا ، البيت المجاور لبيتنا أعنى المجاور لبيت والدى ، ولكنها
- تركت فى نفس الوقت شريكا لزوجى فيه وهو لزوجها!
- لا بد أن زوجك جميلة ، فأنت لا تقع إلا على النقاوة . .
- فقال بحذر :
- لها جمالها ، غير أنه لا يقاس بجمالك أنت . .
- آه منك آه . . !
- هل عرفتني كاذبا أبدا؟!
- أنت؟! أنا أشك أحيانا فى اسمك هو ياسين حقا . .
- إذن فلنشرب هذه الكأس أيضا . .
- تسكرنى كى أصدقك . . ؟!
- إذا قلت لك إننى أرغب فىك وأحن إليك فهل تشكين فى صدقى؟
- انظرى فى عيني ، وجسى نبضى . .
- أنت خليق بأن تقول هذا الكلام لأية امرأة تصادفك . .
- هذا كما يقال إن الجائع يود ألوان الطعام جميعا ، ولكن الملوخية
- مثلاً قد تستأثر بمنزلة خاصة . .
- الرجل الذى يحب امرأة حقا لا يتردد عن الزواج منها . .

فنفخ، ثم قال :

- أنت مخطئة، بودى لو أقف فوق هذه المائدة وأصرخ بأعلى صوتى : من يحب منكم امرأة فلا يتزوجها، أجل، لا شىء يقتل الحب كالزواج . صدقنى، إنى مجرب، وقد تزوجت مرة وأخرى وأعرف مدى صدق ما أقول . .

- لعلك لم تهتد بعد إلى المرأة التى تناسبك . .

- تناسبنى ؟ كيف تكون هذه المرأة ؟ وبأى حاسة يهتدى إليها ؟ وأين تكون هذه المرأة التى لا تمل ؟ !

فضحكت فى فتور، وقالت :

- كأنك تتمنى أن تكون ثورا فى حديقة أبقار، هذا هو أنت !

ففرقع بأصبعه طربا، وقال :

- الله . . الله، منذ الذى كان فى زمان مضى يدعونى بالثور ؟ . . إنه أبى ربنا يمسيه بالخير، كم أود لو أكون مثله، حظى بامرأة هى آية الطاعة والقناعة، وانطلق على هواه لا يجد فى حياته المتاعب، موفقا فى زواجه، موفقا فى عشقه . . هذا ما أريد . .

- ما عمره ؟

- أظنه فى الخامسة والخمسين، بيد أنه أقوى من الشباب . .

- لا عظيم أمام السنين، ربنا يتمتع بصحته . .

- إلا أبى، إنه معشوق المعشوقات من النساء، ألا ترينه الآن فى بيتكم ؟

فقالت ضاحكة وهى ترمى بعظمة إلى قطة تموء تحت قدميها :

- هجرت ذلك البيت منذ أشهر، الآن لى بيتى الخاص وأنا سيدته !

- حقا ؟ ! حسبتك تمزحين، وهل هجرت التخت أيضا ؟

- هجرته ، إنك تحدث سيدة بكل معنى الكلمة .

فقهقه فى انبساط ، ثم قال :

- إذن اشربى ودعيني أشرب ، وربنا يلطف بنا .

فى النفس فنتة وفى الجوفنتة ، ولكن أيهما الصوت وأيهما الصدى؟
وأعجب من هذا أن الحياة تدب فى الجمادات ، الأصص تترنج هامسة
والأركان تتناجى ، السماء ترنو إلى الأرض بأعين النجوم الناعسة
وتتكلم ، وبينه وبين صاحبه رسائل متبادلة تفصح عن المكنون فى جو
مشحون بالأضواء المنظورة وغير المنظورة يبهر الفؤاد ويزغلل العين ،
وفى الدنيا شىء يدغدغ البشر فلا يتركها حتى تغرق بالضحك ، الوجوه
والكلمات والحركات وغيرها تغرى جميعاً بالضحك ، والوقت يمر
كالشهاب ، وحاملو ميكروب العريضة يوزعون بين الموائد بوجوه أنفلتتها
الرزانة ، أما أنغام البيانو فتترامى من بعيد فيكاد يغطى عليها صليل
عجلات الترام ، وغلمان الطوار ولاقطو الأعقاب ينشرون حولهم لغطاً
كظنين الذباب ، وجحافل الليل تعسكر فوق الربوع وتستقر ، كأنك
تنتظر حتى يجيئك الساقى فيسألك : أليس للنشوان مقر؟ وأنت عن ذاك
وما هو أجل لاه سادر ، لو تسجد مريم بين يديك هامسة : حسبى غرفة
أمارس فيها طاعتك وأملأ الحجرات بمن تهوى من النساء ، أو يربت
ناظر المدرسة كتفك كل صباح قائلاً : كيف حال والدك يا بنى؟ لو تشق
الحكومة طريقاً جديداً أمام دكان الحمزاوى وربيع الغورية ، أو تقول لك
زنوبة : سأهجر غدا بيت صاحبى وأكون طوع بنانك ، لو حدث هذا
لاجتمع الناس عقب صلاة الجمعة يتبادلون قبل الصفاء ، أما حكمة
الليلة فهى أن تجلس على الكنبه وأن ترقص زنوبة عارية بين يديك ،
هنالك يتاح لك أن ترعى شامة الحسن النابتة فوق سرتها :

- كيف حال الشامة المحبوبة؟

تساءل وهو يشير إلى بطنه باسمًا ، فقالت ضاحكة :

- تبوس يلك . .

فألقي نظرة زائغة على المكان ، وقال :

- أترين هؤلاء الناس ، ما منهم إلا فاسق وابن فاسق ، هكذا كل السكيرين . .

- تشرفنا ، أما أنا فمخى يتطاير . .

- أرجو أن يطير الجزء الذى يقيم فيه رفيقك . .

- آه لو علم بما هو حاصل لنا ! سوف يطعنك يوما بفردة شاريه .

- أهو شامى من ذوى الشوارب الجبارة و . . .

- شامى؟! . . (ثم ترنمت بصوت مسموع) برهوم يا برهوم .

- هس ، لا تلفتى إلينا الأنظار . .

- أى أنظار يا أعمى ! لم يبق إلا نفر قليل . .

وهو يسمح على بطنه نافخا :

- الخمر مجنونة . .

- المجنونة أملك . .

- صوتك يعلو أكثر مما ينبغي ، قومى بنا . .

- إلى أين؟

- عمرك أطول من عمري ، لندع الأمر إلى قدمينا . .

- هل يفلح من يترك قياده إلى قدميه؟

- إنها آمن على كل حال من مخ مبعثر . .

- فكر قليلا فى . . .

فقاطعها وهو ينهض مترنحا :

- علينا أن ندبر أمورنا بلا تفكير؛ لأن التفكير لن يذعن لنا قبل صباح الغد، قومي بنا . .

٢٦

أسبلت المساكن جفونها، وأقفرت الطرقات إلا من نسمة شاردة أو ضوء مصباح مهوم، أما الصمت فقد خلا له الجوفاته ونشر جناحيه، وما جدوى الفنادق إذا كان أصحابها لا يلقونك إلا بالنظرة الشزراء، كأنك مرض يترنح فهم يجتنبوه، أجل إنك تلاقى الإعراض بالازدراء ولكن ستظل بلا مأوى، وقد ضم الرقاد العاشقين في لأم تهيم على وجهك، وما هو حوذى يرفع رأسه المثلث بالنعاس ويرنو إليك بنظرة ترحاب، فوارحمته للذي يسحب المرأة في أذيال الليل وهو يتساءل إلى أين . . ؟

- إلى أين؟

أجاب الحوذى باسمًا:

- تحت الأمر . .

فقال له ياسين:

- لم أقصدك بسؤال . .

فقال الرجل:

- تحت الأمر على أي حال . .

عند ذاك قالت زنوبة:

- لا تسألني أنا سل نفسك، لم لم تفكر في ذلك قبل أن تسكر؟!

عاد الحوذى يقول متشجعاً بوقوفهما أمام العربة :
 - النيل ! أحسن مكان ، هل أذهب بكما إلى شاطئ النيل ؟
 فتساءل ياسين محتداً :
 - أحوذى أنت أم نوتى ؟ ! ماذا نفعل عند النيل فى هذا الوقت من
 الليل ؟ ! قال الحوذى بإغراء :
 - هنالك النور ضئيل والمكان خال . .
 - جو مناسب لقطاع الطرق !
 زنوبة بخوف :
 - يا خبر أسود ، أذناى وعنقى وساعداى محملة بالذهب !
 فقال الحوذى وهو يهز منكبيه :
 - الدنيا بخير ، أنا كل ليلة أذهب إلى هناك بأناس طيبين مثلكما ،
 ونعود على أحسن حال . .
 زنوبة بحدة :
 - لا تذكر النيل على لسانك ، إن بدنى يقشعر لذكره !
 - بعد الشر عن بدنك . .
 صاح ياسين وكان قد اتخذ مجلسه فى العربة إلى جانب زنوبة :
 - كلمنى أنا ، مالك أنت وبدنها !
 - يا بك أنا خدامك . .
 - الليلة كل شىء متعقد . .
 - ربنا يحل عسيرها ، إن أردت فندقاً ذهبنا إلى فندق . .
 - تشاجرنا فى ثلاثة فنادق ، ثلاثة أم أربعة يا زنوبة ؟ شفت غيرها . .
 - نرجع إلى النيل . :
 زنوبة بغضب :

- الذهب يا عمر . . !

ياسين وهو يطرح ساقيه على المقعد الخلفى :

- فضلاً عن أنه ليس هناك مكان . .

فقال الحوذى :

- أما عن المكان فلديك العربة . .

هتفت زنوبة :

- هل أنذرتما مضايقتى ؟

فقال ياسين وهو يفتل شاربه :

- لك حق ، لك حق ، ثم إن العربة مكان غير صالح ، ولن أرضى

بعث الأطفال على آخر الزمن ، اسمع . .

مد الرجل أذنه ، فصاح ياسين بنفخة امرأة :

- إلى قصر الشوق !

طق طق طق طق ، تخوض الظلمات ولا أنيس إلا النجوم ، فى الأفق
قلق يلوح ، ثم لا يلبث أن يغرق فى بحر النسيان كالذكرى المستعصية ،
ذلك أن الإرادة ذائبة فى كأس من الخمر ، وإذا رفيقة الهناء تساءلت
بلسان ملعثم عن : أين يقصد فى قصر الشوق ؟ أجاب إلى بيتى الذى
ورثته عن أمى ، قضت مقادير بأن تعيش فيه للغرام وأن توقفه بعد مماتها
على الغرام ، استقبل بقلب شيق أم مريم ومريم ، والليلة يحتضن سيدة
الليالى الخوالى ، وزوجك أيها السكران ؟ فى النوم مغرقة ، أليس لكل
شئ حساب ؟ . . وأنت مع رجل لا يعرف الخوف قلبه ، اقطفى
من لآلى النجوم ما ترصعين به جبينك ، وغنى فى أذنى وحدى :
هاتيلي حبي يا نينة الليلة . .

- وأين أقضى بقية الليل . . ؟

- سأوصلك إلى حيث تريد . .

- لن تستطيع أن توصل قشة .

- باريس فى الوجه البحرى . .

- لولا أنى أخافه !

- من هو ؟ !

بصوت منكسر وهى تلقى برأسها إلى الوراء :

- من يدربنى ؟ نسيت . .

غشى الجمالية ظلام دامس ، حتى القهوة أغلقت أبوابها ، وقفت العربة عند مدخل قصر الشوق فغادرها ياسين وهو يتجشأ ، وتبعته زنوبة معتمدة على ذراعه ، ثم مضيا معا فى حذر لم يغن عن الترنج ، يتعقبهما سعال الحوذى وأطيط حذاء الخفير الذى مر بالعربة وهى تدور مستطلعا ، وقالت له : إن الطريق وعر ، فقال لها : لكن الدار أمان ، وقال لها أيضا : لا تشغلى البال . وعبثا حاولت أن تذكره بأن زوجه فى الشقة التى إليها يسعيان ، فضلا عن أنها كانت تحاول تذكيره وهى تبتسم فى الظلام ابتسامة بلهاء ، وكادت قدمها تعثر مرتين وهى ترقى السلم ، حتى وقفا أمام الشقة وهما يلهثان ، بعثت رهبة الموقف فى شعورهما المبعثر يقظة عابرة حاولت أن تلم شتاته بقبضة وانية ، فأدار المفتاح فى القفل بحذر ثم دفع الباب برفق بالغ ، وبحث فى الظلام عن أذن زنوبة حتى عثر عليها ، فمال نحوها وهمس أن تخلع الحذاء ، وفعل مثلها ، ثم تقدمها خطوة فوضع راحتها على كتفه ثم مضى إلى حجرة الاستقبال لقاء المدخل ، ثم دفع بابها وانسل إلى الداخل وهى فى أثره . تنهدا معا بارتياح ، ورد الباب ثم قادها إلى الكنبه وجلسا معا ، قالت متضايقه :

- الظلام شديد ، أنا لا أحب الظلام !

فقال وهو يضع الحذاءين تحت الكنبه :

- ستألفينه بعد قليل . .

- بدأ مخى يدور!

- الآن فقط؟!

وقام فجأة دون أن يلقى إلى ما أجابت به بالا وهو يهمس فى ارتياح:

- لم أغلق الباب الخارجى . .

ومد يده ليخلع طربوشه فهتف:

- نسيت الطربوش أيضا! فى العربية يا ترى أم فى توفايان؟

- الطربوش فى داهية، أغلق الباب يا عمر . .

تسلل مرة أخرى إلى الصالة، ثم إلى الباب الخارجى فأغلقه بحذر شديد، وفى طريق عودته خطرت له فكرة مغرية، فاتجه نحو الكنصول وهو يمد يده أمامه رائدة لتقيهِ الاصطدام بكرسى السفرة، ثم عاد إلى حجرة الاستقبال قابضا على زجاجة كونياك مملوءة حتى نصفها، وضع الزجاجة فى حجرها وهو يقول:

- جئتك بدواء لكل شىء . .

فتحسست يداها الزجاجة، وقالت:

- خمر؟! .. حسبك! أتريد أن نطفح؟!

- جرعة نسترد بها أنفاسنا بعد هذا الجهد!

شرب حتى ظن أنه قادر على كل شىء، وأن الجنون حال تستطاب، وهاج البحر فعلاً مع موجه وسفل ثم دار فى دوامة ما لها من قرار، وسلت فى أركان الحجرة ألسنة تنطق فى الظلماء لغوا وهذرا، وتند عنها ضحكات معرودة، فى ضجة كضوضاء السوق حتى الغناء جرى فى أثيرها، وهوت الزجاجة على الأرض فأحدثت صوتا كالنذير، ولكن كان أمامه شوط عليه أن يقطعه ولو فى بحر من العرق، طال الوقت أم قصر فليس الزمان فى حسبانهِ، لذلك تحرك الظلام وشاب إهابه والجفون المغلقة عنه غافلة، وكما يستيقظ الحالم السعيد

وهو يمد اليد ليقطف لذة جديدة استيقظ هو على صوت وحركة ، فتح عينيه فرأى نورا وظلا يتراقص على الجدران ، وثنى رقبته فلمح عند الباب مريم قابضة على مصباح قد جلا من وجهها ملامح عابسة وعينين تشعان شرر الغضب . تبودل بين المنظر حزين على الكنبه والواقفة عند الباب نظرات طويلة غريبة ، زائغة بالذهول من ناحية مستعرة بالغضب من الناحية الأخرى ، ثم لم يعد الصمت مما استطاع . أعربت زنوبة عن قلقها بأن فتحت فاها لتكلم ولكنها لم تقل شيئا ، ثم غلبها بغتة ضحك طارئ فأغرقت فيه حتى اضطرت إلى إخفاء وجهها بكفيها ، وإذا بياسين يصبح بها بلسان ثقيل :

- كفى عن الضحك! . . هذا بيت محترم!

وبدا أن مريم أرادت أن تتكلم فلم يسعفها لسانها أو أعجزها الغضب ، فقال لها ياسين ولم يكن يدرى ماذا يقول :

- وجدت هذه «الست» فى حالة سكر شديد ، فجئت بها إلى هنا حتى تفيق . .

ولم تسكت زنوبة ، فقالت معترضة :

- هو السكران كما ترين ، وقد جاء بى بالقوة!

ندت عن مريم حركة خطيرة كأنما همت بأن تقذفهما بالمصباح ، فتصلبت قامة ياسين ونظر إليها متحفزا ، ولكنها سرعان ما تراجعت متأثرة بخطورة الإقدام ، فوضعت المصباح على منضدة وهى تصر على أسنانها بحقن ، ثم تكلمت لأول مرة وكان صوتها جاقا متهدجا مخشوشنا بالحقد والغضب ، قالت :

- فى بيتى! فى بيتى؟! فى بيتى يا مجرم يا بن الشياطين!

ودوى صوتها كالرعد يصب عليه اللعنات وينعته بكل خبيث ، صرخت وصوتت حتى شوق صوتها الجدران ، ونادت السكان والجيران

وهي تحلف لتفضحنه وتشهد عليه النائمين . وكان ياسين ينذرهما بشتى الوسائل ليسكتها ، لوح لها بيده وحملق فيها بعينييه ، وصاح بها مزمجرا ، فلما خابت وسائله نهض منفعلا واتجه نحوها بخطوات واسعة ليبلغها فى أقصر وقت دون اندفاع خشية أن يختل توازنه ، ثم انقض عليها مسددا راحته إلى فيها ليسده ، ولكنها صرخت فى وجهه كالهرة اليائسة وركلته بقدمها فى بطنه ، فراجع مترنحا مكفهر الوجه من الحق والألم ثم سقط على وجهه كالبنيان المتهدم ، انطلقت من زنوبة صرخة مدوية فجرت مريم نحوها وارتمت عليها ، وجذبت شعرها يمينها وأنشبت أظافرها الأخرى فى عنقها وجعلت تبصق فى وجهها وهى تسب وتلعن ، وما لبث ياسين أن نهض ثانيا هازا رأسه بعنف كأنما ليطرد عنه الخمار ، فتحول إلى الكنبه وسدد نحو ظهر زوجه الراقدة فوق غريميتها قبضة شديدة فصرخت مريم وتراجعت زائغة عنه ، فتبعها وقد أعماه الغضب موجهها إليها ضربات متتابعة حتى فصلت بينهما السفرة ، وعند ذاك تناولت الشبشب من قدمها وقذفته به فأصاب صدره فجرى نحوها ، وراحا يدوران فى الصالة وهو يصيح بها «اغربى عن وجهى ، أنت طالقة . . طالقة . . طالقة . . » وإذا بيد تنقر الباب وصوت الجارة المقيمة فى الدور الثانى ينادى «ست مريم . . ست مريم» ، فتوقف ياسين عن الجرى وهو يلهث ، أما مريم ففتحت الباب وبادرت تقول بصوت مלא السلم كله :

- تعالى انظرى داخل الحجرة وخبرينى هل رأيت مثل هذا من قبل؟!!

عاهرة فى بيتى تسكر وتعربد ، ادخلى وانظرى .

فقال الجارة باستحياء :

- هدنى نفسك يا ست مريم ، تعالى معى حتى الصباح . .

هتف ياسين دون مبالاة :

- اذهبي معها ، لا حق لك فى البقاء فى بيتى . .

فصرخت مريم فى وجهه :

- يا فاسق ، يا مجرم ، تحيثنى بعاهرة فى بيت الزوجية . .

فضرب الجدار بقبضته وصاح بها :

- أنت العاهرة ، أنت وأمك . .

- تسب أمى وهى بين يدى الله !

- أنت عاهرة ، أنا أعلم ذلك عن يقين ، ألا تذكرين الجنود الإنجليز ؟!

الحق علىّ لأننى لم أستجب إلى تحذير الناس الطيبين !

- أنا ستك وتاج رأسك ، أنا أشرف من أهلك ومن أمك ، سل نفسك

عن الرجل الذى يتزوج امرأة وهو يعلم أنها عاهرة كما قلت ! هل

يكون إلا قوادا خسيسا ؟! . . (وهى تشير إلى حجرة الاستقبال) . .

تزوج من هذه ، إنها من النوع الذى يوافق مزاجك القذر . .

- كلمة أخرى ، ويسيل دمك حيث تقفين . .

ولكن حنجرتها عادت تصرخ وتقذف اللهب حتى تدخلت الجارة

لتحول بينهما إذا دعاداع ، وجعلت تربت منكبها متوسلة إليها أن تمضى

معهما حتى يطلع الصبح ، واشتد الضيق بياسين فصاح بها :

- خذى ثيابك واخرجى ، أبعدى عن وجهى ، لا أنت زوجى ولا أنا

أعرفك ، أنا داخل الحجرة الآن وإياك أن أجذك إذا عدت . .

واندفع إلى حجرة الاستقبال ودفع الباب وراءه دفعة عنيفة ارتجت لها

الجدران ، ثم ارتقى على الكنبه وهو يجفف عرق جبينه ، همست زنوبة

قائلة :

- إنى خائفة . .

فقال بخشونة :

- اسكتى ، م تخافين؟! .. (ثم بصوت مرتفع) أنا حر .. أنا حر ..
فقلت وكأنها تخاطب نفسها :

- ماذا أصابنى فى عقلى حتى طاوعتك وجئت معك إلى هنا؟

- اسكتى! .. ما كان كان ولست أسفا على شىء .. أف ..

وترامت إليهما الأصوات خلال الباب المغلق ، فدلّت على أن أكثر
من جارة قد أحاطت بالزوجة الغاضبة ، ثم سمع صوت مريم وهى تقول
بلهجة باكية :

- هل سمعتم عن هذا من قبل؟ عاهرة من عرض الطريق فى بيت
الزوجة؟ استيقظت على ضوضائهما وهما يضحكان ويغنيان! إى
والله كانا يغنيان بلا حياء بعد أن أذهلهما السكر ، خبرونى أهذا
بيت أم ماخور؟!

وإذا بصوت امرأة تقول محتجة :

- أجمعين ثيابك وتغادرين بيتك؟! هذا بيتك يا ست مريم ولا يصح
أن تغادريه ، فلتغادره الأخرى ..

فهمت مريم :

- لم يعد بيتى ، لقد طلقنى المحترم!

فقلت أخرى :

- لم يكن فى وعيه ، تعالى الآن معنا ولنؤجل الحديث إلى الصباح ،
ومهما يكن من أمر فياسين أفندى رجل طيب وابن ناس طيبين ، لعنة الله
على الشيطان ، تعالى يا بنتى ولا تحزنى ..

فصاحت مريم :

- لا كلام ولا حساب ، لا طلع الصباح عليه المجرم ابن المجرمة ..

ثم تتابع وقع الأقدام مبتعدا حتى لم يعد يسمع من المتحدثات إلا
أصوات مبهمه ، ثم دوت صفقة الباب وهو يغلق . نفخ ياسين طويلا ثم
استلقى على ظهره ..

عندما فتح عينيه كان نور الضحى قد ملأ الحجرة، وجد فى رأسه ثقلا لا عهد له به رغم أنها لم تكن أول مرة يستيقظ بعد ليلة مخمورة، وبحركة من رأسه غير مقصودة وقعت عيناه على زنوبة وهى تغط فى نومها إلى جانبه هنالك استعادت ذاكرته حوادث الليلة الماضية فى لقطة واحدة: زنوبة فى فراش مريم، ومريم؟! عند الجيران، والفضيحة؟! فى كل مكان، يا لها من وثبة جبارة فى هاوية التدهور! ما جدوى الغضب أو الندم الآن؟ ما كان كان وكل شىء قد يتغير إلا أمس، أبوقظها؟ ولكن لمه؟ فلتمتلى، نوما حتى تشبع، ولتبق حيث هى فما ينبغى أن تغادر البيت قبل أن يقبل الظلام، ولم يكن بد من استعادة شىء من حيويته ليلا فى به يومه العسير، فأزاح الغطاء الخفيف عن جسمه وانزلق إلى أرض الغرفة ثم مضى إلى الخارج ثقيلًا منفوش الشعر منتفخ الجفون محمر العينين. ثئاب فى الصالة بصوت كالخوار ثم نفخ وهو ينظر إلى باب حجرة الاستقبال المفتوح ثم أغمض عينيه متأوها من ثقل رأسه وقصد إلى الحمام. أمامه يوم عسير حقا، مريم عند الجيران والأخرى محتلة فراشها وقد أدركها النهار قبل أن يخفى آثار جريمته، فيا للجنون! كان يجب أن يسربها قبل أن يأوى إلى فراشه فكيف توانى عما يجب؟! أى غاشية غشيته؟! بل ومتى وكيف مضى بها من حجرة الاستقبال إلى حجرة النوم؟! إنه لا يذكر شيئا، لا يذكر حتى كيف ومتى استجاب للنوم؟ والجملة أنها فضيحة كبرى بلا ثمن، وليلة بريئة ولكنها مثقلة بالعار مثل رأسه المثقل بالهم والصداع. . ولكن لا عجب فهذه الشقة مسكونة من

قديم بشياطين الفضائح، تركة أم غفر الله لها، مضت الأم وبقي الابن ليكون مضغة الأفواه ونادرة السكان والجيران وغدا تهرع الأنباء إلى بين القصرين . . فإلى الأمام! قرار هاوية سحيقة من العريضة والسفالة فليت هذا الماء البارد الذى تغتسل به يطهر النفس من ذكريات السوء، ومن يدري فلعلك إذا أطللت من النافذة وجدت أمام بابك لمة ترصد خروج المرأة التى طردت الزوجة واحتلت مكانها، كلا لن تسمح لها بالخروج مهما يكن من أمر، أما مريم فقد طلقته! طلقته! وما أردت ذلك وأمها لم يجف ماؤها فى قبرها بعد، فماذا يقول عنك الناس أيها المفترى؟! وشعر بحاجة ماسة إلى فنجان قهوة ينعش به حواسه، فغادر الحمام إلى المطبخ، وفى أثناء عبوره الدهليز الذى يفصل بينهما ملح الكنصول فى الصالة فذكر زجاجة الكونياك المهرقة فى غرفة الاستقبال، وتساءل لحظة عما أصاب السجادة، ثم ذكر فى اللحظة التالية وفى أسف ساخر أن أثاث الشقة كله لم يعد ملكه وأنه سيلحق عما قليل بصاحبه، وبعد دقائق معدودات كان يحمل كوبا مملوء حتى نصفه بالقهوة ويسير نحو حجرة النوم، وهنالك وجد زنوبة جالسة فى الفراش تتمطى وتتشاءب، فالتفت نحوه وقالت:

- صباحنا خير، وإن شاء الله نغير ريقنا فى القسم!

فرشف رشفة وهو ينظر إليها من فوق الكوب، ثم قال:

- قولى يا فتاح يا عليم . .

فلوحت يديها حتى وسوست الأساور الذهبية حول ساعديها، وقالت:

- أنت السبب فى كل ما حصل . .

فجلس على حافة السرير فيما يلى ساقها الممدودتين، وقال بضيق:

- محكمة! هه؟! قلت لك قولى يا فتاح يا عليم!

فربتت سلسلة ظهره بكعب قدميها، وهى تقول متأوهة :

- خربت بيتى، الله وحده يعلم ما ينتظرنى هناك ..

فوضع ساقا على ركبته حتى انحسر الجلباب عن الأخرى فبدت
مكتنزة مغطاة بغابة من الشعر الفاحم، وقال :

- رفيقك؟ خيبة الله عليه! ما يكون هذا إلى طلاق زوجى؟! أنت
التي خربت بيتى، وبيتى أنا الذى خرب ..

قالت وكأنها تحدث نفسها :

- ليلة سوداء لم أعرف لى فيها رأسا من قدمين، لا تزال الضوضاء
تدوى فى رأسى، لكن الحق علىّ، ما كان ينبغى لى أن أطاوعك
من بادئ الأمر ..

خيل إليه أنها راضية رغم تشكيها، أو أنها تدعى التشكى ادعاء، ألم
يعرف فى الأزكية نساء يتباهين بكل عراك دموى ينشب من أجلهن؟!
على أنه لم يغضب، كانت الأمور قد بلغت حد اليأس فأعفته من مشقة
النهوض لمعالجتها، فلم يملك إلا أن يضحك وهو يقول :

- شر البلية ما يضحك! اضحكى، خربت بيتى واحتللتها، قومى
فأصلحى من شأنك واستعدى لإقامة طويلة حتى يقبل الليل، لن
تغادرى البيت حتى يأتى الليل ..

- يا خبر أسود! سجيئة! أين زوجك؟

- لم يعد لى زوجة ..

- أين هى؟

- فى المحكمة الشرعية إن صدق ظنى ..

- أخاف أن تعتدى علىّ عند خروجى ..

- تخافين؟! ربنا يرحمنا! إن ليلة أمس على فظاعتها لم توهن من
مكرك وخبثك يا بنت أخت زبيدة!

ضحكت ضحكة طويلة فبدأ أنها تقر بالتهمة الموجهة إليها ، وفى مباهاة أيضا ، ثم مدت يدها إلى كوب القهوة فتناولته واحتست قليلا منها ، ثم ردتها إليه وهى تتساءل :
-والآن؟

- كما ترين ، لا علم لى أكثر منك ، ولكن يحز فى نفسى أن أنكشف أمام الناس كما انكشفت فى الليلة الماضية . .
هزت منكبيها فى استهانة قائلة :

- لا تهتم بذلك ، ما من رجل إلا ويخفى تحت ذقنه مخازى تضيق عنها الأرض .

- رغم هذا فالفضيحة فضيحة ، تصورى الشجار والعويل والطلاق عند الفجر ! تصورى الجيران وقد فزعوا إلى شقتى مستطلعين فرأت أعينهم كل شىء .
قطبت قائلة :

- كانت هى البادئة !

لم يملك أن ضحك ضحكة ساخرة ، فعادت تقول بإصرار :
- كانت تستطيع أن تعالج الأمور بحكمة لو كانت عاقلة ، الغرباء فى الطريق يتسامحون مع السكارى العربدين ، هى التى جنت على نفسها بالطلاق ، وماذا كنت تقول لها؟ . . يا عاهرة يا بنت العاهرة ، هه؟ وكلام آخر عن الجنود الإنجليز . .؟

تذكر هذا الآن فقط وهو يحدها بنظرة محتقة متسائلا كيف رسخت هذه الألفاظ فى ذاكرتها ، وغمغم فى ضيق :

- كنت غاضبا لا أدرى ماذا أقول !

- إحم !

- إحم فى يافوخك !

- الجنود الإنجليز؟ .. هل جئت بها من بار فنشى؟!
- أستغفر الله، إنها بنت ناس وجيران العمر، ولكنه الغضب عليه
ألف لعنة ..

- لولا الغضب ما انكشفت الأسرار!
- وحياة خالتك حسبنا ما نحن فيه ..
- خبرنى عن الجنود الإنجليز وخذ شعر رأسى ..
بصوت عال محتد:

- قلت إنه الغضب وكفى ..
شهقت ساخرة، ثم قالت:
- أتدافع عنها؟ .. اذهب فاستردها ..
- ملعون أبو البارد الذى لا يستحى ..
- ملعون أبوه ..

غادرت الفراش إلى المرأة فتناولت مشط مريم، وراحت تمشط شعرها
بعجل وهى تتساءل:

- ما عسى أن أفعل لو قطع الرجل علاقته بى؟
- قولى له مع السلامة، أما بيتى فمفتوح لك على الدوام ..
فالتفتت إليه قائلة بلهجة أسيفة:
- أنت لا تفقه معنى ما تقول! كنا بسبيل التفكير الجدى فى الزواج.
- الزواج!، وهل مازلت تفكرين فيه بعد ما رأيت من أحواله فى
الليلة الماضية؟!
قالت فى دهاء:

- أنت لا تفهمنى! لقد ضقت ذرعا بالحياة الحرام، ليس وراءها إلا
البوار، إن مثلى إذا تزوجت قدّرت الحياة الزوجية خير قدرها!

من المغفل يا ترى؟! التخت لم يكن يعدها بأكثر من عوادة، وحياة الهوى ليس وراءها بعد الثلاثين - وستبلغها قريبا - إلا التلف، فالزواج هو الأمل الموعود، هل تقصدك بهذا الحديث؟ . . ما ألد الشيطانة! لا أنكر أننى أريدها، أريدها بكل قوة، وفضيحتى تشهد على ذلك . .

-أتحيينه؟

كالغضبة:

- لو كنت أحبه ما وجدتنى الآن سجينه هنا!

اهتز صدره حنانا رغم ارتياحه فى صدقها، أجل إذا لم يكن يعرف الإخلاص قلبها أبدت له ميلا لا شك فيه:

- لا غنى لى عنك يا زنوبة، فى سبيلك ارتكبت جنونا غير مبال بالعواقب، أنت لى وأنا لك من قديم الزمان .

وساد الصمت، بذت كأنها تنتظر مزيدا على لهف، ولكنه لم ينبس فقالت:

- هل أقطع أسبابى بذلك الرجل؟ لست من اللاتى يستطعن أن يجمعن بين رجلين . .

- من هو؟

- تاجر من ناحية القلعة يدعى محمد القللى . .

- متزوج؟

- وله أولاد، ولكنه كثير المال . .

- وعلك بالزواج؟

- يغربنى به، ولكننى مترددة، لأن ظروفه وكونه زوجا وأبا مما ينذر بالمتاعب . .

احتمل مكرها من أجل جمال عينيها .

- لم لا نعود كما كنا؟ .. لست فقيرا على أى حال ..

- لا يعيننى مالك ، ولكن ضقت بحياة الحرام!

- والعمل؟

- هذا ما أسأل عنه ..

- أفصحى ..

- قلت ما فيه الكفاية ..

يا له من هجوم غير متوقع ، أجل إنه يبدو أول ما يبدو مضحكا ، غير أنه يريدوها فلا يسعه أن يرد على الهجوم بمثله ، قال بعد صمت :

- لا أخفى عنك أنى بت أتطير من الزواج ..

- كما أتطير من الحرام .. !

- لم تكونى كذلك أمس!

- كان فى قبضة يدى زوج ، أما اليوم .. !!

- قليل من المرونة حتى نتلاقى ، شىء واحد لا ينبغى أن يغيب لك

عن بال ، وهو أنى مهما تطل بى عشرتك فلن أتخلى عنك ..

فهتفت محتدة :

- سوابقك تشهد على صدقك ..

فقال بلهجة جدية يدارى بها ضعف مركزه :

- الإنسان لا يتعلم بلا ثمن ..

- لم تعد تغرربى الأقوال ، آه منكم يا رجال!

وممكن يا نساء أليس ثمة آه؟! يا بنت أخت زبيدة رحمتك ، جاءت بعد منتصف الليل سكرى وفى الصباح ضاقت بالحرام ، لعلها قالت لنفسها : إذا كانت زوجة الثانية عاهرة فلم لا أكون زوجة الثالثة؟! هان ياسين ، أنسيت ما ينتظرك فى الخارج من المتاعب؟ دع المتاعب تنتظرك

ولكن لا تفقد زنوبة بكلمة نائية، كما فقدت مريم، مريم؟! الآن كفرت
عن ذنبي يا أخى، قال بهدوء:

- يجب ألا ينقطع ما اتصل بيننا .

- يبدك انقطاعه واتصاله . .

- يجب أن نلتقى كثيرا ونفكر كثيرا . .

- من جانبي لا حاجة بى إلى تفكير جديد!

- فإما أن أقنعك برأىي، وإما أن تقنعينى برأيك . .

- لن أقتنع برأيك . .

وغادرت الحجرة وهى تدارى عنه ابتسامة فأتبع ظهرها المتأود نظرة
استغراب، أجل كل شيء يبدو غريبا، ولكن أين مريم؟ وحيدة على أى
حال ولن تذوق نفسه الراحة والسلام، وسيسأل غدا فى بين القصرين
وبعد غد فى المحكمة الشرعية، ولكن كانت حياتهما فى الأيام الأخيرة
نضالا متواصلا، حتى قالت له بصريح العبارة: كرهتك وكرهت
عيشتك، لم أخلق كى أوفق فى الزواج، أهكذا كانت حياة جدى؟
إنى أشبه الأسرة به فيما يقال، ورغم هذا كله تريد المجنونة أن تتزوج
منى . .

٢٨

كانت الشمس تؤذن بالمغيب عندما عبر السيد أحمد عبد الجواد
القنطرة الخشبية المؤدية إلى العوامة، ودق الجرس ففتح الباب بعد قليل
عن زنوبة فى فستان من الحرير الأبيض نمت شفافيته عن محاسن
جسدها، فلما رآته هتفت:

- أهلاً . . أهلاً، قل ماذا فعلت أمس؟ تصورت حضورك ودق
الجرس دون نتيجة ووقوفك حيناً ثم ذهابك . . (وهى تضحك)
ووساوسك، قل ماذا فعلت؟

بالرغم من أناقة مظهره والعرف الطيب الذى يتطاير منه بدا وجهه
متجهماً وعينه جامدتين تعكس حداثتهما استياء، سأل قائلاً:
- أين كنت أمس؟

فتقدمته إلى حجرة الجلوس وتبعها حتى وسط الحجرة بين نافذتين
مفتوحتين على النيل ولم يجلس، أما هى فجلست على مقعد بين
النافذتين وهى تتظاهر بالهدوء والثقة والابتسام، ثم قالت:

- خرجت - كما تعلم - أمس لأستبضع، فقابلت فى بعض الطريق
باسمينة العالمة فدعتنى إلى بيتها، وهنالك أبت على أن أنصرف،
وما زالت بى حتى أجبرتني على المبيت عندها، لم أكن رأيتها منذ
انتقلت إلى هذه العوامة، لو سمعتها وهى تطعن فى وفائى
وتسألنى عن سر الرجل الذى أنسانى عشيرتى وجيرانى!

صادقة أم كاذبة؟، هل عانى آلام أمس واليوم بلا سبب حقاً؟ إنه لا
يربح مليماً ولا يخسر مليماً بلا سبب، فكيف عانى تلك الآلام المروعة
بلا سبب؟! دنيا مأكرة . . غير أنه على استعداد لأن يلثم ترابها إذا صح
عنده صدق هذه الشيطانة، فليصح له صدقها ولو يفقد ما بقى من
عمره، هل آن له أن يثوب إلى رشده؟ مهلاً . .

- متى عدت إلى العوامة؟

فرفعت ساقها حتى مستوى المقعد، وراحت تتأمل شبشبها البمبى ذا
الوردة البيضاء وأصابعها المخضبة بالحناء، ثم قالت:

- هلا جلست أولاً وخلعت طربوشك لأرى مفرق شعر رأسك؟
عدت يا سيدى مع الضحى . .

- كذابة!

انطلقت من فيه كالرصاص مفعمة غضبا ويأسا، ثم استطرد قائلا فى
عنف قبل أن تفتح فاهها :

- كذابة، لم تعودى مع الضحى ولا مع العصر، لقد جئت إلى هنا
أثناء النهار مرتين فلم أجذك . .

وجمت قليلا ثم قالت بلهجة جمعت بين التسليم والضجر :

- الحق أنى عدت قبيل المغرب، منذ ساعة تقريبا، لم يكن ثمة ما
يدعونى على اختلاق الكذب لولا أنى لمحت فى عينيك استياء لا
أساس له فأردت أن أزيله، الحق أن ياسمينة ألحت علىّ فى الصباح
كى أتسوق معها، ولما علمت بانفصالى عن خالتى عرضت علىّ أن
أنضم إلى تختها على أن تينبنى عنها فى بعض الأفراح، وطبعاً لم
أوافق، لسابق علمى بأنك لن ترضى عن سهرى مع التخت،
المقصود إنى بقيت معها لعلمى بأنك لن تحبىء إلى هنا قبل التاسعة
مساء، هذه هى الحكاية فاجلس وصل على النبى . .

حكاية مختلفة أم صادقة؟ لو يطلع أصحابك على موقفك هذا؟ لشد
ما تهزأ بك المقادير، على أنى أعفو على أضعاف هذا فى سبيل قطرة من
الراحة، تشد الراحة وما اعتدت الشحاذة من قبل، هكذا هانت عليك
نفسك أمام العوادة، كانت موكلة يوماً بخدمتك تقدم لك فى مجلس
الأنس الفاكهة وتنصرف فى صمت وأدب، إما الراحة أو فلتستعير نيران
الجحيم.

- ياسمينة العالمة ليست فى جبال الواق، سوف أسألها عن حقيقة
الحكاية . . قالت وهى تلوح بيدها فى استهانة واستياء :
- سلها كيفما بدا لك . .

وغلبته أعصابه الشائرة المنهكة فجأة، فقال بعناد :

- سوف أسألك هذا المساء، إنى ذاهب إليها، الآن.. . حققت لك كل رغباتك فينبغى أن تحترمى حقوقى كاملة.. . وانتقلت إليها عدوى هياجه، فقالت بحدة:

- مهلا، لا ترمينى فى وجهى بالتهم، فقد اتسع لك حلمى حتى الآن، ولكن لكل شىء حد، أنا إنسانة من لحم ودم، فتح عينك وصل على أبى فاطمة!
تساءل فى ذهول:

- أبهذه اللهجة تخاطبينى؟!

- نعم ما دمت تخاطبنى بمثلها!

اشتدت قبضة يده على مقبض عصاه وهو يهتف:

- أنا أستاذك، فأنا الذى خلقت منك سيدة وهيات لك حياة تحسدك عليها زيدة نفسها!

واستفزها قوله فبدت كاللبوة الهائجة، وصاحت:

- خلقتنى الله سيدة لا أنت، لقد ارتضيت هذه الحياة بعد توسلاتك الحارة، فهل نسيت هذا؟! لست أسيرة أو عبدة لك، تحقيق ومحضر، ماذا تظن بى؟ هل اشتريتنى بمالك؟ إذا كانت حياتى لا تعجبك فليذهب كل منا إلى حال سبيله.. .

يا رب السماوات أهكذا تستحيل الأظافر المدللة إلى مخالب؟ إن كنت فى شك من الليلة البارحة فاستخبر هذه اللهجة الوقحة، جنس غرود ابتليت به فتجرع الألم حتى الشمال، انهل من الإهانة حتى تكتفى، والآن ما جوابك! بأعلى صوتك اصرخ فى وجهها: اخرجى إلى الطريق الذى التقطتك منه. اصرخ، أجل اصرخ، ماذا يمنعك؟! لعنة الله على ما يمنعك، خيانة القلب شر من ألف خيانة، هذا هو ذل القلوب الذى كنت تسمع عنه وتهزأ منه، شد ما أكره نفسى إذ تحبها.. .

- تطرديني؟! -

بنفس النبرات المحتدة الغاضبة :

- إذا كان معنى هذه الحياة أن تحبسنى هنا كالرقيق وأن ترمينى بالتهم كلما حلا لك ، فمن الخير لى ولك أن تنتهى . .

وأدارت عنه وجهها فتأمل عارضها وصفحة عنقها فى هدوء غير طبيعى بالذهول أشبه . أقصى ما أسأل الله من سعادة أن أنبذها دون مبالاة ، هى ذلك وحنقك ولكن هل تطيق أن تعود إلى هذا المكان فلا تجد لها من أثر؟! -

- لم أكن شديد الثقة فى نبلك ، ولكنى لم أتصور أن يذهب بك الجحود هذا المذهب!

- تريدنى حجرا لا شعور له ولا كرامة!

أنت أحقر من هذا لو تعلمين!

- بل أريدك شخصا يعرف للجميل حقه وللعشرة حقها . .

مغيرة لهجتها من الغضب إلى السخط والتشكى :

- فعلت لك أكثر مما تتصور ، ارتضيت أن أهجر أهلى وعملى لأبقى حيث تريد ، حتى الشكوى كتمتها كى لا أكدر صفوك فلم أشأ أن أصارحك بأن «بعض الناس» يود لى حياة خير من هذه فلم ألق إليهم بالا!

أئمة متاعب أخرى لم تقع لى فى حسابان؟ . . تساءل كالجريح :

- ماذا تعنين؟

فعكفت على أسورة ذهبية تديرها حول ساعدها الأيسر ، وهى تقول :

- رجل محترم يريد أن يتزوجنى ويلح فى ذلك بلا ملل . .

الحرارة والرطوبة يخنقانك خنقا أما «العكنة» فقد فغرت فاهها لتبتلعك ، ما أسعد هذا الملاح الذى يطوى شراعه أمام النافذة !
- من هو؟

- رجل لا تعرفه . فسمه كيف شئت !
تراجع خطوة ، ثم جلس على كنبه تتوسط مقعدين كبيرين ، وشبك راحتيه فوق مقبض عصاه وهو يسألها :
- متى رآك؟ وكيف علمت برغبته؟

- كان يرانى كثيرا حينما كنت أقيم مع خالتي ، وفى الأيام الأخيرة كان يحاول مكالمتى كلما صادفنى فى طريقه ، ولكنى تجاهلته فحرض إحدى صديقاتى على إبلاغى برغبته ، هذه هى الحكاية !

ما أكثر حكاياتك ، عندما افتقدتك أمس قاتلتى ألم واحد ، لم أفطن وقتذاك إلى كل هذه الآلام والمتاعب ، اتركها إن استطعت ، اهجرها فهجرها هو سبيل السلام . أليس الناس مخطئين فى تصورهم أن الموت شر ما يبتلون؟ !

- أحب أن أعرف صراحة ، هل تودين قبول هذا العرض؟
تركت ساعدها بحركة عصبية وشخصت إليه بوجهها فيما يشبه الكبرياء ، ثم قالت بتوكيد :

- قلت لك إنى تجاهلته ، يجب أن تفهم معنى ما أقول . .
يجب ألا تعود الليلة إلى فراشك بأفكار قاتلة حتى لا تتكرر ليلة أمس ، غربل نفسك من الهواجس .

- صارحيني هل زارك أحد فى العوامة؟
- أحد؟ ! أى أحد تغنى؟ لم يدخل هذه العوامة أحد سواك . .
- زنوبة ، إنى أستطيع أن أعرف كل شىء ، لاتخفى عنى شيئا ،

صارحيني بكل كبيرة وصغيرة ولك عندي بعد ذلك العفو مهما
يكن من أمرك . .

قالت محتجة غاضبة :

- إذا أصررت على الشك فى صدقى فخير لنا أن نفترق . .

أتذكر الذبابة التى رأيتها تحتضر فى صباح اليوم فى خيط
العنكبوت؟!!

- حسبنا دعيني أسألك الآن ، هل قابلك هذا الرجل أمس؟!!

- أخبرتك أين كنت أمس . .

نافخا على رغمه :

- لماذا تعذيني ، وما حرصت على شىء حرصى على سعادتك؟

ضربت كفا بكف ، كأنما قد كبر عليها شكه ، ثم قالت :

- لم لا تريد أن تفهمنى؟ . . . إنى أرفض كل غال فى سبيلك!

ما أجمل هذه النعمة ، المأساة أنها يمكن أن تصدر عن قلب فارغ ،
كالمغنى الذى يذوب فى نعمة حزينة شاكية وقلبة ثمل بالسعادة والفوز .

- إنى أشهد الله على قولك ، صارحيني الآن : من يكون هذا
الرجل؟

- ماذا يهمك منه؟ قلت لك إنك لا تعرفه ، تاجر من غير حينا ولكنه

كان يجلس من حين لآخر فى قهوة سى على . .

- اسمه؟

- عبد التواب ياسين ، هل عرفته؟

اكثرت هذه العوامة لقضاء وقت سعيد ، هل تذكر أوقاتك
السعيدة؟! أيتها الدنيا هل تذكرين أحمد عبد الجواد الذى لم يكن يبالى
شيئا؟ زبيدة . . جليلة . . بهيجة . . سليهن عنه ، إنه بلا ريب غير هذا
الرجل الحائر الذى اشتعل الشيب فى فوديه . .

- إن شيطان النكد هو أنشط الشياطين . .
- بل هو شيطان الشك لأنه يخلق من لا شيء . . .
- جعل ينقر الأرض بطرف عصاه، ثم قال بصوت عميق :
- لا أريد أن أعيش أعمى، كلا ولا شيء بقادر على أن يجعلنى
أتهاون فى رجولتى وكرامتى، بالاختصار لا أستطيع أن أهضم
مبيتك فى الخارج ليلة أمس . .
- رجعنا مرة أخرى!
- وثالثة ورابعة، لست طفلة، أنت امرأة ناضجة عاقلة، واليوم
تحدثينى عن ذلك الرجل!، هل غرّك حقا وعده بالزواج منه؟
- أجابت بكبرياء قائلة :
- إنى أعلم أنه لا يخدعنى، وآى ذلك أنه وعدنى بألا يقربنى حتى
يعقد زواجه منى . .
- أترغبين فى هذا الزواج؟
- قطبت فى استياء، ثم قالت بلهجة المتعجب :
- ألم تسمع ما قلت؟! إنى أعجب لما تبدى اليوم من كسل، لكن على
أى حال لست الساعة كالعهد بك، أفق من الكدر الذى جلبته على
نفسك بلا سبب واسمع منى للمرة الأخيرة: لقد تجاهلت الرجل
ورغبته إكراما لك . .
- رغب أن يعرف سنه ولكنه لم يدر كيف يصوغ السؤال، الشباب
والكهولة أمور لم تجر له فى حساب من قبل، قال بعد تردد . .
- لعله من الأغرار الذين يلقون القول بلا تردد!
- ليس طفلا، إنه فى الثلاثين من عمره!
- أى أنه يتأخر عنه بربع قرن، والتأخر مكروه إلا فى العمر، أما الغيرة
فتقتلنا بلا حياة .

وعادت هى تقول :

- تجاهلته رغم أنه وعدنى بالحياة التى أتمناها!
يا بنت القديمة! فات زبيدة أن تتعلم منك الكثير!
- حقاً؟

دعنى أصارحك بآنى لم أعد أطيق هذه الحياة ..
اذكر مرة أخرى الذباب والعنكبوت ..
- حقاً! .

- أجل ، أريد حياة مطمئنة فى ظل الحلال ، أم ترانى مخطئة؟
جئت للتحقيق معها فأين تقف الآن؟ هى التى طردتك فمن أين لك
هذا الحلم كله؟ اخجل من نفسك ما بقى لك من أيام ، أتفهم ما تعنى
إيماءاتها؟ ما أجمل الأمواج المتلاطمة فى ساعة المغيب! ولما طال به
الصمت استطردت قائلة بهدوء :

- لن يغضبك هذا ، أنت رجل تقى رغم كل شىء ، فلا يمكن أن تحول
بين امرأة وبين الحلال الذى توده ، لا أود أن أكون بردعة لكل
راكب ، لست كخالتى ، لى قلب مؤمن وأخاف الله ، وقد صدق
عزمى على هجر الحرام ..

استمع إلى قولها الأخير بدهشة وانزعاج ، وجعل يتفحصها بحق
داراه بابتسامة باهتة ، ثم قال :

- لم تحدثينى عن هذا من قبل ، كنا حتى أول أمس على خير حال!
- لم أكن أدرى كيف أكشفك بما فى نفسى ..

إنها تبتعد عنك بسرعة مخيفة خبيثة ، يا خيبة الأمل ، إنى مستعد أن
أنسى ليلة أمس المشثومة .. أنسى شكى وألمى .. على أن تطلع عن هذا
المكر الخبيث ..

- كنا نعيش فى سعادة ووثام ، فهل هانت عليك العشرة؟!
 - لم تهن ولكنى أريد أن أجعل منها شيئاً أفضل ، أليس الحلال خيراً
 من الحرام؟!
 تقلصت شفته السفلى محدثة ابتسامة لا معنى لها ، ثم قال بصوت
 خافت:
 - الأمر بالنسبة لى مختلف جداً . .
 - كيف؟!
 - أنا زوج ، وابنى زوج ، وبناتى أزواج ، الأمر دقيق جداً كما ترين . .
 (ثم بلهفة) ألم نكن نعيش فى سعادة كاملة؟!
 قالت بضجر:
 - لم أقل لك طلق زوجتك وتبرأ من ذريتك! كثيرون هم الذين
 يجمعون بين أكثر من زوجة!
 فقال بإشفاق:
 - ليس الزواج فى مثل . . حالى مما يهون أمره ، أو يعرض فى حياة
 الإنسان بلا قيل وقال!
 ضحكت ساخرة ، ثم قالت:
 - كل الناس يعلمون أنك عشيق وأنت لا تبالى بهم ، فكيف تشفق من
 قيلهم وقالهم على زواج مشروع إن أردت الزواج . .؟!
 قال باسم فى ارتباك وضيق:
 - قليل من الناس من اطلع على أسرارى ، إلى أن أهل بيتى هم أبعد
 الناس عن الشك فى أمرى . .
 رفعت حاجبيها المزججين فى إنكار ، ثم قالت:
 - هذا ظنك ، أما الحقيقة فلا يعلمها إلا الله ، أى سر يمان ووراءه
 ألسنة الناس؟! ثم استدركت غاضبة قبل أن يتكلم:

- أم لعلك لا ترانى أهلا للتشرف بالانتساب إليك؟!
أستغفر الله ، زوج زنوبة العوادة على سن ورمح!
- ما قصدت هذا يا زنوبة . .

فقال باستياء :

- لن تخفى عنى حقيقة مشارعك طويلا ، سأعرفها غدا إن لم أعرفها
اليوم ، فإن كان زواجى يعرك فمع السلامة . .

تجىء لتطردها فتطردك ، لم تعد تسألها أين كانت ولكنها تخيرك بين
الزواج أو الذهاب ، ماذا أنت صانع ؟ ماذا يبقيك بلا حراك ؟ إنه القلب
الخائن ، إن نزع عظامك من لحمك أهون من هجر هذه العوادة ، أليس
من المحزن ألا تبثلى بهذا الحب الأعمى إلا على كبر ؟!

تساءل فى عتاب :

- أهذا هو قدرى عندك ؟

- لا قدر عندى لمن يأنف منى كأنى بصقة معدية!

قال بهدوء جزين :

- أنت أعز على من نفسى . .

- كلام سمعنا منه الكثير . .

- ولكنه صدق وحق . .

- آن لى أن أعرف هذا من غير اللسان!

غض بصره فى كرب ويأس ، لم يكن يدرى كيف يقبل ولم يكن
بوسعه أن يرفض ، وكان حرصه عليها من وراء ذلك يغله ويشتت فكره ،
قال بصوت خفيض :

- أعطنى مهلة كى أدبر أمرى . .

فقال بهدوء وهى تخفى ابتسامة مأكرة :

- لو كنت تحبني حقاً ما ترددت . .

فقال بعجلة :

- ليس هذا ، أعني أموري الأخرى . .

وحرك يده كأنما يفسر بها قوله وإن كان لا يدري على وجه التحديد

ما تعني فابتسمت قائلة :

- إذا كان الأمر كذلك فأنا رهن انتظارك . .

فشعر براحة وقتية ، كالراحة التي يجدها الملاك الموشك على السقوط إذا أدركه الجرس المؤذن بانتهاء الجولة غير الأخيرة ، وانبعثت في نفسه رغبة إلى الترويح عن همه والتنفيس عن قلقه ، فقال لها وهو يمد نحوها يده :

- تعالى على جانبي . .

فتراجعت في مقعدها إلى الوراء بإصرار وهي تقول :

- عندما يأذن الله . .

٢٩

غادر العوامة يشق سبيله في ظلام وسار وشاطئ النيل في طريق مقفر متجها إلى جسر الزمالك . كان الهواء يهفو لطيفا فتفخ رأسه الملهب ، وبعث في أغصان الأشجار الهائلة المتشابكة حركة وانية ند عنها هسيس كالهمس ، وكانت تبدو في الظلام كالكتبان أو السحب الجون ، كلما رفع رأسه وجدها مطبقة عليه كالهم الجاثم على صدره ، وهذه الأضواء المنبعثة من نوافذ العوامات هل تنبعث من بيوت خلت من الهم ؟ ولكن ليس كهمك هم ، ليس من يموت كمن ينتحر ، وأنت بلا جدال قد

وافقت على الانتحار . واصل السير ، لم يكن أحب إليه وقتذاك من المشى ليريح أعصابه ويستعيد أفكاره قبل أن يمضى إلى الإخوان ، وهناك يخلو إليهم ويكشفهم بكل شيء ، لن يقدم على هذه الخطوة حتى يشاورهم وإن خمن سلفا ما سيقولون ، ولكنه سيترف أمامهم مهما كلفه الأمر ، وإنه ليجد إلى مكاشفتهم رغبة دافعة كأنها استغاثة غريق يتخطفه الموج العاتى ، لم يغب عنه أنه يعد فى حكم الموافق على الزواج من زنوبة ، ولم ينكر شعوره الدليل بالرغبة فيها والحرص عليها ولكنه لم يتصور كيف يمكن أن يتحقق هذا فى صورة زواج رسمى ولا كيف يزف البشرى إلى الأهل والأبناء والناس جميعا . ومع أنه كان يريد أن يطيل المشى ما وسعه ذلك إلا أنه اندفع يسير بسرعة وفى خطوات واسعة وعصاه تضرب الأرض التربة كأنما يتعجل الذهاب إلى هدف ولا هدف له . تأبت عليه وصدته ، هل تغيب عن تجربته وحنكته هذه الأساليب؟ . . ولكن الضعيف يقع فى الشرك وهو يدري . ومع أنه استجد بالمشى والهواء النقى بعض الراحة إلا أنه لم يزل مشتبك الفكر مشعث الوجدان ، ولم تزل الأفكار تطرق رأسه بغير انتظام حتى لم يعد يحتمل حاله فخيّل إليه أنه سيجن إن لم يحسم الأمر بحل ولو يكن الضلال نفسه .

فى هذا الظلام يستطيع أن يخاطب نفسه بلا تردد أو حياء ، تحجبه الأغصان المتلاحمة عن السماء ، وتوارى خواطره الحقول المترامية إلى يمينه ، وابتلع مشاعره ماء النيل الجارى إلى يساره ، ولكن حذار من النور ، حذار أن تكتنفه هالة منه فينطلق كعربة السيرك داعيا وراءه الغلمان وهواة العجائب ، أما سمته وجلاله وكرامته فسلام الله عليها ، كان ولم يزل ذا شخصيتين ، يعيش بواحدة بين الإخوان والأحباب ، ويطالع بالأخرى الأهل وسائر الناس ، وهذه الأخيرة التى تمسك عليه جلالة ووقاره وتقرر له منزلة لا يطمع إليها أحد ، وهى التى تتأمر

نزواته عليها وتهدها بالفناء الأبدى . وتراءى له الجسر بمصايحه
الوهاجة فتساءل: إلى أين؟ . . بيد أنه رغب فى مزيد من الوحدة
والظلام فمر أمام الجسر إلى طريق الجيزة . ياسين! ذكره يربك ،
جيبك يحترق خجلا ، لم ؟ سيكون أول من يفهمك ويتسامح معك أم
تراه يشمت بك ويتندر؟ طالما زجرته وأدبته ولكن قدمه لم تنزلق بعد إلى
مثل هاويتك؟ كمال؟ يجب أن تلقاه منذ الساعة بقناع غليظ أن يطلع
على الذنب فى أسارىك ، خديجة وعائشة؟ سينكس منهما الجبين فى
بيت آل شوكت ، زنوبة امرأة أبيك ، زفاف يصفق له أهل المجون . فى
صدرك غوايات فاختر مسرحا غير دنياك لها ، هل ثمة مملكة ظلام بعيدا
عن متناول البشر كى تمارس رذائلك فى سلام؟! غدا فلتنظر إلى نسيج
العنكبوت لترى ماذا تبقى من الذبابة؟ استمع إلى نقيق الضفادع وزفرات
الصراير ، ما أسعد هذه الحشرات! كن حشرة لتسعد بلا حساب ، أما
فوق سطح الأرض فلن يسعك إلا أن تكون «السيد» أحمد ، مر الليلة
بأهل بيتك جميعا . . زوجك . . كمال . . ياسين . . خديجة . . عائشة .
ثم كاشفهم بنيتك إن استطعت ، وإن استطعت فاعقد زواجك بعد
ذلك .

هنية! أتذكر كيف نبذتها على حبتها؟ لم تحب امرأة كما أحببتها ،
ولكن يبدو - وأسفاه - أننا نخسر العقول فى كهولتنا! لتشرب هذه
الليلة حتى يرفعوك على الأعناق ، ما أحنه إلى الشراب ، كأنك لم
تشرب منذ عام الفيل ، إن الآلام التى تجرعتها فى عامك هذا خليفة بأن
تمحو حسنات السعادة التى تمتعت بها العمر كله .

ضرب بعصاه الأرض ، ثم توقف عن السير ، ضاق بالظلام
والسكون والطريق الحاشد والأشجار وفزع قلبه إلى الإخوان ، ليس هو
بالذى يستطيع أن يخلو إلى نفسه طويلا ، فما هو إلا عضو فى جماعة
وجزء من كل ، وهنالك تحل المشكلات كما اعتادت أن تحل . واستدار

ليرجع إلى الجسر ، وعند ذاك انتفض جسمه غضباً وتقرزاً ، فقال بصوت غريب تمزقه الشكوى والألم والحنق : «ليلة كاملة تبيتها فى الخارج . . فى مكان مجهول . . ثم توافق على الزواج منها!» وطئه إحساس ثقيل بازدياء النفس عصر جذعه وعصر قلبه . يasmineة؟! . . يا للسخرية! بل أمضت ليلتها فى حضن الرجل الذى لم يزايلها حتى وافاهما عصر اليوم التالى ، لبثت عنده وهى عالمة بمواعيد حضوره فماذا يعنى هذا؟! ليس إلا أن الغرام أنساها الوقت . يا جحيم الآخرة! أو أنك هنت للحد الذى لا تبالى عنده بغضبك ، كيف حاورتها مسترضياً بعد ذلك أيها المسحور؟ وكيف تمضى حاملاً وعد الزواج بها يا عار الدنيا والآخرة ، كأنك لم تشعر بالقرن الذى ارتضىته من شدة ضغط الهم على رأسك ، قرن تكلل به هامة أسرة لتخزى به جيلاً بعد جيل ، ما عسى أن يقول الناس عن هذا القرن فوق الجبين الأغر؟! إن الغضب والمقت والدم والدموع لا تكفى للتكفير عن استسلامك وضعفك ، لشد ما تضحك منك الآن وهى مستلقية على ظهرها فى العوامة ، ولعلها لم تغتسل بعد من عرق رجلها الذى سيضحك منك بدوره ، لا ينبغي أن يطلع الغد وفم يضحك منك ، اعترف بخورك واعرضه على مائدة الإخوان لتسمع قهقهاتهم . . اعذروه كبر وخرف . . اعذروه فقد جرب كل شيء إلا متعة القرون! زبيدة : أبيت أن تكون سيدا فى بيتى وارتضىيت أن تكون قوادا فى بيت عوادتى ، جلييلة : لست أخى ولا حتى أختى! إنى أشهد هذا الطريق الرهيب وهذا الظلام الكثيف وهذه الأشجار الهرمة على هرولتى فى الظلام باكياً كالطفل الغرير ، لا بت ليلتى حتى أرد الإهانة إلى الطاغية! وتمنعت عليك! لم؟ لأنها ضاقت بالحرام! الحرام الذى لم تغتسل منه ، قل إنها لم تعد تطيقك وكفى ، ما أفضع الألم ، ولكنه حق علىَّ وعبادة ، كمن ينطح الجدار حتى يهشم رأسه تكفيراً عن ذنب ، الشيخ متولى عبد الصمد يظن أنه يعرف أموراً كثيرة ، ألا ما أجهله! مر

بجسر الزمالك مرة أخرى إلى طريق إمبابة، وجعل يحث خطاه بعزم وعناد مصمما على غسل ما لطحه من خزي، وكلما ألح عليه الألم جد في السير ضاربا بعصاه الأرض كأنما يسير على ثلاث.

وبدت له العوامة يلوح من نافذتها الضوء فاشتد هياجه بيد أنه كان قد استعاد ثقته بنفسه وشعوره برجولته وكرامته واطمأن خاطره بعد أن استقر على رأى، وانحدر على السلم فمر فوق الجسر الخشبي ثم طرق الباب بطرف عصاه، وكرر ذلك بعنف، حتى جاءه الصوت متسائلا في انزعاج:

- من الطارق؟!

فأجاب بقوة:

- أنا..

انفتح الباب عن وجهها المتعجب، فأفسحت له وهي تغمغم «خيراً»، فمرق إلى حجرة الجلوس حتى توسطها ثم استدار ووقف ينظر إليها وهي تقترب منه متسائلة حتى وقفت حiale وراحت تتفحص وجهه المتجهم بقلق، قالت:

- خير إن شاء الله!! ما عاد بك؟!

فقال بهدوء مريب:

- خير والحمد لله كما ستعلمين..

جعلت تتساءل بعينها دون أن تتكلم، فاستطرد قائلا:

- جئت لأخبرك بالألا تتعلقى بما قلت، فإن الأمر كله لم يكن إلا دعاية سخيفة.

هبط جذعها هبوط الخيبة ونطق وجهها بالإنكار والحنق، ثم هتفت:
- دعاية سخيفة! كيف لا تفرق بين دعاية سخيفة وبين كلمة شرف ارتبطت بها؟

قال ووجهه يزداد اكفهرارا :

- يحسن بك وأنت تخاطبينى أن تلتزمى جد الأدب الواجب ، فإن
نساء من طبقتك يرتزقن فى بيتى خادما . .

صاحت وهى تحملق فى وجهه :

- هل رجعت لتسمعى هذا الكلام؟ لم لم تقله من قبل؟ لم وعدتنى
واستعطفتنى وتوددت إلى؟ أتحسب أن هذا الكلام يخيفنى؟ لم يعد
بى متسع للدعابات السخيفة .

لوح لها بيده غاضبا فأسكتها ، ثم هتف :

- جئت كى أقول لك إن الزواج من واحدة مثلك خزى لا يليق
بكرامتى ، وأنه لا يصلح أكثر من أن يكون دعابة يتندر بها هواة
الدعابات المخجلة ، وأنه ما دامت أمثال هذه الأفكار تدور برأسك
فأنت لم تعودى أهلا لمعاشرتى ، إذ لا يصح أن أعاشر المجانين . .

كانت تصغى إليه وشرر الغضب يتطاير من حدقتها ، بيد أنها لم
تستسلم لتيار الغضب كما تمنى ، ولعل منظر غضبه بث فى حناياها خوفا
وتقديرًا للعواقب ، فقالت بلهجة أخف من السابقة :

- لن أتزوجك بالقوة ، لقد كاشفتك بما يجول بخاطرى تاركة لك
الخيار ، الآن تريد أن تتحلل من وعدك ، لك ما تشاء ، ولا داعى
لسبى وإهانتى ، ليذهب كل منا إلى حال سبيله فى سلام . .

أهذا قصارى جهدها فى الحرص عليك؟! ألم تكن تكون أسعد حالا
لو - فى سبيل امتلاكك - أنشبت فيك الأظافر؟ استمد من أملك غضبا :
- سيذهب كل منا إلى حال سبيله ، غير أنى أردت أن أصارحك
برأى فىك قبل أن أذهب ، لا أنكر أنى سعت إليك بنفسى ، ربما
لأن النفس تولع أحيانا بالقاذورات ، فهجرت من كنت تسعدين
بخدمتهن كى أرفعك إلى هذه الحياة ، لذلك لا أدهش لأنى لم

أحظ عندك بما حظيت به عندهن من الحب والتقدير ، ذلك أن القدر لا يقدر إلا من كان على شاكلته ، وقد آن لى أن أربأ بنفسى عنك ، وأن أعود إلى حظيرتى الأولى . .

بدا فى وجهها القهر ، قهر من يحجزه الخوف عن التنفيس عن صدره المستعر ، وتمت بصوت مرتعش النبرات :

- مع السلامة ، اذهب ودعنى فى سلام . .

قال بحق وهو يكظم آلامه :

- لقد نزلت فهنت . .

هنا أفلت الزمام ، فصاحت به :

- حسبك ، كفاية ، ارحم الحشرة القذرة واحذرهما ، اذكر كيف كنت تقبل يدها والخشوع فى عينيك ، نزلت فهنت؟ . . هه؟ . . الحق أنك كبرت ، قبلتك على كبر وها أنا أتلقى الجزاء . .

لوح بعصاه وهو يصيح بغضب :

- اخرسى يا بنت الكلب ، اخرسى يا دون ، لى ثيابك وغادرى العوامة . .

فصاحت بدورها وهى ترفع رأسها فى تشنج :

- املاً أذنك بما أقول ، كلمة أخرى املاً عليك العوامة والنيل والطريق صوتا حتى تحضر الحكمدارية كلها ، سامع؟ . . لست لقمة سائغة ، أنا زنوبة والأجر على الله ، اذهب أنت ، هذه العوامة عوامتى وعقد إيجارها باسمى ، فاذهب بالسلامة قبل أن تذهب فى زفة . .

لبث قليلاً كالتردد ينظر إليها باحتقار وازدراء ، ولكنه عدل عن مغامرة قاسية تفاديا من الفضيحة ، ثم بصق على الأرض ومضى إلى الخارج فى خطوات واسعة ثابتة . .

ذهب من توه إلى الإخوان، فوجد محمد عفت وعلى عبد الرحيم وإبراهيم الفار وآخرين. شرب حتى سكر كعادته وتعدى عادته، وضحك كثيرا وأضحك كثيرا، ثم مضى فى الهزيع الأخير من الليل إلى بيته فنام نوما عميقا. واستقبل مع الصباح يوما هادئا، خلا فى أوله من الفكر، وكان كلما نزع به الخيال إلى منظر من مناظر حياته القريية أو الماضية صده بعزم، اللهم إلا منظرًا واحدًا رحب باستعادته عن طيب خاطر، ذلك هو المنظر الأخير الذى سجل انتصاره على المرأة وعلى نفسه معا، وراح يؤكد الأمر لنفسه فيقول: «انتهى كل شئ والحمد لله ولاكونن شديد الحذر فيما يقبل من أيام حياتى».

بدا اليوم هادئا فى مطلعته، فاستطاع أن يفكر فى فوزه المبين وأن يهنئ نفسه عليه، ولكن انقلب اليوم بعد ذلك خاملا بل خامدا، فلم يجد من تفسير لذلك إلا أنه رد الفعل للجهد العصبى المضنى الذى بذله فى اليومين الماضيين، بل فى الأشهر الماضية على تفاوت فى الدرجة، إذ الحق أن معاشرته لزنوبة بدت لعينه فى تلك اللحظة مأساة خاسرة من أولها لآخرها. لم يكن من الهين عليه أن يسلم بأول هزيمة تلحقه فى حياته الغرامية الطويلة، كان لذلك رجوع شديد الأثر فى قلبه وخياله، وكان يثور كلما همس له عقله بأن الشباب قد ولى، معتزا بقوته وجماله وحيويته، ثم يصبر على ذلك التعليل الذى جاهر به المرأة أمس وهو أنها لم تحبه لأن القدر لا يقدر إلا القدر! لشد ما تشوق طوال يومه إلى مجلس الإخوان، فلما دنا موعده نفذ صبره فمضى متعجلا إلى بيت

محمد عفت بالجمالية ، فاجتمع به قبل أن يتوافد الإخوان ، وسرعان ما قال له :

- انتهيت منها . .

فتساءل محمد عفت :

- زنوبة؟!!

فأوماً بالإيجاب ، فتساءل الآخر باسم :

- بهذه السرعة؟

ضحك كالساخر ، ثم قال :

- هل تصدقنى إذا قلت إنها طالبتنى بالزواج حتى ضقت بها؟!!

فضحك كالساخر ، ثم قال :

- زبيدة نفسها لم تفكر فى ذلك! يا للعجب! لكنها معذورة ، فقد

وجدتك تدللها أكثر مما تحلم به فطمعت فى المزيد . .

فغمغم السيد أحمد قائلاً باستهانة :

- مجنونة . .

فضحك محمد عفت مرة أخرى ، وقال :

- لعلها تهالكت فى حبك؟!!

يا لها من طعنة! اضحك بقدر ما تجد من ألم . .

- قلت إنها مجنونة وكفى . .

- وماذا فعلت؟

- صارحتها بأننى ذاهب إلى غير رجعة ، وذهبت . .

- كيف تلّقت ذلك؟

- سبت مرة ، وهددت أخرى ، وقالت فى داهية ثالثة ، ثم تركتها

كالمجنونة ، كانت غلطة من بادئ الأمر .

قال محمد عفت وهو يهز رأسه مقتنعا :

- نعم ، ما منا إلا من ضاجعها ، ولكن أحدا لم يفكر حتى فى مجرد معاشرتها . .

تصول وتجول فى ميادين الأسود ثم تهزم أمام فأرة ، أخف عارك حتى عن أقرب المقرين واحمد الله على أن كل شىء قد انتهى . .

لكن شيئا فى الواقع لم ينته ، لم تبرح مخيلته ، وصح لديه فيما تلا ذلك من أيام أن تفكيره فيها لم يكن مجردا ولكنه اقترن بألم عميق تزايد وتفسى ، وصح لديه أيضاً أن ذلك الألم لم يكن غضبا لكرامته فحسب ولكن كان ألم الحسرة والحنين ، وأنه فيما بدا عاطفة طاغية لا تقتنع بأقل من تدمير من يعانيها . بيد أنه كان شديد الاعتزاز بما سجل ساعة انتصاره ، فمنى نفسه بقهر مشاعره المستبدة الخائنة فى مهلة تطول أو تقصر . كيفما اتفق . ومهما يكن من أمر فقد غادره السلام فأمضى وقته متفكرا مجترا أحزانه معذباً بخيالاته وذكرياته . وكان يبلغ به الضعف أحيانا أن يفكر فى مصارحة محمد عفت بما ينوء به من آلام ، بل تمادى به الخاطر مرة إلى حد الاستعانة بزييدة نفسها ، ولكنها كانت فترات ضعف كنوبات الحمى ثم يفيق إلى نفسه وهو يهز رأسه متعجبا متحيرا .

وقد صبغت أزمته سلوكه العام بلون من القسوة قاومه ما استطاع بحمله وكياسته ، فلم يفلت منه الزمام إلا قليلا ، وهذا القليل لم يلحظه إلا الأصدقاء والمعارف الذين ألفوا منه الدماعة والتسامح والركة ، أما أهل بيته فلم يفتنوا إلى شىء ؛ لأن سلوكه حيالهم بقى هو هو لم يكد يتغير ، إذ إن الذى تغير حقا هو العاطفة المستترة وراءه فاستحالت من شدة مصطنعة إلى شدة حقيقية لم يدرك مداها سواه . على أنه هو نفسه لم ينج من قسوته هذه ، بل لعله كان هدفها الأول ، فيما حمل به على نفسه من تقريع وما عبرها به من مهانة ، وأخيرا بما أخذ يفر به رويدا رويدا من ذله وتعاسته وهجران شبابه ، ثم يعزى نفسه فيقول : لن

أتحرك، لن أسيم نفسى مزيدا من الذل، فلتدربى الأفكار كل مدار، ولتنقلب بى العواطف كل منقلب، ولأبقين حيث أنا لا يعلم بألمى إلا الله الغفور الرحيم. لكنه ما يدري إلا وهو يسائل نفسه: ترى ألا تزال فى العوامة أم تركتها؟ وإذا كانت بها، فهل ما يزال لديها بقية من ماله تغنيها عن الناس، أم يكون الرجل قد لحق بها هنالك؟ تساءل كثيرا وفى كل مرة يلقي عذابا ينفذ من روحه إلى لحمه وعظمه فيهصره هصرًا، لم يكن يجد شيئًا من القرار إلا عند استحضاره المنظر الأخير فى العوامة الذى أوهمها فيه - وتوهم - أنه نبذها وعلا عليها، ولكنه كان يستدعى مناظر أخرى سجلت ذله وضعفه، ومناظر غيرها سجلت ألوانا من السعادة لا تنسى! وخلق الخيال له مناظر جديدة التقيا فيها، فتشاجرا، وتحاسبا، وتعاتبا، ثم أدركهما سلام الصلح والوصال. . . حلم كثيرا ما يترأى له فى عالم الباطن الزاجر بما لا يحصى من ألوان الشقاء والسعادة، لم لا يتأكد بنفسه مما طرأ على العوامة وسكانها؟ فى الظلام يستطيع أن يسير هنالك دون أن يراه أحد. . .

وذهب متسترا بالظلام كاللص، فمر أمام العوامة ورأى النور بوصوص من خصائص النافذة، ولكنه لم يدر إن كانت هى التى تستضىء به أم ساكن جديد، بيد أن قلبه شعر بأن النور نورها هى دون غيرها، وخيل إليه وهو يتطلع إلى العوامة أنه يستشف روح صاحبته، وأنه ليس بينه وبين رؤيتها رؤية العين إلا أن يطرق الباب فيفتح عن وجهها كما كان يفتح فى الأيام الذاهبة، السعيد منها والتعيس على السواء، ولكن ما عسى أن يفعل لو طالعه وجه الرجل؟! حقا أنها قريبة ولكن ما أبعداها، وقد حرم عليه هذا المعبر إلى الأبد. آه. . . هل مرت به هذه الحالة فى حلم من الأحلام؟! قالت له اذهب، قالتها من قلبها ثم مضت فى سبيلها كأنه لم يعرض لها يوما وكأنها لا تشعر له بوجود! إذا كان الإنسان بهذه القسوة فكيف يتطلع إلى طلب الرحمة أو المغفرة!

وذهب مرات ومرات حتى صار التردد أمام العوامة بعد جثوم الليل
 عادة يمر بها قبل ذهابه إلى مجلس الإخوان، ولم يبد عليه أنه يريد أن
 يفعل شيئاً ذا بال، وكأنه كان يرضى بها حب استطلاع عقيم جنونى .
 وكان يهم بالعودة مرة إذا انفتح الباب وخرج شبح لم يتبينه فى الظلام
 فدق قلبه فى خوف ورجاء، ثم عبر الطريق مسرعاً ووقف فى جوار
 شجرة وعيناه تملقان فى الظلام. قطع الشبح المعبر الخشبى إلى الطريق
 ثم سار فى اتجاه جسر الزمالك، فوضح له أنه امرأة. . . وحدثه قلبه بأنها
 هى . وتبعها عن بعد وهو لا يدرى على أى وجه تنتهى الليلة . هى أو
 غيرها فماذا يقصد؟! غير أنه واصل سيره مركزاً انتباهه فى شبحها، ولما
 بلغت الجسر ودخلت فى مرمى مصابيحها توكد إحساس قلبه وأيقن أنها
 زنوبة، غير أنها كانت ملتفة فى الملاءة اللف التى تخلت عن ارتدائها
 طوال معاشرتها له . عجب لذلك وتساءل عن معناه فظن - ما أكثر
 ظنونه - وراءه أمرا . رآها تتجه إلى محطة ترام الجيزة وتنتظر، فسار
 محاذيا للحقول حتى جاوز الموضع قبالتها، ثم عبر إلى ناحيتها ووقف
 بعيدا عن مرمى بصرها . وجاء الترام فاستقلته، وعند ذاك هرول إليه
 فركب جاعلا مجلسه فى نهاية المقعد المطلة على السلم ليراقب النازلين،
 وعند كل محطة راح يتطلع إلى الطريق وقد زايله الإشفاق من اكتشاف
 أمره لأنه حتى إذا وقع فقد فاتها أن تعلم أنه كان يرصدها أمام العوامة
 متجسسا . نزلت فى العتبة الخضراء فنزل وراءها ورآها تتجه إلى
 الموسيقى مشيا على الأقدام فتبعها على بعد مرحبا بظلمة الطريق، ترى
 هل عاودت الاتصال بخالتها؟ أم تراها ماضية إلى السيد الجديد؟ ولكن
 ماذا دعاها إلى الذهاب إليه وعندها عوامة تنادى العاشقين؟! وبلغت
 حى الحسين فضاغف انتباهه أن تضيق منه فى زحمة الملاءات اللف . لم
 تستبن له غاية وراء هذه المطاردة الخفية، ولكن كان مدفوعا برغبة فى
 الاستطلاع أليمة وعقيمة وإن تكن فى نفس الوقت عنيفة لا تجدى

معها المقاومة . . سارت أمام الجامع فاتجهت إلى حارة الوطاويط حيث يقل المارة ويلبد الشحاذون المتعبون، ثم إلى الجمالية حتى مالت إلى قصر الشوق فتبعها مشفقاً من أن يلقاه ياسين في الطريق أو يراه من نافذة، فارتأى إن صادفه أن يزعم له أنه ذاهب لزيارة صديقه غنيم حميدو صاحب معصرة الزيوت وجار ياسين بقصر الشوق، وما يدرى إلا وهى تنعطف إلى أول حارة، تلك الحارة التى لم يكن بها من بيت إلا بيت ياسين، فدق قلبه بقوة وثقلت قدماء! كان يعرف سكان الدورين الأول والثانى، وهما أسرتان لا يمكن أن تربطهما بزوبة رابطة! وزاغ بصره قلقاً واضطراباً، غير أنه وجد نفسه يميل إلى العطفة غير مقدر للعواقب، فاتجه نحو الباب حتى ترمى إلى سمعه وقع الأقدام الصاعدة، ثم دخل بشر السلم رافعاً رأسه منصتاً إلى وقع الأقدام فشرع بمرورها بالباب الأول ثم الثانى، ثم وهى تطرق باب ياسين!

تسمر فى مكانه وهو يلهث، فدار رأسه وشعر بخور وتهدم، ثم تنهد من الأعماق وانتزع نفسه من موضعه راجعاً من حيث أتى وقد غاب الطريق عن عينيه فى زحمة الأفكار ورائطام الخواطر .

ياسين كان الرجل! فترى هل علمت زنوبة بعلاقته الأبوية بياسين؟! وراح يدفع الطمأنينة فى نفسه كما يدفع سداداً غليظاً فى فوهة ضيقة قائلاً: إنه لم يجر على لسانه ذكر لأحد أبنائه أمامها، فضلاً عن أنه من غير المعقول أن يكون واقفاً على سره، وأنه ليذكر كيف جاءه منذ أيام لينهى إليه طلاق مريم، فطالعه بوجه المذنب المرتبك ولكن فى براءة وإخلاص لا تشوبهما شائبة، وإنه ليفترض كل شىء إلا أن يقدم ياسين على خيانتة وهو عالم بما يفعل، بل من أين لياسين أن يعلم بأن أباه ذو صلة أو كان ذا صلة بأى امرأة فى الوجود، فله أن يطمئن من هذه الناحية، وحتى إذا كانت زنوبة قد عرفت علاقته بياسين، أو إذا عرفت أنها يوماً من الأيام، فلن تطلع ياسين على سر خليق بأن يقطع ما بينهما،

وواصل السير مؤجلاً الذهاب إلى الإخوان ريثما يسترد أنفاسه ويملك
جنانه فمضى فى اتجاه العتبة على تعبهِ وإعيائه .

أردت أن تعرف وها أنت قد عرفت ، ألم يكن الأفضل أن تنفض
يديك من الأمر كله قانعا بالصبر؟! احمد الله على أن الظروف لم
تجمعك ياسين وجها لوجه فى بؤرة الفضيحة ، كان ياسين هو الرجل ،
متى عرفته؟ وأين؟ وكم من مرة خائنه معه وهو لا يدري؟! أسئلة لن
تبحث لها عن جواب ، افترض إذا شئت أسوأ الفروض فلن يغير هذا من
الأمر شيئا ، وهل عرفها قبل أن يطلق مريم أم بعد الطلاق أم كانت
الشیطانة الباعث على الطلاق؟ أسئلة أخرى لن تعرف الجواب عنها ولن
تبحث عنه ، فافترض أسوأ الفروض أيضا إراحة لرأسك المصدوع ،
ياسين كان الرجل ! قال إنه طلقها لقلة أدبها! كلام كان يمكن أن يعلل به
طلاق زينب لو لم يطلع هو على السبب الحقيقى حال وقوعه ، سوف
تعرف الحقيقة يوما ، ولكن ماذا يهمك من أمرها؟ ألا زلت مشغوبا
بالجرى وراء الحقيقة؟! أنت مبعثر الرأس معذب القلب ، أيمكن أن تغار
من ياسين؟ كلا ليست هذه بالغيرة ، على العكس مما تظن أنت خليك
بالتعزى ، إذا لم يكن بد من أن يكون لك قاتل فليكن ابنك هو قاتلك ،
ياسين جزء منك ، جزء منك انهزم وجزء منك انتصر ، أنت المغلوب
وأنت الغالب ، ياسين قلب مغزى المعركة ، كنت تشرب كأسا مزاجها
الألم والهزيمة فصار مزاجها الألم والهزيمة والفوز والعزاء ، لن تتحسر
على زنوبة بعد اليوم ، غاليت فى الاعتداد بنفسك ، عاهد نفسك على
ألا تسقط الزمن من حسابك بعد الآن ، ليتك تستطيع أن توجه هذه
النصيحة إلى ياسين حتى لا يؤخذ على غرة إذا جاء دوره ، أنت سعيد ،
لا داعى للندم ، ينبغى أن تواجه الحياة بخطة جديدة وقلب جديد وعقل
جديد ، دع الراية فى يد ياسين ، وسوف تفيق من دوارك ويمضى كل
شئ وكأنه لم يكن ، لن يتاح لك أن تجعل من حوادث الأيام الأخيرة

حديثا يدار على مائدة الإخوان كسابق عهدك ، علّمتك هذه الأيام المخيفة أن تطوى الصدر على أمور كثيرة، آه . . ما أعظم تشوقى إلى الشراب!

أثبت السيد أحمد فى الأيام التالية أنه أقوى مما اعترضه من أحداث ، فسار فى طريقه قدما ، وقد ترامت إليه أنباء طلاق ياسين على حقيقتها من السيد على عبد الرحيم نقلا عن غنيم حميدو وآخرين ، وإن لم يتعرف الراوون على حقيقة المرأة التى نجم عن مغامرتها طلاق الزوجة . . وابتسم السيد ، وضحك طويلا من كل شىء ، وكان ماضيا إلى بيت محمد عفت - ذات مساء - حين شعر بثقل قبيح فى أعلى الظهر والرأس حتى لهث . لم يكن الأمر جديدا كل الجدة ، فقد جعل الصداع ينتابه كثيراً فى الأيام السابقة ولكنه لم يشتد عليه كهذه المرة ، ولما شكا حاله إلى محمد عفت أمر له بقدر من شراب الليمون المثلج ، وأمضى سهرته حتى نهايتها ، ولكنه استيقظ فى اليوم التالى أسوأ حالا من الأمس ، وبلغ به الضجر أن فكر فى استشارة الطبيب ، والواقع أنه لم يكن يفكر فى استشارة الطبيب إلا حين الضرورة القصوى .

٣١

تتطور الأشياء بالمناسبات كما تتطور الألفاظ بما يستجد من معان جديدة ، لم يكن قصر آل شداد فى حاجة جديدة كى يزداد فى عيني كمال جلالا ، ولكنه بدا فى ذلك المساء من ديسمبر فى زى جديد من أزياء الحياة . أريققت عليه الأنوار حتى غمرته . أجل : كان كل ركن من أركانه وكل موضع من جدارنه يتقلد عقدا من اللآلىء المضيئة . . مصابيح

كهربائية مختلفة الألوان تومض فوق رقعة جسده من أعلى السطح إلى أسفل الجدار، كذلك السور الكبير، والباب الضخم، كذلك أشجار الحديقة بدت كأنما استحالت أزهارها وثمارها أنوارا حمرا وخضرا وبيضا، ومن النوافذ جميعا انبعثت الأضواء، فكل شيء يهتف مؤذنا بالفرح، وعندما رأى كمال وهو مقبل ذلك المنظر آمن بأنه يحج إلى مملكة النور لأول مرة في حياته. وازدحم الطوار المواجه لمدخل البيت بالغلمان، وفرش المدخل برمل فاقع لونه كالذهب، وفتح الباب على مصراعيه، كذلك باب السلامك فلاح من داخله نجفة كبيرة في سقف البهو المعد لاستقبال المدعوين، على حين امتلأت الشرفة العليا الكبيرة بمجموعة وضيفة من الغيد في ثياب السهرة البهيجة. ووقف شداد بك وجماعة من رجال الأسرة في مدخل السلامك يستقبلون الوافدين، أما شرفة السلامك فقد ازدانت برجال أوركسترا عجيب ترامت أنغامه إلى حدود الصحراء.

ألقى كمال على المنظر كله نظرة شاملة سريعة، ثم تساءل: ترى عائدة في الشرفة العليا بين المطلات؟ وهل وقعت عيناها عليه وهو يقبل مع المقبلين بقامته الفارعة وزينته الكاملة والمعطف على ساعده يتقدمه رأسه الكبير وأنفه الشهير؟ لم يخل من إحساس بالارتباك وهو يجتاز الباب، ولكنه لم يتجه إلى السلامك كالآخرين، وإنما مال إلى «مره» القديم المفضى إلى الحديقة كما نبه حسين شداد من قبل كي يتاح لجماعتهم البقاء معاً أطول مدة ممكنة في الكشك المحبوب. كأنما كان يخوض بحرا من نور، وقد وجد السلامك الخلفى - كالأمامى - مفتوح الباب، مضاء بالأنوار، يعج بالمدعوين، كذلك الشرفة العليا معمورة بأسراب الحسان، أما في الكشك فلم يجد سوى إسماعيل لطيف في بدلة سوداء أنيقة أضفت على منظره العدواني هيئة لطيفة لم يره في مثلها من قبل ألقى إسماعيل عليه نظرة سريعة، ثم قال:

- بديع ، لكن لم أتيت بالمعطف؟ حسين لم يمكث معي إلا ربع ساعة ولكنه سيعود إلينا حين يفرغ من الاستقبالات ، أما حسن فقد لبث معي دقائق ولا أظنه سيتمكن من مجالستنا كما نود ، هذا يومه وله عنا أمور تغنيه ، كان حسين يفكر فى دعوة بعض الزملاء إلى هنا ولكنى منعتة فاكتفى بأن يدعوهم إلى مائدتنا ، سيكون لنا مائدة خاصة ، هذا أهم خبر أرفه إليك الليلة . .

هنالك ما هو أهم ، سوف أعجب من نفسى طويلا لقبولى هذه الدعوة ، لم قبلتها؟! لتبدو كأنك لا تبالى ، أم لأنك غدوت مغرما بالمغامرات المخيفة؟!

- هذا حسن ، ولكن لم لا نذهب ولو قليلا إلى البهو الكبير لنشاهد المدعوين؟

قال إسماعيل لطيف بازدرء :

- لن تحظى بما تريد حتى لو ذهبنا ، فإن الباشوات والبكوات خصوا بالبهو الأمامى وحدهم ، فإذا ذهبت فستجد نفسك بين الشباب من الأهل والأصدقاء فى البهو الخلفى وليس هذا ما تريد ، وددت لو أمكن أن نندس فى الحجرات العليا التى تموج بأفخر مُثل الجمال . .

مثال واحد يعينى ، مثال المثل ، الذى لم تقع عليه عيناي منذ يوم الاعتراف ، هتك سرى وذهب .

- لا أكتمك أنى مشوق إلى رؤية الكبراء ، قال حسين لى إن والده قد دعا كثيرين ممن أقرأ عنهم فى الصحف . .

ضحك إسماعيل ضحكة عالية ، وقال :

- أتحلم بأن ترى كبيراً وله أربع أعين أو ست أرجل؟! إنهم أناس مثلى ومثلك فضلا عن أنهم طاعنون فى السن وذوو منظر لا يسر

كثيرا، إنى أفهم سر تطلعك إليهم، ما هو إلا ذيل لاهتمامك المفرط بالسياسة . .

يجدر بى ألا أهتم بشيء ما فى هذه الدنيا، لم تعد لى ولم أعد لها، غير أن اهتمامى بالكبراء مستمد فى الحقيقة من هيامى بالعظمة، أنت تود أن تكون عظيما لا تنكر، ولك مؤهلاتك الواعدة من خلقة سقراط وآلام بتهوفن، أنت مدين بهذا التطلع للتى حرمتك النور بذهابها، غدا لن تجد لها أثر فى مصر كلها، يا جنون الألم إن لك لسكرة! . . قال بتشوف:

- قال لى حسين إن الحفلة ستجمع بين رجال من جميع الأحزاب . .
- صحيح، بالأمس دعا سعد الأحرار والوطنيين إلى حفلة الشاى المعروفة بالنادى السعدى، واليوم شداد بك يدعوهم إلى زفاف كريمته، رأيت من أصدقائك الوفدين، فتح الله بركات، وحمد الباسل، وجاء من الآخرين: ثروت، وإسماعيل صدقى، وعبد العزيز فهمى . شداد بك يعمل بهمة عالية، وحسنا فعل، لقد ولى عهد أفندينا، كان الشعب يهتف منشدا: «الله حى . . عباس جى»، ولكن الحقيقة أنه ذهب إلى غير رجعة فكان من الحكمة أن يعمل شداد بك للمستقبل حسابه، ويجب أن يسافر كل أعوام قلائل إلى سويسرا ليقدم إلى الخديو فروض طاعة كاذبة من باب الحيلة، ثم يعود ليوصل سيره الموفق . .

قلبك يمقت هذه الحكمة، إن محنة سعد بالأمس القريب أثبتت أن الوطن ملئ بهؤلاء الحكماء، ترى أشداد بك واحد منهم؟ والد المعبودة؟! مهلا، إن المعبودة نفسها نزلت من علياء السماء لتقترن بواحد من البشر، ليفتت قلبك حتى يعجزك لم أجزائه المتناثرة .
- تصور أن حفلة كهذه تمضى بلا مطرب ولا مطربة!

قال إسماعيل بلهجة ساخرة :

- آل شداد نصف باريسيين ، ينظرون إلى تقاليد الأفراح بازدراء غير قليل ، ولا يسمحون لعائلة بأن تحيي حفلة في بيتهم ولا يعترفون بمطرب من مطربينا ، ألا تذكر حديث حسين عن هذا الأوركسترا الذى أراه الليلة لأول مرة فى حياتى ؟ إنه يعزف مساء الأحد من كل أسبوع فى جروبي ، وسينتقل إلى البهو بعد العشاء ليطرب الكبراء ، دع هذا واعلم أن زينة الليلة هى العشاء والشمبانيا !

جليلة وصابر وزفاف عائشة وخديجة ؟ شتان بين الجوين ، كم كنت سعيدا فى تلك الأيام ! الليلة يشيع الأوركسترا حلمك إلى القبر ، أذكر الذى رأيت من ثقب الباب ؟ .. أسفى على الآلهة التى تتمرغ فى التراب !

- هذا شيء يهون ، الذى أسف عليه حقا وسأسف عليه طويلا هو أننى لم أتمكن من مشاهدة الكبراء عن كثب ، كنت أطلع إلى سماع حديثهم لأفهم أمرين هامين : أولهما الموقف السياسى على حقيقته وهل بات من المأمول حقا بعد الائتلاف أن يعود الدستور والحياة النيابية ؟ والثانى كلام هؤلاء الناس العادى الذى يتبادلونه فى مناسبة سعيدة كهذه ، أليس بديعا أن تصفى إلى ثروت باشا مثلاً وهو يثرثر ويمزح ؟ !

قال إسماعيل لطيف وهو يتظاهر بالاستهانة وإن غمت حركات الاستهانة نفسها عن مباهاة :

- أتيج لى أكثر من مرة أن أجلس مع أصدقاء أبى من أمثال سليم بك والد حسن وشداد بك ، أؤكد لك أنك لن تجد لديهم ما يستحق هذا الاهتمام ..

من أين جاء الفارق إذن بين ابن المستشار وابن التاجر ؟ ! كيف كان

جل حظ أحدهما أن يعبد المعبود على حين يتزوج الآخر منه؟! أليس هذا الزواج آية على أن هؤلاء القوم من طينة غير طينة البشر؟ . . لكنك لا تدري كيف يتكلم أبوك بين أصحابه وأقرانه!

- على أى حال سليم بك ليس من العظماء الذين أعنى . . !

ابتسم إسماعيل لهذه الملاحظة الأخيرة دون أن يعلق عليها . هذه الضحكات تجيء من الداخل مفعمة بالغبطة ، وأخرى تهبط من الشرفة العليا معبقة بشذا الأنوثة الساحر ، وبين هذه وتلك تجاوب كالذى بين أنغام الآلات المترامية من بعيد تستقبلها الأذن وحدة حيناً وطاقة من ألحان شتى حيناً آخر ، ثم تكون كلها - الضحكات والأنغام - إطاراً وردياً يبدو فيه القلب الحزين المترع بالوحشة كبطاقة سوداء فى طاقة ورد . .

وما لبث حسين شداد أن جاء متهللاً بقامته الفارعة ووجهه المتألق يختال فى الردنحوت ، فتح ذراعيه عندما اقترب ففعل كمال مثله - تعانقا بحرارة ، ثم لحق به حسن سليم فى بزته الرسمية ، جميلاً فى كبريائه الطبيعى الملفوف فى مظهره المؤدب المهذب وإن بدا إلى جانب حسين قصيراً صغيراً ، فتصافحا أيضاً بحرارة ، وهنأه كمال من أعماق لسانه . وقال إسماعيل لطيف بصراحته المعهودة التى لا تكاد فى أغلب الأحيان تتميز عن المكر السيئ :

- كمال آسف لأنه لم تتح له مجالسة ثروت باشا وصحبه !

فقال حسن سليم بمرح غريب أطاح بتحفظه المعهود :

- فلينظر حتى يسجل مؤلفاته المنتظرة ، وعندها يجد نفسه واحداً منهم! . .

أما حسين شداد فقال محتجاً :

- أهاوى ترمت أنت؟! إنما أريد أن تمر الليلة كلها ونحن مستمتعون بحريتنا الكاملة . .

وقبل أن يجلس حسين استأذن حسن سليم منصرفاً، إذ كان في الواقع كالفراشة لا يستقر بموضع . ومد حسين ساقه أمامه، وراح يقول :
- غدا يسافرون إلى بروكسل ، سبقاني إلى أوروبا، ولكن بقائي هنا لن يطول، وغدا تكون ملهاتي التنقل ما بين باريس وبروكسل . .

وتنتقل أنت ما بين النحاسين والغورية، بلا حبيب ولا صديق، هذا جزاء من يتطلع إلى السماء، ستردد بصرك بين أركان المدينة حائراً ولن تبرا عينك من لوعة الشوق، املاً رثيتك من هذا الهواء الذي تعبقه أنفاسها، غدا سوف ترثي لنفسك .

- يخيل إليّ أنى سألحق بك يوماً . .

تساءل حسين وإسماعيل معا :

- كيف؟

لنكن كذبتك ضخمة كالمك . .

- ثمة اتفاق بيني وبين أبي على أن أسافر في بعثة على حسابي الخاص بعد إتمام دراستي . .

هتف حسين بسرور :

- لو تحقق هذا الحلم!

أما إسماعيل فقال ضاحكاً :

- أخاف أن أجد نفسي وحيداً بعد بضع سنين!

تلاقت آلات الأوركسترا جميعاً في حركة متدفقة سريعة، أعلنت - فيما أعلنت - عما في كل آلة من مرونة وقوة، كأنما تشترك كلها في سباق عنيف بات الهدف منه في مرمى العين ومتناول الطموح، فسما بهما اللحن إلى ذروته العليا، تلك الذروة التي توحى بتداني الختام . انجذب وعيه إلى الأنغام المستعرة رغم استغراقه بالشجن، فانخرط في عدوها حتى تدافع دمه ولهتت منه الأنفاس، وسرعان ما داخلته رقة

وأسكرته أريحية جعلت من حزنه نشوة دامعة ، فتنهّد مع النهاية من الأعماق ، وتملأ أصداء اللحن المترنمة فى روحه بانفعال وتأثر ، فخيّل إليه أنه يتساءل : ألا يمكن أن تنتهى عواطفه المتأججة فى ذروتها إلى ختام كذلك ؟ ألا يمكن أن يكون للحب - كهذا اللحن وكلّ شىء - نهاية ؟ ! وذكر أحوالا مرت به فى أوقات نادرة ، فترأت من الفتور حتى بدا وكأنه لم يبق من عايده إلا اسمها ، أتذكر هذه الفترات ؟ وكان يهز رأسه حيرة ثم يتساءل : هل انتهى حقاً كل شىء ؟ وإذا بخيال يطوف أو فكرة تخطر أو منظر يرى فيستيقظ من غفوته ويلقى نفسه غريقاً فى بحر الهوى مكبلاً بأصفاد الأسر . جرب إذا حلّت بك فترة من هذه الفترات أن تقبض عليها بكل قواك وألا تدعها تفلت حتى يستقر بك الشقاء ، أجل حاول أن تفنى خلود الحب . قال حسين شداد باسم :

- بدأت الحفلة بتلاوة سورة على سبيل البركة !

القرآن ؟ ! ما ألطف هذا ! الباريسية الحسناء نفسها لا تستطيع أن تعقد قرانها إلا بمأذون وقرآن ! وهكذا سيقترن زواجهما فى ذهنك بالقرآن والشمبانيا .

- حدثنا عن نظام الحفلة ؟

قال حسين وهو يشير براحته إلى البيت :

- عما قليل يعقد القران ، وبعد ساعة يدعى الجميع إلى الموائد ، ثم ينتهى كل شىء ، وتبيت عايده هذه الليلة فى بيتنا لآخر مرة ثم تسافر مع الصباح إلى الإسكندرية لتستقل بعد غد الباخرة إلى أوروبا . .

ستضيق منك مناظر ما أخلقها بالتسجيل لتكون زادا لأملك الشره ، كرؤية اسمها الجميل وهو يكتب فى الوثيقة الشرعية ، ومنظر وجهها المتطلع إلى إعلان النبأ السعيد ، ولون الابتسامة التى يفرغ عنها ثغرها عند زفاف البشرى ، ثم منظر العروسين وهما يتلاقيان ، حتى أملك يعوزه الزاد . .

- وهل يعقد القران مأذون؟!

- طبعا!

هكذا أجاب حسين، أما إسماعيل فضحك ضحكة عالية، وقال:

- بل قسيس!

أى سخافة فى سؤالك! سل أيضا هل بيتان الليلة معا! أليس من المحزن أن يسد مجرى حياتك رجل لا شأن له كهذا المأذون؟ ولكن دودة حقيرة هى التى تأكل جدث أكبر الكبراء، فكيف ستكون جنازتك حين يحم القضاء؟ شىء هائل يملأ الطريق أم لمة تمضى؟.. وإذا بالصمت يشمل البيت حتى استحال نورا بلا تغاريد فشعر بخوف وانقباض. الآن، فى مكان ما لعلها هذه الحجرة أو تلك، ثم لعلت زغرودة طويلة مجلجلة أحييت ذكرى قديمة، زغرودة كتلك الزغاريد التى عرفها من قبل فلا تمت إلى باريس بسبب، ثم تبعها زغاريد مجتمعة كالصواريخ، لشد ما يبدو هذا القصر الليلة كأى بيت من بيوت القاهرة. وتابعت دقات قلبه الزغاريد حتى لهث، ثم سمع إسماعيل يهنى فهنا بدوره، وتمنى عند ذاك لو كان منفردا، ثم تعزى بأنه سينفرد بنفسه أياما وليالى فوعد ألمه بزاد لا يفنى. وانبعثت الأوركسترا تعزف مقطوعة يعرفها حق المعرفة هى «العفو يا سيد الملاح» فنادى قدرته الهائلة على التحمل والتصبر وإن كانت كل قطرة من دمه تطرق جدران عروقه مؤذنة بأن كل شىء قد انتهى، إن التاريخ نفسه قد انتهى، إن الحقيقة جميعا قد انتهت، إن الأحلام التى فوق الحياة قد انتهت، وإنه يواجه الصخر المدبب الأطراف ولا شىء غيره. قال حسين متأملا:

- كلمة ثم زغرودة ويدخل الواحد منا فى دنيا جديدة، سوف نعرف

ذلك كلنا يوما ما..:

فقال إسماعيل لطيف:

- سوف أباعد ما استطعت بيني وبين ذلك اليوم . .

كلنا؟! إما السماء وإما لا شيء!

- لن أذعن لذلك اليوم أبدا . .

بدا عليهما أنهما لم يكثرنا لقوله أو أنهما لم يحملاه على محمل
الجد، بيد أن إسماعيل عاد يقول:

- لن أتزوج حتى أقنع بأن الزواج ضرورة لا محيص عنها . .

وجاء نوبى حاملا أكواب الشرابات، ثم تبعه آخر بصينية محملة
بعلب الحلوى الفاخرة. علبة من البللور على قوائم أربع مذهبة، مموه
زجاجها الكحلى بزخارف فضية، وقد انعقد عليها شريط أخضر من
الحرير سجل على لافتة هلالية فى عقدته الحرفان الأولان لاسمى
العروسين «ع. ح». شعر وهو يتناول العلبة بارتياح لعله كان أول شعور
بالارتياح يحظى به فى ذلك اليوم. فقد وعدته العلبة الفاخرة بأن
معبودته سترك وراءها أثرا خالدا كحبها، وأن هذا الأثر سيبقى ما بقى
هو على الأرض رمزاً لماض غريب وحلم سعيد وفتنة سامية وخيبة
رائعة. ثم لفه شعور بأنه ضحية اعتداء منكر تأمر به عليه القدر وقانون
الوراثة ونظام الطبقات وعائدة وحسن سليم وقوة خفية غامضة لم يشأ
أن يسميها . . وتراءى له شخصه التعيس وهو يقف وحده أمام هذه
القوى مجتمعة وجرحه يتزف فلا يظفر بأسى، ولم يجد ما يرد به على
هذا الاعتداء إلا ثورة مكبوتة حرمت من الإفصاح، بل أجبرته الظروف
على التظاهر بالسروور كأنما يهنئ القوى الباغية على تنكيلها به ونبذه
خارج حدود البشرية السعيدة، فأضمر لها جميعاً حنقا خالدا ترك
للمستقبل أمر تكييفه وتوجيهه، أجل شعر بأنه لن يأخذ الحياة بعد تلك
الزغردة الفاصلة مأخذا سهلا أو يرضى فيها بالقرب أو يتسامح معها
تسامح الكرم والصفاء، وأن طريقه سيكون شاقا عسيرا ملتويا غاصا

بالمضض والغضاضة والألم، ولكنه لم يفكر فى التراجع . قبل الحرب وأبى الصلح، وأنذر وتوعد، غير أنه ترك للقدر اختيار الغريم الذى سينزله والوسيلة التى سيحارب بها . قال حسين شداد وهو يزدرد ريقه المشرب بالشربات:

- لا تعلن الثورة على الزواج، أعتقد- إذا أتيح لك أن تسافر كما تقول- أنك ستجد زوجة تعجبك . .

كأنك لم تجد التى تعجبك هنا، ابحث عن وطن جديد لا يتأذى جنسه اللطيف بمنظر الرءوس الشاذة، والأنوف الكبيرة، إما السماء وإما الموت . قال وهو يهز رأسه كالمقتنع:

- هذا رأى . .

فقال إسماعيل لطيف ساخرا:

- أتعرف ماذا يعنى الزواج من أوربية؟! إنه كلمة واحدة «الظفر» بامرأة من أحط طبقات الشعب، امرأة ترضى بأن تكون تحت رجل تشعر فى أعماقها بأنه عبد من العبيد .

حظيت بهذه العبودية فى وطنك الكريم لا فى أوربا التى لن تراها .

قال حسين مستنكراً:

- مغالاة!

- أنظر إلى المدرسين الإنجليز كيف يعاملوننا!

قال حسين شداد بحماس هو بالرجاء أشبه:

- الأوروبيون فى بلادهم غيرهم فى بلادنا!

هل من سبيل إلى قوة القاهرة تبيد الظلم والظالمين؟! يا رب العالمين أين عدالتك السماوية؟!

دعا الداعى إلى الموائد فمضى الأصدقاء الثلاثة إلى السلامك، ثم إلى حجرة جانبية تتفرع عن البهو الخلفى، فوجدوا مقصفاً صغيراً يتسع

لعشرة على الأقل ، ولحق بهم شبان بعضهم من أقرباء آل شداد والبعض من أصدقاء المدرسة ، ومع أن العدد دون الحد المقرر للمقصف وهو ما شكر عليه حسين من الأعماق ، إلا أنهم سرعان ما اندفعوا إلى الطعام بقوة وعنف حتى ساد الجو نشاط السابق ، وكان ينبغي لهم أن يتحركوا دواما ليظفروا بشتى ألوان الطعام التي امتدت صحافها على طول المائدة تفصل بين كل مجموعة منها وأخرى طاقة صغيرة من الورد ، ولوح حسين بإشارة من يده إلى السفرجى ، فجاء بقوارير الويسكى وزجاجات الصودا ، فهتف إسماعيل لطيف :

- أقسم أنى تفاءلت خيراً بهذه الإشارة من قبل أن أعرف مغزاها .

ومال حسين على أذن كمال قائلاً برجاء :

- كأساً واحدة من أجل خاطرى . .

وقالت له نفسه « اشرب » لا رغبة فى الشراب فإنه لم يعرفه ولكن رغبة فى الثورة ، بيد أن إيمانه كان أقوى من حزنه وتمرده ، قال مبتسماً :

- أما هذه فلا ، شكراً . .

قال إسماعيل لطيف وهو يرفع كأساً مترعة :

- لا حق لك فى هذا ، حتى الورع يبيع لنفسه السكر فى حفلات الزفاف . .

مضى يتناول طعامه الشهى فى هدوء ، وكان يراقب بين حين وآخر الآكلين والشاربين أو يشترك معهم فى الحديث والضحك . إن سعادة المرء تناسب تناسباً طردياً مع عدد مرات شهوده لمقاصف الأفراح ، ولكن هل مقصف الباشوات مثل مقصفنا ؟ ! نلتهم طعامهم ونحقق معهم ! شمبانيا ! . . هذه فرصة لتذوق الشمبانيا . . شمبانيا آل شداد ماذا قلتهم ؟ ! ما للأستاذ كمال لا يقرب الخمر ؟ لعله ملاً بطنه فلم تعد تتسع لمزيد ، الحق أنى أكل بشهوة لا تجارى ، كأنما أعصاب معدتى لا

تتأثر بالحزن أو أنها تتأثر به تأثراً عكسياً . . هكذا تغدبت في مآثم فهمي ،
امنعوا إسماعيل عن الأكل والشرب وإلا نفق ، موت المنفلوطى وسيد
درويش وضياح السودان أحداث كللت زماننا بالسواد ، لكن الائتلاف
وهذا المقصف من أنباء زماننا السارة ، أكلنا ثلاثة من الديكة الرومية وثمة
رابع لم يمسس بعد . . هو هذا ! رباه إنه يشير إلى أنفى فيضجون جميعاً
بالضحك ! إنهم سكارى فلا تغضب ! اضحك معهم متظاهراً بالاستهانة
والمرح ، أما قلبى فيتفض غضباً ، إن استطعت أن تغزو العالم فاغزه ، أما
آثار هذه الليلة البهيجة فهيها أن تنجو منها أبد الدهر ، وهاك اسم فؤاد
الحمزاوى تتناقله الألسن ، عن تفوقه ونبوغه يتحدثون فهل لذعتك
الغيرة ؟ سيكون حديثك عنه مدعاة لإكبارك ولو على نحو ما :

- كان طالباً مجداً منذ طفولته !

- أتعرفه ؟

أجاب حسين شداد عنه :

- والده موظف فى متجر والد كمال . .

فى قلبى ارتياح لعن الله القلوب . .

قال كمال :

- كان والده ولا يزال الرجل المجد الأمين .

- وما تجارة والدك ؟

كم أحيط «التاجر» فى خيالى بهالة الإكبار ، حتى قيل لك ابن تاجر
وابن مستشار :

- تاجر جملة للبقالة . .

الكذب أداة نجاة حقيرة ، انظر إليهم كى تستشف ما يدور وراء
أقنعة وجوههم ، ولكن أى رجل فى هذا البيت يضارع أباك جمالاً
وقوة ؟ !

وعقب الانصراف عن الموائد عادت الأكثرية إلى مجالسها فى البهو، وانطلق كثيرون إلى الحديقة يتمشون، فمر وقت هادئ خامل، ثم أخذ المدعوون فى الانصراف، أما الأهل فصعدوا إلى الدور الثانى ليقدموا التهانى إلى العروسين، وما لبث الأوركسترا أن انتقل إليهم ليعزف مختاراته الرائعة فى المجلس السعيد. ارتدى كمال معطفه وحمل علبة الحلوى الفاخرة ثم تأبط ذراع إسماعيل وغادر سراى آل شداد، قال إسماعيل وهو يلقي على صاحبه نظرة مخمورة:

- الساعة الحادية عشرة، ما رأيك فى أن نتمشى فى شارع السرايات حتى أفيق قليلا؟ فوافق كمال عن طيب خاطر؛ لأنه وجد فى المشى وقتل الوقت فرصة مواتية بيئها، سارا معا فى نفس الطريق الذى سار فيه من قبل إلى جانب عايده، يعترف لها بحبه ويبيئها آلامه. لن يغيب عن رأسه منظر هذا الطريق ذى القصور الجليلة الصامته، والأشجار الباسقة على جانبيه تطالع المساء بهدوء النفس المطمئنة وروعة الخيال السامى، ولن يفتأ قلبك كلما وطئته قدماك أو استدعاه خيالك يرعى باعنا بخفقات الحنين والوجد والألم كالشجرة المقلقلة بالرياح ترمى أوراقها وثمارها، ومهما يكن من فشل رحلتك القديمة على أديمه فلن يزال يدخر لك ذكرى حلم غابر وأمل ضائع وسعادة موهومة وحياة دافقة مترعة بالمشاعر هى على أسوأ التقديرات خير من راحة العدم ووحشة الهجر وخمود العاطفة، وهل أنت واجد فى مستقبلك زادا للقلب إلا أماكن تتطلع إليها بعين الخيال وأسماء تمد لها أذان الشوق؟! تساءل كمال:

- ترى ماذا يحدث الآن فى الدور الأعلى؟

فأجاب إسماعيل بصوت مرتفع أزعج الصمت الجاثم:

- أوركسترا يعزف مقطوعات غربية، العروسان فوق المنصة يبسمان وحولهما آل شداد وآل سليم، رأيت مثل هذا الجمع مرات عديدة..

عايدة فى ثياب العرس! يا له من منظر! هل رأيت شيئاً كهذا ولو فيما يرى النائم؟!

- وإلام يمتد الحفل؟

- ساعة على الأكثر كى يتمكن العروسان من النوم ما داماً سيسافران فى الصباح إلى الإسكندرية .

كلمات كالخناجر، اغرز منها ما تشاء فى قلبك . .
غير أن إسماعيل عاد يقول متسائلاً:

- ولكن متى عرفت لىالى الزفاف النوم؟!

وضحك ضحكة عالية معربة، ثم تجشأ ونفخ أبخرة الخمر وهو يقطب متأففاً ثم ييسط صفحة وجهه، وقال:

- ربنا لا يحكم عليك بنوم العشاق، لا نوم لهم يا عينى، لا يغرنك تحفظ حسن سليم، سيصول ويجول كالبحول حتى مطلع الصبح، هذا قضاء لا نجاه منه . .

تذوق هذا النوع الجديد من الأم المقطر، روح الألم أو ألم الألم، ليكن عزائك أنك انفردت بألم لم يشعر به إنسان قبلك، وأنه سيهون عليك الجحيم إذا قدر عليك يوماً أن تملك الزبانية وترقص بك فوق ألسنة لهيبه، ألم!! لا لفقد الحبيب فإنك ما طمحت يوماً فى امتلاكه، ولكن لتزوله من علياء سمائه، لتمرغه فى الوحل بعد حياة عريضة فوق السحاب . . لأنه رضى لخدمته أن يقبل، ودمه أن يسفح! ولجسده أن يبتذل . ما أشد حسرتى وألمى!

- أحق ما يقال عن ليلة الدخلة؟

هتف إسماعيل:

- أتجهل بالله هذه الأمور؟

كيف يقدسون الدنس؟

- لا أجهلها طبعاً، كنت حتى زمن قريب لا أدري عنها شيئاً، وثمة أمور أود أن تعاد على مسمعى . .

قال إسماعيل ضاحكاً:

- إنك تبدو لى أحياناً أحق أو أبله . .

- دعنى أسألك، أيهون عليك أن يفعل هذا بشخص تقدسه؟

تجشأ مرة ثانية حتى تطايرت رائحة الخمر اللعينة إلى أنف كمال، وقال:

- لا يوجد شخص يستحق أن يقدر . .

- ابتك مثلاً، لو كان لك ابنة . . ؟

- لا ابنتى ولا أمى، كيف جئنا نحن؟ هذا هو قانون الطبيعة . .

نحن! الحقيقة نور لألاء، فغض الطرف، وراء ستار القداسة الذى سجدت أمامه طيلة حياتك يعبثان كالأطفال، ما لكل شىء يبدو خاوياً! الأم . . الأب . . عايده، كذلك ضريح الحسين . . مهنة التجارة . . أرستقراطية شداد بك، يا لشدة الألم!

- ما أقدر قانون الطبيعة!

تجشأ إسماعيل للمرة الثالثة، وقال وقد غم صوته عن الضحك وإن لم يسمع له ضحك:

- الحقيقة أن قلبك موجه، إنه يغنى مع المطربة الجديدة أم كلثوم «أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعا» . .

كمال فى انزعاج:

- ماذا تعنى؟

فقال إسماعيل بلهجة تعمد أن تشى بسكره أكثر من الواقع:

- أعنى أنك تحب عايده!

رباه! كيف افتضح سره؟

- أنت سكران!

- هي الحقيقة والجميع يعرفونها!

هتف وهو يحملق صوبه فى الظلام:

- ماذا تقول؟

- أقول إنها الحقيقة، والجميع يعرفونها.

- الجميع؟! من هم؟! من افترى هذا على؟

- عايده!

- عايده؟

- عايده هي التي أذاعت شرك . .

- عايده؟! لا أصدق هذا، أنت سكران.

- نعم أنا سكران ولكن هذه هي الحقيقة أيضا، من فضائل السكران

أنه لا يكذب . . (ثم بعد ضحكة رقيقة) . . هل أغضبك هذا؟

عايده كما تعلم شابة لطيفة، حالما لفتت الأنظار سرا إلى عينيك

المغرمتين وأنت لا تدري، لا بدافع السخرية ولكن لأنها تتيه دلالات

بالمغرمين، وقد كاشفت حسن أول الأمر فوجه حسن نظرى إليك

مرات، ثم أفضى بالسر إلى حسين، بل علمت أن سنية هانم

سمعت عن العاشق الولهان كما كانوا يدعونك! وغير مستبعد أن

يكون الخدم قد استرقوا السمع إلى ما دار عنك بين سادتهم، فالكل

يعرف قصة العاشق الولهان . .

شعر بخور، وخيل إليه أن الأقدام المتحركة تطأ كرامته بقسوة، فانطبقت

شفته على حزن مرير، أهكذا يبعثر السر المصون؟ وعاد الآخر يقول:

- لا تتأثر، كان الأمر كله دعاية بريئة صدرت عن قلوب تكن لك

الود، حتى عايده لم تذع شرك إلا بدافع المباهاة!

- توهمت فانخدعت!

فقال إسماعيل ضاحكا:

- إنكار حبك عبث كإنكار الشمس فى رابعة النهار!

صمت كمال صمّتا مليّتا بالشجن والاستسلام، وفجأة تساءل:

- ماذا قال حسين؟

ارتفع صوت إسماعيل وهو يقول:

- حسين؟! إنه صديقك الأمين، طالما أعلن عن عدم ارتياحه

لأسلوب أخته البرىء، وكان يجيئها منها بمزايك!

تنهد فى ارتياح. إذا كان فى الحب قد خاب أمله، فقد بقيت له

الصدّاقة، آه، كيف يسعه أن يدخل سراى آل شداد بعد الليلة؟!

وقال إسماعيل بلهجة جدية كأنما يشجع صاحبه على مواجهة

الموقف:

- كانت عايذة فى حكم المخطوبة لحسن من قبل إعلان الخطوبة

بأعوام، ثم إنها أكبر منك سنا، وهذه العواطف تنسى عقب النوم،

فلا تهتم ولا تحزن.

هذه العواطف تنسى! تساءل باهتمام غير خاف:

- أكانت تسخر منى وهى تنوء بهذا الغرام المزعوم؟

- كلا، قلت لك إنها تسعد بالحديث عن عشاقها!

كانت معبودتك إلها قاسيا ساخرا ينشرح صدره للهزاء بعابديه،

أتذكر يوم مثلت برأسك وأنفك؟ ما أشبهها بقانون الطبيعة فى قوته

وقسوته، كيف هرعت بعد ذلك متهللة إلى ليلة الدخلة كآى فتاة؟! أما

أمك فشيمتها الحياء كأنما تشعر بذنبها!

وكانا قد توغلا فى الطريق فاستدارا راجعين فى صمت كأنما قد تعبّا

من الحديث وشجونه، وما لبث إسماعيل أن اندفع يغنى بصوت ردىء

«يا ما شاء الله ع التحفجية»، ولكن الآخر لم يخرج عن صمته فضلا عن أنه لم يبد عليه أنه انتبه إلى غناؤه، ما أحجله! أحدىثة كان، وكأنه بأهل البيت والأصدقاء والخدم وهم يتغامزون من وراء ظهره وهو عنهم غافل، معاملة فظة لا يستحقها، فهل يكون هذا جزاء الحب والعبادة؟! ما أقسى العبادة وما أظفح الألم! لعل نيرون عندما غنى وروما تحترق كان ينتقم لحال كحاله هذه. كن قائدا غازيا يختال على متين جواد، أو زعيما يحمل على الأعناق، أو تمثالا من صلب فوق سارية، أو ساحرا يتصور فى أى صورة شاء، أو ملاكا يطير فوق السحاب، أو راهبا منزويا فى صحراء، أو مجرما خطيرا يزلزل الأمنين، أو مهرجا يأسر الضاحكين، أو متحررا يهز الرائيين. لو علم فؤاد الحمزاوى بقصته لقال له وهو يوارى سخريته تحت طلاء أدبه المعهود: الحق عليك، فأنت الذى هجرتنا من أجل هؤلاء الناس، احتقرت قمر ونرجس فذق هجر الآلهة. السماء أو لا شىء هذا هو جوابى. فلتزوج كما تحب، وتذهب إلى بروكسل أو باريس، وليتقدم بها العمر حتى يذوى عودها الريان، فلن تظفر بحب كحبنى. لا تنسى هذا الطريق ففوق أديمه سكرت بخلب الآمال ثم تجرعت غصص اليأس، لم أعد من سكان هذا الكوكب، غريب أنا وينبغى أن أحيا حياة الغرباء.

عندما مرا بسراى آل شداد فى طريق العودة وجدا العمال عاكفين على نزع الزينات وأسلاك المصابيح الكهربائية من فوق الجدران والأشجار، فتجرد البيت الكبير من حلية الزفاف واشتمل بالظلام، إلا حجرات ظل النور ينبعث من شرفاتها ونوافذها. انتهى الحفل وتفرق الجمع وأذن الحال بأن لكل شىء نهاية، وها هو يعود حاملا علبة الحلوى كأنه طفل يلهى عن البكاء يبضع قطع من الشيكولاتة، وواصل السير على مهل حتى بلغا مطلع الحسينية، فتصافحا، وافترقا.

لم يكد كمال يتقدم فى شارع الحسينية أمتارا حتى توقف ، ثم انقلب عائدا إلى العباسية التى بدت مقفرة مغرقة فى النوم ، وحث خطاه صوب سراى آل شداد ، وعندما شارف البيت مال يمنا إلى الصحراء التى تكتنفه وأوغل فيها حتى بلغ موضعا فيما وراء السور الخلفى للحديقة يطل على السراى على بعد ، وكان الظلام كثيفا شاملا يطمئن الرقباء ستائره ، ولأول مرة فى ليلته شعر بالبرودة فى ذلك الخلاء العارى ، فحبك المعطف حول جسده النحيل الطويل . . تراءى له شبح البيت وراء سوره العالى كالقلعة الضخمة ، فجالت عيناه باحثة عن هدف غال حتى استقرتا على نافذة مغلقة يوصوص النور من خلال خصاصها فى أقصى الجناح الأيمن من الدور الثانى ، تلك غرفة العرس ، الغرفة الوحيدة اليقظى فى هذا الجانب من القصر ، كانت بالأمس حجرة نوم عايدة وبدور ، وازينت الليلة لشهود أعجب ما جرت به المقادير . تطلع إليها طويلا ، أول الأمر بلهفة كأنه طائر مقصوص الجناح يتطلع إلى عشه فوق الشجرة ، ثم بحزن عميق كأنما يرى بعينه مصرعه فيما وراء الغيب ، ماذا يدور وراء هذه النافذة؟ . . لو يتاح له أن يتسلق هذه الشجرة فى الحديقة ليرى ! إن البقية الباقية من عمره ثمن زهيد يؤديه عن طيب خاطر لقاء نظرة خلال هذه النافذة ، وهل قليل أن ترى المعبود فى خلوة زفافه؟ كيف يقيمان؟ وكيف تلتقى العينان؟ وبأى حديث يتناجيان؟ وفى أى مكان من الدنيا ينزوى الآن كبرياء عايدة؟ ! إنه يتحرق شغفا إلى الرؤية وإلى تسجيل كل كلمة تند أو حركة تصدر أو أمانة تنطق بها أسارير الوجه ، بل إلى خطرات النفس وتصورات الخيال ونفثات العاطفة وفورات الغرائز . . كل شيء ولو كان بشعا مرعبا أو محزنا مؤلما ، ولتذهب الحياة بعد ذلك دون أسف ، ولبت بمكانه والوقت يمضى لا هو يبرح ولا النور ينطفئ ولا خياله يمل التساؤل . ماذا كان يفعل لو كان فى مكان حسن سليم؟ ودوخته الحيرة دون الجواب ، إن العبادة لن تغنى عن هذه الليلة

شيئا، وخلا العبادة من مطالب النفس لم يتوجه إلى عابدة، أما حسن سليم فمن طائفة لا تتقيد بالعبادة. هكذا يتعذب فى الصحراء وهناك تبادل قبل مما عهدته الناس وتنهذات تنصب عرقاً وغيوبة تنز دما وغلالة تنحسر عن جسد فان، كهذا العالم الفانى وآماله الخاوية وأحلامه الطائشة. . . فابك ما بدا لك على هوان الآلهة، وليمتلى قلبك بالمأساة، ولكن أين يمضى الشعور الباهر الرائع الذى نور قلبه أربعة أعوام؟ لم يكن وهما ولا صدى لوهم، إنه حياة الحياة، ولئن تسيطر الظروف على الجسد فأى قوة تستطيع أن تتناول إلى الروح، وهكذا لتبقين المعبودة معبودته، والحب عذابه وملاذه، والحيرة ملهاته، حتى يقف أمام الخالق يوما يسأله عما حيره من معضلات الأمور، أه لو يطلع على ما وراء النافذة، لو يكشف سر أسرار وجوده؟ . . وكان البرد يقرصه أحيانا فيذكره بموقفه وبالوقت الذى يمر سادرا، ولكن فيم يتعجل العودة؟ . . أيطمع حقا أن يطرق النوم جفونه هذه الليلة؟!

٣٢

وقف الحنطور أمام دكان أحمد عبد الجواد، وقد لطن عجلاته الوحل المتراكم فى شارع النحاسين والمياه المتجمعة فى فجواته، فغادره السيد محمد عفت فى جبة صوفية، ودخل الدكان وهو يقول باسماء: - جنناك بحنطور، وكان الأسلم أن نجيئك بقارب. . .

وكانت الأمطار قد أنهملت يوما ونصف يوم حتى سالت الأرض وغرقت الحواري والأزقة، ومع أن السماء أمسكت - بعد ذلك - إلا أن

تجهمها لم ينكشف، وظل وجهها متواريا وراء سحاب جون أظل الأرض بمظلة قائمة بعثت في الجو عكارة كأنها نذير ليل بهيم . واستقبل أحمد عبد الجواد صاحبه بترحاب ودعاه إلى الجلوس، وما كاد محمد عفت يطمئن إلى مجلسه عند ركن المكتب حتى قال كأنما ليجلو سر مجيئه :

- لا تعجب لمجيئي في هذا الجو رغم أننا سنلتقى في مجلسنا المعتاد بعد ساعات، ولكنني اشتقت إلى الانفراد بك!

وضحك محمد عفت، كأنما ليعتذر عن غرابة قوله، فضحك السيد أيضا، ولكنها كانت ضحكة إلى التساؤل أقرب. وذهب جميل الحمزاوى وكان ملتفعا بكوفية ضمت قمة رأسه وما تحت ذقنه - إلى الباب، فنادى صبي قهوة فلاوون ليحضر قهوة، ثم عاد إلى كرسيه وقد أعفاه المطر والبرد من العمل، أما السيد أحمد فقد حدثه قلبه بأن وراء الزيارة أمرا، فقد وقعت في وقت لا تدفع إليه إلا ضرورة، إلى أن الأزمات النفسية التي عاناها الرجل منذ قريب وما انتابه من مرض أخيرا، كل أولئك جعله عرضة للقلق على غير عادته، غير أنه دارى قلقه بضحكة لطيفة، ثم قال :

- كنت قبيل حضورك أتذكر سهرة الأمس وأستعيد منظر الفار وهو يرقص! الله يقطعه .

فقال محمد عفت باسم :

- كلنا تلاميذك! وبهذه المناسبة دعني أنقل إليك ما يشيعه على عبد الرحيم عنك، إنه يقول إن الصداق الذي انتابك في الأسابيع الماضية ما هو إلا عارض لخلو حياتك من النساء في الأيام الأخيرة!

- لخلو حياتي من النساء! وهل للصداق من سبب غير النساء؟!

وجاء صبي القهوة بأقداح القهوة والماء على صينية صفراء، فوضعها على ركن المكتب الذي يجلس حوله الصديقان، ومضى، وشرب محمد عفت شربة ماء، ثم قال :

- شرب الماء البارد فى الشتاء لذيذ، ما رأيك فى هذا؟ لكن فيم سؤالى وأنت من عشاق الشتاء الذين يستحمون كل صباح بالماء البارد حتى فى هذه الأيام من فبراير . . الآن خبرنى، هل أعجبتك أنباء المؤتمر الوطنى الذى احتشد فى بيت محمد محمود؟ عشنا وشفنا مرة أخرى سعد وعدلى وثروت فى جبهة واحدة! فتمتم السيد قائلًا :

- ربنا من حكمته أنه يقبل التوبة . .

- إنى لا اثق فى هؤلاء الكلاب . .

- ولا أنا، ولكن ما العمل؟ الملك فؤاد طيئها، ومن المحزن أن المعركة لم تعد بيننا وبين الإنجليز .

ثم مضى يحتسيان القهوة فى صمت إن دل على شىء فعلى أن الحديث العابر لم يعد له محل، وأن على محمد عفت أن يدلى بما عنده. واعتدل الرجل فى جلسته، وخاطب السيد بلهجة جدية متسائلًا :

- أعندك أخبار عن ياسين؟

انعكس السؤال فى عيني السيد الواسعتين اهتماما مشوبا بقلق، وفى الوقت ذاته خفق قلبه خفقة مروعة، قال :

- خير! إنه يزورنى من حين لآخر، وكانت زيارته الأخيرة يوم الاثنين الماضى فهل من جديد؟ أمر يتعلق بمريم؟ لقد رحلت إلى جهة مجهولة، وعلمت أخيرا أن بيومى الشربتلى اشترى نصيبها فى بيت أمها .

قال محمد عفت وهو يتكلف ابتسامة :

- الأمر لا يتعلق بمريم، من يدري لعلها غابت عن ذاكرته، المسألة دون لف أو دوران زواج جديد.

فخفق قلبه مرة أخرى فيما يشبه الفزع وهو يقول:

- زواج جديد؟! ولكنه لم يشر إلى ذلك بتاتا في أحاديثه معي!

هز محمد عفت رأسه أسفا، وقال:

- لقد تزوج بالفعل من شهر أو أكثر، حدثني بذلك غنيم حميدو منذ

ساعة فقط، وكان يظن أنك تعلم كل شيء!

جعلت يسراه تعبت بشاربه بسرعة عصبية، ثم قال وكأنه يخاطب

نفسه:

- لهذا الحد! كيف أصدق هذا؟! كيف أخفى عن الأمر؟!

- الحال تقتضى الكتمان! أصغ إليّ، لقد أثرت أن أكاشفك بالحقيقة

قبل أن تفاجأ بها مفاجأة غير كريمة، ولكن لا يصح أن نعيها أكثر

مما تستحق، وينبغي قبل كل شيء ألا تستسلم للغضب، لم يعد

الغضب مما تحتمله، اذكر تعبك الأخير وارحم نفسك.

قال السيد يائسا:

- فى الأمر فضيحة؟! هذا ما حدثني به قلبى، هات ما عندك يا سيد

محمد..

هز محمد عفت رأسه أسفا، ثم قال بصوت منخفض:

- كن دائما أحمد عبد الجواد الذى عهدناه، لقد تزوج من زنوبة

العوادة!

- زنوبة!

وتبادلا نظرة ذات دلالة، وسرعان ما بدا الارتباك فى وجه أحمد

والإشفاق فى وجه صاحبه، ثم لم تعد مسألة الزواج ذاتها بالأولى فى

الأهمية، فتساءل السيد أحمد بلهجة لاهثة:

- ترى هل تعلم زنوبة بأنه ابني؟!

- لا يداخلني في هذا شك ، غير أنى أكاد أوقن بأنها لم تطلعه على
سرك لتتمكن من إيقاعه في الشرك ، وقد نجحت نجاحا تستحق
عليه كل تهنته!

ولكن أحمد عبد الجواد عاد يتساءل بنفس اللهجة اللاهثة :

- أم تراه أخفى عني الأمر لعلمه بما كان ؟

- كلا ، لا أصدق هذا ، لو سبق هذا إلى علمه ما أقدم على الزواج
منها ، إنه شاب طائش ما في ذلك من ريب ، ولكنه ليس ندلا ، وإذا
كان قد أخفى عنك الأمر ، فما ذلك إلا لأنه لم يجد الشجاعة
ليصارحك بأنه تزوج من عوادة! يا ويل الآباء من الأبناء الطائشين ،
الحق أننى تأملت كثيرا ، ولكنى أكرر الرجاء ألا تستسلم للغضب ،
ذنبه على جنبه ، وأنت برىء من فعلته ولا لوم عليك .

تنهد أحمد عبد الجواد بصوت مسموع ، ثم سأل صاحبه :

- خبرنى كيف علّق غنيم حميدو على الخبر ؟

فلوَحَّ محمد عفت بيده مستهينا ، وقال :

- سألتنى : كيف يرضى السيد أحمد عن هذا ؟ فقلت له : إن الرجل لا
يعلم شيئا . فتأسف وقال لى : انظر إلى المدى البعيد بين الأب
وابنه ! كان الله فى عونهِ .

قال أحمد بلهجة رائية :

- أهذه عاقبة تربيته لهم؟ إنى فى حيرة شديدة يا سيد محمد ، المصيبة
أننا نفتقد السيطرة الفعلية عليهم فى الوقت الذى تستوجب
مصلحتهم الحقيقية سيطرتنا ، إنهم بحكم العمر يتحملون مسئولية
أنفسهم ، ولكنهم يسيئون استعمالها دون أن نستطيع تقويم ما يعوج
منهم ، نحن رجال ولكننا لم نلد رجالا ، من أين جاء العيب

يا ترى؟ هذا الشور! امرأة فى متناول كل يد فماذا دعاه إلى الزواج منها؟! فلنبك على أنفسنا، لا حول ولا قوة إلا بالله.

وضع محمد عفت يده على منكب صاحبه بخنو، وقال :

- لقد أدينا ما علينا من واجب، الأمر بعد ذلك لصاحب الأمر، وهيهات أن يراك أحد مستحقا للوم.

عند ذاك جاء صوت الحمزاوى الأسيف وهو يقول :

- لا يستطيع منصف أن يلومك على أمر كهذا يا سى السيد، على أنه يخیل إلى أن الأمل فى الإصلاح لم يندم، انصححه يا سى السيد.

- إنه يبدو بين يديك طفلا مطيعا، وهو سيطلقها حتما غدا أو بعد غد فخیر البر عاجله . .

فتساءل السيد متشكيا :

- وإن كانت قد حبلى ؟

فجاء صوت الحمزاوى وهو يقول جزعا :

- لا قدر الله ولا سمح . .

وبدا أن عند محمد عفت مزيدا من القول، فنظر إلى صاحبه بإشفاق، ثم قال :

- ومن المؤسف حقا أنه باع دكانه بالحمزاوى ليؤث بيته من جديد!

حملق أحمد فى وجهه، ثم قطب منفعلا، وهتف حائقا :

- كأنى غير موجود فى هذه الدنيا! . . حتى فى هذا لا يشاورنى!

ثم وهو يضرب كفا بكف :

- ضحكوا عليه بلا ريب، وجدوا فى طريقهم لقية، بغلا بلا سائس فى ثياب أفندى . .

فقال محمد عفت متأثراً:

- تصرفات أطفال! .. نسي أباه ونسى ابنه! ولكن ما الفائدة من الغضب؟!

صاح أحمد عبد الجواد:

- يخيل إلي أنه ينبغي أن آخذه بالحزم مهما تكن العواقب ..

مد محمد عفت ذراعيه كأنما يدفع رزية، وقال بتوسل:

- إن كبر ابنك أخه، لا تخطئ وأنت سيد العارفين، ليس عليك إلا النصيحة وليقض الله بما هو قاض ..

وخفض محمد عفت عينيه متفكراً، وبدأ لحظات كالتردد، ثم قال:

- ثمة أمر يهمني كما يهملك ألا وهو رضوان!

وتبادل الرجلان نظرة طويلة، ثم استطرده محمد عفت قائلاً:

- سيبلغ الغلام السابعة من عمره بعد أشهر، وأخاف أن يطالب به فينشأ بين أحضان زنوبة، هذا شر يجب دفعه، ولا إخالك توافق عليه، فأقنعه بأن يترك الغلام عندنا حتى يقضى الله أمراً ..

لم يكن من طبع أحمد عبد الجواد أن يرحب بأن يبقى ابن ابنه عند آل أمه بعد انقضاء فترة الحضانة الشرعية، ولكنه من ناحية أخرى لم يشأ أن يقترح ضمه إلى بيته هو حتى لا يضيف إلى أعباء أمينة عبثاً جديداً لم تعد بحكم سنها أهلاً لحمله، فقال في استسلام أسيف:

- لا يصح أن يتربى رضوان في بيت زنوبة هذا ما أقرك عليه ..

فقال محمد عفت وهو يتنهَّد بارتياح:

- إن جدته تحبه من كل قلبها، وحتى لو دعت ظروف قهرية في المستقبل إلى أن ينتقل إلى بيت أمه فسوف يجد هناك جواً صالحاً، إذ إن زوج أمه رجل في الأربعين أو جاوزها، وقد حرمه الله من نعمة الذرية ..

فقال أحمد عبد الجواد برجاء :

- لكننى أفضل أن يبقى عندك . .

- طبعاً . . طبعاً ، إنى تكلمت عن احتمالات بعيدة أسأل الله ألا
نضطر إليها ، الآن لم يبق لى إلا أن أرجوك أن تترفق فى مخاطبته
ومحاسبته حتى يتيسر إقناعه بترك رضوان لى . .

وهنا جاء صوت الحمزاوى المسالم وهو يقول :

- السيد أحمد سيد الحكماء ، وهل يغيب عنه أن ياسين رجل ؟ وأنه
مثل كافة الرجال حر التصرف فى شئونه وأملاكه ؟ هذا ما لا يمكن
أن يغيب عن السيد ، وما عليه إلا النصيحة ، والباقى على الله . .

استسلم أحمد عبد الجواد بقية النهار إلى التفكير والحزن . قال
لنفسه : إن ياسين فى كلمة ابن مخيب للآمال ، وليس أفجع من ابن
مخيب للآمال ، إن مآله بين ويا للأسف ! ولن يحتاج إلى قوة بصيرة كى
يتصوره ، أجل سوف ينحدر من سبى إلى أسوأ وعند الله اللطف . وقد
رجاه جميل الحمزاوى أن يؤجل مخاطبة ياسين إلى الغد ، فانصاع
لرجائه يائسا أكثر منه قادرا لوجهة النصح .

وعند عصر اليوم التالى استدعاه إلى مقابلته ، فلبى ياسين مبادرا كما
ينبغى للابن المطيع . والحق أن ياسين لم يقطع ما بينه وبين أهله من
أسباب . كان البيت القديم المكان الوحيد الذى لم يجد الشجاعة للعودة
إليه على شدة حنينه إليه ، وما من مرة كان يلتقى فيها بأبيه أو خديجة أو
عائشة إلا ويحملهم السلام إلى امرأة أبيه . أجل لم ينس قلبه غضبها
عليه ولم تمح من صفحته آثار ما سماه تعنتها معه ، بيد أنه أبى أن ينسى
كذلك العهد القديم ، عهد لم يكن يعرف أما إلاها . ولم ينقطع عن زيارة
أخوته ، كما كان يقابل كمال أحيانا فى قهوة أحمد عبده أو يدعوه إلى
بيته حيث عرف الشاب مريم أولا ثم زنوبة أخيرا . أما أبوه فكان يزوره

فى دكانه مرة على الأقل كل أسبوع ، وهنا أتيج لياسين أن يعرف شخصية أبيه الثانية التى يأسر الناس بها ، فنشأت بين الرجلين صداقة وطيدة ومودة وثيقة ، غذتها صلة الرحم من ناحية وفرحة اكتشاف الأب على حقيقته من ناحية أخرى . غير أن ياسين وهو يتفرس فى وجه أبيه ذلك اليوم لمح فيه ما ذكره بالوجه القديم الذى طالما بعث فى أطرافه الرعب ، ولم يتساءل عما طرأ عليه ، لأنه كان واثقا من أنه سيقف على سره عاجلا أو آجلا ، فلم يشك فى أنه مُلاق العاصفة التى توقع هبوبها منذ أقدم على فعلته . بادره الرجل قائلا :

- يحزننى أن أجد نفسى بهذا الهوان ، وماذا وراء أن أعرف أبناء ابنى من الآخرين؟

فطامن ياسين رأسه ولم ينبس ، فشار الرجل على طلاء المسكنة الكاذب الذى يطالعه به ، وصاح :

- اخلع هذا القناع ، دعك من النفاق وأسمعنى صوتك ، طبعاً أنت تعلم ما أعنيه !

فقال ياسين بصوت لم يكذب يسمع :

- لم أجد الشجاعة لإخبارك . .

- هذا شأن من يتستر على ذنب أو فضيحة !

حذرته غريزته من أن يلجأ إلى أى نوع من أنواع المعارضة ، فقال باستسلام :

- نعم . .

فسأله السيد ذاهلا :

- إذا كان هذا هو رأيك حقا ، فلمَ فعلتها؟ !

لاذ ياسين بالصمت مرة أخرى ، فخيّل إلى الأب أنه يقول له بصمته «عرفت أنها فضيحة ولكنى أذعنت للحب!»، وذكره هذا بموقفه المخزى

أمام المرأة ذاتها، يا للعار! غسلت خزيك بغضبة كبرى، ولكنك عدت تسعى إليها! أما هذا الثور فما أضيعه!

- فضيحة ارتضيبتها أنت دون تقدير للعواقب لتعذب بها نحن جميعا!

هتف بسذاجة قائلا:

- أنتم جميعا؟! معاذ الله..

عاود السيد الغضب، فصاح به:

- لا تصنع الجهل، لا تدع البراءة، أنت تعلم أنك في سبيل شهواتك لا تبالي ما يصيب سمعة أبيك وإخوتك، أقحمت على الأسرة عوادة لتكون هي ومن بعدها ذريتها منّا، لا إخالك كنت تجهل هذا قبل أن أذكره، ولكنك تستهين بكل شيء في سبيل شهواتك، هانت كرامة الأسرة على يدك، وأنت نفسك تنهار حجراً بعد حجر، وسوف تجد نفسك في النهاية خراباً..

غض البصر لاإذا بالصمت حتى نطقت حاله بالذنب والتسليم، لن تكلفك هذه الفضيحة إلا قدرا من التمثيل كما أرى، حسبك هذا، أما أنا فسأرزق غدا بحفيد أمه زنوبة وخالته زبيدة، مصاهرة طريفة بين السيد أحمد التاجر المعروف وزبيدة العالمة الذائعة الصيت، لعلنا نكفر عن ذنوب لا ندرينا!

- إن بدني يقشعر كلما فكرت في مستقبلك، قلت لك إنك تنهار وسوف تنهار أكثر وأكثر، خبرني ماذا فعلت بـدكان الحمزاوى؟

رفع إليه عينين كئيبتين، وتردد مرات، ثم قال:

- كنت في حاجة ماسة إلى المال..

ثم وهو يخفض عينيه:

- لو كانت الظروف غير الظروف لا اقترضت ما أحتاحه من
حضرتك، ولكن الأمر كان محرجا .
السيد حانقا :

- يا لك من مرء! ألا تخجل من نفسك؟ أراهن على أنك لم تجد في
كل ما فعلته أى غرابة أو إنكار، أنا عارفك وفاهمك فلا تحاول أن
تخدعنى، ليس عندى إلا كلمة واحدة وإن كنت أعلم مقدما ألا
طائل تحتها: أنت تخرب نفسك بنفسك ونهايتك سوداء . .

عاد ياسين إلى صمته متظاهراً بالأسى . الثور! هى جذابة شيطانة
ولكن ماذا اضطرك بالزواج منها؟ كنت أظن أنها طالبتنى بالزواج طمعا
فى تقدم عمرى، لكنها أوقعت هذا الثور على شبابه . ووجد عند ذاك
شيئا من الارتياح والعزاء . كانت خطتها المدبرة أن تتزوج بأى ثمن إلا
أنها أثرت غيرى على، فوقع هذا الأحمق :

- طلقها؟ طلقها قبل أن تصير أما وتفضحنا إلى أبد الأبدین!

تردد ياسين مليا، ثم تمتم :

- حرام على أن أطلقها بلا ذنب!

يا بن الكلب! . . أتخفتنى بنكته بارعة لسهرة الليلة!

- سوف تطلقها عاجلا أو آجلا، ولكن قبل أن تنجب لك طفلا يكون
مشكلتك ومشكلتنا . .

تنهد بصوت مسموع مستغنياً بذلك عن الكلام، على حين راح الأب
يتفحصه فيما يشبه الحيرة، فهمى مات، كمال أبله أو مجنون، وهذا
ياسين لا أمل فيه . المحزن أنه أعز الجميع لدى . دع الأمر لله، رباه! ماذا
يكون الحال لو زلت قدمى إلى الزواج؟
- بكم بعث الدكان؟
- ماتنى جنيه . .

- تستحق ثلاثمائة ، موقعها ممتاز جدا يا جاهل ، لمن بعثها؟

- على طولون ، بائع الخردوات .

- مبارك مبارك ، هل ضاع المبلغ فى الجهاز الجديد؟

- لَدَى منه مائة . .

بلهجة ساخرة :

- أحسنت ، فالعريس لا يستغنى عن النقود . .

ثم بلهجة جادة حزينة :

- يا ياسين اسمع كلامى ، أنا أبوك ، احترس وغير سيرتك ، أنت

نفسك أب ، ألا تفكر فى ابنك ومستقبله؟!!

فقال مدافعا متحمسا :

- إن نفقته الشهرية تصله على آخر مليم!

- أهى مسألة تجارية؟ إنى أتكلم عن مستقبله ، بل عن مستقبل

الآخرين الذين ينتظرون فى عالم الغيب!

فقال ياسين باطمئنان :

- ربنا يخلق ويرزق . .

هتف الرجل باستياء :

- ربنا يخلق ويرزق وحضرتك تبدد! قل لى . . .

واعتدل فى جلسته ، ثم تساءل وهو يركز فيه عينيه القويتين :

- رضوان على عتبة السابعة ، فماذا أنت صانع به؟ أتأخذه لينشأ فى

أحضان حرمكم؟

لاح فى الوجه الممتلىء الارتباك ، ثم تساءل بدوره :

- ماذا أفعل إذن؟ لم أعمل فى الأمر فكرى . .

هز الرجل رأسه فى أسى ساخر ، وقال :

- دفع الله عنك شر الفكر! وهل لديك وقت لتبذره فيه؟! دعنى أفكر عنك، دعنى أقول إن رضوان يجب أن يبقى فى حضانة جده . .

فكر قليلا، ثم خفض رأسه بالإيجاب قائلا بانصياع:

- الرأى رأيك يا أبى، هذا فى صالحه ولا شك . .

قال الأب متهمكا:

- يبدو لى أنه فى صالحك أيضاً كيلا تشغل نفسك بأمر تافه!

ابتسم دون تعليق، كأنما يقول له «إنى واثق من أنك تمزح ولا بأس من ذلك».

- ظننت أنه سيشق على إقناعك بالتخلّى عنه!

- إن ثقتى فى رأيك هى التى جعلتنى أبادر إلى الموافقة!

فتساءل السيد بدهشة ساخرة:

- أثق حقاً فى رأى؟! لم لم تعمل به فى الأمور الأخرى؟!!

ثم وهو يتنهد أسفا:

- القصد! ربنا يهديك، وذنبك على جنبك، سأحدث محمد عفت

الليلة فى شأن الاحتفاظ برضوان، على أن تقوم بكل نفقاته فعسى

أن يوافق . .

عند ذاك نهض ياسين وسلم على أبيه واتجه نحو باب الدكان، وما إن

خطا خطوتين حتى أدركه صوت أبيه وهو يسأله:

- ألا تحب ابنك ككل الآباء؟

فتوقف ياسين متلفتاً نحوه، وهو يقول بإنكار:

- وهل يحتاج هذا إلى قرار يا أبى! إنه أعز شىء فى الحياة . .

فرغ السيد حاجبيه ، وقال وهو يهز رأسه هزة غامضة :
- مع السلامة . .

٣٣

قبل الخروج إلى صلاة الجمعة بساعة ، دعا أحمد عبد الجواد كمال إلى حجرته ، لم يكن يدعو أحدا من أهل بيته إلى مقابلته إلا لأمر هام ، والحق أنه كان مبجل الفكر ، متحفزا لاستجواب ابنه عما يشغله . وكان بعض أصحابه قد وجهوا نظره مساء أمس إلى مقال ظهر في البلاغ الأسبوعي بقلم الأديب الناشئ «كمال أحمد عبد الجواد» ، ومع أن أحدا منهم لم يقرأ من المقال إلا العنوان وهو «أصل الإنسان» والإمضاء وهو الأديب الناشئ «كمال أحمد عبد الجواد» فإنهم اتخذوا منه مادة للتعليق والتهنئة وممازحة السيد ، حتى فكر الرجل جادا في أن يكلف الشيخ متولى عبد الصمد بعمل حجاب للشاب . قال له محمد عفت : «سجل اسم ابنك مع أسماء كبار الكتّاب في مجلة واحدة ، طب نفسا وادع الله أن يكتب له مستقبلا باهرا كما كتب لهم» ، وقال له على عبد الرحيم : «سمعت من شخص محترم أن المرحوم المنفلوطى ابتاع عزة بقلمه فأبشر خيرا» ، وحدثه آخرون عن القلم وكيف شق السبيل لكثيرين إلى حظوة الحكام والزعماء ، ضاربين الأمثال بشوقى وحافظ والمنفلوطى ، وعندما جاء دور إبراهيم الفار داعبه قائلا : «سبحان الذى خلق من ظهر الجاهل عالما» ، أما السيد فقد ألقى نظرة على العنوان ونظرة على «الأديب الناشئ» ، ثم وضع المجلة فوق جبهته التى كان قد نزعها بسبب حرارة يونيو وحميا الويسكى مؤجلا قراءتها حتى ينفرد بنفسه فى البيت أو فى

الدكان، ثم واصل سهرته بصدر منشرح وضمير تياه فخور، بل جعل يراجع نفسه لأول مرة فى سخطه المكثوم على إشار الشاب لمدرسة المعلمين قائلا إن «الولد» فيما يبدو سيكون «شيئا» رغم اختياره غير الموفق، وبنى أحلاما على ما قيل عن «القلم» وحظوة الكبراء وعزبة المنفلوطى، أجل، من يدرى؟ لعله لا يكون معلما فحسب ولكن ويشق السبيل حقا إلى حياة لم تخطر له هو على بال. وعند ضحى اليوم، وعند فراغه من الصلاة والإفطار، تربع على الكنبه وفتح المجلة باهتمام وراح يقرأ بصوت مرتفع ليمتلى بمعانيها، لكن ماذا وجد فيها؟ إنه يقرأ المقالات السياسية يفهمها دون عناء، أما هذه المقالة فإنها دارت برأسه وأفزعت قلبه، وأعاد تلاوتها بعناية فطالع كلاما عن عالم يدعى «دارون» ومجهوده فى جزر نائية، ومقارنات ثقيلة بين شتى الحيوانات حتى وقف مبهورا عند تقرير غريب يزعم أن الإنسان سلالة حيوانية! بل أنه متطور عن نوع من القرود! وكرر تلاوة الفقرة الخطيرة منزعجا، ثم لبث ذاهلا أمام هذه الحقيقة الأسيفة وهى أن ابنا من صلبه يقرر - دون اعتراض أو مناقشة - أن الإنسان سلالة حيوانية! انزعج الرجل انزعاجا شديدا وتساءل فى حيرة: هل حقا يعلمون الأولاد هذه المعلومات الخطيرة فى مدارس الحكومة؟ ثم أرسل فى طلب كمال.

وجاء كمال وهو أبعد ما يكون عما يعتلج فى رأس أبيه، وكان قد استدعاه قبل ذلك بأيام ليهنئه على النقل إلى السنة الثالثة فظن بالدعوة الجديدة خيرا. وبدا شاحب الوجه ضامر الجسم كعهده فى الفترة الأخيرة فى حال عللتها الأسرة بالجهد الشديد الذى بذله قبيل الامتحان، ولكن غاب عنها سرها الحقيقى وهو ما عاناه طيلة الأشهر الخمسة الماضية من ألم وعذاب أسير العاطفة مستبدة جهنمية كادت تودى به، وأشار السيد إليه بالجلوس، فجلس على طرف الكنبه متجها نحو أبيه بأدب، وعند ذاك لمح أمه جالسة أمام الصوان مشغولة بترتيب الثياب وخيطةا، أما الرجل فقد

رمى بالبلاغ الأسبوعى إلى الفراغ الذى يفصل بينهما على الكنبه وقال
بهدهوء مصطنع :

- لك مقال فى هذه المجلة ، أليس كذلك؟

خطف غلاف المجلة عينى كمال فرنا إليه بعين ذاهلة دلت على أنه
لم يكن يتوقع هذه المفاجأة قط . . من أين لأبيه هذا الاطلاع المستجد
على المجلات الأدبية؟! لقد سبق أن نشر فى الصباح « تأملات » بين
النثر والشعر المنشور ضمنها نظرات فلسفية بريئة وأنات عاطفية ، وهو
آمن كل الأمن من ناحية اطلاع أبيه عليها ، فلم يدر بها أحد من أسرته
إلا ياسين الذى كان هو نفسه يقرأها عليه فينصت الآخر ، ثم يقول له
معلقا : « هذا ثمرة توجيهى الأول لك ، أنا الذى علمتك
الشعر والقصص ، جميل يا أستاذ ، ولكن هذه فلسفة عميقة جدا فمن
أين جئت بها؟ » أو يقول مداعبا : « من الحسناء التى ألهمتكَ هذه
الشكوى الرقيقة؟ » ستعلم يا أستاذ يوما أنهم لا يجدى معهن إلا
ضرب المراكيب » ، ولكن ها هو يطلع على أخطر ما كتب ، تلك
المقالة التى شب التفكير فيها معركة جهنمية فى صدره وعقله كاد
يحترق فى أتونها ، فكيف حدث هذا؟ وهل يجد له من تفسير إلا عند
أصدقاء أبيه الوفديين الذين يحرصون على اقتناء كافة الجرائد
والمجلات الوفدية؟ وهل يطمع فى أن يخرج سالما من هذا المأزق؟
رفع عينيه عن المجلة ، ثم قال بلهجة لم يكنها من الإفصاح عن
اضطرابه :

- بلى ، خطر لى أن أكتب موضوعا تثبिता لمعلوماتى وتشجيعا لِنفسى
على مواصلة الدرس . .

قال السيد أحمد بهدوئه المصطنع :

- لا عيب فى ذلك ، الكتابة فى الصحف كانت ولم تزل الوسيلة إلى

الجاء والحظوة عند الكبراء ، ولكن المهم الموضوع الذى يكتب فيه الكاتب ، ماذا أردت بهذه المقالة ؟ اقرأها واشرحها لى ، فقد غمض على مرامك . .

يا للتعاسة ! ليس هذا المقال للجهر ، وخاصة على مسمع من أبيه !
- إنه مقال طويل يا بابا ، ألم تقرأه حضرتك ؟ إنى أشرح فيه نظرية علمية . .

حدجه الرجل بنظرة براقة متحفزة ، أهذا ما يدعونه بالعلم الآن ؟ ألا لعنة الله على العلم والعلماء . .

- ماذا تقول فى هذه النظرية ؟ لقد لفتت نظرى عبارات غريبة تقول إن الإنسان سلالة حيوانية ، أو شيئا من هذا القبيل ، أحق هذا ؟
بالأمس ناضل نفسه وعقيدته وربّه نضالا عنيفا أعيار روحه وجسده ، واليوم عليه أن يناضل أباه ، غير أنه كان فى الجولة الأولى معذبا محموما . . أما فى هذه الجولة فهو خائف مرتعب ، إن الله قد يؤجل عقابه ، أما أبوه فشيمته التعجيل بالعقاب . .
- هذا ما تقرره هذه النظرية !

علا صوت السيد وهو يتساءل فى انزعاج :

- وآدم أبو البشر الذى خلقه الله من طين ونفخ فيه من روحه ، ماذا تقول عنه هذه النظرية العلمية ؟ !

طالما طرح هذا السؤال على نفسه ، لم يكن دون أبيه انزعاجا ، ولم يغمض له عين ليلتها حتى الصباح ، وتقلب فى الفراش متسائلا عن آدم والخالق والقرآن ، وقال لنفسه مرة وعشرا : القرآن إما أن يكون حقا كله أو لا يكون قرآنا ، إنك تحمل على لأنك لم تدر بعذابى ، لو لم أكن قد اعتدت العذاب وألفته لأدركنى الموت تلك الليلة . قال بصوت خافت :

- دارون صاحب هذه النظرية لم يتكلم عن «سيدنا» آدم . .

هتف الرجل غاضبا :

- لقد كفر دارون ووقع فى حبائل الشيطان ، إذا كان أصل الإنسان قردا أو أى حيوان آخر ، فلم يكن آدم أباً للبشر . . هذا هو الكفر عينه ، هذا هو الاجترأ الوقح على مقام الله وجلاله !! إنى أعرف أقباطا ويهودا فى الصاغة وكلهم يؤمنون بآدم ، كل الأديان تؤمن بآدم فمن أى ملة دارون هذا؟! إنه كافر وكلامه كفر ، ونقل كلامه استهتار ، خبرنى أهو من أساتذتك فى المدرسة؟

ما أدعى هذا إلى الضحك لو كان فى القلب فراغ للضحك ، لكنه قلب أفعمته الآلام ، ألم الحب الخائب ، وألم الشك وألم العقيدة المحتضرة ، إن الموقف الرهيب بين الدين والعلم أحرقك ، ولكن كيف يسع عاقل أن يتنكر للعلم؟ قال بصوت متواضع :

- دارون عالم إنجليزى مات منذ زمن بعيد . .

وهنا ند عن الأم صوت يقول بتهدج :

- لعنة الله على الإنجليز أجمعين . .

فالتفتا نحوها التفاتة قصيرة ، فوجداها قد تركت الثياب والإبرة وتابعت الحديث ، ولكن سرعان ما انصرفا عنها وعاد الأب يقول :

- خبرنى ، هل تدرسون هذه النظرية فى المدرسة؟

التقف جبل النجاة الذى تدلى إليه فجأة ، فقال لا ئذا بالكذب :

- نعم . .

- أمر غريب ! وهل تدرس هذه النظرية فيما بعد لتلاميذك؟!

- كلا ، سأكون مدرس آداب لا علاقة لها بالنظريات العلمية . .

ضرب السيد كفا بكف ، ود فى تلك اللحظة لو كان له على العلم بعض ماله على الأسرة من سلطان ، وهتف محنقا :

- إذن لماذا يدرسونها لكم؟! هل الغاية إدخال الكفر فى قلوبكم؟

فقال كمال بلهجة المحتج :

- معاذ الله أن يؤثر فى عقيدتنا مؤثر . .

فتفحصه بارتياح وهو يقول :

- ولكنك نشرت الكفر بمقالك!

فقال بارتباك :

- أستغفر الله ، إنى أشرح النظرية ليلم بها القارئ لا ليؤمن بها،

هيهات أن يؤثر فى قلب المؤمن رأى كافر . .

- ألم تجد موضوعا غير هذه النظرية المجرمة لتكتب فيه؟

لماذا كتب مقالته؟ لقد تردد طويلا قبل أن يرسلها إلى المجلة ، ولكنه

كان كأثما يود أن ينعى إلى الناس عقيدته . لقد ثبتت عقيدته طوال

العامين الماضيين أمام عواصف الشك التى أرسلها المعرى والحيام ، حتى

هوت عليها قبضة العلم الحديدية فكانت القاضية ، على أننى لست

كافرا ، لا زلت أومن بالله ، أما الدين . . ؟ أين الدين؟ ذهب! كما

ذهب رأس الحسين ، وكما ذهبت عايدة ، وكما ذهبت ثقتى بنفسى! ثم

قال بصوت حزين :

- لعلى أخطأت ، عذرى أننى كنت أدرس هذه النظرية . .

- ليس هذا بعذر ، وعليك أن تصلح خطأك . .

- يا له من رجل طيب! إنه يطمع فى أن يحمله على مهاجمة العلم

فى سبيل الدفاع عن أسطورة . حقا لقد تعذبت كثيرا ولكنه لن يقبل

أن يفتح قلبه من جديد للأساطير والخرافات التى طهره منها ، كفى

عذابا وخداعا ، لن تعبت بى الأوهام بعد اليوم ، النور النور ، أبونا

آدم! لا أب لى ، ليكن أبى قردا إن شاءت الحقيقة ، إنه خير من

آدميين لا عدد لهم ، لو كنت من سلالة نبي حقا ما سخرت منى
سخريتها القاتلة !

- وكيف أصلح الخطأ؟

فقال السيد ببساطة وحدة معا :

- عندك حقيقة لا شك فيها ، وهى أن الله خلق آدم من تراب ، وأن
آدم هو أبو البشر ، هذا مذكور فى القرآن ، فما عليك إلا أن تبين
أوجه الخطأ وهو عليك هين ، وإلا فما فائدة ثقافتك؟

وهنا جاء صوت الأم قائلا :

- ما أيسر أن تبين خطأ من يعارض قول الرحمن ، قل لهذا الإنجليزى
الكافر: إن الله يقول فى كتابه العزيز : إن آدم هو أبو البشر ، كان
جداك من حملة كتاب الله فعليك أن تنتهج سبيله ، لقد سرنى أنك
تبغى أن تكون مثله من العلماء ..

لاح الضيق فى وجه السيد ، فانتهرها قائلا :

- ماذا تفهمين أنت من كتاب الله أو من العلم؟ دعينا من جده
وانتهى إلى ما بين يديك ..

فقالت فى حياء :

- أريد يا سيدى أن يكون كجده من العلماء الذين يضيئون الدنيا بنور
الله ..

فصاح الرجل ساخطا :

- ها هو قد بدأ ينشر الظلام ..

فقالت المرأة بإشفاق :

- معاذ الله يا سيدى ، لعلك لم تفهم ..

حدجها السيد بنظرة قاسية . لقد خفف من شدته فى معاملتهم فماذا

كانت النتيجة؟ ها هو كمال يذيع أن أصل الإنسان قرد، وها هي أمه تناقشه وتقول له لم تفهم، صاح بها:

- دعيني أتكلم، لا تقاطعيني، لا تتدخل في ما لا تفهمين، انتبهى إلى عملك، الله يقطعك..

ثم ملتفتا إلى كمال بوجه متجهم:

- خبرنى، هل أنت فاعل ما قلت لك؟

عليك رقيب فى البيت لم يبتل الأحرار بمثله فى الدول، لكنك كما تخافه تحبه، فلن يطاوعك قلبك على الإساءة إليه. تجرع الألم فقد اخترت حياة النضال..

- كيف يمكن أن أرد على هذه النظرية؟ لو انحصرت مناقشتى فى الاستشهاد بالقرآن لما جاءت بجديد، فالكل يعلم بما عندى ويؤمن به، أما مناقشتها علميا فشأن المختصين من العلماء..

- ولماذا تكتب فيما لا شأن لك به؟

اعتراض وجيه فى ذاته، غير أنه من المؤسف أنه لا يجد الشجاعة للاعتراف لأبيه بأنه آمن بالنظرية بصفتها حقيقة علمية، وأنها بهذه الصفة يمكن الاعتماد عليها فى إنشاء فلسفة عامة للوجود خارج نطاق العلم، أما السيد فقد ظن صمته إقرارا بالخطأ فتضاعف أسفه وحققه. إن الضلال فى هذا الميدان شديد الخطورة سبب العاقبة، وهو ميدان لا سلطان له عليه، وربما وجد فيه نفسه مكتوف اليدين أمام الشاب الضال كما وجد نفسه من قبل أمام ياسين بعد انفلاته من وصايته، فهل يجرى عليه ما جرى على الآباء الآخرين فى هذه الأيام الغريبة؟! إن أنباء كالأساطير تتراعى إليه عن شباب «اليوم»، منهم تلاميذ قد اعتادوا التدخين، وآخرون يعبثون بكرامات المدرسين، وغير هؤلاء وأولئك قد تمردوا على آبائهم. أجل لم تهن هيبتة، ولكن عم أسفر ذلك التاريخ

الطويل من الحزم والصرامة؟ ها هو ياسين يتدهور ويضمحل ، وها هو كمال يناقش ويجادل ويحاول التملص من قبضته :

- أصغ إلى بكل وعيك ، لا أريد أن أقسو عليك فإنك مؤدب ومطيع ، أما عن موضوعنا فلا أملك لك إلا النصيحة ، وينبغي أن يتذكر أنه ما من أحد قد خالف نصيحتي وسلم ..

ثم بعد صمت قصير :

- إليك ياسين شاهدا عما أقول ، وقد نصحت قديما «المرحوم» بألا يلقي بنفسه إلى التهلكة ، ولو امتد به العمر لكان رجلا نابها .

وهنا قالت الأم بصوت كالأنين :

- قتلوه الإنجليز ، إنهم إما يقتلون وإما يكفرون !

وواصل السيد حديثه قائلا :

- إذا وجدت في دروسك ما يخالف الدين ، واضطرت إلى حفظه كي تنجح في الامتحان ، فلا تؤمن به ، ومن باب أولى لا تنشره في الصحف وإلا حملت وزره ، ليكن موقفك من علم الإنجليز كموقفنا من احتلالهم ، وهو عدم الإقرار بشرعيته ولو فرض علينا بالقوة الجبرية ..

تدخل الصوت الرقيق الحبي مرة أخرى قائلا :

- ولتكرس حياتك بعد ذلك لفضح أكاذيب هذا العلم ونشر نور الله ..

فصاح بها السيد :

- قلت ما فيه الكفاية دون حاجة إلى آرائك !

فعدت إلى ما بين يديها ، وجعل السيد يحرق فيها متوعدا حتى اطمأن إلى صمتها ، فالتفت إلى كمال متسائلا :

- مفهوم؟

فقال كمال بلهجة موحية بالثقة :

- بكل تأكيد :

إذا أراد أن يكتب بعد اليوم فعليه بالسياسة الأسبوعية حيث لا تمتد يد أبيه الوفدى ، أما عن أمه فقد وعدّها فى سره بأن يكرس حياته لنشر نور الله ، أليس هو نور الحقيقة ؟ بلى ، وسيكون فى تحرره من الدين أقرب إلى الله مما كان فى إيمانه به ، فما الدين الحقيقى إلا العلم ، هو مفتاح أسرار الكون وجلاله ، ولو بعث الأنبياء اليوم ما اختاروا سوى العلم رسالة لهم ، هكذا يستيقظ من حلم الأساطير ليوّاجه الحقيقة المجردة ، مخلفاً وراءه تلك العاصفة - التى صارع فيها الجهل حتى صرعه - حداً فاصلاً بين ماضٍ خرافى وغد نورانى ، بذلك تتفتح له السبل المؤدية إلى الله ، سبل العلم والخير والجمال ، وبذلك يودع الماضى بأحلامه الخادعة وآماله الكاذبة وآلامه البالغة . .

٣٤

بغناية واهتمام جعل يتفحص ما تقع عليه عيناه وهو مقبل على سراى آل شداد ، فلما عبر مدخلها تضاعفت عنايته واهتمامه بتفحص ما حوله ، فقد آمن أخيراً بأن هذه الزيارة ستكون آخر عهده بالبيت وآله وذكرياته ، كيف لا وقد انتزع حسين فى النهاية موافقة أبيه على سفره إلى فرنسا؟ تأمل بملء عينيه ووجدانه الممر الجانبى المفضى إلى الحقيقة ، والنافذة المطلة عليه وكان طيفها الرقيق الأنيق يطالعه منها بنظرة حلوة لا تعنى شيئاً كنظرات النجوم أو تحية رقيقة لا يقصد بها شخصه كتغريد

البلبل المشغول بفرحته عن السامعين ، ثم المنظر الكلى للحديقة المبسوط بين مؤخر القصر والصور العريض المشرف على الصحراء ، وما بين هذا وذاك من أعراش الياسمين وجماعات النخيل وشجيرات الورد ، وأخيرا الكشك العتيد الذى تملأ تحت سقفه بنشوات الحب والصدقة . وذكر المثل الإنجليزى الذى يقول «لا تضع كل بيضك فى سلة واحدة» وابتسم ابتسامة حزينة ، فإنه وإن حفظه منذ عهد بعيد إلا أنه لم ينتفع به فوضع عن سهو أو حماقة أو قضاء وقدّر كل قلبه فى هذا البيت ، بعضه للحب وبعضه للصدقة ، وقد ضاع الحب وها هو الصديق يحزم أمتعته استعدادا للرحيل ، ومن الغد سيلقى نفسه بلا حبيب ولا صديق ، كيف يمكن أن يتعزى عن هذا المنظر؟ قد انطبع فى صدره وعلق قلبه وبات ذا ألفة وحنين ، القصر والحديقة والصحراء ، جملة وتفصيلا ، كانطباع أسماء عائدة وحسين شداد فى حافظته ، فكيف ينقطع عنه أو يقنع برؤيته من بعيد كسائر المارة؟ هو الذى لشدة ولعه بالبيت دعا نفسه يوما مداعبا بالوثنى!

وكان حسين شداد وإسماعيل لطيف جالسين على كرسيين متقابلين أمام المنضدة التى وضع عليها الدورق التقليدى والأكواب الثلاثة ، وكانا كعادتهما فى الصيف يرتديان قميصا مفتوح الطوق وينظّلونا من الفانلة البيضاء ، فطالعا بوجهيهما المتناقضين : حسين بوجهه الجميل الوضىء ، وإسماعيل بوجهه الحاد القسّمات ونظراته التهجمية ، فأقبل عليهما يبدلته البيضاء ممسكا بطربوشه الذى تدلّل زره ، وتصافحوا ، ثم جلسا جاعلا ظهره إلى البيت ، البيت الذى ولّاه - من قبل - ظهره! وسرعان ما قال إسماعيل مخاطبا كمال ، وهو يضحك ضحكة ذات معنى :

- يتعين علينا من الآن أن نبّحث عن مكان جديد نتقابل فيه . .

ابتسم كمال ابتسامة باهتة . ما أسعد إسماعيل بسخريته التى لم

تعرف الألم! وهو وفؤاد الحمزاوى اللذان بقياله، صديقان يؤنسان القلب ولا يمازجانه، يهرع إليهما هربا من الوحشة، ولا حيلة إلا أن يرضى بما قسم له .

- سنلتقى فى المقاهى أو الطرقات ما دام حسين قد قرر هجرنا . .
هز حسين رأسه فى أسف، أسف الفائز بأمنية عزيزة وهو يجامل بإعلان حزنه على فراق يهون، ثم قال :

- سأغادر مصر وفى قلبى حسرة على فراقكما، الصداقة عاطفة مقدسة، إنى أقدرها من أعماق قلبى، والصديق هو القرين الذى يعكس نفسك فيكون صدى لعواطفك وأفكارك، لا يهم أن نختلف فى كثير ما دام الجوهر متشابها، لن أنسى هذه الصداقة أبدا، وستصل الرسائل ما بيننا حتى نعود إلى اللقاء مرة أخرى . .
كلام جميل هو العزاء للقلب المكلم المهجور، ألم يكن ما أصابه على يد أخته كافيا؟ هكذا تتركنى وحيدا بلا صديق حقيقى، وغدا يقتل المهجور ظلما إلى الألفة الروحية الساخرة. تساءل فى كآبة :

- متى نعود إلى اللقاء مرة أخرى؟ لم أنس بعد تطلعك الحار إلى السياحة الدائمة، فمن يضمن لى ألا يكون ذهابك إلى الأبد؟
فأمن إسماعيل على قوله قائلا :

- قلبى يحدثنى بأن العصفور لن يعود إلى القفص . .
ضحك حسين ضحكة قصيرة، غير أنها وشت بسروره، ثم قال :
- لم أظفر بموافقة أبى على سفرى حتى وعدته بمواصلة دراستى القانونية، ولكنى لا أدرى إلى أى مدى سيمكثنى المحافظة على وعدى؟ لا استلطاف بينى وبين القانون، أكثر من هذا يخيل إلىّ أنى أصبر على الدراسة النظامية، لا أريد إلا ما أحبه، وقلبى موزع بين معارف شتى لا تجمعها كلية واحدة كما قلت مرارا وتكرارا،

أريد أن أتلقى محاضرات فى فلسفة الفن ، وأخرى فى الشعر
والقصص ، وأن أرتاد المتاحف ومعازف الموسيقى ، وأن أعشق
وألهو ، فأى كلية تحوى هذه الألوان جميعا؟! وثمة حقيقة أخرى
تعرفانها وهى أنى أفضل أن أسمع على أن أقرأ ، أريد أن يشرح
غيرى لأستمع أنا ، ثم أنطلق بحواس مجلوة وعقل مضىء إلى
سفوح الجبال وشواطئ البحور والمشارب والمقاهى والمراقص ،
وسوف تصلكما تباعا تقاريرى عن هذه التجارب الفذة!

كأنه يصف الجنة التى نبذ هو الإيمان بها! بيد أنها جنة سلبية تأخذ ولا
تعطى ، وهو يطمح إلى مثال آخر ، أما حسين فهيهات أن يحن إلى
مغناه القديم ، إذا ضمته تلك الحياة الوردية إلى صدرها الرغيد . وكأن
إسماعيل كان يردد خواطره حين قال مخاطبا حسين :

- لن تعود إلينا ، الوداع يا حسين! حلمنا واحد على وجه التقريب ،
دع جانبا فلسفة الفن والمتاحف والموسيقى والشعر وسفوح
الجبال . . إلخ ، فنكون شخصا واحدا! أذكرك للمرة الأخيرة بأنك
لن تعود إلينا . .

وحده كمال بنظرة متسائلة ، كأنما تطالبه برأيه فيما قال إسماعيل ،
فقال :

- بل سأعود كثيرا ، ستكون مصر ضمن سياحتى الطويلة لأرى
الأهل والأصدقاء (ثم موجه الخطاب إلى كمال) سوف أنتظر
سفرك إلى الخارج بجزع أكاد أشعر به من الآن!

من يدرى لعل كذوبته تصدق فيجوب تلك الآفاق ، مهما يكن من أمر
فقلبه يحدثه بأن حسين سيعود يوما وأن هذه الصداقة العميقة لن تضيع
هباء ، إن قلبه الصدوق يؤمن بهذا كما يؤمن بأن الحب لا تقتلع جذوره
من القلب وأأسفاه! قال برجاء :

- سافر وافعل ما تحب ثم عد إلى مصر لتجعلها مقامك ، على أن تخرج منها سائحا كلما طابت لك السياحة .

فأمن إسماعيل على رأيه :

- لو أنك ابن حلال حقا لقبلت هذا الحل الوجيه الذى يوفق بين رغبتك ورغبتنا . .

قال حسين وهو يطامن رأسه كأغما قد اقتنع :

- سيتهى بى المطاف إلى هذا الحل فيما أعتقد . .

كان يصغى إليه وهو يملا من منظره ناظريه ، خاصة العينين السوداوين اللتين تشبهان عيني عايدة ، ولفتاته الجامعة بين السمو والطف ، وروحه الشفاف الذى يكاد يتمثل أمامه خلقا يرى ويحس ، إذا غاب هذا العزيز فماذا يبقى من نعمة الصداقة وذكرى الحب؟ الصداقة التى تلقنتها على يديه ألفه روحية وسعادة مطمئنة ، والحب الذى ألهمه على يد أخته فرحة سماء وعذاب جحيم؟! . . وعاد حسين يقول وهو يشير إليهما واحدا بعد الآخر :

- عندما أعود إلى مصر ستكون أنت محاسبا فى وزارة المالية ، وأنت مدرسا ، ولا يبعد أن أجدكما والدين ! ما أعجب هذا!
تساءل إسماعيل ضاحكا :

- هل تستطيع أن تتخيلنا موظفين ؟ تصور كمال مدرسا ! (ثم موجهها الخطاب إلى كمال) يجب أن تسمن كثيرا قبل أن تواجه التلاميذ ، سوف تلقى جيلا من العفاريت نحن نعد بالقياس إليهم من الملائكة ، وسوف تجد نفسك وأنت الوفدى العنيد مضطرا بحكم الوظيفة إلى معاقبة المضربين بأمر الوفد!

أخرجته ملاحظة إسماعيل عن مجرى التفكير الذى كان مسترسلا فيه ، فوجد نفسه يتساءل : كيف يستطيع مواجهة التلاميذ برأسه وأنفه

المشهورين؟! وجد امتعاضا ومرارة، وخيل إليه - قياسا على شواذ المدرسين الذين عرفهم في حياته - أنه سيلتزم القسوة في معاملة التلاميذ ليحمي شخصيته المهددة! غير أنه تساءل: ترى هل يسعه أن يكون قاسيا على غيره كما يقسو على نفسه؟ . . قال ارتجالا:

- لا أظن أنني سأمتن مهنة التدريس إلى النهاية . .

لاحت في عيني حسين نظرة حاملة وهو يقول:

- من التعليم إلى الصحافة على ما أظن، أليس كذلك؟

وجد نفسه يفكر في المستقبل، فعاودته فكرة الكتاب الجامع الذي حلم كثيرا بتأليفه، ولكن ماذا بقى من موضوعه الأول؟ لم يعد الأنبياء أنبياء، ولا الجنة والجحيم، وليس علم الإنسان إلا فصلا من علم الحيوان، فعليه أن يبحث عن موضوع جديد، قال مرتجلا أيضا:

- لو أتمكن يوما من إنشاء مجلة للدعاية للفكر الجديد!

فقال إسماعيل لطيف بلهجة الوعظ والإرشاد:

- بل السياسة هي السلعة الرائجة، خصص للفكر إذا شئت عمودا في الصفحة الأخيرة، وفي البلد متسع لكاتب وفدى هجاء جديد . .

فضحك حسين ضحكة عالية، وقال:

- لا يبدو أن صاحبنا سياسى إيجابى، حسب أسرته ما قدمت من فدية، أما الفكر فالمجال أمامه واسع فيه . . (ثم مخاطبا كمال) . . لديك ما تقوله، لقد كانت ثورتك الإلحادية طفرة مفاجئة لم أتوقعها من قبل . .

ما أسعده بهذه الصفة الجديدة التي وجد فيها تحية لثورته وتملقا لغروره، قال وقد تورد وجهه:

- ما أجمل أن يكرس الإنسان حياته للحق والخير والجمال!

صَفْرَ إِسْمَاعِيلَ ثَلَاثًا ، لِكُلِّ قِيَمَةٍ صَفِيرًا ، ثُمَّ قَالَ مَتَهَكِّمًا :

- اَسْمَعُوا وَعُوا !

أَمَّا حُسَيْنٌ فَقَالَ جَادًا :

- إِنِّي مِثْلُكَ وَلَكِنِّي قَانِعٌ بِالْمَعْرِفَةِ وَالْمُنْتَعَةِ !

فَقَالَ كِمَالٌ بِحِمَاسٍ وَإِخْلَاصٍ :

- الْأَمْرُ أَجَلٌ مِنْ هَذَا ، إِنَّهُ كِفَاحٌ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ يَسْتَهْدَفُ خَيْرَ

الْإِنْسَانِيَةِ جَمِيعًا ، وَبَغَيْرِهِ لَا يَكُونُ لِلْحَيَاةِ مَعْنَى فِي نَظْرِي . .

ضَرَبَ إِسْمَاعِيلُ كَفًّا بِكَفٍ - وَقَدْ ذَكَرْتَهُ هَذِهِ الْحَرَكَةُ بِأَيْهِ - وَقَالَ :

- إِذْنٌ فَالْوَاجِبُ أَلَّا يَكُونَ لِلْحَيَاةِ مَعْنَى ، كَمْ تَعَبْتُ وَشَقِيتُ حَتَّى

تَحَرَّرْتَ مِنَ الدِّينِ ! لَمْ أَتَعَبْ أَنَا تَعَبُكَ ، وَلَكِنِ الدِّينَ لَمْ يَكُنْ شُغْلِي

أَبَدًا فَهَلْ تَعْدُنِي يَا تَرِي فِيلَسُوفًا بِالْفُطْرَةِ ؟ ! حَسْبِي أَنْ أَعِيشَ الْحَيَاةَ

الَّتِي لَا تَحْتَاجُ إِلَى تَعْرِيفٍ ، غَيْرَ أَنْ هَذَا الَّذِي أَتَبَعُهُ بِالْفُطْرَةِ لَا تَبْلُغُهُ

أَنْتَ إِلَّا بِالْكَفَاحِ الْمُرِيرِ ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ، بَلْ أَنْتَ لَمْ تَبْلُغْهُ بَعْدَ فَلَا

زَلْتَ - حَتَّى بَعْدَ إِلْحَادِكَ - تَوْمَنُ بِالْحَقِيقَةِ وَالْخَيْرِ وَالْجَمَالِ وَتُرِيدُ أَنْ

تَكْرُسَ لَهَا حَيَاتِكَ ، أَلَيْسَ هَذَا مِمَّا يَدْعُو إِلَيْهِ الدِّينُ ؟ ! فَكَيْفَ تَكْفُرُ

بِالْأَصْلِ وَتَوْمَنُ بِالْفِرْعِ ؟

لَا تَبَالُ رَفِيقَ الْمَزَاحِ ، لَكِن لَمْ يَبْدُو مَا يُؤْمَنُ بِهِ مِنَ الْقِيَمِ مِثَارًا

لِلْإِسْخَرِيَةِ ؟ ! هَبْكَ خَيْرَتِ بَيْنَ عَايِدَةٍ وَبَيْنَ الْحَيَاةِ السَّامِيَةِ فَأَيُّهُمَا

تَخْتَارُ ؟ ! . . لَكِن عَايِدَةٌ تَتَخَايَلُ لِعَيْنِي دَائِمًا وَرَاءَ الْمِثْلِ !

قَالَ حُسَيْنٌ يَجِيبُ عَنْ كِمَالٍ ، إِذْ طَالَ بِهِ الصَّمْتُ :

- الْمُؤْمَنُ يَسْتَمِدُّ حَبَّهُ لِهَذِهِ الْقِيَمِ مِنَ الدِّينِ ، أَمَّا الْحَرُّ فَيَجْبِهَا لِذَاتِهَا .

رَبَاهُ مَتَى أَرَاكَ مَرَّةً أُخْرَى ؟ أَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَضَحِكَ ضَحْكَةً وَشَتَّ

بِانْحِرَافِ تَفْكِيرِهِ إِلَى نَاحِيَةٍ جَدِيدَةٍ ، وَسَأَلَ كِمَالًا :

- خبرنى ألا زلت تصلى؟ وهل تنوى أن تصوم رمضان القادم؟
كان دعائى لها أمتع ما فى الصلاة، وليالى هذا القصر أسعد ما فى
رمضان ..

- لم أعد من المصلين، ولن أكون من الصائمين ..

- وهل تعلن إفطارك؟

ضاحكا:

- كلا ..

- أثرت النفاق!

فقال ممتعضا:

- ليس من ضرورة تدعونى إلى إيلاء الذين أحبهم ..

فتساءل إسماعيل ساخرا:

- أظن أنك بهذا القلب تستطيع أن تواجه المجتمع يوما بما يكره؟!

كليلة ودمنة؟! بهجة الخاطرة غطت على الامتعاض، رباه هل

عبرت على أساس الكتاب الذى لم يتبلور فى ذهنى بعد؟!

- مخاطبة القراء شئ، ومخاطبة والدين على الفطرة شئ آخر!

فخاطب إسماعيل حسين وهو يشير إلى كمال قائلا:

- إليك فيلسوفا من أسرة عريقة فى الجهل

لن يعوزك أن تجد أصدقاء للهو واللغو، ولكنك لن تحظى لروحك

بصديق يحاور، فارض بالصمت أو حاور نفسك كالمجانين، وساد

الصمت قليلا.

وكانت الحديقة صامته أيضا فلا نسمة تهفو، أما الورد والقرنفل

والبنفسج فبدت وحدها سعيدة بالحر، وحسرت الشمس ثوبها المضىء

عن الحديقة فلم يبق منه إلا حاشية فى أعلى السور الشرقى. أنهى

إسماعيل الصمت بأن التفت إلى حسين شداد، وسأله:

- ترى هل يتاح لك أن تزور حسن سليم وعائدة هانم؟

يا لله .. خفقة قلب أم القيامة قامت فى صدرى؟!!

- عندما يستقر بى المقام فى باريس ، سأفكر حتما فى القيام برحلة إلى بروكسل ..

ثم وهو يتسم:

- تلقينا خطابا من عائدة فى الأسبوع الماضى ، يبدو أنها تعاني متاعب الوحم!

هكذا الألم والحياة توءمان ، لست الآن إلا ألما خالصا فى ثياب رجل ، عائدة منداحة البطن سائلة الإفرازات؟! مأساة أم مهزلة الحياة؟!
نعمة الحياة الفناء ، ليتنى أستطيع أن أعرف كنه هذا الألم . قال إسماعيل لطيف :

- سيكون أبنائها أجنب!

- من المتفق عليه أن يرسلوا إلى مصر إذا جاوزوا طور الطفولة .

هل تراهم يوما بين تلاميذك؟ تسائل نفسك أين رأيت هذه الأعين فيجيب القلب الخافق أنها مقيمة هنا منذ قديم ، وإذا سخر الصغير من رأسك وأنفك فبأى قلب تعاقبه ، أيها النسيان .. هل أنت خرافة أيضا؟! عاد حسين يقول :

- شد ما أسهبت فى الحديث عن حياتها الجديدة ، لم تخف سرورها بها حتى بدا حنينها إلى الأهل مجرد مجاملة ..

لمثل هذه الحياة فى الأوطان المثالية خلقت ، أما مشاركتها فى الطبائع الآدمية فعبث من الأقدار التى عبثت بشتى مقدساتك ، ترى ألم يخطر ببالها أن تشير فى خطابها المسهب بكلمة إلى الأصدقاء القدامى؟! ولكن من أدراك بأنها لا زالت تذكرهم؟! وعاودهم الصمت مرة أخرى . بدا المغيب يقطر سمرة هادئة ، ولاحت فى الأفق حدأة مولية ، وترامى

إليهم نباح كلب ، وأقبل إسماعيل على الدورق يشرب ، وراح حسين يصفر بفيه ، أما كمال فكان يسترق إليه النظر بوجه هادئ وقلب يتحسر .

- الحر هذه السنة ملعون . .

قال إسماعيل ذلك ، ثم جفف شفتيه بمنديله الحريري المزركش ثم تجشأ ، وأعاد المنديل إلى جيب بنطلونه .

فراق الأحباب ألعن . .

- متى تسافر إلى المصيف؟

- فى آخر يونيو .

أجاب إسماعيل بارتياح ، فعاد حسين يقول :

- سنسافر غدا إلى رأس البر حيث أمكث أسبوعا معهم ، ثم أسافر بصحبة أبى إلى الإسكندرية فأستقل الباخرة فى ٣٠ يونيو .

ويتهى تاريخ فترة من الزمن ، وربما انتهى قلب . حذق حسين إلى كمال مليا ، ثم ضحك قائلا :

- نترككم وأنتم على خير حال من الوحدة والاتلاف ، فعسى أن تسبقنا أنباء الاستقلال إلى باريس . .

فهتف إسماعيل مخاطبا حسين وهو يشير إلى كمال :

- صاحبك غير راض عن الاتلاف ! عز عليه أن يضع سعديده فى يد الخونة ، وعز عليه أكثر أن يتحاشى الاصطدام بالإنجليز فينزل عن الوزارة إلى خصمه القديم عدلى ، هكذا تجده أشد تطرفا من زعيمه المقدس نفسه !

مهادنة الأعداء والخونة خيبة أخرى تتجرعها ، أى شىء فى هذه الدنيا لم يخب فيه أملك؟ غير أنه ضحك عاليا ، ثم قال :

- بل يشاء هذا الائتلاف أن يفرض على دائرتنا نائباً من الأحرار!

وضج ثلاثتهم بالضحك . وعند ذاك دبت فى مرمى البصر منهم ضفدعة ما لبثت أن توارت فى العشب ، وهفت نسمة مؤذنة بتداني المساء ، وتخفف العالم المحقق بهم من زياطه وضوضائه ، فأذن المجلس بالختام ، وملاه ذلك بالجزع فجعلت عيناه تتقلبان فى المكان لتمثلنا من منظره . هنا بدت أول مرة باعثة شعاع الحب ، وهنا صدح الصوت الملائكى بـ «يا كمال» وهنا دار حوار العذاب حول الرأس والأنف ، وهنا عالن المعبود بخصام التجنى ، وفى تضاعيف هذا الجو ترقد ذكريات عواطف ومشاعر وانفعالات لو مستها يد العيث يوماً لأحيت الصحراء ونضرت وجهها ، املاً من هذا كله عينيك وأرّخه فإن حوادث كثيرة تبدو وكأنها لم تقع لو لم يقيدوها يوم وشهر وعام ، إنما نستعدى الشمس والقمر على خط الزمان المستقيم لندوره لتعود إلينا الذكريات الضائعة ، ولكن لا شيء يعود أبداً ، فذب فى الدموع أو تسل بالابتسام .

وقف إسماعيل لطيف وهو يقول :

- أن لنا أن نذهب .

ترك إسماعيل يسبقه إلى عناق صاحبه ، ثم جاء دوره فتعانقا طويلاً ، طبع على خده قبلة وتلقى مثلها ، فغمت خياشيمه رائحة آل شداد ممثلة فى صاحبه ، زكية لطيفة كأنها عبير غير آدمى ، أو نفثات حلم دوّم فى سماء مليئة بالمسرات والآلام ، فأفعم بها حناياه حتى ثمل ، ولبث صامتا مليا حتى يملك عواطفه ، غير أنه عندما تكلم تهدج صوته وهو يقول :

- إلى اللقاء ولو بعد حين . .

- لا يوجد أحد إلا الخدم!
- ذلك لأن ضوء النهار لم يكد يختفى بعد ، والزبائن يفدون عادة مع الليل ، هل ضايقتك خلو المكان؟
- أبدا خلو المكان عامل مشجع على البقاء ، خاصة وأنها أول مرة .
- للحنات هنا ميزات لا تقدر بثمن ، فهي تقوم فى طريق لا يقتحمه إلا ساع وراء لذة محرمة ، فلن يكدر صفوك هنا لائم ولا زاجر . وإذا عثرتك شخص تحترمه كأبيك أو ولى أمرك ، كان هو الأحق باللوم والأخلق بأن يتجاهلك أو يفر من سبيلك إن استطاع . .
- اسم الشارع وحده فضيحة !
- لكنه أدعى إلى الطمأنينة من غيره ، لو أننا ذهبنا إلى إحدى حانات شارع الألفى أو عماد الدين أو حتى محمد على ، لما أمنا أن يرانا أب أو أخ أو عم أو ذو مال ! ولكنهم لا يجيئون إلى وجه البركة فيما أرجو .
- منطقك سليم ، غير أنى لا زلت مضطربا .
- صبرك ، الخطوة الأولى دائما عسيرة ، ولكن الخمر مفتاح الفرج ، لذلك أعدك بأنك ستجد الدنيا عند ذهابنا ألطف وأعذب مما عهدتها قبل ذلك . .
- حدثنى عن أنواع الخمر ، أيها الأوفق أن أبدا به؟

- الكونياك عنيف وإذا مزج بالبيرة فقل على شاربه السلام،
الويسكى مقبول الطعم جيد الأثر، أما الزبيب
- لعل الزبيب ألذها! ألم تسمع صالح وهو يغنى «وسقانى شراب
الزبيب!» .
- طالما قلت لك إنه لا عيب فيك إلا الإغراق فى الخيال، الزبيب
أقبحها رغم أنف صالح، فيه طعم الأنيسون الذى تجزع منه
معدتى، فلا تقاطعنى . . .
- معذرة . . !
- وهناك البيرة، ولكنها شراب الحر ونحن والحمد لله فى سبتمبر .
وهناك النيذ، غير أن عاقبته لطسة بنت كلب . .
- إذن . . إذن . . فهو الويسكى . .
- برافو! . توسمت فيك النجابة من قديم، ولعلك توافقنى بعد قليل
على أن استعدادك للهلز يفوق استعدادك للحقيقة والخير والجمال
والوطنية والإنسانية إلى آخر هذه القائمة من الخزعبلات التى تتعب
بها قلبك دون جدوى . .
- ونادى النادل، فطلب كأسين من الويسكى .
- من الحكمة أن أقنع بكأس واحدة . .
- قد تكون هذه هى الحكمة، غير أننا لم نجئ هنا لطلب الحكمة،
وسوف تعلم بنفسك أن الجنون ألد من الحكمة، وأن الحياة أخطر
من الكتب والفكر، اذكر هذا اليوم ولا تنس صاحب الفضل
عليك . .
- لا أحب أن أفقد الوعي، أخاف أن . .
- كن حكيم نفسك . .
- المهم عندى أن أجد الشجاعة للسير فى الدرب إياه بلا تردد، وأن
أدخل عند الحاجة . .

- اشرب حتى تشعر بأنك لا تبالى أن تدخل . .

حسن ، أرجو ألا أندم على فعلتى فيما بعد . .

- تندم؟! طالما دعوتك من قبل فكنت تعتذر بالتقوى والدين ، ثم جاهرت بأنك لم تعد تؤمن بالدين ، فكررت عليك الدعوة ، فما أعجب إلا لرفضك باسم الخلق! لكن يجب أن أعترف بأنك اتبعت المنطق أخيرا . .

أجل أخيرا . بعد فترة من القلق والحيرة بين أبى العلاء والخيام ، أو بين التقشف واللذة . وقد نزع به طبعه إلى مذهب الأول ، فإنه وإن بشر بحياة قاسية إلا أنها وافقت ما نشأ عليه من تقاليد ، ولكنه لم يدر إلا ونفسه تهفو إلى الفناء ، وكأن صوتا خفيا راح يهمس فى أذنه : لا دين ولا عايذة ولا أمل ، فليكن الموت . عند ذاك ناداه الخيام بلسان هذا الصديق قلبى محتفظا بمبادئه السامية رغم هذا ، وإن يكن قد وسع من معنى الخير حتى وسع مسرات الحياة جميعا ، قائلا لنفسه : إن الإيمان بالحقيقة والجمال والإنسانية أسمى أنواع الخير ، وإنه لذلك كان ابن سينا يختم يوم الفكر بالشراب والحسان ، ومهما يكن من أمر فإنه لم يجد سوى هذه الحياة الواعدة منقذا من الموت . .

- إنى معك فى هذا ، ولكنى لم أتخل عن مبادئى . .

- أعلم أنك لن تتخلى عن أوهامك ، طول العشرة جعلها حقيقة أكثر من الحقيقة نفسها ، لا بأس أن تقرأ بل وأن تكتب ما وجدت قراء ، اجعل من الكتابة وسيلة للشهرة والثروة ، ولكن لا تأخذها مأخذ الجد ، كنت متدينا عنيفا ، وأنت الآن ملحد عنيف ، دائما عنيف ، قلق كأنك مستول عن البشرية ، الحياة أبسط من هذا كله ، مركز فى الحكومة يرضى النفس ويهين مستوى لا بأس به من المعيشة ، استمتع بلذات الحياة بقلب متفتح خال من الهموم ،

استمساك بقدر من القوة والاعتداء عند اللزوم يضمن لك الكرامة والفوز، فإذا وافقت هذه الحياة الدين فيها ونعمت، وإلا فذنبه على جنبه . .

الحياة أعمق وأعرض من أن تنحصر في شيء واحد ولو يكون السعادة نفسها، اللذة ملاذى ولكن ارتقاء الجبال الصعبة سيظل مطلبى، عايذة ذهبت فيجب أن أخلق عايذة أخرى بكل ما ترمز إليه من معان، أو فلتذهب الحياة غير مأسوف عليها .

- ألم تشغل فكرك أبدا بما فوق هذه الحياة من معان؟

- حق! شغلت عن ذلك بالحياة نفسها أو بالحرى بحياتى أنا، ليس فى بيتنا كافر وليس فيه متدين، وهكذا أنا!

صديق ضرورى مثل وقت الفراغ، شاذ المنظر مثل منظر ك، موصول الذكريات بعايذة فهو فى القلب . رائد هذه الدروب الغناء، جبار إذا تحديته، يفتقد فى المسرات دون الجد والملمات، ليس فيه للروح موضع، غاب وراء البحار صديق الروح والعقل . . فؤاد الحمزاوى ذكى ولكن لا فلسفة له . نفعى حتى فى تذوق الجمال . . يبغى وراء الأدب بلاغة ينتفع بها فى تحجير المرافعات، من لى بوجه حسين وروحه؟! وجاء النادل فوضع على المنضدة كأسين طويلين مضلعى الكعب، وفض سداة قارورة الصودا وصب فى الكأسين فتحول الذهب إلى بلاتين مموه بالآلى، ورص أطبق السلطة والجبن والزيتون والمرتدلا، ثم ذهب . ردد كمال بصره بين كأسه وبين إسماعيل، فقال الأخير باسمنا:

- افعل كما أفعل، ابدأ بجرعة كبيرة، صحتك . .

غير أنه اكتفى بحسوة وراح يتذوقها، ثم لبث يترقب . . ولكن عقله لم يطر كما كان يتوقع فتجرع جرعة كبيرة، ثم تناول قطعة من الجبن ليغير الطعم الغريب الذى انتشر فى فيه .

- لا تتعجلنى !

- العجلة من الشيطان ، المهم أن تترك مكانك وأنت على حال تمكنك من اقتحام ما تريد . .

ما الذى يريد؟ امرأة ممن استشن تقززه ونفوره وهو مفيق فهل يحلى الشراب مرارة الابتذال . كان يناضل الغريزة بالدين وعايده ، أما الآن فقد خلا للغريزة الجو . غير أن حافزا آخر للمغامرة هو أن يكتشف المرأة ذلك المخلوق الغامض الذى تنطوى عايده نفسها تحت جنسه ولو كره . لعل فى ذلك عزاء عن السهاد والدموع المطوى سرها فى جوف الليل المكتوم ، وتكفيرا عن العذاب الدامى الذى لا أمل فى التداوى منه إلا باليأس والذهول . الآن يستطيع أن يقول إنه خرج من زناينة الاستسلام ليخطو الخطوة الأولى فى طريق الخلاص وإن يكن طريقا مخمورا محفوقا بالشهوات والمكاره . وتجرع جرعة أخرى وانتظر ، ثم ابتسم . . أما باطنه فكان يحتفل بمولد إحساس جديد ينفت حرارة وصبوة ، فتابعه مستسلما كما يتابع نغمة حلوة . وكان إسماعيل يراقبه بإمعان ، فقال باسم :

- أين حسين ليشهد بنفسه هذا المنظر؟

أين حسين أين؟!

- سوف أكتب له عنه بنفسى ، هل رددت على رسالته الأخيرة؟

- نعم ، رددت برسالة موجزة كرسالته . .

له وحده أسهب وأفاض حتى سجل كل خاطرة ، يا للسعادة التى خص بها وحده! ولكن لا ينبغى أن ييوح بسر رسالته أن يشير غيرة مدربه . .

- كانت رسالته إلى موجزة أيضا فيما عدا الحديث الذى تعرفه ولا تحبه!

- الفكر! (ثم وهو يضحك) . . ما حاجته إلى هذا هو الذى سيرث
ثروة تملأ المحيط، ما سر ولعه بهذه الخزعبلات؟ التكلف أم الغرور
أم الاثنان معا؟!

جاء دور حسين ليُمد تحت المطرقة، ترى ماذا تقول عنى فى غيابى؟!
- لا تناقض بين الفكر والغنى كما تظن، لقد ازدهر الفكر فى اليونان
القديمة بفضل بعض السادة الذين لم يشغلهم طلب الرزق عن
التفرغ للعلم . .

- صحتك يا أرسطو . .

أفرغ بقية كأسه وترقب . ثم تساءل: هل مرت به حال كهذه من قبل؟
نافث الحرارة الوجدانية ينطلق فى الدورة الدموية، يجرف فى طريقه
الفجوة التى تتجمع بها نفايات الأكدار، قمقم النفس يتفكك لحام
أحزانه فتطير منه عصفائر المسرات مترنمة، وهذا صدى نغمة مطربة،
وهذه ذكرى أمل واعد، وذاك طيف بهجة عابرة، الخمر لعاب كله
السعادة.

- ما رأيك فى كأسين آخرين؟

- عمرك أطول من عمرى . .

ضحك إسماعيل ضحكة عالية وهو يومئ إلى النادل بإصبعه، ثم
قال بارتياح:

- أنت سريع الاعتراف بالجميل . .

- هذا من فضل ربى . .

وجاء النادل بالكأسين والمزة. وأخذ الزبائن يفدون مطربشين
ومقبعين ومعممين، فيستقبلهم النادل بمسح وجوه المناضد بالمناشف إذ
كان الليل قد أقبل وأضيئت المصابيح فتألفت المرايا الملتصقة بالجدران
مصورا على أسطحها قواريير الديوارس والجون ووكر، وترامت من

الخارج ضحكات ملعلعة كالأذان غير أنها تدعو للفجور، وصوبت نحو منضدة الصديقين المراهقين نظرات إنكار متسامح باسم، ثم ورد من الطريق بائع جمبرى صعيدى فبائعة فول ذات ثنتين ذهبيتين، وماسح أحذية، وصبى كبابجى هو فى الوقت ذاته قواد كما دل ترحيب الجلوس به، وقارئ كف هندى، ثم لا تسمع هنا وهناك إلا «صحتك» وهاها، وفى مرآة تلى راس كمال مباشرة نظر فرأى وجهه موردا وبصره لامعا باسم، وفيما وراء صورته عكست المرأة منظر رجل عجوز وهو يرفع كأسه إلى فيه ثم يتمضمض بحركة أرنبية ويزرد الشراب، ثم يقول لجليسه بصوت مسموع «المضمضة بالويسكى سنة عن جد لى مات وهو يسكر» فحول كمال وجهه عن المرأة، وقال لإسماعيل:

- نحن أسرة محافظة جدا، أنا أول ذائق للخمر فيها.

فهز إسماعيل منكبه هازئا، ثم قال:

- كيف تحكم على ما ليس لك به علم؟ هل شاهدت شباب والدك؟ أما أبى فيتناول كأسا مع الغداء وأخرى مع العشاء، وقد أمسك عن الشراب فى الخارج، أو هذا ما يدعيه أمام والدتى.

لعاب إله السعادة يتسرب إلى مملكة الروح، وهذا الانقلاب الغريب الذى حدث فى لحظات لا تقدر البشرية على إدراكه فى أجيال وأجيال، وهو فى جملته وجود بمعنى باهر جديد لكلمة «السحر»، وأعجب شئ أنه لم يكن جديدا كل الجدة فلعله طاف بالروح مرة ولكن متى وكيف وأين؟ إنه موسيقى باطنية تعزفها الروح وما الموسيقى المعهودة بالقياس إليها إلا كقشور التفاح بالقياس إلى لبابه، ترى ما سر السائل الذهبى الذى صنع هذه المعجزة فى لحظات معدودات؟ لعله طهر مجرى الحياة من الزبد والرواسب فانطلقت وثبة الحياة المكبوتة كما انطلقت أول مرة حرية مطلقة ونشوة خالصة، فهذا هو الشعور الطبيعى بوثة الحياة إذا تحررت من ربة الجسد وأغلال المجتمع وذكريات التاريخ ومخاوف

المستقبل ، موسيقى رائقة نقية تقطر طربا وتصدر عن طرب ، مثلها طاف بروحي من قبل ولكن متى وكيف وأين ؟ آه . . يا للذكرى ! . . إنها الحب ! يوم نادى «يا كمال» أسكرتك وأنت لا تدري ما السكر فقرّباً بك سكير قديم ، وأنت عربت دهرًا فى طريق الهوى المخمور المعبد بالأزهار والرياحين ، كان ذلك قبل أن يتحول قطر الندى الشفاف إلى وحل ، فالخمر روح الحب إذا انجابت عنه بطانة الآلام ، فحب تسكر أو اسكر تحب . .

- الحياة جميلة مهما قلت وأعدت . .

- ها ها ، أنت الذى تقول وتعيد . .

طبع المقاتل على خد غريمه قبلة صافية فحل السلام على الأرض ، وغرد البلبل فوق غصن ريان ، فطرب العاشقون فى أربعة أركان المعمورة ، وطار طائر الأشواق من القاهرة إلى بروكسل مارا بباريس فاستقبل بالحنان والأناشيد ، وغمس الحكيم شباة قلمه فى مداد قلبه فسجل وحيا منزلا ، ثم أوى المجرب إلى شيخوخته فألت به ذكرى دامعة بعثت فى صدره ربيعا مكتما ، أما أسلاك الشعر الأسود المسدل على الجبين فكعبة يتجه إليها الثملون فى حانات الوجد .

- كتاب وكأس وحساء وارمنى فى البحر !

- ها ها ، سيفسد الكتاب الكأس والحساء والبحر .

- لسنا متفقين فى فهم معنى اللذة ، تراها أنت لهوا وعبثا وهى عندى الجد كل الجد ، هذه النشوة الآسرة هى سر الحياة وغايتها العليا ، وما الخمر إلا بشيرها والمثال المحسوس المتاح لها ، وكما كانت الحدأة مقدمة لاختراع الطائرات ، والسמكة تمهيدا لاختراع الغواصة ، فالخمر ينبغى أن تكون رائد السعادة البشرية ، والمسألة تلخص فى هذه الكلمة : كيف نجعل من الحياة نشوة دائمة كنشوة

الخمر دون الالتجاء إلى الخمر؟ لن نجد الجواب فى النضال والتعمير والقتال والسعى، فكل أولئك وسائل وليست بغايات، السعادة لن تتحقق حتى نفرغ من استغلال الوسائل كلها لنتمكن من أن نحيا حياة عقلية روحية خالصة لا يكدرها مكدر، هذه هى السعادة التى أعطتنا الخمر مثالها، كل عمل وسيلة إليها أما هى فليست وسيلة لشيء...

- الله يخرب بيتك ..

- له ؟!

- كان أملى أن أجذك فى نشوتك محدثا طريفا لطيفا، ولكنك كالمريض يزيد مرضه الخمر استفحالا، فيم تتحدث يا ترى إذا شربت الكأس الثالثة؟

- لن أشرب أكثر مما شربت، إنى الآن سعيد وفى وسعى أن أدعو أية امرأة تعجبنى ..

- هلا انتظرت قليلا ؟

- ولا دقيقة واحدة ..

سار متأبطا ذراع صاحبه غير هياب ولا متردد، ينظمه تيار من البشر يتلاطم مع تيار آخر قادم من الوجهة المضادة، فى طريق ملتو ضيق برواده. كانت الرؤوس تدور إلى اليمين تارة وإلى اليسار أخرى، وعلى الجانبين بدت مضيفات الطريق قائمات وقاعدات يقلبن فى وجوههن المقنعات بالزواق الفاقع أعين الترحيب والإغراء، ولا تمض آونة حتى يمرق أحدهم من التيار إلى إحداهن فتتبعه إلى الداخل وقد مسحت عن عينيها نظرة الإغراء لتحل محلها نظرة الجد والعمل. وكانت المصاييح المركبة فوق أبواب البيوت والمقاهى تضىء الطريق بأنوار ساطعة انعقدت فى أعاليها سحب الدخان المتطاير من بخور المجامر وتبغ الجوز

والتارجيلات، أما الأصوات فقد تلاقت واختلطت فى دوامة صاخبة دارت بها الضحكات والهتافات وصرير الأبواب والنوافذ وعزف البيانو ومزىكة اليد وتصفيق الأيدي الراقصة وزعيق الشرطى والشخير والنخير وسعال الحشاشين وصراخ السكارى واستغاثات مجهولة وقرع عصى وغناء فردى وجماعى، وفوق الجميع لاحت السماء قريبة من أسطح البيوت البالية ترنو إلى الأرض بأعين لا تطرف. كل حسناء هنا فى متناول اليد، تجود بحسنها وأسرارها نظير عشرة قروش لا غير، فمن كان يصدق هذا قبل أن يراه؟ وخاطب إسماعيل فائلا:

- هارون الرشيد يخطر فى بهو الحريم ..

فتساءل إسماعيل ضاحكا:

- ألم تتعجبك جارية يا أمير المؤمنين؟

فأشار كمال إلى بيت، وقال:

- كانت تقف عند هذا الباب الخالى، ترى أين ذهبت؟

- مع زبون فى الداخل يا أمير المؤمنين، فليستظر مولانا حتى يقضى أحد رعاياه وطره ..

- وأنت ألم تجد ضالتك؟

- إنى قديم عهد بالطريق وأهله، ولكنى لن أمضى إلى وجهتى حتى أسلمك إلى صاحبتك، ماذا أعجبك فيها؟! يوجد أجمل منها كثيرات ..

سمراء لم يطمس الزواق سمرتها، وفى حنجرتها وتر يذكر من بعيد بتلك الموسيقى الخالدة، وقد تجدد العين نوعا من الشبه بين بشرة المختنق وأديم السماء الصافية:

- أتعرفها؟!

- تدعى هنا وردة، واسمها الحقيقى عيوشة.

عيوشة - وردة! لو يستطيع الإنسان أن يغير ماهيته كما يغير اسمه! فى عايذة نفسها شىء يشبه مركب عيوشة - وردة، وفى الدين، وفى عبد الحميد بك شداد، وفى الآمال العريضة، أواه! لكن الخمر ترفعك إلى عرش الآلهة فترى هذه المتناقضات غارقة فى أمواج الفكاهة المقهقهة، مستحقة للعطف، وشعر بكوع إسماعيل ينهزه فى جنبه وهو يقول (دورك)، فنظر صوب الباب فرأى رجلا يغادر البيت متعجلا، وإذا بالمرأة تعود إلى موقفها كما رآها أول مرة، فاتجه نحوها بقدمين ثابتتين فتلقته بابتسامة، ثم مضى إلى الداخل وهى فى أثره تغنى «ارخى الستارة اللى فى ريحنا» . . . ووجد سلما ضيقا فرقى فيه وقلبه يخفق حتى انتهى إلى دهليز يفضى إلى صالة، وصوتها يلاحقه قائلا من حين لآخر «يمينك»، «شمالك»، «هذا الباب الموارب». حجرة صغيرة مورقة الجدران، مكونة من فراش وتسريحة ومشجب وكرسى خشب وطست وإبريق. ووقف فى وسط الحجرة كالمرتبك وعيناه تراقبانها. ومضت هى تغلق الباب والنافذة التى كان يترامى منها صوت دف وصفارة وتصفيق، ولاح وجهها فى أثناء ذلك جادا بل أقرب إلى العبوس والصرامة حتى تساءل ساخرا عما تبته له، ثم واجهته وراحت تقيسه بعينيها طولا وعرضا، ولما مرتا برأسه وأنفه داخله قلق، غير أنه أراد أن يتغلب على قلقه فاقترب منها فاتحاً ذراعيه، ولكنها استنظرت به حركة جافة من يدها وهى تقول «انتظر» فتسمر فى مكانه. بيد أنه كان مصمما على تذليل العراقيل، فقال باسمها فيما يشبه السذاجة:

- أنا اسمى كمال . .

فحدجته بنظرة داهشة وهى تقول:

- تشرفنا!

- نادينى! . . قولى لى «يا كمال»!

فقلت وما تزداد إلا دهشة :

- لماذا أناديك وأنت أمامي كالرزية؟!

أعوذ بالله! ترى أتمازحه؟ وازداد تصميمي على إنقاذ الموقف،

فقال :

- قلت لى أنتظر، ماذا أنتظر؟

- فى هذا لك حق . .

قالت ذاك، ثم نزعت ثوبها بحركة بهلوانية ووثبت إلى الفراش ففرقع تحت ثقلها، واستلقت على ظهرها وراحت تربت بطنها بأناملها المخضبة بالحناء. اتسعت عيناه إنكاراً، لم يكن يتوقع هذه المفاجأة البهلوانية، وشعر بأن كلا منهما فى واد، وما أبعد المدى بين وادى اللذة ووادى العمل . . انهدم فى لحظة ما أقامه الخيال فى أيام، وجرت مرارة الامتعاض فى ريقه، غير أن الرغبة فى الاكتشاف لم تفتّر فغالب انزعاجه ثم حرك ناظريه صوب الجسد العارى حتى استقر على هدف وبدا حيناً كأنه لا يصدق عينيه، وأحدّ بصره فى انزعاج وتقزز حتى شعر فى النهاية بما يشبه الرعب. أهذه هى الحقيقة أم أنه أساء اختيار المثال؟ ولكن مهما يكن من سوء اختياره فهل يغير هذا من الجوهر؟! ونزعم أننا نحب الحقيقة! شد ما ظلموا رأسك وأنفك! وحدثته نفسه بالهرب، وأوشك أن يصغى إليها، ولكنه تساءل فجأة: لماذا لم يهرب الرجل الذى سبقه؟ وماذا يقول لإسماعيل إذا عاد إليه؟ كلا لن يهرب، لن يتراجع أمام المحنة . .

- مالك واقفا كالتمثال؟

هذه النبوة التى هزت الفؤاد، لم تكذب الأذنان ولكن الجهل كذاب، سوف تضحك كثيراً من نفسك ولكن وأنت ظافر لا هارب، هب الحياة مأساة فعليك أن تلعب دورك .

- أتقف هكذا حتى الفجر؟!

قال بهدوء غريب:

- نطفئ النور..

فهبت جالسة في الفراش وهي تقول بجفاء وحذر:

- بشرط أن أراك في النور!

تساءل في إنكار:

- لمه؟

- حتى أطمئن إلى صحتك!

وتجرد للاختبار الصحن في منظر بدا له آية في الهزل، ثم ساد ظلام دامس.

وعندما عاد إلى الطريق كان يحمل بين جنبيه قلبا فاترا مليئا بالحزن، وخيل إليه أنه وسائر البشر يعانون تدهورا مؤلما وأن الخلاص منه بعيد.

ورأى إسماعيل مقبلا نحوه راضيا ساخرا متعبا وهو يتساءل:

- كيف حال الفلسفة؟

فتأبط ذراعه وسار به يسأله بدوره جادا:

- هل النساء جميعا متشابهات؟

فألقي عليه الشاب نظرة متسائلة، فأفصح له كمال عن شكوكه ومخاوفه في عبارة موجزة، فقال إسماعيل باسم:

- على العموم الأصل واحد وإن اختلفت الأعراض! إنك مضحك

لدرجة تستحق الرثاء، هل أستنتج من حالك أنك لن تعود إلى هنا مرة أخرى؟

- بل سأعود أكثر مما تظن، دعنا نشرب كأسا أخرى..

ثم وكأنه يحدث نفسه:

- الجمال . . الجمال ! ما هو الجمال ؟

تاقت نفسه فى هذه اللحظة إلى التطهر والانعزال والتأمل ، وحن إلى ذكرى الحياة التى عاشها معذبا فى ظل المعبودة ، ثم بدا وكأنه آمن بقسوة الحقيقة إلى الأبد . أيجعل من الإعراض عن الحقيقة مذهبه ؟ سار متفكرا فى طريق الحانة يكاد لا يلقى بالا إلى ثرثرة إسماعيل . إذا كانت الحقيقة قاسية فالكذب دميم ، ليست الحقيقة قاسية ولكن الانفلات من الجهل مؤلم كالولادة ، اجر وراء الحقيقة حتى تنقطع منك الأنفاس . ارض بالألم حتى تخلق نفسك من جديد ، هذه المعانى تحتاج إلى عمر لاستيعابها . عمر من التعب تتخلله سويعات من الخمر . .

٣٦

أما هذا المساء فقد جاء كمال الدرب وحده ، جاء ثملا يترغم بصوت هامس ، غير هباب وهو يشق بين تيار البشر المصاحب سبيلا ، ووجد باب وردة خاليا ولكنه لم يتردد كما فعل أول عهده بالدرب ، وإنما قصد البيت ودخل دون استئذان فارتقى السلم حتى انتهى إلى الدهليز ، وهناك مد بصره إلى الباب المغلق الذى بدا ضوء فى ثقب مفتاحه ، ثم مال إلى حجرة انتظار فألفاها لحسن الحظ خالية وجلس على مقعد خشبي ماداً ساقيه فى ارتياح . وبعد مرور دقائق سمع صرير الباب وهو يفتح فتوثب للقيام ، وغادر الرجل الآخر الحجرة كما نمت عليه أقدامه متجها نحو السلم ، فتربث لحظات ثم نهض وذهب إلى الدهليز ، فرأى وردة خلال باب حجرتها المفتوح وهى تعيد ترتيب الفراش ، فلما لمحتة ابتسمت وهتفت به أن يعود إلى مجلسه دقيقة واحدة ، فعاد من حيث

٤٦١

أتى وهو يتسم فى ثقة، ثقة الزبون الذى جاز فترة الحضانة. ولم تكدمر دقيقة على جلوسه حتى ترامى إليه وقع أقدام صاعدة فاستقبلها بضيق، لأنه يكره البقاء مع غيره من المنتظرين غير أن القادم اتجه نحو حجرة وردة، وما لبث كمال أن سمع المرأة وهى تخاطب القادم قائلة بركة :
- عندى زبون فاذهب إلى الحجرة وانتظر . .

ثم رفعت صوتها منادية إياه وهى تقول « تفضل » ، فقام كمال وغادر الحجرة دون تردد فالتقى بالقادم فى الدهليز، وجد نفسه وجها لوجه مع ياسين! التقت عيناهما فى نظرة ذاهلة، وسرعان ما غض كمال جفنيه وهو يذوب خجلا وارتباكا واضطرابا، وأوشك أن يندفع هاربا لولا أن عاجله ياسين بضحكة عالية رنت فى سقف الدهليز رنينا عجيبا، فرفع الشاب إليه عينيه فرآه فاتحا ذراعيه وهو يهتف فى سرور :
- يا ألف ليلة بيضا ! . . يا ألف نهار سلطانى !

وقهقه عاليا فتعلق به نظر كمال فى ذهول، ولما طالع فيه المرح الصافى جعل يفيق إلى نفسه حتى ارتسمت على شفثيه شبه ابتسامة متسائلة، ثم رجعت إليه الطمأنينة وإن لم يفارقه الحياء. وراح ياسين يقول بصوت خطابى :

- هذه ليلة سعيدة، الخميس ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٢٦، ليلة سعيدة حقا، ويجب أن نحتفل بها كل عام، ففيها تكاشف أخوان، وفيها ثبت أن صغير الأسرة يتقدم حاملا لواء تقاليدنا المجيدة فى عالم اللذات !
وعند ذاك جاء وردة وهى تسأل ياسين :
- صديقك؟

فقال ياسين ضاحكا :

- بل أخى ابن أبى وأ. . . كلا ابن أبى فقط، أرأيت أنك معشوقة الأسرة يا بنت الدين؟!

فتمتت قائلة «عفارم»، ثم خاطبت كمال قائلة :

- واجب الأدب نقضى بأن تنزل لأخيك الأكبر عن دورك يا نونو .

فضحك ياسين ضحكته الكبيرة، وقال :

- واجب الأدب! منذا الذى علمك آداب الوصل؟! تصورى أخوا
ينتظر أخاه على الباب! .. ها .. ها ..

فرمقته بنظرة تحذير وهى قول :

- اضحك بصوتك المخيف حتى تسمع البوليس يا سكير، ولكنك
تعذر ما دام أخوك النونو لا يجيئنى إلا مترنحا!

حذج ياسين كمال بنظرة دهش وإكبار ثم قال :

- أعرفت هذا أيضاً! رباه حقاً إننا أولاد حلال، أولاد حلال بالمعنى،
قرب فاك لأشمه! ولكن لا فائدة من ذلك فالسكران لا يشم رائحة
السكران، خبرنى الآن: ما رأيك فى هذه الحكمة التى تعلمتها من
الحياة لا من الكتب؟ .. (ثم وهو يشير إلى وردة) .. إن زيارة
واحدة لبنت الملسوعة هذه تعادل مطالعة عشرة كتب محرمة، إذن
فأنت تسكر يا كمال؟! يا ألف نهار أبيض! نحن أصدقاء من قديم
الزمان، أنا أول من عد ..

- الله الله! .. هل أنتظر حتى مطلع الفجر؟!

دفع ياسين كمال وهو يقول :

- ادخل معها وسوف أنتظر أنا ..

ولكن كمال تقهقر وهو يهز رأسه بالرفض القاطع، ثم تكلم لأول
مرة قائلاً :

- كلا .. ليس .. ليس الليلة .

ودس يده فى جيبه فأخرج نصف ريال ثم أعطاه المرأة . فهتف ياسين
بإعجاب :

- تحيا الشهامة! لكننى لن أتركك وحدك.. .

وربت كتف ورده مودعا، ثم تأبط ذراع كمال وذهبا معا حتى غادرا البيت، قال ياسين:

- يجب أن نحتفل بهذه الليلة، فلنمض بعض الوقت فى بار، إنى عادة أشرب فى شارع محمد على مع نفر من الموظفين وغيرهم، ولكن المكان غير مناسب لك فضلا عن بعده، فلنختر مكانا قريبا حتى تتمكن من العودة مبكرين، بت حريصا مثلك على العودة المبكرة منذ زواجى الأخير، أين سكرت يا بطل؟
غمغم كمال فى حياء:

- فنش.

- عال! هلم بنا إليه، تمتع بوقتك دون تهاون، فغدا حين تصبح معلما سيتعذر عليك زيارة هذا الحى ببيوته وحاناته (ثم وهو يضحك):
تصور أن يلقاك هنا أحد تلاميذك! على أن ميدان اللهو واسع وسوف تتدرج فيه من حسن إلى أحسن.. .

ومضيا إلى فنش صامتين - كان من حسن الحظ أن العلاقة بين ياسين وكمال لم تفتربعد هجرة ياسين للبيت القديم، ولم يكن بينهما كلفة، إذ كان من طبع ياسين ألا يعنى بحقوقه التى تكفلها له مكانته فى الأسرة، إلى أن مخالطة كمال له واطلاعه على سيرته عن كشب واستماعه إلى ما يقال عنه جعلته يؤمن بولع أخيه بالنساء وميله مع الأهواء، ولكنه رغم هذا كله قد بوغت بلفائه فى بيت ورده مباغته عنيفة، إذ لم يذهب به الخيال إلى حد تصور ياسين سكيراً أو متسكعاً فى هذا الدرب! وبمرور الوقت أخذ يتخفف رويدا رويدا من وقع المفاجأة، كما مضى الشعور بالانزعاج يزايله، ثم حل محله إحساس بالطمأنينة بل بالارتياح. ولما بلغا فنش وجداه مكتظا بالجلوس، فاقترح ياسين أن يجلسا فى الخارج، واختار مائدة عند طرف الطوار على ناصية الطريق لىبتعدا ما أمكن عن الناس، ثم جلسا متقابلين وهما يتسلمان:

- أشربت كثيرا؟

أجاب كمال بعد تردد:

- كأسين ..

- لا شك أن لقاءنا غير المتوقع طير أثرهما، فلنعد الكرة، أما أنا فلا أشرب إلا قليلا، سبعة أو ثمانية ..

- يا خبر! . أيعد هذا قليلا؟!

- لا تدهش كالسذج فإنك لم تعد ساذجا ..

- على فكرة، قبل شهرين لم أكن أدري شيئا عن طعمها ..

فقال ياسين كالمستنكر:

- شهرين!! يبدو أنى احترمتك أكثر مما تستحق!

وضحكا معا. ثم طلب ياسين كأسين، وعاد يتساءل:

- ومتى عرفت وردة؟

- عرفت وردة والويسكى فى ليلة واحدة ..

- وما خبرتك بالنساء عدا ذلك؟

- لا شيء ..

فحنى ياسين رأسه وهو ينظر إليه من تحت حاجبيه مقطبا فى ابتسام، كأنما يقول له «اطلع من دول»، ثم قال:

- إياك وادعاء البلاهة، لم يفتنى أن أطلع فى زمن مضى على

مناورات كانت تدور بينك وبين بنت أبو سريع صاحب المقلى،

تارة بالعين وتارة بالإشارة، هه؟ هذه الأمور لا تخفى على الخبير يا

عكروت، ولكن لا شك أنك قنعت بالعبث السطحي حتى لا

تجد نفسك مضطرا إلى مصاهرة عم أبو سريع، كما صاهرت

حماتى السابقة بيومى الشربتلى، هه؟، وها هو قد أصبح من ذوى

الأملاك وجاركم الملاصق! ترى أين اختفت مريم؟ لا أحد يعلم عنها شيئاً، كان أبوها رجلاً طيباً، ألا تذكر السيد محمد رضوان؟ فانظر ما آل إليه بيته؟! لكنها الأخلاق لا تستهين بها امرأة إلا هانت!

فما تمالك كمال أن ضحك متسائلاً:

- والرجل ألا يلحقه من استهانتته شيء؟

فضحك ياسين ضحكته الكبيرة، وقال:

- الرجل غير المرأة يا طويل اللسان، خبرني كيف حال والدتك؟

الست الطيبة، ألا زالت حانقة علىّ حتى بعد طلاق مريم؟

- لا أظنها تذكر شيئاً من الأمر كله، قلب أبيض كما تعلم..

فأمن على قوله، ثم هز رأسه كالأسف. وجاء النادل بالشراب والمزة، وسرعان ما رفع ياسين كأسه وهو يقول: «صحة آل أحمد»، فرفع كمال كأسه ثم شرب نصفها على أمل أن يسترد ما ذهب من مرحه، وقال ياسين بفم مملوء بالخبز الأسود والجبين:

- كان يخيل إليّ أنك ستكون أقرب إلى خلق والدتك، كما كان

المرحوم، فتنبأت لك بالاستقامة، ولكنك، ولكننا..

وحده كمال بنظرة متسائلة، فعاد يقول باسمًا:

- لكننا خلقنا على مثال أبينا..

- أبينا! إنه الجد الذي لا تطاق معه الحياة!

فقهقه ياسين عالياً، وتريث قليلاً، ثم قال:

- إنك لا تعرف أباك، وقد كنت أجهله مثلك، ثم تكشف لي عن

رجل آخر قل أن يجود الزمان بمثله.

وتوقف عن الكلام، فقال كمال بحب استطلاع واهتمام:

- ماذا عرفت مما لم أعرف . . ؟

- عرفت أنه قطب اللطافة والطرب ، لا تحملق في كالمعتوه ، ولا
تظننى سكران ، والدك عمدة الفكاهة والطرب والعشق !
- أبى ؟

- أول ما عرفته فى بيت زبيدة العالمة . .

- زبيدة ماذا؟ . . ها . . ها . .

ولكن وجه ياسين بدا أبعد ما يكون عن الهزل ، فكف كمال عن
الضحك قبل أن تزايل أساريه هيئة الضحك ، ثم أخذ فمه يضيق رويدا
رويدا حتى انطبقت شفتاه فحملق فى وجه أخيه صامتا وهذا يحدثه عما
رأى أو سمع عن أبيهما فى تبسط وإسهاب . هل يفترى ياسين على أبيه
كذابا؟ كيف يمكن أن يقع هذا وأى بواعث تبرره؟! كلا إنه لا ينطق إلا بما
علم ، وهذا إذن هو أبوه ، رباه! والجد والجلال والوقار ما أمرها؟! إذا
سمعت غدا أن الأرض مسطحة أو أن أصل الإنسان هو آدم فلا تدهش
ولا تنزعج ، وأخيرا تساءل :

- أتدرى والدتى بذلك؟

ياسين وهو يضحك :

- لا شك أنها تدرى بسكره على الأقل . .

ترى كيف كان أثر ذلك فى نفسها هى التى تفزع من لا
شئ؟! أتكون أُمى - مثلى - ظاهرا من السعادة وباطنا من الشقاء؟! قال
وكانه ينتحل أسباب للدفاع لا يؤمن بها :

- الناس هواة مبالغة فلا تصدق جميع ما يزعمون ، ثم إن صحته تدل
على أنه رجل معتدل فى حياته .

فقال ياسين بإعجاب ، وهو يشير إلى النادل أن يعيد الكرة :

- إنه أعجوبة! جسمه معجزة ، وروحه معجزة ، كل شئ فيه

معجزة، حتى طول لسانه (ضحك منهما معا) . . تصور أنه بعد هذا كله يحكم آله كما تعلم ويحافظ على جلاله واحترامه كما ترى! . . ما أضيعنى!

تأمل هذه العجائب : أنت ياسين تشاربان! أبوك شيخ ماجن! هل ثمة حقيقى وغير حقيقى؟! ما علاقة الواقع بما فى رؤوسنا؟ ما قيمة التاريخ؟ ما العلاقة بين عايده المعبودة وعايده الحبلى؟ أنا نفسى ما أنا؟! لماذا تأملت ذلك الألم الوحشى الذى لم أبرأ منه بعد؟ اضحك حتى تنفق .

- ما عسى أن يقع لو رآنا بمجلسنا هذا؟

فرقع ياسين بأصبعه، ثم قال :

- أعوذ بالله!

- وهل زبيدة جميلة حقاً؟

فصفّر ياسين وهو يرعش حاجبيه :

- أليس من الظلم أن يتمتع أبونا بالدم، على حين لا نجد نحن إلا الفتات؟

- انتظر حظك، ما زلت فى أول الطريق .

- ألم يتغير سلوكك معه بعد وقوفك على سره؟

- إلا هذا!

لاحت نظرة حاملة فى عينى كمال وهو يقول :

- ليته أعطانا من لطفه نصيباً!

- ليته . .

- ما كان أمرنا ليفسد أكثر مما فسد!

- حب النساء والخمر ليس من الفساد فى شيء . .

- وكيف تفسر سلوكه على ضوء إيمانه العميق؟

- وهل أنا كافر؟! وهل أنت كافر؟! وهل كان الخلفاء كفرة؟ الله
غفور رحيم!

ما عسى أن يكون جواب أبى؟ شد ما أتوق إلى مناقشته، كل شيء
محتمل إلا أن يكون منافقا، كلا ليس هو بالمنافق، وما أزداد له إلا حبا!
وغمرته الجرعة الأخيرة رغبة فى الدعابة، فقال:

- من المؤسف أنه لم يتعلم فن التمثيل!

فضحك ياسين ضحكة عالية، وقال:

- لو علم بما يتهيأ للممثل من حياة حافلة بالنساء والخمر لكرس حياته
للفن!

أهذا الكلام الهازئ عن السيد أحمد عبد الجواد حقا! ولكن هل
يكون هو أجل من آدم؟ ومع ذلك فالمصادفة وحدها هى التى عرفتك
بحقيقة الرجل، والمصادفة هى التى لعبت فى حياتك أخطر الأدوار، لو
لم أصادف ياسين فى الدرب لما انقشعت عن عيني غشاوة الجهل، لو لم
يجذبني ياسين على جهله إلى القراءة لكنت اليوم فى مدرسة الطب
كما تمنى أبى، ولو التحقت بالسعيدية ما عرفت عايده، ولو لم أعرف
عايده لكنت إنسانا غير الإنسان ولكان الكون غير الكون، ثم يحلو
للبعض أن يعيب على دارون اعتماده على المصادفة فى تفسير آلية
مذهبه. قال ياسين مستعيرا لهجة الحكيم:

- سوف تعلمك الأيام ما لم تعلم ..

ثم وهو يسخر من نفسه:

- ها هى تعلمنى أن أقضى لذاتى مبكرا حتى لا أثير شكوك
زوجتى ..

وهز رأسه وهو ينظر إلى عيني كمال المتسائلتين الباسمتين، ثم
استطرد:

- إنها أقوى زوجاتي الثلاث ، ويخيل إلى أننى لن أتخلص منها!

فسأله كمال باهتمام وهو يشير ناحية الدرب :

- ما الذى جاء بك إلى هذا وأنت متزوج للمرة الثالثة؟

فردد ياسين الجملة المشهورة من الأغنية التى سمعها كمال أول ما سمعها فى دخلة عائشة :

- علشان كده . . علشان كده . . علشان كده . .

ثم قال مبتسما فى شىء من الارتباك :

- قالت لى زنوبة مرة «أنت لم تتزوج قط ، كنت تعتبر الزواج نوعا من

العشق ، وقد آن لك أن تنظر إليه بعين الجد» ، أليس غريبا أن يصدر

هذا القول عن عوادة؟! ولكنها فيما يبدو أحرص على الحياة

الزوجية من سابقتها ، وهى مصممة على أن تبقى زوجة لى حتى

تغمض عيني ، لكننى لا أستطيع أن أقاوم النسوان ، سرعان ما

أحبهن وسرعان ما أملهن ، لذلك عمدت إلى هذه الدروب لأقضى

اللبانة مبكرا دون التورط فى عشق طويل ، ولولا الملل ما سعت

إلى امرأة فى درب طياب!

فسأله كمال باهتمام متزايد :

- أليست هى امرأة ككل النساء؟

- كلا ، إنها امرأة بلا قلب ، الهوى عندها سلعة!

فعاد كمال يسأل وعينه تلمعان بالأمل :

- ماذا ترى من اختلاف بين امرأة وأخرى؟

هز ياسين رأسه فى زهو إدلالا بالمكانة التى وضعت فيها أسئلة كمال ،

ثم أجاب بلهجة خبير :

- درجة المرأة تتقرر فى كادر النساء تبعا لمزاياها الأخلاقية والعاطفية

بصرف النظر عن أسرتها ومركزها ، فزنوبة مثلاً أفضل عندي من زينب ؛ لأنها أعمق عاطفة وأشد إخلاصاً وحرصاً على الحياة الزوجية ، ولكنك فى النهاية تجدهن شيئاً واحداً ، عاشر الملكة بلقيس نفسها فلا محيص من أن تجدها آخر الأمر منظر معاداً ونغمة مكررة .

خبيا اللمعان فى عيني كمال ، ترى هل أمست عايذة منظرًا معاداً ونغمة مكررة؟! ما أبعد هذا التصور عن التصديق! ولكن ما أنت إلا صريع الواقع ، وحتى الشماتة بها تكبر عليك وتعز ، وإنه لما يبعث على الجنون أن يعلم المعبود الذى تذهب النفس حسرة عليه أنه كان فى وسع الأيام أن تجعل منه منظرًا معاداً ونغمة مكررة ، بل أى الحالين أحب إليك إن استطعت جواباً؟ غير أننى أتحسر أحياناً على الملل من شدة الشوق كما يتحسر ياسين على الشوق من شدة الملل ، وارفع رأسك أخيراً إلى رب السماوات وسله عن حل سعيد :

- ألم تحب أبداً؟

- إذن ما هذا الذى أنا غارق فيه؟!

- أعنى حبا حقيقيا لا هذه الشهوة العابرة . . ؟

أفرغ كأسه الثالثة ، ومسح على فمه بظاهر كفه ، ثم قتل شاربه وقال :
 - لا تؤاخذنى ، الحب يتركز عندي فى بعض مواضع كالقم واليد إلخ إلخ .

ياسين جميل ، ما كانت لتسخر من رأسه أو أنفه ، ولكنه بما قال يبدو حقيقاً بالراء ، كأن الإنسان لا يكون إنساناً إلا أن يحب ، ولكن ما جدوى ذلك وما جنيت من الحب إلا الألم؟! واستطرد ياسين قائلاً ، وهو يحثه بالإشارة على الفراغ من كأسه :

- لا تصدق ما يقال عن الحب فى الروايات ، الحب عاطفة أيام أو أسابيع مع حسن الظن!

كفرت بالخلود ولكن هل نسيان الحب ممكن؟ لم أعد كما كنت، إنى أتسلل من جحيم العذاب فتشغلنى الحياة حيناً حتى أرجع إليه، وكان الموت قبلتى واليوم ثمة حياة ولو بلا أمل، العجب أنك تثور على فكرة النسيان كلما خطرت، كأنما تعاني تبكيت الضمير، أو لعلك تخاف أن ينكشف أجلّ ما قدست عن وهم، أو أنك تأبى على يد العدم أن تعبث بالحياة الرائعة التى بدونها تغدو ومن لم يولد سواء، لكن ألا تذكر لمّ بسطت الراحتين داعياً الله أن ينتشلك من العذاب وأن يلهمك النسيان؟!

- ولكن الحب الحقيقى موجود، نقرأ حوادثه فى الصحف لا فى الروايات ..

ابتسم ياسين ابتسامة ساخرة، ثم قال :

- بالرغم من أننى مبتلى بحب النسوان فإننى لا أعترف بهذا الحب، إن المأسى التى تقرأ أخبارها تتحدث فى الواقع عن شبان غير مجربين، أسمعت عن مجنون ليلى؟ لعل له نظائر فى هذه الحكايات، ولكن المجنون لم يتزوج من ليلى؟ دلنى على شخص واحد جن بحب زوجته! واأسفاه! إن الأزواج عقلاء جداً، عقلاء ولو كرهوا، أما الزوجة فيبدأ بالزواج جنونها، لأنها لا تقتنع بأقل من أن تزدرد زوجها، ويخيل إلى أن المجانين يصيرون عشاقاً لأنهم مجانين لا أن العشاق يصيرون مجانين لأنهم عشاق، تراهم يتحدثون عن المرأة كأنما يتحدثون عن ملاك، والمرأة ليست إلا امرأة، طعام لذيد سرعان ما تشبع منه، دعمهم يشاركونها الفراش ليطلعوا على منظرها عند الاستيقاظ وليشموا رائحة عرقها وسائر الروائح التى قد تصدر عنها وليحدثوني بعد ذلك عن الملاك. فتنة المرأة ما هى إلا طلاء أو أداة إغراء حتى تقع فى الشرك وعند ذاك يبدو لك المخلوق الآدمى على حقيقته: لذلك فالأبناء

ومؤخر الصداق والنفقة الشرعية هي سر قوة الزواج لا الجمال أو الفتنة . .

ما كان أجدره أن يغير رأيه لو رأى عايده، غير أنه ينبغي أن تفكر من جديد في أمر الحب . كنت تراه وحيا ملائكيا ولكن لم يعد للملائكة وجود فابحث في ذات الإنسان واسلكه ضمن الحقائق الفلسفية والعلمية التي تشوق إلى اقتحامها، بذلك تقف على سر مأساتك وتكشف النقاب عن سر عايده المكنون، لن تجدها ملاكا ولكن باب السحر سيفتح لك مصراعيه، أما الوحم والحبل والمنظر المعاد وسائر الروائح فما أتعسنى!

قال كمال بأسى لم يفطن إليه أخوه :

- الإنسان مخلوق قدر، ألم يكن من الممكن أن يخلق خيرا وأنظف مما كان؟!!

رفع ياسين رأسه دون أن ينظر إلى شيء بالذات، وقال بسرور عجيب :

- الله . الله ، النفس شعشت واستحالت أغنية ، وانقلبت الأعضاء آلات طرب ، والدنيا حلوة ، والكائنات حبيبة للقلب ، والجو عذب والحقيقة خيال ، والخيال حقيقة ، أما المنغصات فأسطورة ، الله . . الله ، ما أجمل الخمر يا كمال ! الله يطول عمرها ويديمها علينا ويعطينا الصحة والعافية لشربها حتى آخر العمر ، ويخرب بيت الذي يمسها بسوء أو يتقول عليها بغير الحق ، تأمل هذه النشوة الحلوة ، تأمل ، أغمض عينيك ، هل وجدت لذة كهذه؟ . . الله . . الله . . الله ، (ثم وهو يخفض رأسه ناظرا إلى كمال) . . ماذا قلت يا ولدي؟ . . الإنسان مخلوق قدر؟ أساءك ما قلت عن المرأة؟ لم أتكلم لأثير اشمئزازك منها، الواقع أنى أحبها، أحبها بكل ما فيها، ولكنى أردت أن أبرهن لك على أن المرأة الملاك لا وجود لها

بل لا أدري إن كنت أحبها إن وجدت! فإني مثلاً - كأبيك - أحب
الأرداف الثقيلة، ولو كان الملاك ذا أرداف ثقيلة لتعذر عليه
الطيران، افهمنى جيداً لا تسيء فهما وحياة أيينا السيد أحمد . .
وما لبث كمال أن شاركه نشوته، فقال:

- لشد ما تبدو الدنيا محبوبة إذا سرت الخمر فى الروح!
- يسلم فمك، حتى النغمة المألوفة يترنم بها شحاذ الطريق تقع من
الأذن موقع السحر . .

- حتى أحزاننا تبدو كأنها أحزان شخص آخر . .
- بخلاف نساء الشخص الآخر، فإنها تبدو وكأنها نساؤنا . .
- هما شىء واحد يا بن أبى . .
- الله . . الله، لا أريد أن أفيق . .

- من رذالة الحياة أنها لا تمكننا من الاستمرار فى السكر كما نهوى . .
- ليكن فى معلومك أننى لا أرى فى السكر لهوا، ولكن غاية سامية
كالمعرفة والمثل الأعلى . .
- إذن فأنا فيلسوف كبير!

- عندما تؤمن بما قلت وليس قبل ذلك . .
- الله يطول عمرك يا أبى، فقد أنجبت فلاسفة مثلك!
- لم يبدو الإنسان تعيساً مع أنه لا يطلب أحسن من كأس وما أكثر
القوارير، وامرأة وما أكثر النساء؟!
- له . . له . . ؟ . .

- سأجيبك عندما أشرب كأساً أخرى .
- كلا . .

قال ياسين ذلك بصوت وشى بصحوة طارئة، ثم استطرد محذراً:
- لا تفرط، إنى شريكك الليلة فأنا مستول عنك، كم الساعة الآن؟

وأخرج ساعته فنظر فيها، ثم هتف:

- منتصف الواحدة، وقع المحذور يا بطل، كلانا قد تأخر، وراءك
أبونا وورائي زنوبة، قم بنا . .

ولم تمض دقائق حتى غادرا البار، فاستقلا عربة انطلقت بهما صوب
العتبة، دارت العربة حول سور الأزيكية فى طريق يسوده الظلام، وبين
أونة وأخرى يرى عابر مهرولا أو مترنحا، وكلما مرت العربة بشارع
مقاطع ترمى إليهما صوت غناء تحمل له نسمة رطيبة، أما فوق المباني
وأشجار الحديقة الباسقة فقد تألقت النجوم اليواظ .

قال ياسين ضاحكا:

- أستطيع الليلة أن أحلف غير متحرج بأننى لم آت منكرا . .

فقال كمال فى شىء من القلق:

- أرجو أن أصل إلى البيت قبل أبى . .

- الخوف شر أنواع التعاسة، لتحيا الثورة!

- أجل لتحيا الثورة!

- لتسقط الزوجة المستبدة!

- ليسقط الأب المستبد!

٣٧

طرق كمال الباب فى خفة حتى فُتح عن شبح أم حنفى، ولما عرفته
قالت بصوت هامس:

- سيدى الكبير على السلم . .

فانتظر وراء الباب حتى يطمئن إلى وصول أبيه إلى الدور الأعلى،
غير أن صوته جاء من داخل السلم وهو يسأل بشدة:
- من الطارق؟

فخفق قلبه ولم يربدا من التقدم وهو يجيبه:
- أنا يا بابا . .

ترأى له شبح أبيه على بسطة الدور الأول على حين لاح ضوء
المصباح الذى تمسك به الأم فى أعلى السلم، ونظر السيد إليه من فوق
الدرازين، وهو يتساءل فى دهش:

- كمال؟! . . ما الذى أحرَّك خارج البيت حتى هذه الساعة؟
أخرنى الذى أحرَّك . .
قال بإشفاق:

- ذهبت إلى المسرح لأشهد التمثيلية المقررة علينا هذا العام . .
فصاح ساخطاً:

- هل أصبحت المذاكرة فى المسارح؟! ألا يكفى أن تقرأ وتحفظ؟ كلام
فارغ سمج، ولم لَمْ تستأذنى؟

توقف كمال على بعد درجات من موقف أبيه، وقال معتذراً:
- لم أتوقع أن تمتد السهرة إلى هذه الساعة المتأخرة .
فقال الرجل بغضب:

- شف لك طريقة أخرى للمذاكرة ودعك من الأعذار السخيفة . .

ومضى يرقى فى السلم وهو يدمدم، فترامت إليه كلمات من دمدمة
مثل «مذاكرة المسارح على آخر الزمن»، «الساعة واحدة بعد منتصف
الليل»، «حتى الأطفال»، «ملعون أبوك وأبو التمثيلية المقررة». ارتقى
السلم حتى الدور الأخير ومضى إلى الصالة، فتناول مصباحاً مضاء من
فوق منضدة ودخل حجرته مكفهر الوجه، وضع المصباح على المكتب

ووقف مستندا بكلتا يديه يتساءل : عن تاريخ آخر شتيمة قذفه بها أبوه فلم يتذكره على وجه التحديد ، ولكنه كان واثقا من أن سنوات دراسته العالية مرت في سلام وكرامة ، ولذلك وقعت اللعنة من نفسه - رغم أنه لم يواجه بها - موقعا أليما . وتحول عن مكتبه فخلع طربوشه وشرع في نزع ملابسه ، وعلى حين فجأة شعر بدوار في رأسه وجزع في معدته ، فغادر الحجرة مسرعا إلى الحمام حيث قذف جوفه بما فيه في عنف ومرارة ، وعاد إلى الحجرة مرة أخرى منهوك القوى ، متقرز النفس يجد في صدره ألما أشد وأعمق ، وخلع ملابسه وأطفأ المصباح ثم استلقى على الفراش وهو ينفخ في ضيق وضجر ، ولكن لم تمض دقائق حتى سمع الباب وهو يفتح برفق ، ثم جاءه صوت أمه متسائلا في إشفاق :

- نمت . . ؟

فقال بلهجة طبيعية راضية ليصرفها عنه ويخلو إلى ما هو فيه :

- نعم . .

فتدانى شبحها من الفراش حتى وقفت فوق رأسه ، ثم قالت كالمعتذرة :

- لا تتكدر ، أنت أعلم الناس بأبيك . .

- مفهوم . . مفهوم !

فقالت وكأنما أرادت أن تفصح عما ساورها هي :

- إنه مطلع على جلگ واستقامتك ، ومن هنا جاء إنكاره لتأخرک غير المألوف حتى هذه الساعة . .

فركبه الغيظ حتى لم يتمالك من أن يقول :

- إذا كان السهر يستوجب كل هذا الإنكار ، فلماذا يواظب هو عليه ؟ !

حال الظلام دون رؤية ما ارتسم على وجهها من دهش وإنكار ، لكنه

سمعتها تضحك من أنفها لتوهمه بأنها لم تحمل قوله على محمل الجد،
وقالت :

- كل الرجال يسهرون، وسوف تصير رجلا عما قريب، أما الآن!
وأنت طالب . . .

فقاطعتها قائلاً بلهجة من يود الفراغ من الحديث :

- مفهوم . . مفهوم، لم أقصد بقولي شيئاً، لماذا تعبت نفسك بالمجيء
إلى؟ عودي مصحوبة بالسلامة . .

قالت برقة :

- خفت أن تكون متكدرا، سأتركك الآن ولكن عدنى بأن تنام صافى
النفس، اقرأ الصمدية حتى يأتبك النوم . .

وشعر بابتعادها، ثم سمع الباب وهو يغلق وصوتها يقول «مساء
الخير». نفخ مرة أخرى، وراح يمسح صدره وبطنه وهو يحملق فى
الظلام . . أما مذاق الحياة كلها فكان مرا، أين ذهبت نشوة الخمر
الساحرة؟ وما هذا الكرب الخانق الذى حل محلها؟ ما أشبهه بخيبة
الحب التى ورثت أحلامه السماوية! ومع ذلك فلولوا الأب ما انقلب
حاله. هذه القوة الجبارة التى يخافها كل الخوف، يخافها ويحبها معا،
ما كنهها؟ ليس إلا رجلاً لولا مرحة الذى خص به الغرباء لم يكن شيئاً،
فكيف يخافه؟ وحتى متى يدعن لقوة هذا الخوف؟ إنه وهم كسائر
الأوهام التى امتحن بها، ولكن ما جدوى المنطق فى مقاومة العواطف
الثابتة؟ وقد قرعت يده يوماً أبواب عابدين فى المظاهرة الكبرى التى
تحدث الملك هاتفة «سعد أو الثورة»، فترجع الملك واستقال سعد من
الوزارة . . أما حيال أبيه فإنه يصير لا شىء. كل شىء. تغيير مدلوله
ومعناه، الله . . آدم . . الحسين . . الحب . . عايدة نفسها . . الخلود.
قلت الخلود؟ نعم، فيما يجرى على الحب وفيما جرى على فهمى،

ذلك الأخ الشهيد الذى استضافه الفناء إلى الأبد، أتذكر التجربة التى قمت بها وأنت فى الثانية عشرة من عمرك لتعرف مصيره المجهول؟ .. يا للذكرى المحزنة! .. اقتنصت عصفورة من عشها ثم خنقتها، وكففتها وحفرت لها قبراً صغيراً فى فناء البيت على كثر من البئر القديمة ثم دفنتها فيها، وبعد أيام أو أسابيع نبشت القبر وأخرجت الجثة، فماذا رأيت؟ وماذا شممت؟ ذهبت إلى أمك باكية تسألها عن مصير الميت، كل ميت، ومصير فهمى خاصة فلم يصدق عنها إلا إفحامها فى البكاء، فماذا بقى من فهمى بعد سبع سنوات؟ وماذا سيبقى من الحب؟ وعم تمخض الأب الجليل؟

ألفت عيناه ظلام الحجرة فتراءى المكتب والمشجب والكرسى والصوان أشباحاً قائمة، وندت عن الصمت نفسه أصوات مبهمه، وامتلاً رأسها بالأرق المحموم، أما مذاق الحياة فازداد مرارة، وتساءل: هل غط ياسين فى نومه؟ وعلى أى حال كان لقاء زنوبة له؟ وهل آوى حسين إلى فراشه الباريسى؟ وعلى أى جانب تنام عايذة الآن؟ وهل تكور بطنها وانداح؟ وماذا يفعلون فى نصف الكرة الآخر الذى تتربع الشمس فى كبد سمائه؟ .. والكواكب المنيرة، أليس ثمة حياة تعمرها خالية من التعاسة؟ وهل يمكن أن يسمع أنينه الخافت فى ذلك الأوركسترا الكونى اللانهائى؟!

أبى! دعنى أكاشفك بما فى نفسى، لست ساخطاً على ما تكشف لى من شخصك، فإن ما كنت أجهله منك أحب إلى مما كنت أعرف، إنى معجب بلطفك وظرفك ومجونك وعربدتك ومغامراتك، ذلك الجانب الدميث منك الذى يعشقه جميع عارفيه، وهو إن دل على شئ فعلى حيويتك وهيامك بالحياة والناس، ولكنى أسألك لم ارتضيت أن تطالعنا بهذا القناع اللفظ المخيف؟ لا تعتل بأصول التربية فأنت أجهل الناس بها، وآى ذلك ما ترى وما لا ترى من سلوك ياسين

وسلوكى، فما فعلت إلا أن آذيتنا كثيرا وعذبتنا كثيرا بجهل لا يشفع لك فيه حسن نيتك، لا تجزع فإنى ما زلت أحبك وأعجب بك، وسأبقى على الدوام مخلصا لحبك والإعجاب بك، غير أن نفسى تضر لك لوما شديدا يعادل ما جرعتنى من ألم، لم نعرفك صديقا كما عرفك الغرباء، ولكن عرفناك حاكما مستبدا شرسا طاغية، كأنما كنت أول مقصود بالمثل القائل «عدو عاقل خير من صديق جاهل»، لذا سأكره الجهل أكثر من أى شىء فى الحياة، فهو المفسد لكل شىء حتى الأبوة المقدسة. خير منك أب له نصف جهلك ونصف حبك لأبنائك، وإنى أعاهد نفسى - إذا صرت يوما أباً - أن أكون لأبنائى الصديق قبل أن أكون المربى، غير أنى ما زلت أحبك وأعجب بك حتى بعد أن زايلتك صفات الألوهية التى توهمتها فيما مضى عيناى المسحورتان. أجل لم تعد قوتك إلا أسطورة، فلست مستشارا كسليم بك، ولا غنيا كشداد بك، ولا زعيما كسعد زغلول، ولا داهية كثروت، ولا نبىلا كعدلى، ولكنك صديق محبوب وحسبك هذا، وما هو بالقليل، فليتك لم تضمن علينا بصداقتك، ولكن لست وحدثك الذى تغيرت فكرته، الله نفسه لم يعد الله الذى عبده قديما، إنى أغربل صفات ذاته لأنقيها من الجبروت والاستبداد والقهر والدكتاتورية وسائر الغرائز البشرية، ولست أدرى أين ينبغ أن أشكم الفكر ولا إن كان من الفضيلة أن أشكمه، بل إن نفسى تحدثنى بأنى لن أقف عند حد وبأن النضال على عذابه خير من الاستكانة والنوم - قد لا يهتمك هذا بقدر ما يهتمك أن تعلم أنى قررت أن أضع حدا لاستبدادك، استبدادك الذى يغشانى كما يغشانى هذا الظلام المحيط، والذى يؤلمنى كما يؤلمنى هذا الأرق اللعين، أما الخمر فلن أذوقها جزاء خيانتها لى، وأأسفاه! إذا كانت الخمر أيضاً وهما خادعا فما بقى للإنسان؟ أقول لك إنى قررت أن أضع حدا لاستبدادك، لا بالتحدى والعصيان فأنت أكرم على نفسى من أن أفعل بك هذا، ولكن

بالهجرة! أجل لأهاجرن من بيتك حال أقف على قدمي، وفي أحياء
 القاهرة متسع لكل مضطهد، أتدري ماذا كانت عواقب حبي لك رغم
 استبدادك بي؟ إنني عبدت مستبداً آخر طالما ظلمني بظاھره وباطنه معا،
 استبد بي دون أن يحبني، ورغم ذلك كله عبدته من أعماقي ولا زلت
 أعبد، فأنت أول مسئول عن حبي وعذابي. ترى ما نصيب هذه الفكرة
 من الحقيقة؟! لست مرتاحاً إليها ولا متحمساً لها، ومهما يكن من
 واقعية الحب فلا شك أنه يرجع إلى أسباب أعمق أصالة في النفس،
 فلنتركها الآن معلقة حتى نعود إليها بالدرس فيما بعد، وعلى أي حال
 فأنت يا أبي الذي هوّنت على الإحساس بالظلم بمداومتك على
 الاستبداد بي، وأنت يا أمي لا تحملقي في وجهي بإنكار أو تتساءلي ما
 ذنبي وما جنيت على أحد، إنه الجهل. هو جنائتك. الجهل. .
 الجهل. . الجهل. أبي هو الفظاظ الجاهلة، وأنت الرقة الجاهلة،
 وسوف أظل ما حييت ضحية هذين الضدين، وجهلك أيضاً هو الذي
 ملأ روحي بالأساطير، فأنت همزة الوصل بيني وبين عالم الكهوف.
 وكم أشقى اليوم في سبيل التحرر من آثارك كما سأشقى غداً في سبيل
 التحرر من أبي، وما كان أحراكما أن توفرا على هذا الجهد المضني،
 لذلك أقترح - وظلام هذه الحجرة شهيد - أن تلغي الأسرة - هذه الحفرة
 التي يتجمع فيها الماء الآسن - وأن تزول الأبوة والأمومة، بل هبني وطناً
 بلا تاريخ وحياة بلا ماضٍ، ولننظر الآن في المرأة فماذا نرى؟ هذا الأنف
 الضخم وهذا الرأس الكبير. أعطيتني أنفك يا أبي دون مشورة أو رحمة
 فأنت تستبد بي حتى قبل أن أولد، ومع أنه يبدو في وجهك مهيأ جليلاً
 فإنه - بذاته وشكله - يلوح مضحكا في صفحة وجهي الضيقة كأنه جندي
 إنجليزي في حلقة ذكر، وأعجب منه رأسى لأنه لا إلى فصيلة رأسك
 ينتمي ولا إلى فصيلة رأس أمي فعن أي جد بعيد انحدر إلى؟ فليظل ذنبه
 معلقاً فوق رأسيكما حتى يتضح لي الحق، قبيل النوم يجب أن تقول

«الوداع» فقد لا يطلع الصبح علينا . إننى أحب الحياة رغم ما فعلته بى على طريقة حبيبى إياك يا أبى . وفى الحياة أشياء جديدة بالحب وصفحة وجهها مليئة بعلامات الاستفهام مثيرة للشغف ، غير أن النافع فيها لا نفع فيه وما لا نفع فيه عظيم الشأن ، والراجح أنى لن أعود إلى تقبيل الكأس فقل وداعا أيتها الخمر ، ولكن مهلا . أذكر ليلة غادرت بيت عيوشة عاقدا العزم على ألا أقرب النساء ما حييت وكيف انقلبت بعد ذلك زبونها الأثير ، ويخيل إلى أن الإنسانية تثن مثلى من الخمار والغنيان فادع لها بالشفاء العاجل . .

٣٨

فتر حماس ياسين حال انفراده بنفسه فى العربة بعد ذهاب كمال ، وبدا كالمفكر رغم سكره ، إذ جاوزت الساعة الواحدة ودخل الوقت منذ كثير فى الهزيع المريب من الليل ، وسوف يجد زنوبة إما يقضى تنتظر وتغلى وإما أنها ستستيقظ حين دخوله ، وعلى أى حال فلن تمر الليلة بسلام ، بسلام كامل على الأقل .

غادر العربة عند منعطف قصر الشوق ومضى يخوض الظلام الدامس وهو يهز كتفيه العريضين فى استهانة ويقول لنفسه بصوت هامس : «ليس ياسين الذى يعمل حسابا لامرأة» ، وكرر هذا القول وهو يرقى فى الدرج مسترشدا فى الظلام بالدرابزين ، غير أن تكراره إياه لم ينم عن طمأنينة قاطعة . وفتح الباب ودخل ، ثم مضى إلى حجرة النوم على ضوء مصباح الصالة ، وألقى على الفراش نظرة فرأها نائمة ، فرد الباب ليحول دون تسرب الضوء الخافت الآتى من الصالة ، وراح يخلع

ملابسه فى هدوء وحذر وهو يزاد اطمئنانا إلى استغراقها فى النوم، ويرسم فى ذهنه خطة للتسلل إلى موضعه فى الفراش دون أن يحدث صوتا .

- أشعل المصباح لأكحل عينى برؤيتك!

التفت رأسه نحو الفراش ثم ابتسم فى تسليم، وأخيرا تساءل كالداهش:

- أأنت يقظى؟! ظننتك نائمة فلم أشأ أن أزعجك!

- قلبك طيب، كم الساعة الآن؟

- الثانية عشرة على الأكثر، فإني غادرت المجلس حوالى الحادية عشر، وجئت ماشيا واحدة واحدة . .

- لازم كان مجلسك فى بنها!

- لماذا؟ . . هل تأخرت؟

- انتظر حتى يجييك ديك الفجر بنفسه .

- لعله لم ينم بعد!

وجلس على الكنبه ليخلع حذاءه وجوربه ولم يكن عليه إلا القميص والسروال، وعند ذاك ندت عن السرير طقطقة ورأى شبحها يستوى جالسا، ثم سمعها تقول فى حدة:

- أشعل المصباح .

- لا داعى لذلك، فقد فرغت من خلع ملابسى .

- أريد أن نصفى حسابنا فى النور . .

- تصفية الحساب فى الظلام ألطف!

وصدرت عنها نفخة غيظ ثم غادرت الفراش، وكنبه مد ذراعيه من مجلسه القريب فأصاب منكبها فجذبها إلى الكنبه وأجلسها إلى جانبه وهو يقول:

- لا تشعلى الفتنة .

تخلصت من يده ، وقالت :

- أين ما تعاهدنا عليه ؟ لقد قبلت أن تسكر فى الحانات كما تحب على شرط أن تعود إلى بيتك فى وقت مبكر ، قبلت هذا على رضى لأنك لو سكرت فى بيتك لوفرت على نفسك مالا كثيرا يضيع هباء ، ومع ذلك فهأ أنت تعود قبيل الفجر غير مبال بما تعاهدنا عليه !

من يستطيع أن يخادع ربيبة التخت والعود ؟ وإذا ثبتت لها خيانتك يوما فهل تقف عند حد الشجار أم . . ؟ فكر مرتين ، ولا تنس كذلك أن فقدوها لا يهون ، إنها أحب زوجاتى إلى ، خبيرة بما يسعدنى ، متمسكة بحياتنا ، لولا الملل . . !

- كنت فى مجلس كل ليلة لم أغادره إلا إلى بيتى ، وعندى شاهد تعرفينه ، أندرين من هو ؟ (وضحك بصوت عال) . .
ولكنها قالت ببرود :

- تكلم فى الموضوع !

فقال وهو لا يزال يضحك :

- كان جليسى الليلة أخى كمال !

فلم تدهش كما توقع ، وقالت فى نفاد صبر :

- من يشهد للعروس ؟ !

- لا تكابرى ! . . براءتى كالشمس ! . . (ثم متأففا) . . يحزننى والله أن ترتابى فى سلوكى ، شبت من الدوران حتى المرض ، ولا رغبة لى الآن إلا الحياة الهادئة ، أما الحانة فتسلىة بريئة لا غبار عليها ، ولا بد للإنسان من مخالطة الناس . .

فقال بصوت دلت نبرته على الانفعال :

- آه منك . أنت تعلم أنى لست طفلة ، وأن الضحك على مطلب
عسير ، وأنه من الخير لكلينا ألا تدخل بيننا الريبة !

موعظة أم وعيد ؟! أين منى حياة أبى المثالية ، الرجل الذى يفعل ما
يشاء فإذا رجع إلى بيته وجد الاستقرار والحب والطاعة ، لم يتحقق لى
هذا الحلم على يد زينب ولا مريم وأخلق به ألا يتحقق على يد زنوبة ، لا
ينبغى لهذه العوادة الجميلة أن تياس طالما هى على ذمتى ! قال بحزم :

- لو كان بى رغبة إلى مزيد من الحرام ما تزوجتك !
فهمت بحدّة :

- ولكنك تزوجت من قبل مرتين ، فلم يمنعك الزواج من الحرام !
نفخ ناشراً أنفاساً مخمورة ، ثم قال :

- حالتك غير الحالتين السابقتين يا غبية ، الزوجة الأولى اختارها أبى
وفرضها علىّ ، والزوجة الثانية لم تجعل لى من سبيل إليها إلا
بالزواج فتزوجتها ، أما أنت فلم يفرضك أحد علىّ ، ولم يغلق
بابك دونى قبل الزواج ، ولم يكن الزواج منك ليعدنى بشيء جديد
لم أعرفه ، فلم تزوجتك يا غبية إن لم يكن الزواج نفسه - أى الحياة
المستقيمة المستقرة - مطلبى ؟! والله لو كان بك ذرة من عقل ما
سمحت لنفسك بالشك فى أبدا . .

- حتى إن جئتني عند الفجر ؟!

- حتى إن جئتك عند الصبح !

فهمت بحدّة :

- نه ، قل كلاماً آخر أو فعلى الأمن السلام !

فقال بحدّة وهو يقطب فى نرفزة :

- ألف سلام !

- أرحل ، أرض الله واسعة والرزق على الله . .

فقال فى استهانة متعمدا :

- أنت وشأنك . .

فقال بصوت واش بالوعيد :

- أرحل غير أنى كالشوكة لا تنتزع بيسر .

فتمادى فى الاستهانة بها قائلا :

- خز عبلا! تذهبين بأيسر مما يخلع الحذاء . .

ولكنها غيرت النغمة من التحدى والتهديد إلى التشكى ، فهتفت :

- أأرمى بنفسى من النافذة فأريح وأستريح . . ؟!

فهز كتفيه استهانة ، ثم نهض وهو يقول بلهجة أخف :

- ثمة طريق أفضل هو أن تقومى إلى الفراش ، هلمى لنام واخزى

الشیطان . .

اتجه نحو الفراش فاستلقى عليه وهو يتأوه كأنما طال به التشوق

للقاد ، أما هى فعادت تقول وكأنها تحدث نفسها :

- مكتوب على من يعاشرك التعب . .

التعب مكتوب علىّ أنا أيضاً ، جنسك هو المستول ، لا واحدة تغنى

عن الأخريات وقهر الملل فوق طاقتهن ، ولكن لن أعود إلى العزوبة

مختاراً ، لا أستطيع أن أبيع كل عام دكاناً فى سبيل زواج جديد ، فلتبق

زنوبة على شرط ألا تركبنى ، الرجل المجنون يحتاج إلى امرأة عاقلة ،

زنوبة وعاقلة؟!

- أبقى على الكنبه حتى الصبح؟

- لن يغمض لى جفن ، دعنى لما بى وتمتع أنت بالنوم .

لا بد مما ليس منه بد ، مد ذراعيه حتى قبض على منكبها ، ثم جذبها

إليه وهو يغمغم :

- فراشك!

فقاومت مقاومة غير عسيرة، ثم استسلمت ليده فمضت إلى الفراش وهي تقول متأوهة:

- متى تتاح لى راحة البال كسائر النساء؟

- اطمئنى، ينبغى أن تضعى فى كل ثقتك، إنى أهل للثقة، مثلى لا يكون سعيدا إلا إذا سهر، ولن تسعدى أنت إذا أتعبتنى بوجع الدماغ، حسبك أن تؤمنى ببراءة سهرى، صدقيني ولن تندمى، لست جباناً ولا كذاباً، ألم أجدى بك ليلة إلى هذا البيت وفيه زوجتى؟ فهل يفعل هذا جبان أو كذاب؟ شبع من الدوران ولم يبق لى فى حياتى إلا أنت!

تنهدت بصوت مسموع، وكأنا أرادت أن تقول له «أود أن تكون صادقاً فيما تقول»، فمد يده لاعبا وهو يقول:

- يا سلام، هذه التنهيدة حرقت قلبى، الله يقطعنى ..

قالت برجاء وهي تستجيب ليده رويدا رويدا:

- لو ربنا يهديك!

من يصدق أن هذه الأمنية صادرة عن عوادة!

- لا تقابلينى بالشجار أبداً، إن الشجار يثبط النشاط!

علاج ناجع ولكنه لا ينفع فى جميع الأحوال، لو نلت عيوشة الليلة ما تيسر ..

أرأيت أن ارتياك لم يكن فى محله؟!

كان السيد أحمد عبد الجواد منهمكا في عمله وإذا بياسين يدخل الدكان مقبلا على مكتبه ، فما إن تصفح وجهه حتى أدرك أنه جاء مستنجدا : كانت في عينيه نظرة حائرة شاردة ، ومع أنه تبسم له في أدب ومال على يده ليقبلها إلا أنه شعر بأنه يقوم بهذه الحركات التقليدية بلا وعى ، وأن وجدانه كله غائب في مكان لا يعلمه إلا الله ، أشار إليه بالجلوس فقرب الكرسي من مجلس أبيه ثم جلس ، وجعل ينظر إليه حيناً ثم يخفض بصره أو يبتسم ابتسامة باهتة ، تساءل السيد عما دعا إلى هذه الزيارة ، وكأنما أشفق من أن يترك ابنه الصامت إلى صمته ، فقال كالمسائل :

- خير؟ .. ماذا بك؟ لست كعادتك ..

فنظر ياسين إليه طويلا كأنما يستشير عطفه ، ثم قال وهو يخفض عينيه :

- سينقلونني إلى أقاصي الصعيد!

- الوزارة؟

- نعم ..

- لمه؟

هز رأسه كالمعترض ، وقال :

- سألت الناظر فحدثني عن أمور لا علاقة لها بالعمل ، ظلم ..

سأله الرجل بارتياب :

- أى أمور؟ أوضح .

- وشايات وضیعة . . (ثم بعد تردد) عن زوجتى . .

تضاعف اهتمام السيد ، فسأله فيما يشبه الإشفاق :

- ماذا قالوا؟

لاح الضيق فى وجه ياسين حيناً ، ثم قال :

- قال السفهاء إنى متزوج من . . عوادة!

ألقى السيد نظرة جزعة على الدكان ، فرأى جميل الحمزاوى يعمل بين رجل قائم وامرأة جالسة لا يفصلهم عنه إلا أذرع ، فكظم غيظه وقال بصوت منخفض وإن لم يخل انخفاضه تهدج الغضب :

- لعلمهم سفهاء حقاً ، ولكن هذا ما حذرتك من عواقبه ، إنك ترتكب كل كبيرة دون مبالاة ، ولكن العواقب لن تغفل عنك إلى الأبد ، ماذا أقول؟ إنك ضابط مدرسة ويجب أن تكون سمعتك بمنأى عن الشبهات ، طالما قلت لك هذا مراراً وتكراراً ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ، كأنى يجب أن أخلص من هموم الدنيا جميعاً لأتفرغ لهمومك أنت وحدها!

فقال ياسين فى ارتباك وحيرة :

- ولكنها زوجتى الشرعية ، ولا لوم على الإنسان فى حدود الشرع ، فما شأن الوزارة فى ذلك؟

قال السيد بغیظ مكثوم :

- يجب أن تحرص الوزارة على سمعة موظفيها .

هلا تركت الكلام عن السمعة لغيرك!

- ولكن هذا نحن وظلم بالنسبة لرجل متزوج!

وهو يلوح بيده ساخطا :

- أتريدنى أن أرسـم لوزارة المعارف سياستها؟

فقال بانكسار ورجاء :

- كلا، ولكنى أرجو أن توقف النقل بنفوذك .

وجعلت يسراه تعبت بشاربه وهو يحدج ياسين بنظرة لم تره لأنها بدت مشغولة بالتفكير ، وراح ياسين يستعطفه ويعتذر له عن إزعاجه ويؤكد له أن كل اعتماده بعد الله عليه ، ولم يغادر الدكان حتى وعده الرجل بالسعى فى وقف نقله .

وعند مساء اليوم نفسه ذهب السيد أحمد إلى قهوة الجندى بميدان الأوبرا بمقابلة ناظر المدرسة ، فما إن رآه الرجل حتى دعاه إلى الجلوس وهو يقول له :

- كنت منتظرا مجيئك ، فياسين جاوز كل حد ، إنى آسف لما يسببه لك من متاعب . .

فقال السيد وهو يجلس قبالة فى الشرفة المطلة على الميدان :

- على أى حال فياسين ابنك أيضا . .

- طبعا ، ولكن لا شأن لى بالمسألة كلها ، إنها محصورة بينه وبين الوزارة . .

فقال السيد كالمحتج وإن بدا وجهه مبتسما :

- أليس عجيبا أن يعاقبوا موظفا لأنه تزوج من عوادة! أليس هذا شأنا يعنيه وحده؟ ثم إن الزواج علاقة شرعية لا يصح ان يتعرض لها أحد بسوء!

قطب الناظر متفكرا متسائلا ، كأنه لم يفهم ما قال صاحبه ، ثم قال :

- لم يجئ ذكر الزواج إلا عرضا وأخيرا! أما علمت بالخبر كله؟
يخيل إلى أنك لم تعلم بكل شئ!

انقبض صدر الرجل ، فتساءل فى إشفاق وقلق :
- أیوجد مطعن آخر؟

فمال الناظر نحوه قليلا ، وقال بأسف :

- المسألة يا سيد أحمد أن ياسين تعارك فى درب طياب مع ساقطة ،
فحرر له محضر بلغت صورته إلى الوزارة . .

بهت الرجل فاتسعت حدقاته واصفر وجهه ، حتى لم يتمالك الناظر
من أن يهز رأسه أسفا وهو يقول :

- هذه هى الحقيقة ، وقد بذلت قصارى جهدى لأخفف العقوبة ،
حتى وفقت إلى إلغاء فكرة إحالته إلى مجلس تأديب فاكتفى بنقله إلى
الصعيد . .

تنهد السيد مغمغما :

- الكلب . . !

فقال الناظر وهو يرمقه بعطف :

- إنى أسف جدا يا سيد أحمد ، غير أن هذا السلوك لا يليق بموظف ،
لا أنكر أنه شاب طيب ومشاير على عمله ، بل أصارحك بأنى
أحبه ، لا لأنه ابنك فحسب ولكن لشخصه أيضا ، ولكن ما أعجب
ما يقال عنه ! ينبغى أن يصلح من شأنه ويقوم سلوكه وإلا خسر
مستقبله !

صمت السيد طويلا والغضب مرسم على وجهه ، ثم قال وكأنه
يخاطب نفسه :

- معركة مع ساقطة ! فليذهب إذن فى داهية !

ولكنه لم يتركه للداهية وإنما بادر إلى مقابلة معارفه من النواب وعلية
القوم مستشفعا بهم فى وقف النقل ، وكان محمد عفت على رأس
الساعين معه ، فتوالت الشفاعات على كبار رجال المعارف حتى أثمرت

فألغى النقل ، ولكن الوزارة أصرت على ندبه للعمل بديوانها ، ثم أعلن رئيس المحفوظات - صهر محمد عفت أوزوج زوجة ياسين الأولى - عن استعداده لقبوله فى إدارته - بإيعاز من محمد عفت - فتمت الموافقة على ذلك ، ونقل ياسين فى أول شتاء سنة ١٩٢٦ إلى إدارة المحفوظات . ولم تمر المسألة فى سلام تام فقد سجل عليه عدم صلاحيته للعمل فى المدارس ، كما صرف النظر عن بحث ترقيته إلى الدرجة السابعة رغم أقدميته فى الثامنة التى جاوزت عشرة أعوام ، ومع أن محمد عفت قصد من إلحاقه بإدارة صهره ألا تساء معاملته فإن ياسين لم يرتح إلى وضعه الجديد تحت رئاسة زوج زينب ، وقد عبر عن مشاعره حين قال يوما لكمال :

- لعلها سرت بما وقع لى ، ووجدت فيه تأييدا لموقف أبيها حين رفض إرجاعها إلىّ ، إنى خبير بعقول النساء ولا شك فى أنها شمتت بى وإنه لمن سوء الحظ ألا أجد مكانا كريما إلا تحت رئاسة هذا التيس ! ما هو إلا كهل لا خير فيه للنساء ، وما أعجزه عن أن يسد الفراغ الذى تركه ياسين ، فلتشمت الحمقاء فإنى شامت . .

ولم تقف زنوبة على سر النقل ، وقصارى ما علمت أن زوجها ندب للعمل بمركز أفضل فى الوزارة ، كذلك تحاشى السيد أن يطرق فى حديثه مع ياسين موضوع الفضيحة الحقيقى ، واكتفى بأن قال له حين وفق إلى إلغاء النقل :

- ما كل مرة تسلم الجرة ! لقد أتعبتني وأخجلتني ، ولن أتدخل فى أمورك بعد اليوم ، فافعل ما بدا لك ، وربنا بينى وبينك ! ولكنه لم يستطع أن يسقط أمره من حسابه ، فدعاه يوما إلى الدكان ، وقال له :

- أن لك أن تفكر فى حياتك تفكيرا جديدا يعود بك إلى طريق

الكرامة ويتشلك من الحياة المنبوذة التى تحياها، لا يزال فى الوقت
متسع كى تبدأ عهد جديدا، وإنى أستطيع أن أهيم لك الحياة التى
تليق بك فأصنع إلى وأطعنى . .

ثم عرض عليه مقترحاته قائلا :

- طلق زوجك وعد إلى بيتك، وإنى، أتعهد بان أزوجك زواجا
لائقا فتبدأ حياة كريمة !

فتورد وجه ياسين، وقال بصوت خافت :

- إنى أقدر رغبتك الصادقة فى إصلاح شأنى، وسوف أعمل من
ناحتى على تحقيق هذه الرغبة دون إيذاء أحد . .

فهتف الرجل ساخطا :

- وعد جديد كوعود الإنجليز ! الظاهر أن نفسك تراودك على زيارة
السجن، أجل سيجيتنى صراخك المرة القادمة من وراء القضبان،
لا زلت أكرر عليك أن تطلّ هذه المرأة وتعود إلى بيتك . .

فقال ياسين وهو يتنهد، متعمدا أن يسمع أباه تنهده :

- إنها حبلى يا أبى، ولا أريد أن أضيف ذنبا جديدا إلى ذنوبى !

اللهم احفظنا ! فى بطن زنوبة حفيد لك يتكون ! أكان فى وسعك أن
تتصور ما يدخر لك هذا الشاب من متاعب ساعة تلقيته وليدا فى يوم عدّ
من أسعد أيام حياتك ؟ !

- حبلى ؟ !

- نعم . .

- وتخاف أن تضيف ذنبا جديدا إلى ذنوبك ؟ !

ثم منفجرا قبل أن يفتح الآخر فاه :

- لم لم نؤنبك ضميرك وأنت تعتدى على الطيبات من بنات الطيبين !
أنت لعنة وحق كتاب الله !

وعند انصرافه من الدكان أتبعه عينين مليئتين بالرتاء والازدراء . لم يكن بوسعه إلا أن يعجب بمظهره الذى ورثه عنه ، أما مخبره الذى ورثه عن أمه ! وذكر بغتة كيف أوشك هو يوما أن يتردى فى الهاوية على يد زنوبة نفسها ! ولكنه ذكر فى الوقت نفسه كيف شكّم نفسه فى اللحظة المناسبة . شكّم نفسه ؟ ! وشعر بامتعاض وقلق ، فلعن ياسين ، ثم لعن . . . ياسين !

٤٠

جاء يوم ٢٠ ديسمبر فشعر بأنه يوم لا كبقية الأيام ، على الأقل بالقياس إليه هو ، ففى ساعة منه وجد نفسه فى هذه الدنيا ، وسجل ذلك فى شهادة حتى لا يمكث أكثر أو أقل مما تم الاتفاق عليه ! . . وكان يرتدى معطفه ويقطع حجرته ذهابا وجيئة ، ثم يلقي نظرة على مكتبه فيرى كشكول الذكريات مفتوحا على صفحة بيضاء رقم أعلاها بتاريخ الميلاد ، فيفكر فيما يريد أن يكتبه لمناسبة الذكرى ، ويواصل حركته مستمدا منها شيئا من الدفء يستعين به على مقاومة البرودة القارسة . وكانت السماء كما تبدو من زجاج النافذة - متوارية وراء سحب متجههم والمطر ينزل قليلا ويسكت قليلا محركا فى نفسه بواعث التأمل والحلم . لابد من الاحتفال بالميلاد ولو اقتصر الحفل على صاحب الميلاد وحده ، ذلك أن البيت القديم لم يعرف تقاليد الاحتفال بأعياد الميلاد ، وأمّه نفسها لم تدر أن اليوم من الأيام التى لا ينبغى أن تنساها ، فلم يبق من تواريخ الميلاد نفسها إلا ذكريات غامضة عن الفصول التى وقعت فيها والآلام التى صاحبتهما فهى لا تعرف عن ميلاده إلا أنه « كان فى الشتاء

وكانت الولادة عسيرة فجعلت أتوجع وأصرخ يومين متتابعين « قديما كان يذكر أنباء ميلاده فيملاً الرثاء لأمه قلبه ، ثم تضاعف شعوره بالرثاء عندما شاهد ميلاد نعيمة فحقق قلبه ألماً لعائشة ، أما اليوم فإنه يفكر فى ميلاده بعقل جديد ، عقل قد عل من منهل الفلسفة المادية حتى ألّم فى شهرين بما تمخض عنه بتفكير الإنسانية فى قرن من الزمان . تساءل عن عسر ولادته وهل يرجع بعضه أو كله إلى الإهمال أو الجهل ، وكان يتساءل وكأنما يستجوب متهما قائما بين يديه . فكر فى عسر الولادة وما عسى أن ينجم عنه من آثار تلحق بالمنخ أو الجهاز العصبى فتلعب دورا خطيرا فى حياة الوليد ومصيره وما قد يساق إليه من خير أو شر . ألا يمكن أن يكون تهالكه فى الحب نتيجة لصدمات أصابت يافوخه أو جدار رأسه الكبير فى غيابات الرحم منذ تسعة عشر عاما ؟ أو أن تكون تلك المثالية التى أضلته طويلا فى مجاهل الخيال وأسالت منه الدمع مدارا فوق مذبح العذاب ما هى إلا عاقبة محزنة لعبث داية جاهلة ؟! وفكر فيما قبل الولادة ، بل فيما قبل الحبل . فى المجهول الذى تنبثق منه الحياة ، فى تلك المعادلة الكيميائية الآلية التى تستوى كائنا حيا فيثور أول ما يشور على أصله مزدريا ، ويتطلع إلى النجوم مدعيا له نسبا فى مداراتها . بيد أنه قد عرف له بداية قريبة دعاها بالنطفة ، فهو على ذلك لم يكن قبل تسعة عشر عاما وتسعة أشهر إلا نطفة ، نطفة قذفت بها رغبة بريئة فى اللذة أو حاجة ملحة إلى العزاء أو صولة هياج بعثتها سكرة غاب فيها الرشاد أو حتى مجرد إحساس بالواجب نحو الزوجة القابعة فى البيت . فابن أى حال من تلك الأحوال كان ! لعله جاء إلى هذه الدنيا نتيجة الواجب ، فإن الشعور بالواجب لا يزايله ، وحتى اللذات لم يقبل على ممارستها إلا بعد أن تمثلت له فلسفة تتبع ورأيا يعتنق ، إلى أنه لم يخل من الصراع والألم ولم يأخذ الحياة أخذا سهلا ، ومن النطفة مرق حيوان فالتقى ببويضة فى البوق وثقبها ، ثم انزلقا إلى الرحم معا ،

فتحولوا إلى علفة، فكسيت العلفة لحما وعظما، ثم خرجت إلى النور والألم بين يديها يسير، ثم بكيت قبل أن تستين معالمها، ومضت الغرائز المودعة بها تنمو وتتلور مستجدة على مر الأيام عقائد وآراء حتى اتخمت، وعشقت عشقا زعمت لنفسها به نوعا من الألوهية، ثم زلزلت فتهاوت عقائدها وانقلبت أفكارها وخاب قلبها فردت إلى مكانة أذل من التي جاءت منها أول مرة! إذن فقد مضى من العمر تسعة عشر عاما يا له من عهد طويل! ويا للشباب الذى ينطوى بسرعة البرق، هل من عزاء إلا أن تتملى الحياة ساعة فساعة بل دقيقة فدقيقة قبل أن ينق غراب الغروب؟ مضى عهد البراءة، ولحق به العهد الذى كانت تؤرخ فيه الحياة بالحب ق. ح، ب. ح. اليوم الأشواق كثيرة إلا أن المحبوب مجهول الكنه، فلم يجد على محبه إلا ببعض أسمائه الحسنى، فهو الحقيقة ومسرة الحياة ونور العلم، والسفر فيما يبدو طويل، وكأن المحب قد استقل قطار أوجست كونت فمر بمحطة اللاهوتية التى كان شعارها «نعم يا أماه»، وها هو يطوى الأرض فى إقليم الميتافيزيقية التى شعارها «كلا يا أماه» وعن بعد تتراءى خلال المنظار المكبر «الواقعية» وعلى قمته سجل شعارها «فتح عينيك وكن شجاعا».

وتوقف عن السير أمام المكتب فثبتت عيناه على كشكول الذكريات، وتساءل: أيجلس ليسود صفحة الميلاد كيفما يوحى القلم، أم يؤجل ذلك حتى تتبلور الأفكار فى رأسه؟ وعند ذاك طرق أذنيه وقع المطر على الجدران كاللدندنه، فاتجه بصره إلى زجاج النافذة المطلة على بين القصرين فرأى لآلئ علفة برقعته الموهة برطوبة الجو، وما لبثت لؤلؤة أن انسابت إلى حافة الإطار السفلى راسمة على الرقعة الموهة خطا ناصعا منعظا كالشهاب فمضى إلى النافذة ورفع عينيه يتابع الأمطار المنهلة من السحب المترعة وقد وصلت السماء بالأرض بأسلاك لؤلؤية، على حين لاحت المآدن والقباب غير عابثة بالمطر وقد بدا الأفق وراءها

إطاراً من فضة، واكتنف المنظر كله لون أبيض مشرب بسمرة ساجية
يقطر جلالاته وأحلاماً . . وترامت من الطريق صيحات أطفال، فألقى
نظرة إلى تحت ليرى الأرض تسيل بالمياه والأركان تعج بالوحل وقد
تعثرت العربات وتطاير الرشاش من عجلاتها وخلت معارض الدكاكين
من السلع ولاذ المارة بالخوانيت والمقاهي وما تحت الشرفات .

هذا منظر السماء يخاطب الوجدان بلسان الوجد فما أجدره أن
يستلهمه طويلاً ليتأمل موقفه من الحياة في مطلع عامه الجديد . لم يعد
يجد رفيقاً يحاوره بمكنون روحه مذ غادر حسين شداد أرض الوطن،
فلم تبق له إلا نفسه ليحاورها إذا استشعر حاجة إلى الحوار، فاتخذ من
روحه صديقاً بعد أن فارق صديق الروح، وسأل روحه: هل تؤمن
بوجود الله؟ فسألته بدورها: لماذا لا تحاول أن تثب من نجم إلى نجم ومن
كوكب إلى كوكب كما تثب من درجة إلى درجة فوق السلم؟ وعن
الصفوة المختارة من أبناء السماء فقد رفعوا الأرض إلى مركز الكون
وجعلوا الملائكة تسجد للطين حتى جاء أخوهم كوبر نيكوس فأنزل
الأرض بحيث أنزلها الكون جارية صغيرة للشمس، ثم تلاه أخوه
داروين فهتك سر الأمير الزائف وأعلن على الملأ أن أباه الحقيقي
هو حبيس قفصه الذي يدعو الأصدقاء للتفرج عليه في الأعياد
والمواسم، وفي الأصل كان السديم فتناثرت منه النجوم كالرشاش
المتطاير من عجلة الدراجة، وتجاذبت النجوم في لهوها الأزلى فأنجبت
الكواكب، وانطلقت الأرض كرة سائلة والقمر في أثرها يعابشها وهي
تقطب له بجانب من وجهها وتبسم له بجانب آخر حتى فتر حماسها
فاستقرت سماتها جبالاتاً ونجوداً وقيعانا وصخوراً ثم حياة تدب، وجاء
ابن الأرض يزحف على أربع ويسائل من يصادفه عن المثل الأعلى .
لا أخفى عنك أنى ضقت بالأساطير ذرعاً، غير أنى في خضم الموج
العاتى عثرت على صخرة مثلثة الأضلاع سادعوها من الآن فصاعداً

صخرة العلم والفلسفة والمثل الأعلى . ولا تقل إن الفلسفة كالدين أسطورية المزاج ، فالحق أنها تقوم على دعائم ثابتة من العلوم وتتجه بها إلى غايتها ، أما الفن فمتعة سامية وامتداد للحياة غير أن مطمعى أبعد من الفن مثالا ، لأنه لا يرتوى إلا بالحقيقة ، والفن بالقياس إلى الحقيقة يبدو فنا أنثويا ، وفي سبيل هذه الغاية ترانى مستعدا للتضحية بكل شىء إلا ما يمسك على الحياة ، أما عن مؤهلاتى للدور الخطير فرأس كبير وأنف ضخمة وحب خائب وأمل فى المرض . واحذر أن تسخر من أحلام الشباب فما السخرية منها إلا عارض من أعراض مرض الشيخوخة يدعوه المرضى بالحكمة ، وليس من تناقض فى أن تعجب بسعد زغلول كما تعجب بكوبر نيكوس واستولد وماخ ، فالجهاد فى سبيل ربط مصر المتأخرة بركب الإنسانية عمل نبيل وإنسانى كذلك . الوطنية فضيلة ما لم تتلوث بالكراهية العدوانية ، غير أن كره إنجلترا نوع من الدفاع عن النفس ، وليست الوطنية على ذاك إلا إنسانية محلية ، وتسألنى هل أومن بالحب؟ فأجيب : بأن الحب لم يبرح فؤادى بعد ، فلا يسعنى إلا أن أقر بحقيقة الإنسانية ، ومع أن جذوره كانت مشتبكة بجذور الدين والأساطير فإن تقوض المعابد المقدسة لم يززع أركانه أو يقلل من خطورة شأنه اقتحام محرابه بالدراسة والتحليل ، وفرز عناصره البيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية ، فكل أولئك لم يوهن من خفقة القلب إذا هفت ذكرى أو تخيلت صورة ، ألا زلت تؤمن بخلود الحب؟ ليس الخلود أسطورة . فلعل الحب ينسى ككل شىء فى هذه الدنيا ، وقد انقضى على زواج . . عابدة - لم تتردد قبل التفوه باسمها؟ - عام فقطعت شوطاً فى طريق النسيان ، مررت بطور الجنون فطور الذهول فطور الألم الحاد ثم طور الألم المتقطع ، الآن قد يمضى يوم بأكمله فلا تخطر لى على بال إلا حين الاستيقاظ وحين النوم ومرة أو مرتين فى أثناء النهار ، ويتفاوت تأثرى بالتذكر ما بين حنين ينبعث معتدلاً أو حزن يمر مرور السحاب أو حسرة تلسع ولا تحرق إلا أن تثور النفس بغتة كالبركان

فتدور بى الأرض ، وعلى أى حال غدوت أومن بأننى سأواصل الحياة بلا عايدة . علام تعول فى طلب النسيان ؟ . . على دراسة الحب وتعليه كما سلف ، والتهوين من الآلام الفردية بالتأملات الكونية التى يبدو عالم الإنسان فى مداراتها هباءة تافهة ، والترويح عن النفس بالشراب والجنس ، والتماس العزاء عند فلاسفة العزاء كإسبينوزا الذى يرى الزمن شيئاً غير حقيقى وبالتالى فالانفعالات المرتبطة بحادث فى الماضى أو المستقبل مضادة للعقل ، ونحن خليقون بالتغلب عليها إذا كوّنّا عنها فكرة واضحة متميزة . أسرك أن وجدت الحب ينسى ؟ . . سرّنى لأنه يعدنى بالنجاة من الأسر ، وأحزنى بما كان تجربة خبرت بها الموت قبل حضوره ، ومهما يكن من أمر فسأمقت ما حييت الأسر وأعشق الحرية المطلقة .

سعيد من لا يفكر فى الانتحار أو يتمنى الموت ، سعيد من تتوهج فى قلبه شعلة الحماس ، وخالد من يعمل أو يتهيا صادقاً للعمل ، حى من يتأثر الخيام بكتاب وكأس ومعشوق ، والقلب اللهب بالآمال ينسى أو يتناسى الزواج كالكأس المترعة بالويسكى لا تتسع للصودا ، وحسبك أن غرامك بالشراب يسير سيراً حسناً وأن إقبالك على المرأة لا تعترضه عقبات من تقزز أو نفور ، أما حينك من حين لآخر إلى الطهر والتكشف فلعله بقية من تدينك القديم .

ولم ينقطع المطر عن الانهلال لحظة ، وقعقع الرعد ، ولمع البرق ، وأقفر الطريق ، وسكت الصياح ، وخطر له أن يلقي نظرة على فناء الدار فغادر الحجرة إلى الصالة ثم إلى النافذة ، ونظر من خلال خصاصها فرأى المياه تجرف سطح الأرض اللين فتخده ثم تتدفق صوب البئر القديمة ، وفاض عنها جانب فتجمع فى نقرة بين حجرة الفرن والمخزن ، هذه النقرة التى ينجم فيها غب الجفاف - مما يتساقط عفواً من حنطة أو شعير أو حلبة من يدي أم حنفى - نبت يكسوها حلة سندسية فيتزعرع

أياماً حتى تدوسه الأقدام، وقد كانت على عهد دولة الطفولة حقل تجاربه ومراح أحلامه، ومن ينبوع ذكرياتها يمتلئ قلبه الآن شوقاً وحنيناً، ومسرة يغشاها حزن وإن كسحابة شفاقة تغشى وجه القمر. وتحول عن النافذة ليعود إلى حجرته فانتبه إلى وجود من كان بالصالة، إلى الذكرى الباقية من مجلس القهوة القديم، إلى أمه متربعة على الكنبه باسطة ذراعيها فوق المجرمة ولا جليس لها إلا أم حنفى وقد تربعت على فروة قبالتها. فذكر المجلس القديم فى أيامه الزاهرة وما أودعه من جميل الذكريات، وكانت المجرمة هى الأثر الوحيد فيه الذى لم يكديطراً عليه تغير ينكره الرائي.

٤١

كان أحمد عبد الجواد يسير الهوينى على شاطئ النيل فى طريقه إلى عوامة محمد عفت، وكان الليل ساجياً والسماء صافية متألفة النجوم، والهواء مائلاً للبرودة، فلما انتهى إلى هدفه وهمّ بالميل إليه لم ينس - بحكم العادة وحدها - أن يرمى ببصره بعيداً إلى حيث تقوم العوامة التى دعاها يوماً «عوامة زنوبة». كان قد انتهى على الذكريات الأليمة عام فلم يعد يبقى فى قلبه إلا الامتعاض والحنجل، وكان من آثارها المتخلقة أن هجر مجالس النساء كما فعل عقب مصرع فهمى، فثابر على ذلك عاماً حتى ضجر، فرجع عن عزمه وعاد ساعياً على قديمة إلى المجلس المحرم، وما هى إلا دقيقة حتى أقبل على المجلس فطالع المجموعة المحبوبة المؤلفة من أصدقائه الثلاثة والمرأتين، أما الأصدقاء فكان آخر

لقاء بينه وبينهم ليلة أمس ، وأما المرأتان فلم تقع عليهما عيناه منذ نحو عام ونصف أو - على وجه التحديد - منذ تلك الليلة التي أقحم فيها زنوبة في حياته . ولم يكن شيء قد بدأ بعد ، فالقوارير لم تفض والنظام لم يمس ، وكانت جليلة محتلة كنبه الصدارة ، تعبت بأساورها الذهبية وكأنا تنصت إلى وسوستها ، على حين قامت زبيدة تحت المصباح المتدلى من السقف ، تنظر في مرآة صغيرة بيدها ، متفحصة زيتتها ، جاعلة ظهرها إلى المائدة الحافلة بقوارير الويسكى وصحاف المزة . وتفرق الأصدقاء حاسرى الرؤوس وقد خلعوا جبابهم فصافحهم أحمد عبد الجواد ثم صافح المرأتين بحرارة ، فرحبت به جليلة قائلة « أهلا بأخي الحبيب » . أما زبيدة فقالت له باسمه في عتاب « أهلا بالذي لولا الأدب ما استحق منا السلام » . ونزع الرجل جبته وطربوشه ، ثم ألقى نظرة على الأماكن الخالية - وكانت زبيدة قد جلست إلى جانب جليلة - وتردد قليلا قبل أن يمضى إلى كنبه المرأتين ويتخذ مجلسه عليها ، ولم يغب ترده عن عين على عبد الرحيم ، فقال :

- هكذا تبدو كأنك تلميذ مبتدئ !

فقات جليلة كأنا تشجعه :

- لا شأن لك به فلا حجاب بيننا وبينه . .

وسرعان ما ضحكت زبيدة قائلة بتهكم :

- أنا أحق الناس بأن أقول ذلك ، أليس هو بنسيبي ؟ !

ففطن السيد إلى ما تعرض به ، وتساءل في قلق عن مدى ما اتصل بعلمها في هذا الشأن كله ، ولكنه قال برقة :

- لى الشرف يا سلطنة !

فتساءلت زبيدة وهى ترمقه بنظرة ارتياب :

- أنت مسرور حقا بما كان ؟

فقال بلباقة :

- ما دمت خالتها !

فقالت وهى تلوح بيدها فى استياء :

- أما أنا فلن يرضى عنها قلبى أبدا !

وقبل أن يسألها السيد عن السبب ، هتف على عبد الرحيم وهو يفرك

يديه :

- أجّلوا الحديث حتى نَعْمُر روء سنا . .

ونَهَض إلى المائدة ففَض زجاجة ومَلَأ الكئوس ثم قدمها إليهم واحدا
واحدا بعناية نَمَّت عن ارتياحه المعهود إلى القيام بمهمة الساقى ، ثم انتظر
حتى تهيأ كلٌّ للشرب ، وقال «صحة الأحباب والإخوان والطرب دامت
جميعا لنا» ، فرفعوا الكئوس إلى شفاههم باسمين ، ونظر أحمد
عبد الجواد من فوق حافة كأسه إلى وجوه أصحابه . . هؤلاء الأصحاب
الذين شاطروه حمل المودة والوفاء قرابة الأربعين عاما ، فكان كأنه يرى
فلذات من صميم نفسه ، ما ملك أن جاش صدره بعواطف الأخوة
الصادقة . ومالت عيناه إلى زبيدة ، فعاد إلى حديثها متسائلا :

- ولماذا لا يرضى عنها قلبك ؟

فاتجهت إليه بنظرة أشعرته بترحيبها بالحديث معه ، وأجابته :

- لأنها خائنة لا ترعى العهود ، خانتنى منذ أكثر من عام فغادرت بيتى

دون استئذان وذهبت إلى حيث لم أعلم . .

ترى ألم تعلم حقا أين ذهبت فى ذلك الوقت ؟ ولم يشأ أن يعلق على

قولها بحرف ، فعادت تسأله :

- ألم يبلغك ذلك ؟

فقال بهدوء :

- بلغنى فى حينه !

- أنا التى كفلتها من الصغر ورعيتها بقلب الأم، فانظر كيف كان
الجزاء! سفخص على الدم النجس! فقال على عبد الرحيم مازحا،
وهو يتظاهر بالاحتجاج:

- لا تسبى دمها فإن دمها هو دمك!

ولكن زبيدة قالت جادة:

- دمی برىء منها!

وهنا سألها السيد أحمد:

- من كان أباه يا ترى؟

- أباه؟!!

ندت هذه الكلمة عن إبراهيم الفار بصوت أنذر بسيل من
السخریات، ولكن محمد عفت بادره قائلا:

- تذكر أن الحديث عن حرم ياسين!

فزابت وجه الفار هيئة المزاح ولاذ بالصمت فى شىء من الارتباك،
على حين عادت زبيدة تقول:

- أما أنا فلا أهزل فيما أقول عنها، وطالما رمقتنى بعين الحسد

وطمعت فى منافستى وهى فى رعايتى، فكنت أداريها وأغض

عن مساوئها (ثم وهى تضحك) كانت تحلم بأن تكون عالمة!

ورددت عينيها فى الحاضرين، ثم قالت بلهجة ساخرة:

- لكنها أفلست فتزوجت!

تساءل على عبد الرحيم فى إنكار:

- هل الزواج فى عرفك إفلاس؟!

فضيقت له عينا، ورفعت حاجب الأخرى، وهى تقول:

- نعم يا عمر! .. العالمة لا تهجر التخت حتى تفلس ..

وهنا غنت جليلة هذا المقطع «أنت المدام يا روحى أنت أنستنا»، فابتسم السيد ابتسامة عريضة وحياءها بأمة لطيفة وشت بانبساطه، غير أن على عبد الرحيم نهض مرة أخرى وهو يقول:
- لحظة سكوت حتى نستوعب هذه الكأس . .

وملأ الكئوس ووزعها بينهم، ثم عاد بكأسه إلى مجلسه . وقبض أحمد عبد الجواد على كأسه ولحظ زبيدة، فالتفت نحوه باسمه ورفعت يدها بكأسها كأنما تقول له «صحتك»، ففعل مثلها وتشاربا، وجعلت فى أثناء ذلك ترنو إليه بنظرة باسمه . مضى عام دون أن تثب به رغبة إلى طلاب امرأة، كأن التجربة القاسية التى امتحن بها قد أخدمت حماسه، أو لعله الكبرياء أو لعله المرض، غير أن نشوة الخمر ونظرة التودد حركتا فؤاده فاستشعر عذوبة الإقبال بعد مرارة الصد، واعتدها تحية طيبة من الجنس الذى هام به حياته، لعلها تضمد جرح كرامته التى قست عليها الخيانة وتقدم العمر، وكأن ابتسامة زبيدة الناطقة كانت تقول له: «لم يول عهدك بعد!» فلم يحول عن نظرتها عينيه ولم يبلغ ابتسامته.

وجاء محمد عفت بعود ووضعه بين المرأتين، فتناولته جليلة وراحت تلعب بأوتاره، ولما أنست من السامعين انتباها غنت «وعدى عليك ياللى بحبك»، وتظاهر أحمد عبد الجواد بالانسجام كعادته كلما سمع جليلة أو زبيدة، وذهب مع النغمة برأسه وجاء، كأنما يريد أن يخلق الطرب بتمثيل حركاته . والحق أنه لم يعد يبقى له من عالم الغناء إلا ذكريات، فقد ذهب الحامولى وعثمان والمنيلوى وعبد الحى، كما ذهب شبابه وكما ولت أيام النصر، ولكن ينبغى أن يوطن النفس على الرضا بالموجود وأن يبتعث عاطفة الطرب ولو بتمثيل حركاته، وقد دعا حبه للغناء وغرامه بالطرب إلى ارتياد مسرح منيرة المهديّة غير أنه لم يهو الغناء التمثيلى، فضلا عن أنه ضاق بجلسة المسرح الذى شبهه بالمدرسة، كما استمع فى بيت محمد عفت إلى أسطوانات المطربة

الجديدة أم كلثوم، ولكنه أعارها أذنا حذرة مضمرة سوء الظن، فلم يتذوقها رغم ما قيل من أن سعد زغلول أثنى على جمال صوتها. بيد أن مظهره لم يش بتحقيقة موقفه من الغناء، فما زال يتطلع إلى جلييلة راضيا سعيدا ويردد مع الجميع لازمة «وعدى عليك» بصوته الرخيم، حتى هتف الفار بحسرة:

- أين؟ أين الدف؟! أين الدف لنسمع ابن عبد الجواد؟

سل أين أحمد عبد الجواد الذى كان ينقر على الدف؟! آه، لم يغيرنا الزمان؟ وختمت جلييلة غناءها فى هالة من الاستحسان، ولكنها قالت فى لهجة اعتذار وهى تبتسم شاكرا:

- إنى متعبة..

ولكن زبيدة كملت لها الثناء كما يدور بينهما كثيرا على سبيل المجاملة أو حرصا على السلام العام، ولم يكن يخفى على أحد أن نجم جلييلة كعالمة أخذ فى الأقول السريع الذى كان آخر آياته هجر الدفافة فينو لتختها والتحاقها بتخت آخر، وهو أقول طبيعى إذ كان الذبول قد أدرك كافة المزايا التى قام عليها مجدها القديم من الفتنة وجمال الصوت، ولذلك لم تعد زبيدة تمجد نحوها غيرة تذكر فوسعها أن تجاملها دون مضض، خاصة وأنها كانت بلغت ذروة حياتها، تلك الذروة التى لا خطوة بعدها إلا نحو الانحدار. وكان الأصدقاء كثيرا ما يتساءلون عما إذا كانت جلييلة قد أعدت العدة لهذه المرحلة الخطيرة من الحياة، وكان رأى أحمد عبد الجواد أنها لم تفعل، واتهم بعض من عشقتهم بتبديد الكثرة من ثروتها، ولكنه جاهر فى الوقت ذاته بأنها امرأة تعرف كيف تحصل على المال بأى سبيل، وأيده على ذلك على عبد الرحيم قائلا: إنها تتاجر بجمال نساء تختها وإن بيتها يتحول رويدا رويدا إلى شئ آخر. أما زبيدة فقد انعقد إجماعهم على أنها رغم مهاراتها فى ابتزاز الأموال - جواذة مفتونة بالمظاهر التى تحرق المال حرقا، إلى ولعها

بالشراب والمخدرات وخاصة الكوكايين . قال محمد عفت مخاطباً
زبيدة :

- اسمحى لى بأن أبدى إعجابى بنظراتك الحلوة التى تخصين بها
بعضنا؟

فضحكت جليلة، وقالت بصوت خافت :
- الصب تفضحه عيونه . .

وتساءل إبراهيم الفار منكراً :

- أم تحسبن نفسك فى زاوية العميان؟

فقال أحمد عبد الجواد متظاهراً بالأسف :

- بهذه الصراحة لن تكونوا قوادين كما تحبون!
أما زبيدة فقد أجابت محمد عفت :

- أنا لا أنظر إليه لغرض لا سمح الله ولكنى أحسده على شبابه؟
انظروا إلى رأسه الأسود بين رءوسكم البيض وأجيبونى هل تعطونه
يوماً واحداً فوق الأربعين؟
- أنا أعطيه قرناً . .

فقال أحمد عبد الجواد :

- من بعض ما عندكم!

وعند ذاك ترنمت جليلة بمطلع الأغنية «عين الحسود فيها عود يا
حليلة»، فقالت زبيدة :

- لا خوف عليه من الحسد، فإن عينى لا تؤذيه؟!

فقال محمد عفت وهو يهز رأسه هزة ذات معنى :

- أصل الأذى كله من عيونك!

وهنا قال أحمد عبد الجواد موجهاً الخطاب إلى زبيدة :

- أتحدثين عن شبابى؟ أما سمعت بما قال الطبيب؟
فقالت كالمستنكرة:

- أخبرنى محمد عفت، ولكن ما هذا الضغط الذى يتهمك به؟
- لف حول ذراعى قربة غريبة، وراح يتفخ بمنفاخ جلدى، ثم قال لى
«عندك ضغط»!

- ومن أين جاء الضغط؟

فأجاب السيد ضاحكا:

- لا أظنه جاء إلا من ذات النفخ!

قال إبراهيم الفار وهو يضرب كفا بكف:

- لعله مرض معد، فإنه لم يكد يمضى شهر على إصابة المحروس به
حتى ذهبنا جميعا تباعا إلى الطبيب وكانت نتيجة الكشف فى جميع
الحالات واحدة: الضغط!

فقال على عبد الرحيم:

- أنا أقول لكم سره، إنه عرض من أعراض الثورة، وآى ذلك أنه لم
يسمع به أحد قبل اشتعالها!

وسألت جلييلة السيد أحمد:

- وما أعراض الضغط؟

- صداع ابن كلب، وتعب فى التنفس عند المشى . .

فتمتمت زبيدة وهى تبسم ابتسامة دارت بها شيئا من القلق:

- ومن يخلو ولو مرة من هذه الأعراض؟ ما رأيكم أنا عندى ضغط
أيضا! . . فسألها أحمد عبد الجواد:

- من فوق أم من تحت؟

وضحكوا بلا استثناء زبيدة نفسها، حتى قالت جلييلة:

- ما دمت قد خبرت الضغط ، فاكشف عليها لعلك تعرف علتها!
فقال أحمد عبد الجواد :

- عليها أن تحضر القربة وعلى أن أحضر المنفاخ!

فضحكوا مرة أخرى ، ثم قال محمد عفت كالمحتج :

- ضغط . . ضغط . . ضغط . . لا نسمع الآن إلا الطبيب وهو يقول
كأنما يأمر عبده : لا تشرب الخمر ، لا تأكل اللحوم الحمراء ، احذر
البيض . .

فتساءل أحمد عبد الجواد ساخراً :

- وماذا يصنع إنسان مثلى لا يأكل إلا اللحوم الحمراء والبيض ولا
يشرب إلى الخمر؟!!

فقال زبيدة من فورها :

- كل واشرب بالهنا والشفاء ، الإنسان طبيب نفسه ، وربنا هو
الطبيب . .

ومع ذلك فقد اتبع تعاليم الطبيب فى الفترة التى اضطر فيها إلى
الرقاد ، فلما نهض تنامى نصح الطبيب جملة وتفصيلاً . عادت جليلة
تقول :

- أنا لا أومن بالأطباء ، ولكنى أقيم لهم العذر فيما يقولون
ويفعلون ، فإنهم يتعيشون من الأمراض كما نتعيش نحن العوالم
من الأفراح ، ولا غناء لهم عن القربة والمنفاخ والأوامر والنواهي
كما لا غناء لنا عن الدف والعود والأغاني . .

فقال السيد بارتياح وحماس :

- صدقت ، فالمرض والصحة والحياة والموت بأمر الله وحده ، ومن
توكل على الله فلا يحزن . .

إبراهيم الفار ضاحكاً :

- اشهدوا يا ناس على هذا الرجل ، إنه يشرب بفيه ويفسق بعينه
ويعظ بلسانه !

أحمد عبد الجواد مقهقهاً :

- لا على من ذلك ما دمت أعظ في ماخور !

محمد عفت وهو يتفحص أحمد عبد الجواد ، ويهز رأسه متعجباً :

- وددت لو كان كمال بيننا ليتفع معنا بوعظك !

فتساءل على عبد الرحيم :

- على فكرة ، ألا يزال على رأيه من أن أصل الإنسان هو القرد ؟ !

فضربت جليلة صدرها بيدها هاتفة :

- يا ندامتي !

زبيدة في دهش :

- قرد ؟ ! . . (ثم كالمستدركة) لعله يقصد أصله هو !

قال لها السيد محذراً :

- وأثبت أيضاً أن المرأة أصلها لبؤة !

فقالت وهي تهأهي :

- ليتنى أرى سليل القرد واللبؤة !

فقال إبراهيم الفار :

- سيكبر يوماً فيخرج عن محيط أسرته ، ويقتنع بأن البشر من آدم

وحواء . .

فبادره أحمد عبد الجواد :

- أو أحضره معي يوماً إلى هنا ليقتنع بأن الإنسان أصله كلب !

وقام على عبد الرحيم إلى المائدة ليملاً الكئوس ، وهو يسأل زبيدة :

- أنت أعرف منا بالسيد فالى أى حيوان ترجعينه؟

فتفكرت قليلاً وهى تتابع يدى على عبد الرحيم وهما تصبان
الويسكى فى الكتوس ، ثم قالت باسمه :
- الحمار !

فتساءلت جليلة :

- ذم هذا أم مدح؟

فقال أحمد عبد الجواد :

- المعنى فى بطن القائل !

وعاودوا الشراب على أصفى حال ، وتناولت زبيدة العود وغنت
«ارخى الستارة اللى فى رحينا» .

وفى نشوة غامرة راح جسد أحمد عبد الجواد يرقص مع النغمة ،
رافعاً الكأس التى لم يبق فيها إلا الثمالة أمام عينيه ، ناظراً خلالها إلى
المرأة كأنما يروم أن يراها بمنظار خمري . وبرح الخفاء إن كان ثمة خفاء
ووضح أن كل شىء - بين أحمد وزبيدة - قد عاد إلى قديمه ، ورددوا
الغناء وراء زبيدة ، فعلا صوت أحمد فى طرب وسرور حتى ختمت
الأغنية بالتهليل والتصفيق . وما لبث محمد عفت أن قال لجليلة :

- لمناسبة «الصب تفضحه عيونه» ما رأيك فى أم كلثوم؟

فقالت جليلة :

- صوتها - والشهادة لله - جميل ، غير أنها كثيراً ما تصرع
كالأطفال !

- البعض يقولون إنها ستكون خليفة منيرة المهدية ، ومنهم من يقول
بأن صوتها أعجب من صوت منيرة نفسها !
فهتفت جليلة :

- كلام فارغ! أين هذه الصرصعة من بحة منيرة؟

وقالت زبيدة بازدرأء:

- فى صوتها شىء يذكر بالمقرئين، كأنما مطربة بعمامة!

فقال أحمد عبد الجواد:

- لم أستطعمها، ولكن ما أكثر الذين يهيمون بها، والحق أن دولة

الصوت زالت بموت سى عبده..

فقال محمد عفت مداعبا:

- أنت رجل رجعى، تتعلق دائماً بالماضى.. (ثم وهو يغمز

بعينه).. ألسنتك تصر على حكم بيتك بالحديد والنار حتى فى عهد

الديمقراطية والبرلمان؟!

السيد ساخرًا:

- الديمقراطية للشعب لا للأسرة..

على عبد الرحيم جادا:

- أنظن أنه يمكن التحكم بالطريقة القديمة فى شبان اليوم؟! هؤلاء

الشبان الذين اعتادوا القيام بالمظاهرات والوقوف فى وجه الجنود؟!

فقال إبراهيم الفار:

- لا أدري عما تتكلم، ولكننى متفق فى رأى مع أحمد، كلانا أب

لذكور، والله المستعان..

محمد عفت مداعبًا:

- كلاكما متحمس للحكم الديمقراطى باللسان، ولكنكما مستبدان

فى بيتكما..!

فقال أحمد عبد الجواد كالمحتج:

- أتريدنى على ألا أبت فى مسألة حتى أجمع كمال وياسين وأم

كمال، ثم نأخذ الأصوات؟!

فهاهات زبيدة قائلة :

- لا تنس زنوبة من فضلك ..

وقال إبراهيم الفار :

- إذا كانت الثورة هي سبب ما نعاني من أولادنا ، فالله يسامح سعد
باشا ..

وتواصل الشرب والسمر والغناء والمزاح ، وتعالى الضجة
واختلطت الأصوات ، وتقدم الليل غير عابئ بشيء ، وكان ينظر إليها
فيجدها تنظر إليه أو تنظر إليه فتجده ينظر إليها ، وقال لنفسه : إنه ليس
فى هذا الوجود إلا لذة واحدة ، وأراد أن يفصح عن فكرته ولكنه لم
يفصح ، إما لأن حماسه للإفصاح فتر أو لأنه لم يستطع ، ولكن كيف
جاء هذا .. الفتور؟! ، وتساءل مرة أخرى : أتكون لذة ساعة أم معاشرة
طويلة؟ ونزعت نفسه إلى التماس التسلية والعزاء ، ولكن ثمة وش كأن
أمواج النيل تهمس فى أذنيه ، ومع ذلك فمنتصف الحلقة السادسة فى
متناول اليد ، سل الحكماء كيف ينطوى العمر ونحن ندرى دون أن
ندرى ..

- ماذا أسكتك كفى الله الشر؟

- أنا؟! .. شوية راحة ..

أجل ما ألد الراحة! ضجعة طويلة تقوم بعدها صحيحًا ، ما ألد
الصحة! ولكنهم يطاردونك ولا يدعون لك لحظة واحدة تنعم فيها
بالسلام ، وهذه النظرة أليست فاتنة ولكن همسات الأمواج تعلو فكيف
تسمع الغناء؟

- كلا ، لن نتركه حتى يزف ، ما رأيكم؟ . الزفة .. الزفة!

- قم يا جملى ..

- أنا؟! .. شوية راحة ..

- الزفة .. الزفة ، كما حدث أول مرة فى بيت الغورية ..

- ذلك عهد قديم ..

- نجدده ، الزفة .. الزفة ..

لا يرحمون ، وذلك زمن خلا تحجبه عن عينيك ظلمات ، ألا ما
أكثف الظلام ! وما أشد الوحش ! وما أغلظ النسيان !

- انظروا .. !

- ما له ؟ !

- قليلاً من الماء .. افتحوا النافذة .. !

- يا لطيف يا رب ..

- خير .. خير ، بلّ هذا المنديل بالماء البارد ..

٤٢

مضى أسبوع على «حادث» الأب ، وكان الطبيب يزوره يومياً ،
وكانت الحال من الشدة بحيث لم يسمح لأحد بمقابلته ، حتى الأبناء
كانوا يتسللون إلى الحجرة على أطراف أصابعهم فيلقون بنظرة على
الراقد متفحصين ما يكسو وجهه من ذبول واستسلام ، ثم ينسحبون وفى
الوجوه اكفهرار وفى الصدور انقباض ، يتبادلون النظرات ويتهربون منها
فى ذات الوقت . قال الطبيب إنها أزمة ضغط ، وحجم المريض فملاً
طستاً من دمه ، دم أسود كما قالت خديجة فى وصفه . وجوارحها
ترتعش ، وكانت أمينة تعود من الحجرة بين الحين والحين كشبح يهيم
على وجهه ، على حين بدا كمال ذاهلاً كأنما يتساءل كيف تقع هذه

الأمور الخطيرة فى أقل من غمضة عين، وكيف استسلم الرجل الجبار واستكان، ثم يسترى نظرة إلى شبح أمه، أو عيني خديجة الدامعتين أو وجه عائشة الشاحب ويتساءل مرة أخرى : ماذا يعنى هذا كله؟ ووجد نفسه تنساق وهو لا يدري إلى تصور النهاية التى يخافها قلبه، تصور عالم لا يوجد فيه الأب، فضايق صدره وجزع قلبه، وتساءل فى إشفاق : كيف يمكن أن تتحمل هذه النهاية أمه؟. إنها تبدو الآن كالمنتهية ولما يقع شىء، ثم وردت ذهنه ذكرى فهمى، فتساءل : أيمكن أن ينسى هذا كما نسى ذاك؟ وتراءت له الدنيا ظلمات فوق ظلمات .

وعلم ياسين بالحادث فى اليوم التالى لوقوعه، فجاء إلى البيت لأول مرة منذ غادره عند زواجه من مريم، وقصد حجرة أبيه رأساً فألقى عليه نظرة طويلة صامتة ثم انسحب إلى الصالة مذهولاً، فالتقى بأميئة فتصافحا بعد طول فراق، واشتد تأثره وهو يصافحها فامتلات عيناه بالدموع. ولبت السيد راقداً، ولم يكن أول الأمر يتكلم أو يتحرك، فلما حجم دب فيه شىء من الحياة فاستطاع أن ينطق بكلمة أو عبارة مقتضبة يفصح بها عما يريد، ولكنه فى الوقت ذاته شعر بالألم فصدر عنه الأنين والتأوهات. ولما خفت حدة الآلام المرضية أخذ يضيق برقاده الإجبارى الذى حرمه نعمة الحركة والنظافة، وقضى عليه بأن يأكل ويشرب ويفعل ما تعافه نفسه فى مكان واحد هو فراشه. وكان نومه متقطعاً، وكان ضجره متصللاً، غير أن أول ما سأل عنه كان خاصاً بكيفية إحضاره إلى البيت مغشياً عليه، وأجابته أميئة بأنه جىء به فى حنطور مع صحبه محمد عفت وعلى عبد الرحيم وإبراهيم الفار، وأنهم حملوه برفق إلى فراشه، ثم أحضروا له الطبيب رغم تأخر الوقت. وسأل بعد ذلك باهتمام عن عواده فقالت له المرأة: إنهم لا ينقطعون، ولكن الطبيب منع المقابلة إلى حين. وكان يردد بصوت خافت «الأمر لله من قبل ومن بعد» و«نسأل الله حسن الختام»، ولكن الحق أنه لم يستشعر

اليأس، ولم يحس بدنو النهاية، ولم تضعف ثقته بالحياة التى يحبها رغم آلامه وخوفه، عاوده الأمل بمجرد عودة الوعى إليه، فلم يحدث أحداً بحديث الراحلين كأن يوصى أو يودع أو يعهد لمن يهمنه الأمر بأسرار عمله و ثروته، وعلى العكس من ذلك استدعى جميل الحمزاوى وكلفه ببعض أعمال المبادلة التى لم يكن يعلم عنها شيئاً، كما أرسل كمال إلى خياطة البلدى بخان جعفر ليحضر ملابس جديدة كان عهد بها إليه وليدفع ثمن خيطها، ولم يكن يذكر الموت إلا بتلك العبارات يرددها كأنما يدارى بها قسوة الأقدار. وعند ختام الأسبوع الأول صرح الطبيب بأن مريضه اجتاز المرحلة الدقيقة بسلام، وأنه لم يعد يلزمه إلا بعض الصبر كى يسترد صحته كاملة ويستأنف نشاطه. وأعاد الطبيب على مسمعه ما سبق أن حذره منه عند ارتفاع ضغطه أول مرة فوعده بالطاعة وعاهد نفسه صادقاً على الإقلاع عن الاستهتار بعد ما تبين له من عواقبه الوخيمة التى أقنعت به بأن الأمر جد لا هزل، وجعل يتعزى قائلاً: إن الحياة السليمة مع شىء من الحرمان خير على أى حال من المرض.

هكذا مرت الأزمة بسلام، فاستردت الأسرة أنفاسها ولهجت قلوبها بالشكر، وعند نهاية الأسبوع الثانى سمح للسيد بمقابلة عواده فكان يوم سعيد، وكانت أسرته أول من احتفل بهذا اليوم فزاره أبنائه وأصهاره وتحدثوا إليه لأول مرة منذ الرقاد، وقلب الرجل عينيه فى وجوههم - ياسين وخديجة وعائشة وإبراهيم شوكت و خليل شوكت - وراح بلباقته - التى لم تخنه فى موقفه هذا - يسأل عن الأطفال رضوان وعبد المنعم وأحمد ونعيمة وعثمان ومحمد، فقالوا له: إنهم لم يجيئوا بهم حرصاً على راحتهم، ودعوا له بطول العمر وتنام الصحة والعافية، ثم حدثوه عن حزنهم لما ألم به وسرورهم بسلامته، تكلمت خديجة بصوت متهدج، وتركت عائشة على يده وهى تقبلها دمعة تغنى عن كل بيان، أما ياسين فقال بزلاقة لسان: إنه مرض معه حين مرض وبرئ معه حين من الله عليه بالشفاء. فتطلق وجه الرجل الشاحب بالبشر وحدثهم

طويلاً عن قضاء الله ورحمته ولطفه وأن على المؤمن أن يواجه مصيره بصبر وإيمان متوكلاً على الله وحده، وغادروا الحجرة إلى حجرة كمال - مخلين الصالة لمرور العواد المنتظر توافدهم - وهناك أقبل ياسين على أمينة، فشد على يدها وهو يقول :

- لم أحدثك بما فى نفسى طيلة الأسبوعين الماضيين ؛ لأن مرض بابا لم يترك لى عقلاً أفكر به ، أما الآن وقد أمر الله بالسلامة فأود أن أعذر عن رجوعى إلى البيت دون استئذانك ، الحق أنك استقبلتنى بالعطف الذى عهدته منك فى الأيام السعيدة الخالية ، ولكن على الآن أن أقدم فروض الاعتذار . .

فتورد وجه أمينة وهى تقول بتأثر :

- ما فات فات يا ياسين ، هذا بيتك تحل فيه أهلاً وسهلاً حين تشاء . .
فقال ياسين ممتناً :

- لا أحب أن أعود إلى الماضى ، ولكن أحلف برأس أبى وحياة رضوان أبنى أن قلبى لم يحمل قط سوءاً لأحد من أهل هذا البيت ، وأنى أحببتهم جميعاً كما أحب نفسى ، ربما يكون الشيطان قد دفعنى إلى خطأ ، وكل إنسان عرضة لهذا ، ولكن قلبى لم تشبه شائبة أبداً . .

فوضعت أمينة يدها على منكبه العريض ، وقالت بإخلاص :

- كنت دائماً واحداً من أبنائى ، ولا أنكر أنى غضبت مرة ، ولكن زال الغضب والحمد لله ، فلم يبق إلا الحب القديم ، هذا بيتك يا ياسين ، أهلاً بك أهلاً . .

وجلس ياسين ممتناً ، فلما غادرت أمينة الحجرة ، قال للحاضرين بلهجة خطائية :

- ما أطيب هذه المرأة ! إن الله لا يغفر لمن يسىء إليها ، لعن الله الشيطان الذى أورطنى يوماً فيما جرح مشاعرها . .

فقال له خديجة وهى تحدجه بنظرة ذات معنى :

- لا يكاد يمضى عام حتى يورطك الشيطان فى مصيبة ، كأنك لعبة فى يديه . .

فظفر إليها بعين كأنما يتوسل إليها أن تعفيه من لسانها ، وإذا بعائشة تقول مدافعة عنه :

- ذاك تاريخ مضى وانتهى . .

فتساءلت خديجة فى تهكم :

- لم لم تأت معك بالمدام «لتحى» لنا هذا اليوم المبارك؟

فقال ياسين فى كبرياء مصطنع .

- لم تعد زوجتى تحبى أفرأحاً بعد ، إنها الآن سيدة بكل ما فى هذه الكلمة من معنى . .

فقال خديجة بلهجة جدية لا أثر للتهكم فيها :

- يا خسارتك يا ياسين ، ربنا يتوب عليك ويهديك . .

قال إبراهيم شوكت ، كأنما يعتذر عن صراحة زوجته :

- لا تؤاخذنى يا سى ياسين ، ولكن ما حيلتى إنها أختك !

فقال ياسين باسمًا :

- كان الله فى عونك يا سى إبراهيم !

وهنا قالت عائشة وهى تنتهد :

- الآن وقد أخذ الله بيد بابا ، فلانى أصارحكم بأننى لن أنسى ما

حييت منظره أول يوم رأيته ، ربنا لا يحكم على أحد بالمرض . .

خديجة بصدق وحماس :

- هذه الحياة لا تساوى بدونه قلامة ظفر . .

فقال ياسين بتأثر :

- إنه ملاذنا عند كل شدة، رجل ولا كل الرجال!

وأنا؟ أتذكر موقفك بركن الحجرة وقد أطبق عليك اليأس؟ وكيف تقطع قلبي وأنا أرى تهافت أُمي، نعرف الموت معنى من المعانى أما إذا هلّ ظله من بعيد فتدور بنا الأرض، ومع ذلك فستتوالى طعنات الألم بعدد من نفقد من الأحباء، وستموت أنت أيضاً مخلقاً وراءك الآمال، والحياة رغبة ولو ابتليت بالحب. وتعالى من الطريق رنين جرس حنطور، فوثبت عائشة إلى النافذة ثم نظرت من خصاصها، التفتت قائلة فى مباهاة:

- زوار من الأكابر!

وتتابع وصول العواد من الأصدقاء الكثيرين الذين امتلأت بهم حياة الأب، موظفين ومحامين وأعيان وتجار، وكانت منهم قلة لم تجئ البيت من قبل، وآخرون لم يأتوا إلا مدعويين لبعض الولاثم التى يولمها السيد فى المناسبات، وغير هؤلاء وأولئك رجال ترى وجوههم كثيراً فى الصاغة والسكة الجديدة، والجميع أصدقاء ولكنهم ليسوا من طبقة محمد عفت وصاحبيه. وقد مكثوا قليلاً مراعاة لظروف الزيارة، ولكن الأبناء وجدوا فى مظاهرتهم الفاخرة وعرباتهم ذوات الجياد المظهمة ما أشبع خيلاءهم وزهوهم، وقالت عائشة وهى لا تزال بموقف المراقبة:

- ها هم الأحباب قد وصلوا..

وترامت أصوات محمد عفت وعلى عبد الرحيم وإبراهيم الفار وهم يتصاحكون ويرفعون أصواتهم بالشكر والحمد، فقال ياسين:

- لم يعد فى الدنيا أصدقاء مثل هؤلاء..

فأمن على قوله إبراهيم شوكت و خليل، على حين قال كمال بحزن لم يفتن إليه أحد:

- قل أن تتيح الحياة لأصدقاء أن يجتمع شملهم طويلاً كما أتاح ل هؤلاء! وعاد ياسين يقول كالمتعجب:

- لم يمر يوم دون أن يزوروا البيت ، وما غادروه فى أيام الشدة إلا
والدموع فى أعينهم . .

فقال إبراهيم شوكت :

- لا تعجب ، فقد عاشروه أكثر منكم أنتم !

وهنا ذهبت خديجة إلى المطبخ لتقدم مساعداتها . أما تيار العواد فلم
ينقطع ، وقد جاء جميل الحمزاوى بعد أن أغلق الدكان ، وتبعه غنيم
حميدو صاحب معصرة الجمالية ، ثم محمد العجمى بائع الكسكسى
بالصاحلية . وإذا بعائشة تهتف وهى تشير إلى الطريق من وراء النافذة :

- الشيخ متولى عبد الصمد ! ترى أيستطيع أن يصعد إلى الدور
الفوقانى ؟ !

وراح الشيخ يقطع الفناء متوكئاً على عصاه ، متنحنحاً - من حين
لآخر - لينبه من فى طريقه إلى حضوره . وأجاب ياسين :

- إنه يستطيع أن يصعد إلى قمة مثذنة . . (ثم مجيباً خليل شوكت
الذى تساءل عن عمر الرجل بعينه وأصابه) . . بين الثمانين
والتسعين ! . ولكن لا تسأل عن صحته !

وتساءل كمال :

- ألم يتزوج فى حياته الطويلة ؟

فقال ياسين :

- يقال إنه كان زوجاً وأباً ، ولكن زوجه وأبناءه انتقلوا إلى رحمة
الله .

وهتفت عائشة مرة أخرى ، ولم تكن برحت موقفها من النافذة :

- انظروا ! هذا خواجاً ! من يكون يا ترى ؟

كان يقطع الفناء ملقياً على ما حوله نظرة مترددة متسائلة ، واضعاً

على رأسه قبعة مستديرة من الخوص لاح تحت حافتها أنف مجدور مقوس وشارب منقوش ، فقال إبراهيم :

- لعله صائغ من تجار الصاغة !

فتمتم ياسين فى حيرة :

- ولكنه يونانى السحنة ، أين يا ترى رأيت هذا الوجه ؟!

وجاء شاب ضيرير ذونظارة سوداء ، يجره من يده رجل من أهل البلد ملثما بكوفية رافلا فى معطف أسود طويل يبرز من تحت طرفه جلباب مقلم ، فعرفهما ياسين - من أول نظرة - وهو من الدهش فى نهاية : أما الشاب الضيرير فكان عبده عازف القانون بتخت زبيدة ، وأما الآخر صاحب قهوة مشهورة بوجه البركة يدعى الهمايونى ، فتوة وبلطجى ويرمى إلخ . . . ، وسمع خليل وهو يقول :

- الضيرير قانونجى العالة زبيدة !

فتساءل ياسين متصنعا الدهش :

- وكيف عرف بابا ؟

فابتسم إبراهيم شوكت وهو يقول :

- والدك من السميلة القدامى ، ولا غرابة فى أن يعرفه جميع أهل الفن ! . .

وابتسمت عائشة دون أن تدير رأسها المتجه إلى الطريق لتدارى ابتسامتها ، ياسين وكمال رأيا ابتسامة إبراهيم وفطنا إلى ما وراءها . وأخيراً جاءت سويدان جارية آل شوكت تتعثر فى خطوات الكبر ، فتمتم خليل وهو يشير إليها «رسول للسؤال عن السيد» . وكانت حرم المحرم شوكت قد زارت السيد مرة ، ولكنها لم تستطع أن تعيد الكرة لما اعتراها فى الأيام الأخيرة من آلام روماتيزمية تحالفت مع الكبر عليها . وما لبثت خديجة أن عادت من المطبخ وهى تقول مبدية التشكى مضمرة المباهة :

- يلزمنا قهوجى ليقدم القهوة بنفسه!

كان السيد جالساً فى فراشه، مسند الظهر إلى وسادة منكسرة، ساحباً الغطاء حتى عنقه، على حين جلس العواد على الكنبه والكراسى التى أحدثت بالفراش، وبدا سعيداً رغم ضعفه، فلم يكن يسعده شئ كالتيقاف الأصدقاء حوله وتسابقهم إلى مجاملته ورعاية عهده، وإذا كان قد بلاء المرض بالشر فإنه لم ينكر حسنته فيما وجد من جزع إخوانه لما أصابه وتحسروهم على غيابه ومدى إحساسهم بالوحشة فى مجالسهم أثناء اعتكافه، وكأنما أراد أن يستزيد من العطف، فجعل يقص عليهم ما لاقى من آلام وسأم، واستباح فى سبيل ذلك أن يهول ويبالغ، فقال متنهداً:

- فى الأيام الأولى من المرض اقتنعت فيما بينى وبين نفسى بأنى انتهيت، فجعلت أتشهد وأقرأ الصمدية، وفيما بين هذا وذاك أذكركم كثيراً فتقسو على فكرة فراقكم...
فعلاً أكثر من صوت قائلاً:

- لا كانت الدنيا بدونك يا سيد أحمد..

وقال على عبد الرحيم بتأثر:

- سترك مرضك هذا فى نفسى أثراً لن يزول مع الأيام..

وقال محمد عفت بصوت خافت:

- أتذكر تلك الليلة؟ رباه لقد شيبتنا!

فمال غنيم حميدو نحو الفراش قليلاً، وقال:

- نجاك الذى نجانا من الإنجليز ليلة بوابة الفتوح!

تلك الأيام السعيدة، أيام الصحة والعشق، وفهمى كان النجاة والأمل الموعود.

- الحمد لله يا سيد حميدو!

وقال الشيخ متولى عبد الصمد :

- إننى أسألك كم أعطيت الطبيب بدون وجه حق؟! ولا داعى للجواب ، ولكنى أدعوك إلى إطعام أولياء الحسين . . .
فقاطعه محمد عفت متسائلاً :

- وأنت يا شيخ متولى ، ألسنت من أولياء الحسين؟! وضح هذه النقطة . .

فاستطرد الشيخ - دون مبالاة - وهو يضرب الأرض بعصاه عقب كل عبارة :

- أطعم أولياء الحسين وأنا على رأسهم ، أراد محمد عفت أم لم يرد ، وعليه هو أيضاً أن يطعمهم إكراماً لك ، وأنا على رأسهم ، وعليك أن تؤدى فريضة الحج هذا العام ، ويا حبذا لو أخذتني معك ليضاعف الله لك الجزاء . .

ما أطيبك وأقربك إلى قلبى يا شيخ متولى ، أنت من معالم الزمن .
- أعذك يا شيخ متولى بأن أخذك معى إلى الحجاز ، إذا أذن الرحمن . .

عند ذاك قال الخواجاء ، وكان قد خلع قبعته عن شعر خفيف ناصع البياض :

- شوية زعل ، الزعل سبب كل شىء ، اترك الزعل ترجع مثل البمب .

مانولى الذى باعك الخمر طيلة خمسة وثلاثين عاماً ، بائع السعادة وسمسار القرافة .

- هذه عاقبة بضاعتك يا مانولى !

فنظر الخواجاء فى بقية وجوه الزبائن ، وقال :

- لم يقل أحد إن الخمر تأتى بالمرض ، كلام فارغ ، الانبساط والضحك والفرفشة تسبب المرض؟!!

هتف الشيخ متولى عبد الصمد، وهو يلتفت نحو الخواجا مسددًا نحوه بصرا لا يكاد يرى :

- الآن عرفتكَ يا وجه المصائب، عندما سمعت صوتك فى المرة الأولى تساءلت : أين سمعت هذا الشيطان؟!

وسأل محمد العجمى بائع الكسكسى الخواجا مانولى، وهو يغمز بعينه ناحية الشيخ متولى :

- الم يكن الشيخ متولى من زبائنك يا مانولى؟
فقال الخواجا باسمًا :

- فمه ملآن بالطعام، فأين يضع الخمر يا حبيبي؟
وصاح عبد الصمد وهو يشد على مقبض عصاه :
- تأدب يا مانولى !

فصاح به العجمى :

- أتتكري يا شيخ متولى أنك كنت أكبر حشاش قبل أن يقطع الكبر أنفاسك؟

فلوح الشيخ بيده محتجًا، وهو يقول :

- ليس الحشيش حرامًا، أجربت صلاة الفجر وأنت مسطول؟ الله أكبر . . الله أكبر !

ووجد أحمد عبد الجواد الهمايوى صامتًا، فالتفت إليه باسمًا وهو يقول على سبيل المجاملة :

- كيف حالك يا معلم؟ والله زمان !

فقال الهمايوى بصوت كالنعير :

- والله زمان زمان والله ! أنت السبب يا سيد أحمد وأنت الهاجر، ولكن لما قال لى السيد على عبد الرحيم إن عدوك راقد ذكرت أيام الصبوات كأنها لم تنقطع، وقلت لنفسى : لا كان الوفاء إن لم أزر

بنفسى الرجل الحبيب، رجل المروءة والفرفشة والأنس، ولولا
الملامة لجئت معى بفظومة وتملى ودولت ونهاوند، كلهن
مشتاقات إلى رؤيتك، يا سلام يا سى أحمد، أنت أنت سواء
شرفتنا كل ليلة أم هجرتنا سنين!

ثم وهو يجيل عينيه الحديديتين:

هجرتمونا كلکم، البركة فى السيد على، ربنا يخلی لنا سنية القللى
التي تجذبه إلینا، من فات قديمه تاه، عندنا أصل الأنس، ماذا غيبکم
عنا؟ لو كانت التوبة لعذرناکم، ولكن التوبة لم یثن أوانها، ربنا یبعدها
بطول العمر والأفراح!

أحمد عبد الجواد وهو یشير إلى نفسه:

- ها أنت ترى أننا قد انتهینا!

فقال المعلم بحماس:

- لا تقل هذا يا سيد الرجال، وعكة وتمضى إلى غیر رجعة، لن
أتركك حتى تنذر أن تعود إلى وجه البركة - ولو مرة - إذا أخذ الله
بيدك وقمت بالسلامة!

فقال محمد عفت:

- الزمن تغیر يا معلم همايونی، أين وجه البركة الذى عرفناه قديماً؟
ابحث عنه فى التاريخ، أما ما بقى منه فمراح الشبان من أهل
اليوم، كيف نسیر بينهم وفيهم أبناؤنا؟
وقال إبراهيم الفار:

- ولا تنس أننا لا نستطيع أن نغالط ربنا فى العمر والصحة، انتهینا
كما قال سى أحمد، ما منّا إلا من اضطر إلى زيارة الطبيب ليقول له
عندك وعندك، لا تشرب... لا تأكل... لا تتنفس، وغير ذلك من
الوصايا المقررة، ألم تسمع عن مرض الضغط يا معلم همايونی؟

فقال المعلم وهو يحدجه بنظرة :

- داو أى مرض بسكرة وضحكة ولعبة ، وإن وجدت له أثرا بعد ذلك الزقه فى كبدى .

فصاح مانولى :

- قلت له هذا وحياتك أنت .

وقال محمد العجمى ، كأنما يتم ما بدأ صاحبه :

- ولا تنس المتزول الأصيل يا معلم . .

فهز الشيخ متولى عبد الصمد رأسه متعجبا ، وتساءل فى حيرة :

- دلونى يا أهل الخير أين أنا ، أفى بيت ابن عبد الجواد أم فى غرزة أم فى حانة؟ دلونى يا هوه . .

تساءل الهمايونى وهو يرمق الشيخ متولى شزرا :

- من صاحبكم؟

- ولى كله خير . .

فقال له متهكما :

- اقرألى الطالع إن كنت وليا!

فهتف متولى عبد الصمد :

- إما السجن وإما المشنقة!

فلم يتمالك الهمايونى من أن يضحك عاليا ، ثم قال :

- حقا إنه ولى ، فهذه هى النهاية المتوقعة (ثم مخاطبا الشيخ) لكن

اضبط لسانك ، وإلا حققت بك نبوءتك!

على عبد الرحيم ، وهو يقرب رأسه من وجه السيد :

- قم يا حبيبى ، الدنيا لا تساوى قشرة بصلة من غيرك ، ماذا جرى

لنا يا أحمد؟ أترى أنه يحسن بنا ألا نستهيى بالمرض بعد ذلك؟ كان

آباؤنا يتزوجون وهم فوق السبعين ، فماذا جرى؟!

متولى عبد الصمد بعنف تطاير معه الرذاذ من فيه :

- كان أبأؤكم مؤمنين طاهرين ، لم يسكروا ولم يفسقوا ، فى هذا الجواب الذى تريد . .

وأجاب أحمد عبد الجواد صديقه قائلا :

- قال لى الطبيب إن التماذى فى الاستهانة مع الضغط عاقبته الشلل والعياذ بالله . هذا ما وقع لصاحبنا الودينى أكرمه الله بحسن الختام ، إنى أسأل الله إذا حم القضاء أن يكرمنى بالموت ، أما الرقاد أعواما بلا حراك . . اللهم رحمتك !

وهنا استأذن العجمى وحמידو ومانولى فى الانصراف ، وذهبوا وهم يدعون للسيد بالصحة والعمر المديد . ومال محمد عفت على السيد ، ثم همس بصوت هامس :

- جليلة تقرئك السلام ، وكم ودَّت لو تراك بنفسها . .

فالتقطت أذن عبده القانونجى مقالته ، ففرقع بأصابعه ، وقال :

- وأنا مبعوث السلطنة إليك ، وقد كادت أن تتزىى بزى الرجال لتحضر إليك بنفسها لولا أن أشفقت عليك من العواقب غير المتوقعة ، فأرسلتنى وقالت لى قل له :

وتنحى مرة ثم مرة ، وغنى بصوت خافت :

أمانة يا رايح يمى نبوس لى الحلو من فمه

وقل له عبدك المغرم ذليل

فابتسم الهمايونى كاشفا عن طاقم ذهبى ، وقال :

- نعم الدواء ، جرب هذا ولا تلق بالآلى ولى الله المتنبي بالمشائق .

زبيدة؟! لا شوق بى إلى شىء . دنيا المرض شىء كريه ، ولو وقع المحذور لمت سكران ، ألا يعنى هذا أنه لا بد من صفحة جديدة؟!

وقال له إبراهيم الفار بصوت خافت :

- تعاهدنا على ألا نذوق الخمر وأنت راقد . .

- إني أعفيتكم من تعهدكم ، وسامحوني عما فات !

على عبد الرحيم مبتسما فى إغراء :

- لو كان فى الإمكان أن نحتفل هنا الليلة بشفائك

متولى عبد الصمد موجهها خطابه للجميع :

- أدعوكم إلى التوبة والحج . .

الهمايوني محققا :

- كأنك عسكرى فى غرزة . . .

وبإشارة متفق عليها من الفار ، تقاربت رءوس محمد عفت وعلى

عبد الرحيم وإبراهيم الفار فوق رأس السيد ، وراحوا يغنون بصوت

خافت :

أما أنبت مش قد الخمرة بس تسكر ليه

على نعمة أما انت مش قد الهوى بس تعشق ليه

على حين جعل الشيخ متولى عبد الصمد يتلو آيات من سورة

التوبة ، أما أحمد عبد الجواد فقد أغرق فى الضحك حتى دمعت عيناه ،

ومر الوقت بلا حساب حتى بدا فى وجه الشيخ متولى عبد الصمد

الجزع ، فقال :

- ليكن فى معلومكم أنى آخر من سيغادر هذه الحجرة ؛ لأننى أريد أن

أخلو إلى ابن عبد الجواد . .

غادر أحمد عبد الجواد البيت بعد أسبوعين آخرين ، فكان أول ما فعله أن صحب ياسين وكمال إلى زيارة الحسين والصلاة في مسجده شكرا لله . وكان نبأ وفاة على فهمى كامل قد نشر فى الصحف ، فتأمله السيد أحمد طويلا وخاطب ابنه - وهم يغادرون البيت - قائلا : - سقط ميتا وهو يخطب فى جمع حافل ، وها أنا أسعى على قدمى بعد رقاد كدت أرى فيه الموت رؤية العين ، فمنذا يستطيع أن يعلم الغيب؟! حقا إن الأعمار بيد الله ، وإنه لكل أجل كتاب . .

كان عليه أن يصبر أياما وأسابيع حتى يسترد وزنه ، غير أنه بدا رغم ذلك مستوفيا أى وقاره وجماله . وقد سار فى المقدمة وتبعه ياسين وكمال . وهو منظر لم بهيئته الكاملة منذ وفاة فهمى . وفى الطريق ما بين القصرين والجامع لمس الشابان المكائنة التى يحطى بها أبوهما فى الحى كله ، فما من تاجر من أصحاب الدكاكين القائمة على جانبى الطريق إلا وقد صافحه وتلقاه بين ذراعيه وهو يهتبه بالسلامة . واستجابت نفسا ياسين وكمال لهذه المودة الحارة المتبادلة ، فملكهما السرور والزهو وارتسمت على ثغريهما ابتسامة لم تفارقهما طوال الطريق ، غير أن ياسين تساءل فى براءة : لم لم يحظ بمثل مكانة أبيه وكلاهما فى الجلال والجمال والعيوب سواء؟ أما كمال فبالرغم من تأثره الوقتى استدعى أفكاره الغابرة عن هذه المكائنة المرموقة ليسبرها بعين جديدة . كانت فى الماضى تتمثل لعينيه الصغيرتين آية للجلال والعظمة ، أما الآن فإنه يراها لا شىء أو أولا شىء بالقياس إلى مثله العليا ، ما هى إلا المكائنة التى

يحظى بها رجل طيب القلب، لطيف المعشر، جم المروءة، والعظمة شىء قد يناقض ذلك كل المناقضة، فهي دوى يزلزل قلوب الخاملين ويطير النوم عن أعين الراقيين، وهى عسية بأن تستثير الكراهية لا الحب، والسخط لا الرضا، والعداوة لا المودة، إنها الكشف والهدم والبناء، ولكن أليس من السعادة أن ينعم الإنسان بمثل هذا الحب والإجلال؟ بلى وأى ذلك أن عظمة العظماء تقاس أحيانا بمقدار تضحياتهم بالحب والطمأنينة فى سبيل أهداف أسمى، على أى حال هو رجل سعيد فليهنأ بسعاده. انظر إليه ما أجمله! كذلك ياسين ما أطفه! وما أعجب منظرى بينهما كأنى صورة تنكرية فى كرنفال، ازمع ما شاء لك الزعم أن الجمال حلية النساء لا الرجال فلن يحو هذا من ذاكرتك موقف الكشك الرهيب. وقد برئ أبى من الضغط فمتى أبرأ من الحب؟ والحب مرض غير أنه كالسرطان لم تكتشف جرثومته بعد. إن حسين شداد يقول فى رسالته الأخيرة: «إن باريس عاصمة الجمال والحب» فهل هى أيضا عاصمة العذاب. وقد بدأ العزيز ييخل برسائله كأنما يقطرها من دمه الغالى، أريد عالما لا تخدع فيه القلوب ولا تخدع.

عند منعطف خان جعفر لاح لهم الجامع الكبير، فسمع أباه وهو يقول من الأعماق بصوت جمع بين رقة التحية وحرارة الاستغاثه «يا حسين» ثم حث خطاه فتبعه ياسين وهو ينظر إلى الجامع وعلى شفثيه ابتسامة غامضة. أيدور بخلد أبيه أنه لم يتبعه إلى هذه الزيارة المباركة إلا استجابة لرغبته هو دون أدنى مشاركة فى عقيدته؟! أما هذا الجامع فلم يعد فى نظره إلا رمزا من رموز الخيبة التى ابتلى بها قلبه. كان فى الماضى يقف تحت مثذنته وقلبه خفاق ودمعة متحفز وصدره مرتعش لجيشات الوجد والإيمان والأمل، واليوم يقترب منه وهو لا يراه إلا مجموعة ضخمة من الأحجار والحديد والخشب والطلاء تحتل مساحة واسعة من الأرض بغير وجه حق!

بيد أنه لا مناص من تمثيل دور المؤمن حتى تنتهى الزيارة رعاية لحقوق الأبوة واحتراما للناس أو اتقاء لشهرهم ، وهو سلوك ينافى الكرامة والصدق ، أريد علما يعيش فيه الإنسان حرّاً بلا خوف ولا إكراه!

وخلعوا أحذيتهم ودخلوا تباعا ، فاتجه الأب إلى المحراب ودعا ابنه إلى الصلاة تحية للمسجد ، ثم رفع يديه إلى رأسه مقيما الصلاة فائتما به . استغرق الأب فى الصلاة كعادته فأرخى جفونه وامتلئ ، ونسى ياسين كل شيء إلا أنه بين يدي الله الغفور الرحيم . وجعل هو يحرك شفّتيه دون أن يقول شيئا ، وانحنى واستوى ثم ركع وسجد وكأنه يؤدى بعض الحركات الرياضية الفاترة ، وقال لنفسه : إن أقدم الآثار المتخلفة على وجه الأرض أو فى باطنها معابد وحتى اليوم لا يخلو منها مكان فمتى يشب الإنسان عن طوقه ويعتمد على نفسه؟ وهذا الصوت الجهير الذى يترامى من أقصى الجامع يذكر الناس بالآخرة فمتى كان للزمن آخر؟ وما أجمل أن ترى إنسانا يغالب الأوهام ليغلبها! ولكن متى ينتهى القتال ويعلن المقاتل أنه سعيد؟ وإن الدنيا لتبدو لعيني غريبة فهل تراها خلقت أمس؟ وهذان الرجلان هما أبى وأخى فلم لا يكون جميع الناس آبائى وإخوتى؟ وهذا القلب الذى أحمله بين حبنى كيف أرتضى أن يسومنى العذاب ألوانا؟ وما أكثر أن أرتطم كل ساعة بشخص لا أوده! فلماذا نزع الذى أهواه من دونهم إلى أقصى الأرض؟

ولما فرغوا من صلاتهم ، قال الأب :

- لنمكث قليلا قبل أن نقوم للطواف .

وظلوا متربعين صامتين ، حتى عاد الأب يقول بصوت رقيق :

- لم نجتمع هنا منذ ذلك اليوم!

فقال ياسين بتأثر :

- الفاتحة على روح فهمى . .

وتليت الفاتحة، ثم سأل الأب ياسين فيما يشبه الارتياب :

- ترى هل شغلتك أمور الدنيا عن زيارة الحسين؟

فقال ياسين الذى لم يزر الجامع طوال هذه الأعوام إلا مرات معدودات :

- لا يمكن أن يمر أسبوع دون أن أزور سيدى !

فالتفت الأب نحو كمال، ورمقه بنظرة كأنما تسأله «وأنت؟»، فقال كمال وهو يجد استحياء :

- وأنا كذلك !

فقال الأب بخشوع :

- إنه حبيبنا وشفيعنا إلى جده يوم لا ترجى فيه أم ولا أب . .

قام من المرض هذه المرة - بعد أن ألقى عليه درسا لا يُنسى - وهو يؤمن ببطشه ويخاف عواقبه فصدمت نيته على التوبة، وقد كان يؤمن دائما بأن التوبة آتية مهما طال بها الانتظار، فاقنع بأن تأجيلها بعد ذلك ضرب من السفه والكفر بنعمة الله الرحيم . وكان كلما طافت به ذكريات اللهو تعزى بما ينتظره فى حياته من مسرات بريئة، كالصدقة والطرب والفكاهة، لذلك دعا الله أن يحفظه من وساوس الشيطان وأن يثبت قدميه فيما اعتزم من توبة وراح يتلو ما تيسر من السور القصار التى يحفظها .

ونفض فنهضا وراءه، ثم مضوا إلى الضريح، وهناك استقبلهم عرف طيب يذكو فى المكان وغممة تلاوات تهمس فى الأركان، فطافوا بالضريح بين جموع الطائفين، وارتفعت عينا كمال إلى العمامة الكبيرة الخضراء، ثم استقرتا مليا فوق الباب الخشبي الذى طالما لثمته شفتاه . فقارن بين عهد وغهد، وحال وحال، وذكر كيف انجلي سر هذا القبر عن أول مأساة فى حياته، ثم كيف تتابعت المآسى بعد ذلك غير

مبقية على حب أو عقيدة أو صداقة، وكيف أنه رغم ذلك كله لا يزال واقفاً على قدميه، يرنو إلى الحقيقة رنو العابد، غير آبه لطعنات الألم، حتى الماراة انداحت على شفثيه فارتسمت ابتسامة، أما السعادة العمياء التي تضىء وجوه الطائفين من حوله فقد نبذاها غير آسف، وكيف يشتري السعادة بالنور وقد عاهد نفسه على أن يعيش مفتوح العينين، مؤثرا القلق الحى على الطمأنينة الخاملة، ويقظة السهاد على راحة النوم.

ولما فرغوا من طوافهم دعاهما الأب إلى الجلوس ملياً فى مشوى الضريح، فاتجهوا إلى ركن وجلسوا متقاربين، ولح السيد بعض معارفه، فأقبلوا عليه مصافحين مهئين، وجالسه نفر منهم، وكان أكثرهم يعرفون ياسين. إما عن طريق دكان والده، وإما عن طريق مدرسة النحاسين. أما كمال فلم يكده يعرفه أحد منهم، وقد لفتت نحافته أنظار بعضهم فداعب السيد قائلاً:

- ما لابنك هذا كالبرص؟

فبادره السيد قائلاً، وكأنه يرد تحية بأحسن منها:

- أنت الأبرص!

وابتسم ياسين، وابتسم كمال، وكان أول مرة يطلع فيها على شخصية أبيه «السرية» التى سمع عنها الكثير. هكذا بدا الأب رجلاً لا تفوته النكتة حتى وهو فى مقام الحمد والتوبة أمام ضريح الحسين. وقد بعث ذلك ياسين على التفكير فى مستقبل أبيه، فتساءل: ترى هل يعود إلى مسراته المعروفة بعد ما كان من أمر المرض معه...؟ وقال لنفسه: «إن معرفة ذلك عندى من الدرجة الأولى من الأهمية».

كانت أم حنفى متربعة على الحصيرة بالصالة، بينما جلست نعيمة ابنة عائشة وعبد المنعم وأحمد ابنا خديجة على الكنبه قبالتها. وكانت النافذتان المطلتان على فناء البيت مفتوحتين ليلطفا من جو أغسطس المفعم بالحرارة والرطوبة، غير أنه لم تكد تهفو نسمة واحدة فظل المصباح الكبير المتدلى من السقف يرسل نوره على الصالة وهو ثابت، أما الحجرات فبدت مظلمة صامته. وكانت أم حنفى خافضة الرأس، شابكة ذراعيها فوق صدرها، ترفع عينيها إلى الصغار الجالسين على الكنبه لحظة ثم تغمضها، ولم تكن تتكلم ولكن شفتيها لم تتوقفا عن الحركة، وتساءل عبد المنعم:

- إلى متى يبقى خالى كمال فوق السطح؟

فتمتمت أم حنفى:

- الجو حار هنا، لم لَمْ تبقوا معه؟

- الدنيا ظلام، ونعيمة تخاف الحشرات.

وهنا قال أحمد فى ضجر:

- إلى متى نبقى هنا؟ هذا هو الأسبوع الثانى، إنى أعد الأيام يوما

يوما، وأريد أن أعود إلى بابا وماما..

أم حنفى برجاء:

- إن شاء الله تعودون جميعا وأنتم على أسعد حال، ادعوا الله فإنه

يستجيب للصغار الأطهار..

فقال عبد المنعم :

-إننا ندعوه قبل النوم وعقب الاستيقاظ كما توصينا . .

فقالت المرأة :

- ادعوا فى كل وقت ، ادعوه الآن ، هو وحده القادر على كشف غمتنا . .

وبسط عبد المنعم راحتيه ، ثم نظر إلى أحمد داعيا إياه إلى مشاركته ، ففعل الآخر مثله دون أن يزايل الضجر وجهه ، ثم قالوا معا كما تعودا أن يقولوا فى الأيام الأخيرة :

- يارب اشف عمنا خليل ، وعثمان ومحمد ابنى عمنا ، حتى نعود إلى بيتنا مجبورى الخاطر . .

وبدا التأثر فى وجه نعيمة فأرخت أساريرها فى حزن واغرورت عيناها الزرقاوان بالدموع ، وهتفت :

- بابا وعثمان ومحمد كيف حالهم ؟ وماما أريد أن أراها ، أريد أن أراهم جميعا . .

فتحول عبد المنعم إليها قائلا بصوت المواسى :

- لا تبكى يا نعيمة . قلت لك كثيرا لا تبكى ، عمى بخير ، عثمان بخير ، محمد بخير ، وسنعود قريبا إلى بيتنا ، جدتى تؤكد هذا ، وخالى كمال أكده أيضا منذ قليل . .

فقالت نعيمة وهى تجهش فى البكاء :

- كل يوم أسمع هذا ، ولكنهم لا يسمحون لنا بالعودة إليهم ، أريد أن أرى بابا وعثمان ومحمد ، أريد ماما . .

قال أحمد بتذمر :

- أنا أريد بابا وماما أيضا . .

عبد المنعم :

- سنعود عندما يشفون . .

هتفت نعيمة بجزع :

- لنعد الآن ، أريد أن أرجع ، لم يعدوننا عنهم ؟

فأجابها عبد المنعم :

- إنهم يخافون أن نشم المرض !

قالت نعيمة بعناد :

- ماما هناك ، وخالتي خديجة هناك ، وعمى إبراهيم هناك ، وجدتي

هناك ، فلماذا لا يشمون المرض ؟

- لأنهم كبار !

- إذا كان الكبار لا يشمون المرض ، فلماذا مرض بابا ؟

تنهدت أم حنفى ، وقالت برقة :

- هل ضايقتك شىء ؟ . . هذا بيتك أيضا ، وها هو سى عبد المنعم

وسى أحمد ليلعبا معك ، وخالك كمال يحبك قد عينيه ،

وستعودين قريبا إلى ماما وبابا وعثمان ومحمد . . لا تبكى يا ستى

الصغيرة وادعى لبابا وأخويك بالشفاء . .

أحمد متأففا :

- أسبوعان عددتكما على أصابعى ، ثم إن شقتنا فى الدور الثالث

والمرض فى الدور الثانى ، لم لا نعود إلى شقتنا ونأخذ معنا نعيمة ؟

أم حنفى كالمحذرة وهى تضع أصبعها على شفيتها :

- سيغضب خالك كمال إذا سمع بما قلت ، إنه يشتري لكم

الشكولاتة واللب ، فكيف تقول إنك لا ترغب فى البقاء معه ؟ لم

تعودوا صغارا، وأنت يا سى عبد المنعم ستدخل المدرسة الابتدائية
بعد شهر، وكذلك أنت يا نعومة!

فقال أحمد متراجعا بعض الشيء:

- دعونا على الأقل نخرج لنلعب فى الطريق!

فأمّن عبد المنعم على الاقتراح قائلا:

- كلام معقول يا أم حنفى، لمّ لا نخرج إلى الطريق لنلعب؟

فقلت أم حنفى بحزم:

- عندكم الفناء وهو يسع الدنيا والآخرة، وعندكم السطح أيضا،

ماذا تريدون أكثر من ذلك؟ كان سى كمال وهو صغير لا يلعب إلا

فى البيت، وعندما أفرغ من شغلى أقص عليكم الحكايات.. ألا

تحبون ذلك؟

أحمد محتجا:

- أمس قلت لنا إن حكاياتك انتهت!

نعيمة وهى تجفف عينيها:

- خالتي خديجة عندها حكايات أكثر، وأين ماما لنغنى معا؟

أم حنفى باستعطاف:

- طالما رجوتك أن تغنى لنا وأنت ترفضين!

- لا أغنى هنا. لا أغنى وعثمان ومحمد مرضى..

المرأة وهى تنهض:

- سأجهز لكم العشاء ثم ننام، جبن وبطيخ وشمام، هه؟!

كان كمال جالسا على الكرسي فى جانب السطح المكشوف فيما يلى

سقيفة الياسمين والبلاب، لا يكاد يرى فى الظلام لولا جلبابه الأبيض

الفضفاض، وكان مادا ساقيه فى استرخاء، مصعدا رأسه إلى الأفق

المرصع بالنجوم، مستغرقاً في التفكير، يكتنفه صمت لا يكدره شيء إلا أن يرتفع صوت من الطريق أو تنبعث قوقأة عن حجرة الدجاج، وكان في وجهه أثر مما طرأ على الأسرة في الأسبوعين الأخيرين، فقد اختل نظام البيت المعهود واختفت منه أمه إلا في أوقات نادرة، وتشبع جوه بتذمر المساجين الصغار الثلاثة الذين يهيمنون في رحبانه متسائلين عن «بابا» و«ماما» حتى أعيته الحيل في ملاطفتهم وملاعبتهم.

أما في السكرية فإن عائشة لم تعد تغنى وتضحك كما قيل كثيراً عنها، ولكنها تقضى الليل ساهرة بين أسرة المرضى الأعزاء، زوجها وطفليها، وكم تمنى صغيراً لو تعود عائشة إلى بيتها القديم، وكم يشفق اليوم من أن تضطر إلى العودة مهیضة الجناح كسيرة القلب، وأما أمه فتهمس في أذنه «لا تزر السكرية، وإذا زرتها فلا تمكث طويلاً» وإنه ليزورها من حين لآخر، ثم يغادرها تفوح من راحتيه رائحة المطهرات الغريبة ويستحوذ القلق على فؤاده، وأعجب شيء أن جراثيم التيفود - كسائر الجراثيم - آية في الضالة، لا تراها العين، ولكنها تستطيع أن توقف تيار الحياة، وأن تتحكم في مصير العباد، وأن تشتت إذا أرادت الأسرة. محمد المسكين كان أول المرضى، ثم تبعه عثمان، وأخيراً - وعلى غير توقع - وقع الأب، واللييلة جاءت الجارية سويدان لتخبره بأن أمه سببت في السكرية، ثم قالت - عن أمه وعن نفسها - إنه ليس ثمة ما يدعو إلى القلق! إذن لم تببت الأم في السكرية؟ ولم ينقبض صدره؟ على أنه - رغم هذا كله - من الممكن أن يصفو الجو في غمضة عين، فيشفى خليل شوكت وطفلاه العزيزان، ويتألق وجه عائشة ويضيء، وهل نسي كيف ابتلى بيته بمثل هذه المحنة منذ ثمانية أشهر؟ وها هو أبوه يسعى في كامل صحته وعافيته، وقد استردت عضلاته قوتها، وعيناه بريقهما الجذاب، ثم رجع إلى أصحابه وأحبابه كما يرجع الطير إلى

الشجرة الغناء، فمنذا يعترض على أنه يمكن أن يتغير كل شيء فى غمضة عين؟!

- أنت هنا وحلك؟

عرف كمال الصوت، فقام متلفتاً صوب باب السطح، ومد يده للقدام وهو يقول:

- كيف حالك يا أخى؟ تفضل..

وقدم له مقعداً، فتنفس ياسين تنفساً عميقاً ليعيد إلى رثيه توازنهما الذى اضطرب بصعود السلم، فامتلاً صدره بشذا الياسمين، ثم جلس وهو يقول:

- الأولاد ناموا، وأم حنفى نامت كذلك..

فسأله كمال وهو يتخذ مجلسه مرة أخرى:

- مساكين، لا يستريحون ولا يريحون، كم الساعة الآن؟

- فى الحادية عشرة، الجو هنا ألطف من الطريق بكثير..

- وأين كنت؟!

- مترددا ما بين قصر الشوق والسكرية، وعلى فكرة والدتك لن تعود الليلة..

- سويدان أبلغتنى ذلك، ماذا جد؟ كنت من القلق فى نهاية..

ياسين وهو يتنهد:

- كلنا فى القلق سواء، وربنا عنده اللطف، والدك هناك أيضاً..

- فى هذه الساعة؟!

- تركته فى البيت.. (ثم مستطرداً بعد قليل).. كنت فى السكرية

حتى الثامنة مساءً، وإذا برسول يحضر من قصر الشوق ليخبرنى بأن زوجى قد جاءها الطلق، فذهبت من فورى إلى أم على الداية

ومضيت بها إلى البيت حيث وجدت زوجي في رعاية بعض الجارات، ومكثت هناك ساعة غير أنني لم أطق سماع الأنين والصراخ طويلا، فعدت إلى السكرية مرة أخرى فوجدت والدك جالسا مع إبراهيم شوكت ..

- ماذا يعنى هذا؟ خبرنى بما عندك ..

ياسين بصوت منخفض:

- الحال خطيرة جدا ..

- خطيرة؟!!

- نعم جئت إلى هنا لأريح أعصابى قليلا، ألم تجد زنوبة ليلة تلد فيها إلا هذه الليلة؟ لشد ما تعبت بين قصر الشوق والسكرية، وبين الداية والدكتور، والحال خطيرة، وقد نظرت حرم المرحوم شوكت فى وجه ابنتها وهتفت: «أمان يا رب .. كان يجب أن تأخذنى قبله!» فانزعجت أمك انزعاجا شديدا، ولكنها لم تحفل بها، وقالت بصوت مبحوح: «هذه صورة آل شوكت إذا حضرهم الموت، رأيت أباه وعمه وجده من قبل!»، لم يبق من خليل إلا خيال، وكذا الطفلان، لا حول ولا قوة إلا بالله ..

ازدرد كمال ريقه، ثم قال:

- عسى أن تخيب الظنون!

- عسى! كمال .. لست صغيرا، ينبغي أن تعلم بما أعلم أنا على الأقل، الطبيب يقول إن الأمر جد خطير!

- عن الكل؟!!

- الكل! .. خليل وعثمان ومحمد، رياه! ما أتعس حظك يا عائشة!

تمثلت لعينيه فى الظلام أسرة عائشة الضاحكة كما كانت تبدو له فى

الماضى . السعداء الضاحكون الذين مارسوا الحياة كأنها لهو خالص ، متى تضحك عائشة من قلبها مرة أخرى ؟ كما اختطف فهمى ، الإنجليز أو التيفود سيان ، أو غير ذلك من الأسباب ، الإيمان بالله هو الذى جعل من الموت قضاء وحكمة يبعثان على الحيرة ، وهو ليس فى الحقيقة إلا نوعا من العبث .

- أقطع ما سمعت فى حياتى !

- هو ذلك ، ولكن ما الحيلة ؟ وماذا جنت عائشة حتى تستحق هذا كله ؟ ! اللهم عفوك ورحمتك . .

هل ثمة حكمة رفيعة يمكن أن تبرر القتل بالجملة ؟ إن الموت يتبع قوانين « النكتة » بدقة ، ولكن كيف لنا أن نضحك ونحن هدف النكتة ؟ ولعلك تستطيع أن تلاقيه بالابتسام إذا تصديت له دواما بالتأمل الصادق والفهم الصحيح والتجرد الأصيل ، ذلك هو الانتصار على الحياة والموت معا ، ولكن أين من عائشة ذلك كله ؟ !

- رأسى يدور يا أخى !

فقال ياسين بلهجة الحكيم ، ولأول مرة فيما سمع كمال :

- هذه هى الدنيا ، ويجب أن تعرفها على حقيقتها . .

ثم قام فجأة وهو يقول :

- يجب أن أذهب الآن . .

فقال كمال كالمستغيث :

- ابق معى بعض الوقت . .

ولكنه قال كالمعتذر :

- الساعة الحادية عشرة ، ويجب أن أذهب إلى قصر الشوق لأطمئن

على زنوبة ، ثم أعود إلى السكرية لأكون إلى جانبهم ، لن أنام من

الليل فيما يبدو ساعة واحدة ، والله أعلم بما ينتظرنا غدا . .

فقام كمال وهو يقول فى جزع :

- إنك تتكلم كما لو كان كل شيء قد انتهى ، سأذهب من فوري إلى
السكرية . .

- بل يجب أن تبقى مع الأطفال حتى مطلع النهار ، وحاول أن تنام
ولا ندمت على مصارحتي إياك بالحقيقة!

وغادر ياسين السطح فتبعه كمال ليوصله إلى باب البيت ، وعندما
مرا بالدور الأعلى حيث ينام الأطفال ، قال كمال بأسف :

- يا لهم من مساكن هؤلاء الأطفال ! وشد ما بكت نعيمة في الأيام
الأخيرة كأن قلبها حدس ما هنالك . .

فقال ياسين باستهانة :

- الأطفال سرعان ما ينسون ، ادع بالرحمة للكبار . .

ولما خرج إلى الفناء ، ترمى إليهما من الطريق صوت يصيح بقوة
«ملحق المقطم» ، فتمتم كمال متسائلا :

- ملحق المقطم؟!!

فقال ياسين بلهجة أسيفة :

- أوه إنني أعرف عما ينادى فقد سمعت الناس يتناقلونه وأنا قادم
إليك . . سعد زغلول مات!

هتف كمال من الأعماق :

- سعد؟!!

فتوقف ياسين عن السير ، والتفت نحوه قائلا :

- هوّن عليك وحسبنا ما نحن فيه!

فحملق كمال في الظلام دون أن ينطق أو يأتي حراكا ، كأنما قد ذهل
عن خليل وعثمان ومحمد وعائشة ، عن كل شيء إلا أن سعد زغلول قد
مات ، وواصل ياسين السير وهو يقول :

- مات مستوفيا حظه من العمر والعظمة فماذا تريد له أكثر من ذلك!
ليرحمه الله . .

فتبعه صامتا ولما يفق من ذهوله، لو فى غير هذا الظرف الحزين ما
درى كيف يتحمل النبأ، ولكن المصائب إذا تلاقى تحدى بعضها بعضا،
هكذا ماتت جدته فى أعقاب مصرع فهمى فلم تجد لها باكيا - إذن مات
سعد . النفى والثورة والحرية والدستور مات صاحبها، كيف لا يحزن
وخير ما فى روحه من وحيه وتربيته!

ووقف ياسين مرة أخرى ليفتح الباب، ثم مديده له فتصافحا، وعند
ذاك تذكر كمال أمرا طال نسيانه له، فقال لأخيه وهو يجد من نسيانه
حياء :

- أدعو الله أن تجد زوجك قد ولدت بالسلامة . .

فقال ياسين وهو يهم بالذهاب :

- إن شاء الله، وأرجو أن تنام نوما هادئا . .

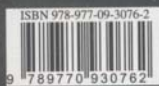
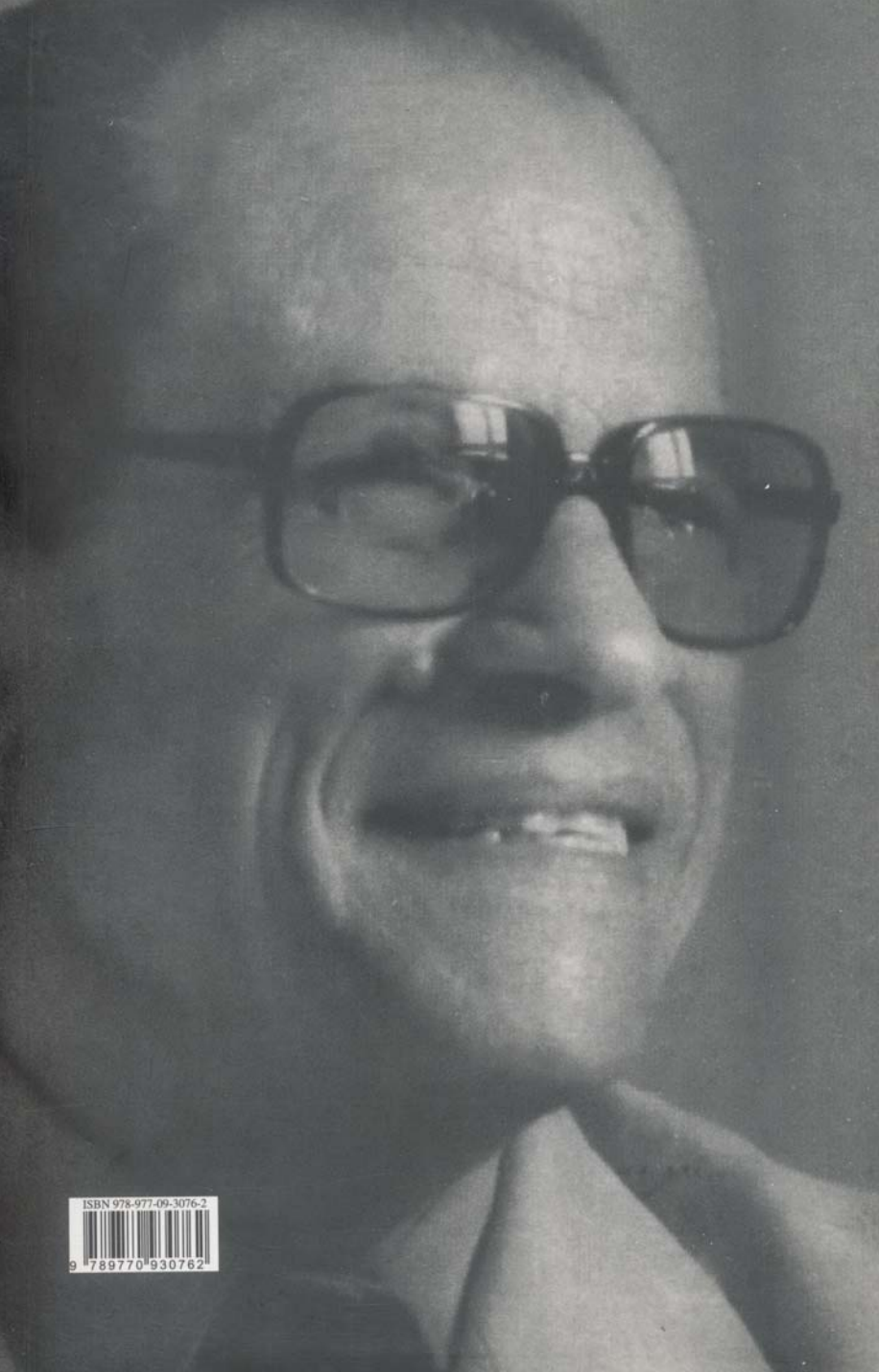
(تمت)

أعمال نجيب محفوظ

- | | | | |
|------|---------------|-----------------|------|
| ١٩٣٢ | ترجمة | مصر القديمة | ١ - |
| ١٩٣٨ | مجموعة قصصية | همس الجنون | ٢ - |
| ١٩٣٩ | رواية تاريخية | عبث الأقدار | ٣ - |
| ١٩٤٣ | رواية تاريخية | رادوبيس | ٤ - |
| ١٩٤٤ | رواية تاريخية | كفاح طيبة | ٥ - |
| ١٩٤٥ | رواية | القاهرة الجديدة | ٦ - |
| ١٩٤٦ | رواية | خان الخليلي | ٧ - |
| ١٩٤٧ | رواية | زقاق المدق | ٨ - |
| ١٩٤٨ | رواية | السراب | ٩ - |
| ١٩٤٩ | رواية | بداية ونهاية | ١٠ - |
| ١٩٥٦ | رواية | بين القصرين | ١١ - |
| ١٩٥٧ | رواية | قصر الشوق | ١٢ - |
| ١٩٥٧ | رواية | السكرية | ١٣ - |
| ١٩٦١ | رواية | الرص والكلاب | ١٤ - |
| ١٩٦٢ | رواية | السمان والخريف | ١٥ - |
| ١٩٦٢ | مجموعة قصصية | دنيا الله | ١٦ - |
| ١٩٦٤ | رواية | الطريق | ١٧ - |

١٨ -	بيت سئى السمعة	مجموعة قصصية	١٩٦٥
١٩ -	الشحاذ	رواية	١٩٦٥
٢٠ -	ثرثرة فوق النيل	رواية	١٩٦٦
٢١ -	ميرامار	رواية	١٩٦٧
٢٢ -	أولاد حارتنا	رواية	١٩٦٧
٢٣ -	خمارة القط الأسود	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٤ -	تحت المظلة	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٥ -	حكاية بلا بداية ولا نهاية	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٦ -	شهر العسل	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٧ -	المرايا	رواية	١٩٧٢
٢٨ -	الحب تحت المطر	رواية	١٩٧٣
٢٩ -	الجريمة	مجموعة قصصية	١٩٧٣
٣٠ -	الكرنك	رواية	١٩٧٤
٣١ -	حكايات حارتنا	رواية	١٩٧٥
٣٢ -	قلب الليل	رواية	١٩٧٥
٣٣ -	حضرة المحترم	رواية	١٩٧٥
٣٤ -	الحرافيش	رواية	١٩٧٧
٣٥ -	الحب فوق هضبة الهرم	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٦ -	الشيطان يعظ	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٧ -	عصر الحب	رواية	١٩٨٠
٣٨ -	أفراح القبة	رواية	١٩٨١
٣٩ -	ليالى ألف ليلة	رواية	١٩٨٢

- ٤٠ - رأيت فيما يرى النائم مجموعة قصصية ١٩٨٢
- ٤١ - الباقي من الزمن ساعة رواية ١٩٨٢
- ٤٢ - أمام العرش (حوار بين الحكام) رواية ١٩٨٣
- ٤٣ - رحلة ابن فطومة رواية ١٩٨٣
- ٤٤ - التنظيم السرى مجموعة قصصية ١٩٨٤
- ٤٥ - العائش فى الحقيقة رواية ١٩٨٥
- ٤٦ - يوم قتل الزعيم رواية ١٩٨٥
- ٤٧ - حديث الصباح والمساء رواية ١٩٨٧
- ٤٨ - صباح الورد مجموعة قصصية ١٩٨٧
- ٤٩ - قشتمر رواية ١٩٨٨
- ٥٠ - الفجر الكاذب مجموعة قصصية ١٩٨٨
- ٥١ - أصداء السيرة الذاتية مجموعة قصصية ١٩٩٥
- ٥٢ - القرار الأخير مجموعة قصصية ١٩٩٦
- ٥٣ - صدى النسيان مجموعة قصصية ١٩٩٩
- ٥٤ - فتوة العطوف مجموعة قصصية ٢٠٠١
- ٥٥ - أحلام فترة النقاهاة مجموعة قصصية ٢٠٠٤



9 789770 930762